

كان التاريخية
ISSN: 2090 - 0449
Universal Impact Factor (UIF).
Impact Factor for Arabic Scientific Journals.
أول
دورية عربية إلكترونية مُحَكَّمة ربع سنوية
متخصصة في البحوث والدراسات التاريخية
تأسست غرة جمادى الأول ١٤٢٩هـ
صدر العدد الأول سبتمبر ٢٠٠٨م
السنة العاشرة
ديسمبر ٢٠١٧ - ربيع اول ١٤٣٩
www.kanhistorique.org
العدد الثامن والثلاثين
ناشري
kanhistorique
ISSN 0209-004X
9 770209 004499
رقمية الموطن عربية الهوية عالمية الأداء

دورية كان التاريخية.- س١٠، ع٣٨ (ديسمبر ٢٠١٧/ ربيع أول ١٤٣٩)

Dawriyyaẗ Kān al-Tārīḫiyyaẗ
Iliktrūniyyaẗ, muḥakkamaẗ , rub' sanawiyyaẗ
Vol. 10, no. 38 [December 2017]
Cairo – Arab Republic of Egypt.
http://www.kanhistorique.org
Information on this issue: www.kanhistorique.org/Archive/2017/Issue38

تصنيف ديوي العشري – مقالات ودراسات ع٣٨ ديسمبر ٢٠١٧

٣٩٨.٢٠٤١	ألف ليلة وليلة
٦١٧.٦٠٠٩	طب الأسنان، المعالجة التاريخية
٩٥٣	التاريخ العام للعرب والمسلمين
٩٥٣.٠٧٤٨	الدولة الرسولية في اليمن
٩٥٥	إيران
٩٦١,٠٣	تاريخ شمال أفريقيا تحت الاحتلال الأوربي
٩٦٤,٠٩	تاريخ المغرب الحديث
٩٦٥	تاريخ الجزائر – الاحتلال والاستقلال

دورية كان التاريخية

إصدار مؤسسة كان التاريخية.- س١، ع١ (سبتمبر ٢٠٠٨).- القاهرة: المؤسسة، ٢٠٠٨ – ٢٠١٧ .

دورية إلكترونية مُحَكَّمة ربع سنوية

متخصصة في البحوث والدراسات التاريخية

ردمد ٠٤٤٩ – ٢٠٩٠

١- تاريخ   ٢- الآثار

٣- التراجم   ٤ - التراث

ديوي ٩٠٥

Historical Kan Periodical
Published by Historical Kan Organization.- Vol.1, no.1 [September 2008].- Cairo: Organization, 2008 – 2017.
Peer-reviewed, open-access journal.
Indexed and abstracted in several international databases.
ISSN: 2090 – 0449 (Online)
Keywords: History, Heritage, Archaeology, Biographies.

أول دورية عربية إلكترونية مُحكّمة ربع سنوية
متخصصة في الدراسات التاريخية
تأسست غرة جمادى الأول ١٤٢٩هـ
صدر العدد الأول منها في سبتمبر ٢٠٠٨م



ISSN: 2090 – 0449 Online

مسجلة ومفهرسة في قواعد البيانات الببليوجرافية العالمية

- Academic Journals Database
- Access to Mideast and Islamic Resources, AMIR
- CORE: Open Access repositories
- Directory of Abstract Indexing for Journals, DAIJ
- Directory of Open Access Scholarly Resources, ROAD
- Directory of Research Journals Indexing, DRJI
- Eurasian Scientific Journal Index
- Google Scholar
- Host Online Research Databases, EBSCO
- Journal Database – Zurich Open Repository and Archive
- JOURNAL FACTOR – forum for promoting research work
- Journal Guide- Research Square
- ROOT INDEXING – Journal abstracting and indexing
- The researchBib Journal database
- Ulrichsweb
- WorldCat

مدرجة في الأدلة الرقمية لمكتبات الجامعات والمراكز البحثية العالمية

- Birmingham Public Library
- Max Planck Institute for the Physics of Complex Systems
- National Cheng Kung University Library
- National Taiwan Normal University Library
- NYPL (New York Public Library)
- OALib - Open Access Library
- OREGON Health & Science University
- San Francisco Public Library
- SAN JOSÉ STATE UNIVERSITY
- Stanford University Libraries & Academic Information Resources
- State Library of New South Wales
- State Library of Queensland (Australia)
- The J. Paul Getty Trust
- The University of Texas at El Paso Library
- Toronto Public Library
- UCDAVIS University Library
- University of California
- University of Michigan
- University of Rochester
- University of South Australia
- Villanova University

دراسات ومقالات الدورية مفهرسة وذات خلاصات

www.kanhistorique.org

أعداد الدورية متوفرة للقراءة عبر:
دار ناشري للنشر الإلكتروني
أول دار نشر إلكترونية عربية مجانية تأسست يوليو ٢٠٠٣ –الكويت
www.nashiri.net



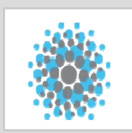
أعداد الدورية متوفرة للقراءة عبر:
أرشيف الإنترنت الرقمي العالمي
منظمة غير ربحية – سان فرانسيسكو – الولايات المتحدة
www.archive.org



مقالات الدورية مفهرسة في:
قاعدة معلومات اللغة والأدب والعلوم الإنسانية
دار المنظومة "الرواد في قواعد المعلومات العربية" – السعودية
www.mandumah.com



مقالات الدورية مفهرسة في:
قاعدة بيانات المنهل
أول قاعدة بيانات عربية تأسست ٢٠١٠ – الإمارات
www.almanhal.com



مقالات الدورية مفهرسة في:
قاعدة البيانات العربية الرقمية "معرفة"
شركة عالم المعرفة للمحتوى الرقمي تأسست ٢٠٠٤ - الأردن
www.e-marefa.net



دورية كان التاريخية مدرجة في:
دليل الدوريات العربية المجانية
الدوريات العلمية المُحكّمة الصادرة في الوطن العربي والمتاحة على شبكة الإنترنت مجاناً
www.dfaj.net



موقع دورية كان التاريخية مسجل لدى:
هيئة الإنترنت للأسماء والأرقام المخصصة
الآيكان منظمة غير ربحية تأسست ١٩٩٨ – كاليفورنيا
www.icann.org



كُتّاب الدورية	404
الدول العربية والأجنبية	25
الجامعات والمؤسسات الأكاديمية والعلمية	128
المقالات والدراسات المنشورة في الدورية	726

المشرف العام

بهاء الدين ماجد

مدير إدارة الخرائط "السابق"

دار الكتب والوثائق القومية المصرية

تعتبر الدوريات شريانًا رئيسًا من شرايين المعلومات في المكتبات ومراكز المعلومات وخاصةً المكتبات الأكاديمية التي تولي اهتمامًا خاصًا للدوريات العلمية في مختلف مجالات المعرفة. ولقد ظلت الدوريات المطبوعة هي السائدة في مقتنيات المكتبات الأكاديمية حتى قبيل نهايات القرن العشرين وقبل التحول الجذري في وسائل نقل المعلومات إلى الوسيط الرقمي الذي يزداد يومًا بعد يوم.

الهيئة الاستشارية

أ.د. بشار محمد خليف	سوريا
أ.د. خالد بلعربي	الجزائر
أ.د. خليف مصطفى غرايبة	الأردن
أ.د. الطاهر جبلي	الجزائر
أ.د. عارف محمد عبد الله الرعوي	اليمن
أ.د. عائشة محمود عبد العال	مصر
أ.د. عبد الرحمن محمد الحسن	السودان
أ.د. عبد العزيز غوردو	المغرب
أ.د. عبد الناصر محمد حسن يس	مصر
أ.د. عطاء الله أحمد فشار	الجزائر
أ.د. علي حسين الشطشاط	ليبيا
أ.د. فتحي عبد العزيز محمد	مصر
أ.د. كرفان محمد أحمد	العراق
أ.د. محمد الأمين ولد أن	موريتانيا
أ.د. محمد عبد الرحمن يونس	سوريا
أ.د. محمود أحمد درويش	مصر
أ.د. ناظم رشم معتوق الأمارة	العراق
أ.د. نهلة أنيس مصطفى	مصر

تحددت مهام أعضاء الهيئة الاستشارية وفق مذكرة تأسيس دورية كان التاريخية في غرة جمادى الأول ١٤٢٩ هجرية، حيث تتكون الهيئة الاستشارية من خبراء ومتخصصين بهدف التعاون مع طاقم عمل الدورية لخدمة البحث العلمي، وتقديم الدعم الفني من خلال تبادل الآراء والمقترحات. والتواصل مع المؤسسات الأكاديمية العربية والأساتذة والباحثين بما يعزز مكانة الدورية في الأوساط العلمية. وتقديم المشورة والنصح في الموضوعات المطروحة من قبل هيئة التحرير. والتعريف بأهداف الدورية، وتشجيع الباحثين على النشر العلمي الرقمي. وتولي مهمة التوصية فيما يتعلق بتطوير الدورية من حيث الشكل والمضمون.

الهيئة العلمية

د. أنور محمود زناتي	مصر
د. عبيدة صبطي	الجزائر
د. هدى المجاطي	المغرب

مدير التحرير

إسراء المنسي

عملت هيئة التحرير ومنذ اليوم الأول على بناء الأرضية الثقافية الرقمية من أجل المساعدة في استحداث وعي ثقافي تاريخي عند الجيل العربي الشاب، وخصوصًا في ما يتعلق بأهمية التاريخ والتراث وارتباطهما المباشر بالهوية العربية والإنتاج الإبداعي الثقافي المستدام

هيئة التحرير

د. الحسين عادل أبوزيد	مصر
د. عبد الرحمن محمد الإبراهيم	الكويت
د. محمد الصافي	المغرب



"كان التاريخية" أول مبادرة عربية مستقلة متخصصة، تدعم مبدأ "المعبر المفتوح" في تداول المعرفة على شبكة الإنترنت بتشجيع النشر الرقمي للدراسات التاريخية. "كان التاريخية" غير هادفة للربح وتتيح نصوصها كاملة على شبكة الإنترنت، وتسعى إلى استيعاب روافد كل الأفكار والثقافات ذات البعد التاريخي.

الإشعار القانوني

دورية كان التاريخية غير مدعومة من أية جهة داخلية أو خارجية أو حزب أو تيار سياسي، إنما هي منبر علمي ثقافي مستقل يعتمد على جهود المخلصين من أصحاب الفكر ومحبي الثقافة الذين يؤمنون بأهمية الدراسات التاريخية.

موضوعات الدورية

الدورية متخصصة في المقالات والدراسات العلمية والأكاديمية البحتة التي تخص أساتذة وطلاب الجامعات العربية، وأصحاب الدراسات العليا، والباحثين في الدراسات التاريخية، والمهتمين بالقراءات التاريخية، وتعبر الموضوعات المنشورة في الدورية عن وجهة نظر كاتبيها، ولا تعبر بالضرورة عن جهة نظر دورية كان التاريخية أو هيئة التحرير.

حقوق الملكية الفكرية

لا تتحمّل دورية كان التاريخية أيّة مسؤوليّة عن الموضوعات الّتي يتم نشرها في الدورية. ويتحمل الكُتاب بالتالي كامل المسؤولية عن كتاباتهم التي تخالف القوانين أو تنتهك حقوق الملكيّة أو حقوق الآخرين أو أي طرف آخر.

حقوق الطبع والنشر والترجمة

جميع حقوق الطبع والنشر الورقي والرقمي والترجمة محفوظة لدورية كان التاريخية، وبموجب الاعتماد والتسجيل الممنوح للدورية يحق لرئيس التحرير اتخاذ الإجراءات القانونية تجاه أي فرد أو مؤسسة أو موقع على شبكة الإنترنت يعيد استخدام محتويات الدورية بدون اتفاقية قانونية.

رخصة التشارك الإبداعي

دورية كان التاريخية مسجلة تحت التراخيص العامة غير التجارية لدى منظمة التشارك الإبداعي في سان فرنسيسكو استنادًا إلى موقعها الإلكتروني. "كان التاريخية" غير تجارية ولا تفرض رسوم على المراجعة والتحكيم والنشر.

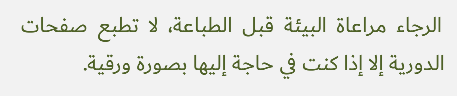
إدارة المعرفة

كَان التَّارِيْخية تعمل بنظام منظمات المعرفة، تدعم قيم التبادل المعرفي، يتعاون فيها الجميع بصفة تطوعية ولغايات غير ربحية، من أجل المحافظة على الهُويّة الثقافية العربية والإسلامية وخصوصًا اللغة العربية كونها الوسيط الرئيس للتواصل وتبادل الأبحاث التاريخية بين البلدان العربية.

علاقات تعاون

ترتبط دورية كان التاريخية بعلاقات تعاون مع عدة مؤسسات عربية ودولية بهدف تعزيز العمل العلمي في المجالات ذات الاختصاص المشترك، وتعظيم الفائدة من البحوث والدراسات التي تنشرها الدورية، وتوسيع حجم المشاركة لتشمل الفائدة كل أنحاء الوطن العربي.







حاصلة على "**معامل التأثير العالمي**" (UIF) للمجلات العالمية والعلمية

حاصلة على "**معامل التأثير العربي**" (AIF) للدوريات العلمية العربية المَحَكَّمة

رئيس التحرير

د. أشرف صالح محمد

أستاذ مساعد تاريخ وتراث العصور الوسطى

كلية الآداب والعلوم الإنسانية – جامعة ابن رشد



The Pottery Workshop, Tangiers
L'Atelier de Poterie, Tanger
Jean Discart (French 1856-1944)

المراسلات

توجه المراسلات والموضوعات المطلوبة للنشر باسم رئيس تحرير دورية كان التاريخية على البريد الإلكتروني:

mr.ashraf.salih@gmail.com

historicalkan
groups/kanhistorique
kanhistorique
kanhistorique.blogspot.com
goodreads.com/kanhistorique
www.kan.nashiri.net



دَّورِيةُ كَان الْتَّارِيْخية

علمية. عالمية. مُحَكَّمَة. ربع سنوية

السياسات والقواعد والإجراءات

ترحب دَّورِيةُ كَان الْتَّارِيْخية بنشر البحوث الجيدة والجديدة المبتكرة في أي من حقول الدراسات التاريخية، أو العلوم المساعدة ذات العلاقة، ويشمل ذلك كل العلوم نظرًا لطبيعة الْتَّارِيْخ كعلم يتناول النشاط الإنساني كافة. مع مراعاة عدم تعارض الأعمال العلمية المقدمة للنشر مع العقائد السماوية، وألا تتخذ أية صفة سياسية، وألا تتعارض مع الأعراف والأخلاق الحميدة، وأن تتسم بالجدّة والأصالة والموضوعية، وتكتب بلغة عربية سليمة، وأسلوب واضح.

سياسات النشر

تسعى دَّورِيةُ كَان الْتَّارِيْخية إلى استيعاب روافد كل الأفكار والثقافات ذات البعد التاريخي، ويسعدها أن تستقبل مساهمات أصحاب القلم من الأساتذة الأكاديميين والباحثين والكُتَّاب المثقفين الأفاضل، ضمن أقسام الدورية: البحوث والدراسات، عروض الكتب، عروض الأطاريح الجامعية، تقارير اللقاءات العلمية.

هيئة التحرير:

- تُعطى الأولوية في النشر للبحوث والعروض والتقارير حسب الأسبقية الزمنية للورود إلى هيئة تحرير الدورية، وذلك بعد إجازتها من هيئة التحكيم، ووفقًا للاعتبارات العلمية والفنية التي تراها هيئة التحرير.
- تقوم هيئة التحرير بالقراءة الأولية للبحوث العلمية المقدمة للنشر بالدورية للتأكد من توافر مقومات البحث العلمي، وتخضع البحوث والدراسات والمقالات بعد ذلك للتحكيم العلمي والمراجعة اللغوية.
- يكتفي بالإجازة من قبل اثنين من أعضاء هيئة التحرير لنشر مراجعات الكتب، والأطاريح الجامعية، وتقارير اللقاءات العلمية.
- يحق لهيئة التحرير إجراء التعديلات الشكلية على المادة المقدمة للنشر لتكن وفق المعيار (IEEE) تنسيق النص في عمودين، مع مراعاة توافق حجم ونوع الخط مع نسخة المقال المعياري.
- تقوم هيئة التحرير باختيار ما تراه مناسبًا للنشر من الجرائد والمجلات المطبوعة والإلكترونية مع عدم الإخلال بحقوق الدوريات والمواقع وذكر مصدر المادة المنشورة.

هيئة التحكيم:

- يعتمد قرار قبول البحوث المقدمة للنشر على توصية هيئة التحرير والمحكمين؛ حيث يتم تحكيم البحوث تحكيمًا سريًا بإرسال العمل العلمي إلى المحكمين بدون ذكر اسم الباحث أو ما يدل على شخصيته، ويرفق مع العمل العلمي المراد تحكيمه استمارة تقويم تضم قائمة بالمعايير التي على ضوئها يتم تقويم العمل العلمي.
- يستند المحكمون في قراراتهم في تحكيم البحث إلى مدى ارتباط البحث بحقل المعرفة، والقيمة العلمية لنتائجه، ومدى أصالة أفكار البحث وموضوعه، ودقة الأدبيات المرتبطة بموضوع البحث وشمولها، بالإضافة إلى سلامة المنهاج العلمي المستخدم في الدراسة، ومدى ملاءمة البيانات والنتائج النهائية لفرضيات البحث، وسلامة تنظيم أسلوب العرض من حيث صياغة الأفكار، ولغة البحث، وجودة الجداول والأشكال والصور ووضوحها.
- البحوث والدراسات التي يقترح المحكمون إجراء تعديلات جذرية عليها تعاد إلى أصحابها لإجرائها في موعد أقصاه أسبوعين من تاريخ إرسال التعديلات المقترحة إلى المؤلف، أما إذا كانت التعديلات طفيفة فتقوم هيئة التحرير بإجرائها.
- تبذل هيئة التحرير الجهد اللازم لإتمام عملية التحكيم، من متابعة إجراءات التعديل، والتحقق من استيفاء التصويبات والتعديلات المطلوبة، حتى التوصل إلى قرار بشأن كل بحث مقدم قبل النشر، بحيث يتم اختصار الوقت اللازم لذلك إلى أدنى حد ممكن.
- في حالة عدم مناسبة البحث للنشر، تقوم الدورية بإخطار الباحث بذلك. أما بالنسبة للبحوث المقبولة والتي اجتاز ت التحكيم وفق الضوابط العلمية المتعارف عليها، واستوفت قواعد وشروط النشر بالدورية، فيُمنح كل باحث إفادة بقبول بحثه للنشر.
- تقوم الدورية بالتدقيق اللغوي للأبحاث المقبولة للنشر، وتقوم هيئة التحرير بعد ذلك بمهمة تنسيق البحث ليخرج في الشكل النهائي المتعارف عليه لإصدارات الدورية.

قَوَاعِدُ النَّشْرِ

البحوث والدراسات العلمية

تقبل الأعمال العلمية المكتوبة باللغتين العربية والإنجليزية التي لم يسبق نشرها أو تقديمها للنشر في مجلة إلكترونية أو مطبوعة أخرى.

تقبل البحوث والدراسات المنشورة من قبل في صورة ورقية، ولا تقبل الأعمال التي سبق نشرها في صورة رقمية: مدونات/ منتديات/ مواقع/ مجلات إلكترونية، ويستثنى من ذلك المواضيع القيمة حسب تقييم رئيس التحرير.

يجب أن يتسم البحث العلمي بالجَوْدَة والأصالة في موضوعه ومنهجه وعرضه، متوافقًا مع عنوانه.

التزام الكاتب بالأمانة العلمية في نقل المعلومات واقتباس الأفكار وعزوها لأصحابها، وتوثيقها بالطرق العلمية المتعارف عليها.

اعتماد الأصول العلمية في إعداد وكتابة البحث من توثيق وهوامش ومصادر ومراجع، مع الالتزام بعلامات الترقيم المتنوعة.

إرشادات المؤلفين [الاشتراطات الشكلية والمنهجية]

ينبغي ألّا يزيد حجم البحث على ثلاثين (٣٠) صفحة، مع الالتزام بالقواعد المتعارف عليها عالميًا بشكل البحوث، بحيث يكون المحتوى حسب التسلسل: ملخص، مقدمة، موضوع البحث، خاتمة، ملاحق: (الأشكال/ الجداول)، الهوامش، المراجع.

- **عنوان البحث:**
يجب أن لا يتجاوز عنوان البحث عشرين (٢٠) كلمة، وأن يتناسب مع مضمون البحث، ويدل عليه، أو يتضمن الاستنتاج الرئيس.
- **نبذة عن المؤلف (المؤلفين):**
يقدم مع البحث نبذة عن كل مؤلف في حدود (٥٠) كلمة تبين آخر درجة علمية حصل عليها، واسم الجامعة (القسم/ الكلية) التي حصل منها على الدرجة العلمية والسنة. والوظيفة الحالية، والمؤسسة أو الجهة أو الجامعة التي يعمل لديها، والمجالات الرئيسة لاهتماماته البحثية. مع توضيح عنوان المراسلة (العنوان البريدي)، وأرقام (التليفون- الموبايل/ الجوال- الفاكس).
- **صورة شخصية:**
ترسل صورة واضحة لشخص الكاتب لنشرها مع البحث، كما تستخدم بغرض إنشاء صفحة للكاتب في موقع الدورية على شبكة الإنترنت.
- **ملخص البحث:**
يجب تقديم ملخص للبحوث والدراسات باللغة العربية في حدود (٢٥٠ - ٣٠٠) كلمة.
البحوث والدراسات باللغة الإنجليزية، يرفق معها ملخص باللغة العربية في حدود (١٥٠ - ٢٠٠) كلمة.
- **الكلمات المفتاحية:**
الكلمات التي تستخدم للفهرسة لا تتجاوز عشرة كلمات، يختارها الباحث بما يتواكب مع مضمون البحث، وفي حالة عدم ذكرها، تقوم هيئة التحرير باختيارها عند فهرسة المقال وإدراجه في قواعد البيانات بغرض ظهور البحث أثناء عملية البحث والاسترجاع على شبكة الإنترنت.
- **مجال البحث:**
الإشارة إلى مجال تخصص البحث المرسل "العام والدقيق".
- **المقدمة:**
تتضمن المقدمة بوضوح دواعي إجراء البحث (الهدف)، وتساؤلات وفرضيات البحث، مع ذكر الدراسات السابقة ذات العلاقة، وحدود البحث الزمانية والمكانية.
- **موضوع البحث:**
يراعي أن تتم كتابة البحث بلغة عربية سلمية واضحة مركزة وبأسلوب علمي حيادي. وينبغي أن تكون الطرق البحثية والمنهجية المستخدمة واضحة، وملائمة لتحقيق الهدف، وتتوفر فيها الدقة العلمية. مع مراعاة المناقشة والتحليل الموضوعي الهادف في ضوء المعلومات المتوفرة بعيدًا عن الحشو (تكرار السرد).
- **الجداول والأشكال:**
ينبغي ترقيم كل جدول (شكل) مع ذكر عنوان يدل على فحواه، والإشارة إليه في متن البحث على أن يدرج في الملاحق. ويمكن وضع الجداول والأشكال في متن البحث إذا دعت الضرورة إلى ذلك.
- **الصور التوضيحية:**
في حالة وجود صور تدعم البحث، يجب إرسال الصور على البريد الإلكتروني في <ملف منفصل> على هيئة (JPEG)، حيث أن وضع الصور في ملف الكتابة (Word) يقلل من درجة وضوحها (Resolution)
- **خاتمة (خلاصة):**
تحتوي على عرض موضوعي للنتائج والتوصيات الناتجة عن محتوى البحث، على أن تكون موجزة بشكل واضح، ولا تأتي مكررة لما سبق أن تناوله الباحث في أجزاء سابقة من موضوع البحث.
- **الهوامش:**
يجب إدراج الهوامش في شكل أرقام متسلسلة في نهاية البحث، مع مراعاة أن يذكر اسم المصدر أو المرجع كاملاً عند الإشارة إليه لأول مرة، فإذا تكرر يستخدم الاسم المختصر، وعلى ذلك فسوف يتم فقط إدراج المستخدم فعلاً من المصادر والمراجع في الهوامش. يمكن للباحث إتباع أي أسلوب في توثيق الحواشي (الهوامش) بشرط التوحيد في مجمل الدراسة، وبإمكان الباحث استخدام نمط American Psychological Association " APA" الشائع في توثيق الأبحاث العلمية والتطبيقية، حيث يُشار إلى المرجع في المتن بعد فقرة الاقتباس مباشرةً وفق الترتيب التالي: (اسم عائلة المؤلف، سنة النشر، رقم الصفحة)، على أن تدون الإحالات المرجعية كاملة في نهاية البحث.
- **المراجع:**
يجب أن تكون ذات علاقة فعلية بموضوع البحث، وتوضع في نهاية البحث، وتتضمن قائمة المراجع الأعمال التي تم الإشارة إليها فقط في الهوامش، أي يجب ألا تحتوي قائمة المراجع على أي مرجع لم تتم الإشارة إليه ضمن البحث. وترتب المراجع طبقًا للترتيب الهجائي، وتصنف في قائمة واحدة في نهاية البحث مهما كان نوعها: كتب، دوريات، مجلات، وثائق رسمية، ...الخ، ويمكن للباحث إتباع أي أسلوب في توثيق المراجع والمصادر بشرط التوحيد في مجمل الدراسة.

قَوَاعِدُ النَشَر

حقوق المؤلف

- المؤلف مسئول مسئولية كاملة عما يقدمه للنشر بالدورية، وعن توافر الأمانة العلمية به، سواء لموضوعه أو لمحتواه ولكل ما يرد بنصه وفى الإشارة إلى المراجع ومصادر المعلومات.
- جميع الآراء والأفكار والمعلومات الواردة بالبحث تعبر عن رأى كاتبها وعلى مسئوليته هو وحده ولا تعبر عن رأى أحد غيره، وليس للدورية أو هيئة التحرير أية مسئولية في ذلك.
- ترسل الدورية لكل صاحب بحث أُجيز للنشر، نسخة من العدد المنشور به البحث، ومستلة من البحث على البريد الإلكتروني.
- يحق للكاتب إعادة نشر البحث بصورة ورقية، أو إلكترونية بعد نشره في الدورية دون الرجوع لهيئة التحرير، ويحق للدورية إعادة نشر المقالات والبحوث بصورة ورقية لغايات غير ربحية دون الرجوع للكاتب.
- يحق للدورية إعادة نشر البحث المقبول منفصلاً أو ضمن مجموعة من المساهمات العلمية الأخرى بلغتها الأصلية أو مترجمة إلى أية لغة أخرى، وذلك بصورة إلكترونية أو ورقية لغايات غير ربحية.
- لا تدفع المجلة أية مكافآت مالية عمّا تقبله للنشر فيها، ويعتبر ما ينشر فيها إسهامًا معنويًا من الكاتب في إثراء المحتوى الرقمي العربي.

قواعد عامة

تُرسل كافة الأعمال المطلوبة للنشر بصيغة برنامج مايكروسوفت وورد Word ولا يلتفت إلى أي صيغ أخرى.

المساهمون للمرة الأولى من أعضاء هيئة التدريس بالجامعات يرسلون أعمالهم مصحوبة بسيرهم الذاتية العلمية "أحدث نموذج" مع صورة شخصية واضحة (High Resolution).

ترتب الأبحاث عند نشرها في الدورية وفق اعتبارات فنية لا علاقة لها بمكانة الباحث أو قيمة البحث.

عروض الكتب

- تنشر الدورية المراجعات التقييمية للكتب "العربية والأجنبية" حديثة النشر. أما مراجعات الكتب القديمة فتكون حسب قيمة الكتاب وأهميته.
- يجب أن يعالج الكتاب إحدى القضايا أو المجالات التاريخية المتعددة، ويشتمل على إضافة علمية جديدة.
- يعرض الكاتب ملخصًا وافيًا لمحتويات الكتاب، مع بيان أهم أوجه التميز وأوجه القصور، وإبراز بيانات الكتاب كاملة في أول العرض: (اسم المؤلف/ المحقق/ المترجم، الطبعة، الناشر، مكان النشر، سنة النشر، السلسلة، عدد الصفحات).
- ألا تزيد عدد صفحات العرض عن (١٢) صفحة.

عروض الأطاريح الجامعية

- تنشر الدورية عروض الأطاريح الجامعية (رسائل الدكتوراه والماجستير) التي تم إجازتها بالفعل، ويُراعى في الأطاريح (الرسائل) موضوع العرض أن تكون حديثة، وتمثل إضافة علمية جديدة في أحد حقول الدراسات التاريخية والعلوم ذات العلاقة.
- إبراز بيانات الأطروحة كاملة في أول العرض (اسم الباحث، اسم المشرف، الكلية، الجامعة، الدولة، سنة الإجازة).
- أن يشتمل العرض على مقدمة لبيان أهمية موضوع البحث، مع ملخص لمشكلة (موضوع) البحث وكيفية تحديدها.
- ملخص لمنهج البحث وفروضه وعينته وأدواته، وخاتمة لأهم ما توصل إليه الباحث من نتائج.
- ألا تزيد عدد صفحات العرض عن (١٥) صفحة.

تقارير اللقاءات العلمية

- ترحب الدورية بنشر التقارير العلمية عن الندوات، والمؤتمرات، والحلقات النقاشية (سيمنار) الحديثة الانعقاد في دول الوطن العربي، والتي تتصل موضوعاتها بالدراسات التاريخية، بالإضافة إلى التقارير عن المدن والمواقع الأثرية، والمشروعات التراثية.
- يشترط أن يغطي التقرير فعاليات اللقاء (ندوة / مؤتمر/ ورشة عمل/ سيمنار) مركزًا على الأبحاث العلمية، وأوراق العمل المقدمة، ونتائجها، وأهم التوصيات التي يتوصل إليها اللقاء.
- ألا تزيد عدد صفحات التقرير عن (١٠) صفحات.

الإصدارات والتوزيع

- تصدر دَّورِيةُ كَان التَّارِيْخية أربع مرات في السنة:
- (مارس– يونيو – سبتمبر – ديسمبر).
- الدورية متاحة للقراءة والتحميل عبر موقعها الإلكتروني على شبكة الإنترنت.
- ترسَل الأعداد الجديدة إلى كُتَّاب الدورية على بريدهم الإلكتروني الخاص.
- يتم الإعلان عن صدور الدورية عبر المواقع المتخصصة، والمجموعات البريدية، وشبكات التواصل الاجتماعي.

المراسلات

- تُرسَل الاستفسارات والاقتراحات للبريد الإلكتروني:

  info@kanhistorique.org
- تُرسَل الأعمال المطلوبة للنشر إلى رئيس التحرير:

  mr.ashraf.salih@gmail.com

مُحْتَوَيَاتُ الْعَدَدِ

ISSN: 2090 – 0449 Online
UIF Universal Impact Factor, [0.1101].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [0.88].

هندسة التاريخ
تجريبية المعنى ومعنى التجريبية
استعادة الراهن وعقلنة المستقبل



أ.د. عبد العزيز غوردو
أستاذ تاريخ الإسلام والحضارة
المركز التربوي الجهوي
وجدة - المملكة المغربية

مُلَخّص

نفتح في هذا الملف موضوعًا قد لا يروق عددًا من المشتغلين بحقل التاريخ، أو المنشغلين به، لأنهم ركنوا - بحكم العادة والتكرار - إلى ما أنسوا إليه فاطمأنوا؛ لكن ألا تكون العادة في كثير من الأحيان مجرد "بدعة"، عادة "سيئة" أدمنّا عليها، فباتت عصيّة على الإقلاع؟ هل يقع وزرها، ووزر مَنْ عمل بها، على مَنْ ابتدعها أول مرة، أم أننا جميعا شركاء في "الإثم"؟ ما اجترحناه في حق التاريخ، بعد أن سجنّاه في الماضي، يحتاج إلى "توبة"/ ثورة منهجية تصالحه مع مضمونه، بما هو علم، وتصالح المشتغلين بحرفته، بما هم مؤرخون، وتعيد لهما معًا (التاريخ والمؤرخ توازنهما) في مواجهة السؤال الأكسيولوجي، الذي يواجه كل علم، إن هو أراد مساحة تحت شمس الألفية الجديدة. يتطلب ذلك إذن أن نكف عن التفكير - قطيعة -كما جرت به "العادة" بقدر ما يستدعي "مراجعة" (بما تعنيه الكلمة ميتودولوجيا) ما راكمته هذه المعرفة التاريخية، والفلسفة - التاريخية بالذات، من أدوات منهجية لتحليل محتوى "علم" التاريخ و"حرفة" المؤرخ؛ حيث تنتهي بنا المفردة/ "علم" إلى تحليل مفهوم "التجريبية"؛ فيما تردنا "حرفة" المؤرخ إلى مراجعة معنى "التاريخ" (مفهوم الحدث/ الزمكان)، الماضي قبل الاستقرار في قارة الراهن والمستقبل.

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث: ٠٢ مايو ٢٠١٦
تاريخ قبـول النشـر: ٢٦ أغسطس ٢٠١٦

كلمات مفتاحية:

علم التاريخ، المؤرخ، التجريبية التاريخية، الإرادة الحرة، التخاطب العلمي

معرِّف الوثيقة الرقمي: DOI 10.12816/0047280

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

عبد العزيز غوردو. "هندسة التاريخ، تجريبية المعنى ومعنى التجريبية: استعادة الراهن وعقلنة المستقبل".- دورية كان التاريخية.- السنة العاشرة- العدد الثامن والثلاثين؛ ديسمبر ٢٠١٧. ص ١٠ – ٢٥.

مُقَدِّمَةُ

كأن ابن خلدون بتعريفه الشهير للتاريخ: "إذ هو في ظاهره لا يزيد على إخبار عن الأيام والدول، والسوابق من القرون الأول..."[١] قد ألقى على المؤرخين سحرًا فما عادوا يرون فيه غير الماضي؛[٢] والحال أن التاريخ يدرس الحدث في الزمن بإطلاق، فلا يختص حدثًا بعينه، ولا يختص زمنًا أيضًا، حيث الزمن نفسه حادث فيه،[٣] وحيث "حقيقة الوقت... حادث متوهم (وقوعه في المستقبل)، علق حصوله على حادث متحقق (وقوعه فيه)، فالحادث المتحقق وقت للحادث المتوهم."[٤]

قد يدرس الفيزيائي "الزمن" أيضًا، لكن منظورًا إليه من وجهة نظر فيزيائية، في علاقته بـ"المكان" وكيفية تمظهره الواقعي؛ ويتوقف عندما يبدأ الحديث عن الزمكان في علاقته بالحدث، أي ظهور الحدث وتطوره زمكانيًا، لأن هذا مجال المؤرخ؛ وكما أنه ليس ضروريًا أن يدرس الفيزيائي ماضي الفيزياء حتى يكون فيزيائيًا، فليس عليه أن يدرس مستقبله أيضًا، لأنه يقع خارج "مختبره"؛ والشيء نفسه يقال عن تاريخ العلوم الأخرى: لا يحتاج الرياضي لمعرفة تاريخ الرياضيات حتى يكون رياضيًا، ولا البيولوجي أو عالم المناخ أيضًا[٥]. إذا أردنا أن نكتب تاريخ المناخ، مثلاً، من زاوية الهندسة التاريخية، ينبغي أولا الالتفات إلى الماضي، لحصر التغير بناء على حجج وشهادات من الماضي،

تفضي إلى ارتفاع الحرارة "الاحتباس الحراري" راهنا/ الحاضر؛ من أجل "هندسة الحدث" بوضع تصور/ سيناريو للمستقبل؛ دون أن يعني ذلك بأنه سيقع كذلك بالضرورة. ماذا يدرس الجغرافي إذن؟ يدرس المناخ من زاوية تقنية صرف: توزيع الحرارة؛ الضغوط؛ التساقطات؛ النطاقات المناخية...؛ لا يدرس المناخ في الماضي؛ يقول: هذا شأن التاريخ؛ لذا لا ينبغي أن يدرسه في المستقبل، لأن هذا شأن التاريخ أيضًا، ذلك أن تطور الحدث، أي حدث، في الزمن هو "لعبة" المؤرخ.

"التاريخ علم الماضي"! كأنك ترفع "التاريخ من أجل التاريخ" شعارًا لبرناسية Parnassien مُفلسة؛ فكيف، ومتى، بل ولماذا حصل الانعطاف في مفهوم التاريخ، فتم سجنه (بالذات في الجامعات/ مكان الانشغال الأول بموضوعه) في "الماضي"[٦] علما بأن كتب الحوليات – حتى الكلاسيكية منها – كانت تنتهي بزمانها، حيث يتحلل المؤلَّف عادة في أيام المؤلِّف؟ ونحن دائمًا نقوم بالمفاضلة بين "المصدر" و"المرجع" مرجحين كفة الأول عن الثاني؛ وهذا يعني بالضرورة أننا نفضل المؤرخ الذي يكتب "عصره/ زمانه"!؟

لم يبحث هيرودوتس Herodotus الماضي بقدر ما بحث زمنه؛ كان أخباريًا وجغرافيًا ورحالة؛ وكذلك كان من تبعوه: توقديدس Thoukudídēs (عاصر وكتب حرب البيلوبونيز)؛ وتيتوس ليفيوسTitus Livius (كتب تاريخ روما وأسهب في التفاصيل كلما عاصر الأحداث أو اقترب منها)؛ وصولاً إلى الطبري وابن خلدون والناصري... دعونا نعلن منذ البداية إذن بأن كثيرًا من العلوم التي خرجت من جُبّة التاريخ: خاصةً العلوم السياسية[٧] وما تفرع عنها من علاقات دولية ومستقبليات، وغيرها مما يبحث في المتحقق والمتوهم من أحداث،[٨] قد حان الوقت لعودتها إليه حتى في، بل بالذات في، التصنيف الأكاديمي الجامعي.

في سنة ١٩٧٧ تنبه زريق[٩] لـ"صناعة مستقبل" عربي مشتهى؛ لكن بقدر ما توسل محددات منطقية لهذه الصناعة، عبر صناعة "المجتمع العلمي"، بقدر ما سقط في خطاب الوعظ والإرشاد الذي ناشد الأنظمة العربية بالأخذ بأسباب التقدم (أي العلم)، وبشرها بالآفاق التي يفتحها، وكأن الحاجة إلى "العلم" ما زالت بحاجة إلى إقامة الدليل على ضرورتها، وليخلص أخيرًا إلى نبوءة سعيدة مشروطة بالعلم، تتكئ على عبارة مبهمة لَمَنْ أراد أن يريح ويستريح: "روح العصر"؟!

بعد ذلك بسنوات كتبنا موضوعا عنوانه "من التاريخ إلى هندسة التاريخ"،[١٠] لاقى صدى طيبًا في أوساط زملائنا الأساتذة والمهتمين بالشأن التاريخي عمومًا؛ اقترح علينا بعضهم أن نُطوِّر النقاش حول بعض القضايا التي ظلت غامضة في الموضوع، والواقع أننا عندما فكرنا فيه أصلا، لم نفكر فيه ليكون مقالا منعزلا، بل حلقة في سلسلة من المواضيع، تحاول أن تعيد للتاريخ صوابه وهدفه، وبالتالي قيمته الحقيقية. تحدثنا آنذاك عن الشبه الحاصل بين الهندسة الوراثية وهندسة التاريخ، قلنا إن التاريخ كان أعمى لكن لقاءه بالهندسة جعله يرتد بصيرًا. قدمنا مثالاً عن الحالة العراقية/ الأمريكية آنذاك وكان تصورنا لها شبه مطابق لما سيجري لاحقًا (بعد أربع سنوات).

في هذا الموضوع سنحاول أن نقدم تصورنا للهندسة التاريخية، انطلاقًا من تصورنا للتجريبية في مجال العلوم (الموسومة بــ"الحقة" والإنسانية)، وخصوصًا التاريخ، وربطها بفعل التخطيط والتنفيذ للحدث (صناعته)، بغية التنظير والمَفهمة لما يرد عادة تحت مسميات مختلفة (مراكز التخطيط؛ المستقبليات؛ معاهد الدراسات الاستراتيجية...)؛ وكذا إعادة النظر في مهنة المؤرخ، أكاديميا، أي باختصار "هندسة التاريخ" (الإنسان بما هو صانع الحدث؛ والمؤرخ بما هو ناظر فيه وفي مستقبله)؛ ذلك أن الحاضر ليس نتاجًا للماضي، كما كنا نعتقد، بل هو نتاج المستقبل أيضا، لأننا لا نتصرف في ضوء تراكمات الماضي فقط بل نأخذ في الحسبان اعتبارات المستقبل كذلك، أو ربما أكثر من ذلك.

نُذكِّر أولاً بأن المقولة المحورية الأساس، لتحقّق ذلك، لا تكمن في مجرد الوعي بالماضي (أو ما اصطلح عليه منذ مدة: مع هيغل وماركس، مع غرامشي ولوكاش... بالوعي التاريخي)؛[١١] بل تتجاوز ذلك إلى فعل التحكم وتعديل الحدث/ التاريخ. بعبارة أخرى: ألا يبقى الكائن البشري مجرد منفعل بالأحداث، في سهو وغفلة، ينتظر مصيره أو قدره الأعمى، ينظر للأحداث على أنها أقدار، وقائع عمياء مفروضة دائما، بل يجتهد، في شروطه، ليضع السيناريوهات الممكنة التحقق، حتى لو خانته هذه السيناريوهات أحيانا.

في هذا الموضوع إذن نريد أن نغامر بتعطيل بلازما الزمن إلى أقصى حد،[١٢] لفهم ما يجري، تماما كما يحصل بعد عبور "أفق الحدث" داخل ثقب أسود، لنمسك التقاطع بين "التاريخ" و"الهندسة"؛ لكن، ورغم أن موضوعنا يتكئ على النقاش الدائر في حقل الممارسة الفلسفية للعلوم التجريبية – بما أن مجرد إثارة اللفظة/ التجريبية يحيل بالضرورة عليها – إلا أننا لا نريد له أن يتحول إلى حالة من التماهي الكامل مع أي علم تجريبي آخر، لسبب بسيط هو أنه ليس أي علم تجريبي آخر، بل هو "علم التاريخ"، والتجريبية التي نرتضيها له، لن تكون تجريبية البيولوجيا أو الفيزياء أو الجيولوجيا... بل تجريبية التاريخ؛ وتؤسس لثورة منهجية تغير تاريخا يريدون له أن يكون داجنا: أي أن نربطه بالغاية، والغاية عندنا هي الهندسة/ "هندسة التاريخ"، على المستويين النظري والملموس (موضوع التاريخ ومهنة المؤرخ).

أولاً: المَفْهَمة

١/١-في معنى التجريبية:

يتفق العلماء، كما هو معلوم، على أن العلوم "التجريبية" يجب أن تتوافر فيها ثلاث خطوات أساس (قد يضيف لها بعضهم خطوات ثانوية).

- الملاحظة التي ترتبط بالمشاهدات وتسجيل الإشكاليات والفرضيات.
- التجربة، ومن المستحسن أن تتكرر عدة مرات، كما يستحسن أيضًا أن يجريها علماء آخرون في البيئة نفسها، أو في ظروف مغايرة، تبعًا للأهداف المسطرة لها.
- الاستنتاج، أي ضبط النتيجة، أو النتائج، التي حصلت على أكبر قدر من الدقة والثبات والاستمرارية، لأخذها خلاصة عامة، قد يتولد عنها اكتشاف أو نظرية أو قاعدة عامة، لكن يجب الاحتفاظ دائمًا على هامش من النسبية، لأن الأمر قد لا يخلو من تخمينات وتأويلات في أحيان كثيرة، أو ما نقترح تسميته "بالمنطقة المظلمة"، وهذا ليس أمرًا مخجلا، فلكل علم "منطقته المظلمة" الخاصة.

اعتماد منهج التجربة بإطلاق يحيل مباشرة على المنطق الاستقرائي، بينما تحيل التجريبية، كما نفهمها وكما تفهمها معظم العلوم راهنا، على المنطق الاستنباطي. وغني عن البيان التذكير بتفوق المنطق الاستقرائي وأفضليته على الاستنباطي، لكن استحالة تطبيقه في جميع الحالات – بالنظر إلى استحالة تعميم التجربة – تجعله قاصرًا: استحالة تعميم التجربة هي الصاوية التي ينثني عندها المنطق، وخلفه باقي العلوم، مرتدا من الاستقراء نحو الاستنباط. مع التنبيه إلى أن العلم الحديث (التجريبي بالذات) الذي قام على إقصاء كل أشكال "السلطة"، خاصة التي تقوم على القبليات، تحول بدوره إلى سلطة[١٣]، بالذات عندما يعجز عن إيجاد الأجوبة الملائمة للقضايا والمشاكل، فيقدم تخمينات يحاول فرضها على الآخرين بحكم "السلطة" التي منحها لنفسه.[١٤]

تدرس الجيوديزيا (فرع من العلوم "الحقة" بامتياز) مثلا، تحركات الصهارة والزلازل والبراكين...؛ تسجل أجهزة السيسموغراف الإلكترونية كل ما يهز الليتوسفير حتى ليخيل إليك أنه ما من دابة على الأرض إلا وتقيس وطأتها؛ تسجلها، وتقيسها، وتقدر حجم أضرارها... لكن ماذا بعد الوصف، بل الوصف الدقيق المغرق في الجزئيات والتفاصيل؟ هل تستطيع الجيوديزيا، بكل ما أوتيته من تجريبية، أن تزعم لنفسها بأنها قادرة على توقع الهزة الأرضية الموالية "بأوكيناوا"؟ ومتى سينفجر بركان "إيتنا" (صقلية) من جديد؟[١٥] وهذا السؤال العالق يؤسس بالتأكيد لأسئلة عالقة أخرى، بما أن النظام الإيكولوجي نظام مترابط.

في سنة ١٩٩١ مثلا ثار بركان "بيناتوبو" بالفلبين، قاذفا عشرات الآلاف من الأطنان من الغبار البركاني نحو طبقة التروبوسفير، ما حجب أشعة الشمس على أقاليم شاسعة عدة أيام، وانعكس بالتالي على مناخ السنة الموالية لمجموع الكرة الأرضية. والشيء نفسه كان قد حدث عندما ثار بركان "تامبورا" (إندونيسيا) سنة ١٨١٥، وقبل ذلك بحوالي ٣٠ سنة (بالضبط في ١٧٨٣ – ١٧٨٤) انفجرت سلسلة من البراكين (١٣٠ فوهة على امتداد ٢٥ كلم) عُدّت الأكبر في التاريخ بوسط أيسلندا (بركان "لاكي")، حيث قذفت نحو الفضاء ١٤ كلم٣ من مقذوفات البازلت، والرماد البركاني والغازات السامة، مما أدى إلى تفشي الأوبئة بين المواشي وانتشار آلام المفاصل والتشوهات الخلقية وتقلص عدد سكان أيسلندا بـ٢٤%.

ما يحدث إذن من زلازل وانفجارات بركانية يؤثر حتمًا على التضاريس والجو والمناخ والتربة والحيوان والإنسان... أي أن الجيولوجيا تؤثر، فعلاً، على الجيومورفولوجيا والبيولوجيا وعلم المناخ والطب والصيدلة والجغرافيا... والتاريخ![١٦] ومع كل هذا نظل لا نعلم متى ستهتز الأرض من جديد، أو متى سيثور البركان من جديد أيضًا؟[١٧]

تقترح علينا الجيوفيزياء، دون أية أدلة مخبرية تجريبية، بل لمجرد افتراضات وتخمينات، نموذجا تركيبيا للأرض من نواة ومعطف وقشرة، وتدخل بنا في متاهات البذرة وانقطاع "موهو"[١٨] ودوامات الحمل الحراري... فيعتقد البعض أن الأمور أصبحت "حقائق" مسلما بها!؟

ويدخل بنا الفلك في متاهات الثقوب السوداء والكون الأحدب والانفجار الكبير... فلا نعود نميز بين الحقيقة العلمية والواقع الافتراضي...

ونقرأ تاريخ الرياضيات[١٩] فندرك مدى الارتباك الذي مرت به خلال تاريخها الحديث والمعاصر، إلى درجة أنه في وقت من الأوقات (نهاية القرن ١٨م) شكك الرياضيون الكبار، بنبرة متشائمة حزينة، في مستقبلها وانغلاق أفقها، بل وفكروا في التخلي عنها والتوجه نحو علوم أخرى (خاصة الفيزياء والكيمياء)؛ هذا كان شأن Lagrange وD'Alembert ومن بعدهما Jean-Baptiste Delambre وآخرين[٢٠]؛ وقبل ذلك كانت قد وقعت في مآزق تجاوزتها بصعوبة[٢١]؛ كما ستقع في مآزق أشد تعقيدا وإرباكا في القرن ٢٠م، مع نظرية المجموعات والأكسيوماتيك...[٢٢]

في منتصف القرن الماضي كتب هيتين Heyting[٢٣] بأن معظم الرياضيين أصبحوا مقتنعين بأن المعطيات الرياضية التي يبحثون فيها لم تعد تعبر عن الواقع تماما[٢٤]؛ لكن هل

يعني ذلك أنها كفّت عن أن تكون ممارسة ذهنية حرة، تسعى لتغيير هذا الواقع الذي تدرك إبستيمولوجيتها بأنها لا تعبر عنه فعلا؟ أليس للرياضيات قدرة تضمينية على نمذجة حتى قضاياها الأكثر نظرية وتحويلها لمنتوج واقعي نفعي، عبر ممارسات التقانة؟

ما ينبغي الاحتفاظ به أن هذه طبيعة العلوم وهذا شأنها؛ ليس عيبا أن تنغلق أمامها الآفاق في لحظة حالكة سوداء، بل العيب في التسليم بالعجز عن قدرة تجاوز هذه اللحظات. ما ينبغي الاحتفاظ به، ثانيا، أن لكل علم تجريبيته إذن، وبما أن لكل تجريبيته فلكل "مختبره" أيضا: مختبر الكيميائي الدورق والسحاحة والمحاليل...؛ ومختبر الرياضي السبورة والطباشير (وما شاكلهما: ورقا كان أم حاسوبا)؛ ومختبر البيولوجيا التطورية مستحثات الكائنات العضوية؛ ومختبر الجيولوجيا عينات الصخور؛ ومختبر التاريخ الوثائق والشواهد... وكما أن لكل علم مختبره، فلكل علم أيضا طرائقه في التجربة، وليس من حق أي علم أن يفرض منهجه في التجارب على باقي العلوم. لقد انتهى عصر اعتبار التجربة وحدها التي تعتمد الإنبيق والمحاليل؛ ولذلك فعندما أقول: "جميع الدول تنهار مع الزمن" فهذه قاعدة تتأسس على تجربة استنباطية، تمامًا كقولنا: "جميع المعادن تتمدد بالحرارة"، ففي الحالتين معا نفترض صحتهما إلى أن يثبت العكس.

تأسيسًا على ما سبق؛ فإن المبالغة في الاعتماد على التجربة، في مفهومها الضيق، لن يؤدي إلا إلى تقديسها، كما أنه قد يوقعنا في شرك "التجريبية الميكانيكية"، التي يؤخذ عليها أنها تقلل من أهمية دور التجريدات والنظريات العلمية في المعرفة؛ فضلاً عن أنها تنكر الدور الإيجابي والاستقلال النسبي للفكر، ومن ثم فهي تجسد المبالغة الميتافيزيقية لدور التجربة.

لايبنتز Leibniz، واضع المنطق الرياضي، يكفر بالتجربة الحسية كمصدر لكلية المعرفة وضرورتها: لندع فسحة للعقل كي يكون مصدرا للمعرفة شريطة أن يتميز بالوضوح وعدم التناقض، يقول في كتابه الذي نشر بعد موته بمدة طويلة؛[٢٥] ألا نكون هنا بصدد شرعنة الذاتية؟ - سنعود إلى نقاش العلاقة: الذاتية/ الموضوعية لاحقًا – لكن لنقارب الموضوع، مبدئيا، من خلال "الذاتية الانتقائية" عند إدنغتون[٢٦] Eddington، حيث يمكن استنباط عدد من القوانين العلمية دونما حاجة للتجربة، أي تجربة؛ بل ما بال بوانكاريه[٢٧] Poincaré، أحد رواد التيار الحدسي البنائي، يجعل قوانين العلم مجرد قناعات تعسفية لا علاقة لها بالعالم الواقعي أصلا!

إن أي فهم "ميكانيكي" للتجربة يوقعنا، عن وعي أو غير وعي، في فخ "التجريبية الميكانيكية"؛ ما سينتهي بنا إلى تسطيح "التجربة"، أو نوع من مصادرة لوك Locke: "ليس هناك شيء في العقل لم يكن من قبل في الحواس."[٢٨] إلا إذا طعّمنا المصادرة بحقنة لايبنتز Leibniz "باستثناء العقل نفسه."[٢٩]

٢/١-الذاتية مقابل الموضوعية:

لنا عينان نبصر بهما، وما لا ننتبه إليه غالبا هو أن لكل عين زاوية رؤية مختلفة عن الأخرى. يمكنك أن تضع أصبعك أمامك ثم تغلق إحدى عينيك، وفي الوقت الذي تعيد فيه فتحها تغلق العين الثانية، ثم كرر العملية عدة مرات... سترى أن أصبعك يتحرك: أصبع واحدة وزاويتا رؤية مختلفتان. ما نريد قوله هو أن الشخص الواحد يمكنه أن يرى الموضوع الواحد من خلال أكثر من زاوية، فما بالك لو كان الأمر يتعلق بأكثر من شخص؟

نعرف أن "الذات" هي الإنسان المتمتع بالوعي والإرادة، وأن "الموضوع" هو المستقل عن الذات، الذي تؤدي إليه المعرفة؛ مع أن الذات يمكنها أيضا أن تتحول إلى موضوع تؤدي إليه المعرفة. من هنا فالتاريخ يجري خارج الذات، رغم أن للذات أثرا فيه، يصغر ويكبر وفق قدرة الذات على تفعيل "محور السلطة"[٣٠] داخل الجماعة؛ وعليه فرجل الدين والبرلماني ورئيس الدولة والفاعل الاقتصادي الكبير... لهم من التأثير أكثر مما لغيرهم من عامة الناس، رغم أن الجميع ينحت - بشكل متفاوت - جسم التاريخ، دون أن يُفهم من هذا دعوة للاصطفاف إلى جانب المجدين لـ"الأفراد البارزين" كما تفعل البراغماتية، وليام جيمس James[٣١] وأضرابه، وقبله لأدرية كارلايل Carlyle[٣٢]. لا نقصد بالذاتية أثر الذات في تأويل وثيقة تاريخية ما، فهذه مسألة ثانوية جدًا، لأن أي قراءة تخفي أيديولوجية، ومع كشف هذه الأيديولوجية ينكشف مقدار الذاتية في التأويل. نريد أن ندفع بالنقاش أبعد من هذا قليلا، أي "الذات" و"الموضوع": نقطة الخلاف الأساس في "علم التاريخ" أو بالأحرى قوانين هذا العلم.

ليس هناك أي إمكانية لفهم قوانين السيرورة التاريخية، قال دلتاي Dilthey وهو يحاول تخليص التاريخ والعلوم الإنسانية من ضغط السيكولوجيا، حتى يصير "الفهم" أكثر موضوعية[٣٣]؛ بعد أن انتقد الفكر التاريخي وتساءل عن حدوده وموضوعيته.[٣٤] علم التاريخ "تجريد مفرد" لا يتيح أكثر من "علاقات" بين أحداث وظواهر لا تسمو إلى مستوى "القوانين" التي هي سمة العلوم الطبيعية، أي علوم "التجريد المعمم"، قال ريكرت Rickert[٣٥]: فهل فهم هؤلاء الناس التاريخ/الموضوع كما حددناه؟

التفاعل بين "الذات" و"الموضوع" مدرك بالبداهة وفق مبدأ "الحرية"، بالمعنى الذي نصوغه لاحقا، والتي تؤطرها وتوجهها "رموز السلطة"؛ أما الذاتية التي نقصد فليست ذاتية المحايثة (البنيوية) حيث الموضوع يرتبط ارتباطا مكينا مع الذات، بل الذاتية التي تفعل في التاريخ بما هو موضوع وتنفعل به بما هو ظروف (في علاقة جدلية)؛ قبل أن تتفاعل معه بما هو علم.

بمعنى أن الذات تغير في الموضوع، لكن هذا لا يعني أن توقف الذات عن الفعل والحركة، يعني توقف الموضوع/التاريخ، عن الفعل والحركة، بل حتى لو توقفت جميع الذوات عن الفعل، وهذا افتراض مستحيل، فإن الموضوع/التاريخ سيستمر في حركته، لأن توقف الذوات أيضا حدث في التاريخ. من هنا ينبغي فهم "موضوع" التاريخ كموضوع مستقل منفصل عن "الذات" أي كأي موضوع لأي علم آخر من الموسومة بالتجريبية، لكنه - بحكم طبيعته - يبدو أكثر ارتباطا بالذات، إلى درجة توهم بأنه مرتهن بها. ربما هذا بالضبط ما جعل راسل Russel[٣٦] يحتار في تحديد هوية "الوقائع" ما بين الفيزيقي والنفساني وينتهي إلى أنها لا هذا ولا ذاك: إنها محايدة.

"وقائع محايدة" هذا فهم "الوضعية الجديدة" مع راسل، مع جماعة فيينا (كارناب Carnap وأمثاله[٣٧]، حيث تتجسد التجريبية الميكانيكية، كخطوة أولى ممهدة للاتجاه نحو قارة الاستقراء[٣٨])؛ ثم جمعية برلين الفلسفية العلمية (رايشنباخ Reichenbach وهيمبل Hempel[٣٩]) لكن بصياغة أكثر جدلية لسببية الوقائع أي باعتبار السببية/العلية مدركة بالوعي لكنها خارجة عنه، أبنية مستقلة من العلاقات، علما بأن أسباب الوقائع في التاريخ "محددة" و"مفتوحة"؛ محددة في "رموز السلطة" ومفتوحة لأن "جينومها"، أي قائمتها الحصرية، تظل غير مكتملة؛ وهذا بالضبط ما يعقد رصد "القوانين" التي تحكمها لكن ليس إلى درجة الاستحالة، كما اعتقد دلتاي وريكرت.

أسبابنا المحددة هي "رموز السلطة" التي تدفع باتجاه الواقعة/الحدث (الأثر أو المعلول) مع وجود "رموز سلطة" أخرى في الواقع موازية للحدث، وتبدو غير فاعلة فيه، لكننا نؤمن يقينا بأن لكل حدث سببه (رمز/رموز سلطته)، هاهنا يتكشف واحد من تأملات إنجلس[٤٠] Engels العميقة في انتقاد "اللاأدرية"، الهيومية والكانطية، وتثوير تصور هيغل للصدفة والضرورة: إن الظاهرة أو مركب الظواهر، مهما كان تعقدها، ومهما كانت الصدف التي تتأسس عليها متعددة، تظل في النهاية محكومة بقوانين طبيعية؛ مع إضافة ملاحظة جوهرية لتأمل إنجلس، تؤكد على أن الإنسان عنصر طبيعي أيضًا.

بهذا المعنى يصبح التاريخ، شأنه شأن أي علم تجريبي آخر، معرفة موضوعية متطورة تصقلها الخبرة وتوجهها نحو الدقة باعتماد التفكير المنطقي والوقائع للخروج بالتعميمات والقوانين عبر تحليل "علاقات السلطة" البسيطة والمركبة. لكن دعونا ندفع بالنقاش أبعد، مرة أخرى، لنقول: تتدخل الذات، بدرجات متفاوتة، في دراسة العلوم الموسومة بالتجريبية/الحقة أيضًا. ذلك أن افتراض موضوعية هذه العلوم موضوعية مطلقة، يفترض أن تؤدي إلى نتائج مطلقة وقوانين نهائية، أو "حقائق مطلقة"، وهذا ما لا تدعيه هذه العلوم نفسها؛ فكل يوم نسمع عن قوانين فيزيائية تهدم قوانين سابقة؛ نظريات طبيعية تقوض نظريات طبيعية سبقتها... وهذا لا يعني فقط هدم السابق وتجاوزه، بل يعني أيضًا أن السابق وقع، عن قصد أو غير قصد، في قياسات أو استدلالات أو استنتاجات فاسدة... لأنه وقع في الخطأ/ الغلط، فمن أين تسلل إليه هذا الخطأ؟

إن "الطبيعي"، موضوع الدراسة، تحكمه قوانين واحدة موضوعية مستقلة عن ذواتنا، فلماذا نكتشف، كل مرة، قوانين جديدة "لموضوعي" واحد؟ الجواب لا يحتمل أكثر من واحد: لأن الذات(ية) تدخلت بكل بساطة. وهكذا فتدخل ذات(ية) هذا العالم (الطبيعي/"الحق")، أو ذاك، هي التي تجعله لا يصل إلى القانون الحقيقي (المطلق) في النهاية، إنها الثغرة التي تتيح إمكانية تجاوز القوانين المكتشفة دائما.

"الخطأ/الغلط" نتاج "اغتراب"[٤١] الذات في الموضوع، إنه انعكاس مقدار الذاتية في موضوع الدراسة: "موضوعية مجردة" تعني حقائق صافية و"قوانين مطلقة" وهذا عصي المنال من دون شك، لكنه ليس مستحيلا في تصوراتنا، ما يدفعنا باستمرار للبحث عنه، لأنه غاية العلم.

عدة ملايين من المصابين بالإيدز ينتظرون الخلاص من هذا الوباء المميت، ليظهر علاج يزعم لنفسه أنه يوقف تطور المرض؛ بعد ذلك يظهر أن العلاج المزعوم تأسس على فهم خاطئ لقوانين تطور الإيدز في الخلايا المصابة، وأنه عوضًا عن إيقاف تطورها كان يقوم بتسريع انتشار المرض، وبالتالي التعجيل بوفاة المصاب، أي عكس ما يراد من العلاج تماما[٤٢].

مَنْ يقف وراء هذا الخطأ -وهذا مجرد مثال من العلوم التجريبية/الحقة-؟

إنه الإنسان، "الذات" التي أوّلت قراءة القانون وقرأته وفق فهم خاص، ربما بحسن نية، (وما يفيد حسن النوايا فما بالك عندما تكون سيئة؟)؛ ما يهمنا ليس محاكمة النوايا بل تدخل الذاتية في موضوع يفترض أنه خارج عن الإنسان ومستقل عنه، أي "موضوع موضوعي".

من داخل حقل الفيزياء، المتباهي بـ"موضوعيته"، حد التعالي على باقي العلوم، قال مبتكر النسبية يوما: كل شيء يبدو ثابتا إلى أن تبدأ بمراقبته؛[٤٣] ماذا يعني هذا؟ تجيبنا الفيزياء الذرية: لو راقبنا الذرة سنرى أنها تتكون من نواة (موجبة) تحيط بها إلكترونات (سالبة) تدور باتجاه معاكس لعقارب الساعة؛ وماذا بعد؟ لو راقبنا النواة لوجدناها تتكون من جزيئات تدور باتجاه عقارب الساعة؛ ثم ماذا؟

ثم ماذا؟ أجريت أبحاث عديدة، خلال الخمسين سنة الماضية، لمراقبة ما يجري داخل الجزيئات. أول دراسة توصلت إلى أن هناك جزيئات أصغر داخل الجزيئات تدور باتجاه عقارب الساعة؛ لكن دراسة ثانية، أجريت بعدها، توصلت إلى أن

الجزيئات تدور عكس عقارب الساعة؛ لذلك استدعى الأمر إجراء دراسة ثالثة "مُحكَّمة"، حول الموضوع نفسه، ولشد ما كانت المفاجأة عظيمة عندما توصلت هذه الدراسة إلى أن الجزيئات "فصامية"، أي أنها تلف بكل اتجاه. ثم توالت الأبحاث لتخلص في النهاية إلى أن هذه الجزيئات تدور وفق الاتجاه الذي يفكر به المراقب، أي الباحث: إذا فكر بأنها ستدور يمينا ستدور يمينا، وإذا فكر يسارًا ستدور يسارًا! ألا إن هذا عجيب حقًا![٤٤]

لقد انزلقت العلوم الموسومة بـ"الحقة" منزلقا خطيرا عندما افترضت، منذ البداية، أنها ستتناول بالدراسة مادة موضوعية، أي مستقلة عن الذات، وبحكم أنها – المادة المتناولة بالبحث – "موضوعية" فالعقل يفترض بأن قوانينها لا بد أن تكون كذلك أيضا؛ وبما أن هذه المادة "موضوعية" وقوانينها "موضوعية"، فإن هذه العلوم موضوعية بالضرورة: مقدمات مخاتلة، واستنتاج فاسد.

إذا قلنا بأن القشرة الأرضية، مثلا، "موضوعية" (من حيث كونها موضوعًا موجودًا في الطبيعة باستقلال عن ذواتنا) والقوانين التي تحكمها (القوانين الموجودة فيها والتي تحكمها فعلاً) "موضوعية" كذلك، فإن ذلك لا يعني أن علم طبقات الأرض (الجيولوجيا) علم "موضوعي" بالضرورة، لسبب بسيط هو أن القوانين التي قد يصل إليها هذا العلم، قد لا تكون هي القوانين الموضوعية الحقيقية التي تحكم تطور القشرة الأرضية (المثال أعلاه)، كل ما هناك أن هذا العلم يحاول تقريبنا كل مرة، ووفق شروط معينة، من القوانين الموضوعية الحقيقية، التي نظل نجهلها باستمرار، لأننا ما نكاد نمسك بتلابيبها حتى تنفلت منا من جديد: من هنا نسبية هذه العلوم ومن هنا، وغير هنا، ذاتية العلماء.

فليس مجرد ادعاء دراسة الموضوع فيزيائيا كاف بذاته ليصبح "علم الفيزياء" موضوعيا؛ لنفتح نقاشا مع عالم فيزياء ليبرهن لنا بأن علمه "موضوعي حق": لنسلم أولا بأنه سيدرس المادة الموضوعية؛ ولنسلم، ثانيا، بأنه سينطلق في بحثه العلمي للكشف عن القوانين الموضوعية التي تحكم هذه المادة الموضوعية؛ السؤال: هل هذا كاف لإصدار حكم على الفيزياء بأنه علم موضوعي، لمجرد أنه يزعم لنفسه بأنه يدرس مادة موضوعية ويسعى للكشف عن قوانين موضوعية؟ أم أن هذا الحكم لن يكون صحيحا إلا إذا توصلت الفيزياء إلى القوانين النهائية "الحقيقية" (الموضوعية الحقيقة) التي تحكم المادة موضوع الدراسة؟ من يزعم بأنه توصل إلى تحديد المطلق، له الحق في أن يزعم بأنه موضوعي موضوعية مطلقة.[٤٥]

أكثر من ذلك، عندما نفتح نقاشا معرفيا حول العلوم – بما فيها الموسومة بالحقة – فإننا لا نناقشها بأدواتها وقوانينها الخاصة، بل نناقشها وفق مناهج وأدوات من خارجها. أي عندما نفتح مجالا للمقارنة بين الجيولوجيا والفيزياء والبيولوجيا (من العلوم "الحقة") أو حتى عقد مقارنة بين فروع "العلم الحق" الواحد – الفيزياء مثلا – فإننا لن ننطلق من قانون الجاذبية ونظرية النسبية وفيزياء الكوانطا... إذ إن هذه تفيدنا في المعرفة الفيزيائية المخبرية (محتوى علم الفيزياء) وليس في إصدار أحكام قيمة على دقة هذا العلم، إذ إن النقاش يستند على إبستيمولوجيا مغايرة (أدوات منطقية) خارجة عن محتوى هذا العلم. بمعنى آخر إذا فتحنا نقاشا مع عالم فيزياء حول "دقة" هذا العلم، فإنه لن يعتمد الكوانطا ونموذج روثرفورد للذرة وكيفية احتساب أعمار النجوم انطلاقا من ألوان الضوء... سيعتمد هذه المعرفة العلمية أمثلة لتأكيد وجهة نظره، هذا أكيد، لكن هذه المعرفة العلمية "الدقيقة" شيء، ووجهة نظره حول مدى موضوعية علمه شيء آخر يستند فيها إلى أسلوبه في الجدل والحوار وغير ذلك من أساليب المنطق والقدرة على الإقناع، ولو افترضنا العكس لكان هذا النقاش قد أغلق منذ زمن بعيد.

ثانيًا: تجريبية المعنى

٢/١-لغة التخاطب العلمي

يقول فيصل دراج فيما اعتبره تقديمًا لكتابه "الرواية وتأويل التاريخ"[٤٦]: "المؤرخ يقول قولا سلطويًا نافعًا ولا يتقصى الصحيح ويوغل في التهميش إلى تخوم التزوير"، ولهذا يقوم الروائي "بتصحيح ما جاء به المؤرخ"؛ نقول هذا قول أدب لا قول علم.

ترتفع لغة التاريخ/العلم عن لغة الأدب/الفن، حتى لو كتب التاريخ بلغة أدبية؛ ذلك أن الأدب/الإبداع لا يحتاج إلى اختبار/تجريبية، لأن لغته مكتفية بذاتها. ينفر الأديب/المبدع من الناقد (بما فيه الذي ينتمي لجنسه الأدبي)، لأن المبدع يرفض السؤال والمساءلة ويأنف منهما. لا يستطيع الأديب (في نص الإبداع) أن يجيب بأكثر من لغة أدبية إبداعية في النهاية، تستند إلى بناء منطقي داخلي "أدبي" بدوره، لأن الأدب/الإبداع (ومن ثَمَّ النقد، في مستوى ثان، ثم نقد النقد، في مستوى ثالث) وثن مقدس، مستعص على العقل، جماليته ولغة إقناعه فيه، وهي بطبيعتها تختفي وراء المبهم الماسي. أما التاريخ فلا يستطيع (حتى لو أراد ذلك) أن يتجنب السؤال، لأن غايته في النهاية الكشف عن العلة والمعلول، فهو يبتدئ بالسؤال وينتهي إليه؛ والأجوبة تفترض بالضرورة الإحالة على التجربة، ومنطقه يختلف عن منطق الأدب؛ لكن أين تبتدئ علاقته بالعلم، وأين تنتهي (إذا سمحنا لأنفسنا بالحديث عن بداية ونهاية)؟

"اعلم أن لكل طائفة من العلماء ألفاظا يستعملونها، وقد انفردوا بها عمن سواهم كما تواطؤا عليها لأغراض لهم فيها."[٤٧] ولذلك تشاء طبيعة العلوم أن تبدع مصطلحاتها الخاصة التي تجعل أي شخص، مسلح بحد أدنى من المعارف، قادرا على التمييز بين صفحة رياضيات وصفحة جيولوجيا

وصفحة تاريخ[٤٨]. فالنقطة والمستقيم والكسور والجذور التربيعية... مصطلحات الرياضي وعدته؛ والميكا والكوارتز والمارن والفيلدسبات واللافا والبرانكوس... مصطلحات الجيولوجي وعدته؛ والعنكبوت البرازيلية والخنفس الياباني وطلع النباتات واليخضور وخياشيم الأسماك والحمض النووي... مصطلحات البيولوجي وعدته؛ والحروب البونيقية وورق البردي والخراج والليمس والفيودوم... مصطلحات المؤرخ وعدته؛ فأين المشكلة؟

المشكلة! ظاهريًا يبدو أنه ليس هناك من مشكلة، لكن كلما أمعنا فيها النظر إلا وزادت تعاظمًا واتساعًا (استشكالاً) بحيث تتحول بالنسبة للتاريخ إلى "مشكلة المشاكل". (أولاً) في الوقت الذي تعمل فيه العلوم "التجريبية" على ضبط أكبر قدر ممكن من مصطلحاتها[٤٩]، ينحى التاريخ نحو المفاهيم واللغة التي تبدي هامشًا رحبًا من الذاتية، بحيث لا نجد فيه إلا قدرًا ضحلاً من اللغة الاصطلاحية المتوافق عليها. (ثانيًا) تتدرج العلوم "التجريبية" من المصطلح المفرد إلى المصطلح المركب، فالمسلمات والقوانين ثم النظريات. وهكذا؛ فالنقطة والمستقيم مثلاً مصطلحات مفردة، والمتوازيان مصطلح مركب، ومن نقطة خارج المستقيم يمر متواز واحد ووحيد مسلمة، والهندسة الأوقليدية نظرية؛ والقشرة الأرضية مصطلح مفرد، والليتوسفير مصطلح مركب، والليتوسفير يطفو فوق الأستينوسفير مسلمة، ودينامية الصفائح نظرية؛ فكيف تجري الأمور بالنسبة للتاريخ؟

يقولون بأن التاريخ يستند في أصوله إلى مذهبي "التعددية" و"الاحتمالية"، وهو لذلك يفتقر لخاصية التجربة واللغة الدقيقة التي هي ركيزة العلوم الحقة. لكن رغم ذلك، وعندما أعلن ماركس عن نظريته في التاريخ، التي وسمها بالعلمية، والتي زعم بأنها تقبل التجربة والتطبيق، فإنه لم تمض بضعة عقود حتى أصبح جل المؤرخين من حوارييه[٥٠]، كيف لا وها النظرية أمام عينيك تجرب وتطبق في الاتحاد السوفياتي وأوربا الشرقية والصين وكوبا وثلثي المعمور... فما حاجتها بعد هذا إلى تجربة (مخبرية) أو برهان؟

بالتجربة نفسها التي دعمت النظرية، سقطت هذه أيضا بالتجربة، وأصبح حواريوها يخجلون من الانتساب إليها؛[٥١] إذ كيف ينتسبون بعد إلى نظرية دلت التجربة على أنها ليست علمية، ولا عملية؟ سقط الاتحاد السوفياتي، وسقط أباطرته. يحلو لفلاسفة العلم أن يقارنوا، فيما يتعلق بالتاريخ والعلوم الحقة، بين سقوط الأباطرة وسقوط أوراق الأشجار مثلا. يسقط الأباطرة لأسباب مختلفة، كل إمبراطور يجثم خلفه ركام من الأسباب، ظروف فريدة أدت لسقوطه، بينما تسقط أوراق الأشجار جميعا لسبب واحد هو "الجاذبية"!؟

هذا هو الفرق بين العلم "الحق" والعلم "اللاّ حَق" – كأنه علم باطل – لكن مثال "الجاذبية" ينطوي على مصادرة فاسدة، لأن أوراق الأشجار أيضا لم تسقط لنفس السبب، ولا في نفس الظروف: فهذه سقطت بسبب التآكل وتلك بسبب الحشرات والثالثة بفعل الرياح وهكذا... فتتعدد الأسباب هنا تماما، كمثال الأباطرة، إلا أن الحالة الأولى (حالة الأوراق) اخترع لها الفيزيائيون مصطلحًا جامعا موحدا لا ينظر إلى هذه الاختلافات الجزئية اصطلحوا عليه بـ"الجاذبية" وراحوا يبحثون في أصوله، وأبعاده، وقوانينه حتى وصلوا إلى "الجاذبية الكونية"؛ بينما تاه المؤرخون (في حالة الأباطرة) وراء التآكل، والحشرات، والرياح... وغفلوا عن المصطلح الجامع الموحد/"الجاذبية"! علينا إذن ابتكار "المصطلح" أو بالأحرى مصطلحات التاريخ؛ حتى لو أثار ذلك حفيظة بوبر Popper الذي يرى بأن التعاريف الاختزالية عادة ما تكون مجدبة بسبب الخصائص المفتوحة للمفاهيم العلمية؛[٥٢] رغم أن المناهج النظرية لعلوم الطبيعة ومناهج العلوم الاجتماعية في الأساس واحدة،[٥٣] ويترجم هذا الجدب أكثر عند استخدام المناهج التاريخانية[٥٤].

يقولون:[٥٥] "إن أهداف العلم هي الفهم والتنبؤ والضبط... بيد أن دور التنبؤ ينعدم في كثير من فروع العلوم غير التطبيقية". ورغم ذلك لا يجب أن يجرفنا "الاتجاه التجريبي" نحو الانحياز الفج إلى الاكتشافات والاختراعات على حساب الأفكار والمفاهيم و/أو المصطلحات التي تؤسس في كثير من الأحيان، رغم منحاها اللاتجريبي، لكثير من النظريات العلمية. بل إنها قد تؤسس "للعلم" لأن غاية العلم، بما في ذلك (بل خصوصا) "التجريبي"، تقوم على حكم قيمة[٥٦]. فليست "تجريبية" العلم هي التي تبرر وجوده، بل "غايته" وأهدافه التي لا يمكن أن تكون في النهاية إلا "قيما" تنبؤية تبشر "بالخير" للإنسان.

لقد سبق لأنصار البيولوجيا[٥٧] (نموذج إرنست ماير) أن نبهوا إلى أن الفروقات الموجودة بين الفيزياء والبيولوجيا (وكلاهما من العلوم الموسومة بالتجريبية) أوسع من تلك الموجودة بين البيولوجيا (أحد فروع العلم التجريبي) والتاريخ (الذي يعتبر من العلوم الإنسانية)؛[٥٨] ومع هذه المفارقة يصبح من التضليل القيام بعملية كالتي قام بها كار[٥٩] Carr سنة ١٩٦١ عندما قارن بين التاريخ والفيزياء ليخرج بخمسة فوارق أساسية أهمها، في نظره، أن التاريخ لا يعلمنا دروسا، ولا يمنحنا القدرة على الاستنباط؟

من حسن حظ التاريخ، وربما من سوء حظه أيضا، أن يتنطع رجال من خارج البحث التاريخي للمنافحة عنه.[٦٠] من حسن حظه لأن أي دعم له من طرف أي اختصاص علمي آخر، لا يمكن إلا التنويه به رغم ما قد يعتوره من عيوب منشأها أساسًا عدم الاختصاص، هذا أولا، وهو يقودنا ثانيا، إلى أن

أصحاب الاختصاص من داخل التاريخ، يقفون موقف المتفرج مما يجري من نقاش حول حقلهم المعرفي، إلى درجة أن فرانسوا دوس أصدر حكما قاسيا على المؤرخين، الفرنسيين بالذات، عندما قال: "من تقاليد المؤرخين الفرنسيين أنهم مصابون بالرهبة من الفلسفة"، وهذا من سوء حظ التاريخ.[٦١]

لنذكر أولاً بأن جميع المناهج الإبستيمولوجية حول فلسفة العلوم، تجنح نحو "أرخنتها"؛ فهي لا تستطيع أن تبني نظرية "للمعرفة" بشأن العلوم "الحقة" دون البحث في أصولها وتطورها، أي "أرخنة هذه العلوم". ورغم ذلك فإن مشكلة العلوم الحقة للانفلات من ربقة التاريخ، لا تكمن في صياغة نظرية للمعرفة بشأن هذه العلوم، وهي نظرية لا يمكن أن تكون إلا تاريخية (بدءًا من المنهج الاستقرائي إلى منهج "التضمين المعرفي" لكيكوك لي[٦٢] Keekok Lee، مرورًا بالافتراض الاستنباطي "H. D" والتجريبية المنطقية "L. E" لمدرسة فيينا ونموذج همبل[٦٣] Hempel المستند إلى مسلمات كونية منطقية "D. N"...)؛ بل الشكل الجوهري والأعمق، في نظرنا، أن العالِم حتى وهو داخل مختبره التجريبي للبحث عن أجوبة فلكية أو كيماوية أو فيزيائية أو رياضية أو بيولوجية... مكبل في النهاية بأسئلة تاريخية: متى حدث الانفجار الكبير؟ كيف هو شكل الكون، وكيف كان شكله الأول؟ هل يستطيع الجيولوجي الانفلات من التاريخ عند دراسة التشكيلات الجيولوجية؟ وهل هناك دليل علمي تاريخي (أو تجريبي) واحد يبرهن على نظرية التطور[٦٤] التي أصبحت تُدَرّس كعقيدة دوغمائية في المعاهد والجامعات؟ ما هي الدلائل على "الحساء"، المفترض، الذي ظهرت فيه الحياة أول مرة؟ مم تركب؟ وكيف تفتقت الحياة في نقطة/لحظة (نقطة ماء ولحظة زمان)؟ وما هو أصلها؟ ولماذا ظهرت ولم تكتف بحالتها الهامدة الأصلية؟.[٦٥]

يمكن بالطبع وضع قائمة مفتوحة بأسئلة تاريخية ممتدة، يدرك كل عالم "حقيقي" أن همومه ومشاكله العلمية تبتدئ بها، وتنتهي عندها، كما يدرك أن بعض الأجوبة، إن تأتت، قد تعصف حتى ببعض العلوم "الحقة" الراهنة، كما حصل سابقا مع السيمياء، التي كانت جزءا من الكيمياء، والتنجيم الذي كان جزءا من الفلك، والشعوذة التي كانت جزءا من الطب... لكنها لن تعصف بالتاريخ، هذا شيء أكيد.

قدمنا آنفا مثال سقوط الأباطرة (في حقل التاريخ) وسقوط أوراق الأشجار (في الفيزياء)، ورغم أن هذا المثال قدمه آخرون غيرنا[٦٦]، إلا أنهم لم يتساءلوا ماذا كان سيحدث لو أن الفيزيائيين لم يكتفوا "بالجاذبية" كقانون، وراحوا يبحثون في حكاية كل ورقة من أوراق الأشجار، لمعرفة قصة سقوطها بحذافيرها وجزئياتها المملة الرتيبة؟ ألا يبدو التاريخ – في هذه النقطة على الأقل – أكثر دقة حتى من العلوم الفيزيائية، لأنه لا يكتفي بذكر حادثة السقوط بل ينقب في حيثياتها وتفاصيلها؟[٦٧]

إن هذه الحيثيات والتفاصيل والجزئيات... هي ما سميناه في مكان آخر بـ"الحدث خارج التاريخ"[٦٨]، لكنها تبقى عبثية أثناء البحث إذا لم يتم تطعيمها بحقنة القوانين العامة، تماما مثل العبث الذي يواجه أي فيزيائي لا يكتفي بالجاذبية كقانون عام، وينطلق في مغامرة للبحث في تفاصيل "سقوط أوراق الأشجار".

لقد اكتفت الفيزياء بالقانون العام (بعد أن أرست قاعدة اصطلاحية)[٦٩] فأراحت واستراحت، بينما راح التاريخ ينقب في دقائق الجزئيات فتعب، وأتعب. نقول كلما ابتعد المؤرخون عن البحث في القوانين العامة، وغاصوا في حكي التفاصيل إلا وابتعدوا عن العلم الموضوعي وانجرفوا نحو الذاتية: إن البحث في سرد التفاصيل أمر ممتع، ومطلوب، لكنه إذا لم يقترن بقاعدة اصطلاحية متوافق عليها، وقوانين عامة موجهة، سيسحبنا بعيدا عن العلم، ويقربنا من قارة الفن؛ من هنا حيرة المؤرخين في تصنيف "حرفتهم"؛ فما الذي ينقصنا في حقل التاريخ وانتبه له الآخرون في العلوم المدعاة "تجريبية"؟ إنه اللغة العلمية الدقيقة.

٢/٢- التاريخ والإرادة الحرة

يعرف التاريخ، من بين ما يعرف به، بأنه الحدث في الزمن/المكان؛ وعليه فالمؤرخ لا يدرس بنية الزمكان، لأن هذا شأن الفيزيائي، بل يدرس ما يقع فيه من أحداث، فيتعامل معه كمعطى ويقسمه لتسهل دراسته منهجيا؛ أما تعريف الحدث فبسيط ومركب في آن: كل ما يقع في الزمكان من وقائع هو أحداث، منها ما وقع، ويقع، باستقلال عن الإرادة البشرية، وهذا التاريخ الطبيعي، والإنسان يتعامل معه بما هو كما هو؛ لا تنخرط أحداث التاريخ الطبيعي فيما هو بشري إلا حين تثبت علاقتها الوظيفية به؛ ثم هناك الوقائع/الأحداث البشرية وهي من طبيعة إنسانية، وهي في تحديدها الأولي تدخل في مجال السِّيَر ما دامت أحداثا مفردة، تخص الأفراد، ولا تصبح تاريخية إلا عندما تؤثر في الجماعة، وفائض عن الحاجة التذكير بالعلاقة الجدلية القائمة بين السير والتاريخ، كما بين التاريخين: الطبيعي والبشري.

الحدث هو أيضًا المفهوم المركزي في نظرية الاحتمال وفي الإحصاء، وهو يشير إلى تحقق إمكان ما في مجموعة معينة من الظروف؛ فإذا وقع الحدث، بعد أن تتوفر له شروطه، نتيجة للضرورة، فإنه يوصف بـ"الأصلي"؛ أما إذا عرف بأنه لا يمكن أن يقع، رغم توفر الظروف اللازمة، فإنه يوصف بـ"المستحيل"؛ بينما يسمى الحدث الذي قد يقع وقد لا يقع بـ"الصدفة"؛"[٧٠] فما حظ "الصدفة"، وبأسلوب المخالفة "الإرادة"، من الحدث التاريخي؟

يولد الحدث تحت ضغط رمز، أو رموز، السلطة؛ ويكون مقترنا في الحالة الإنسانية بالإرادة، وينبثق في السلوك. نقرر لذواتنا كما تفترض الحياة الروتينية برموزها المعتادة - بما فيها التي تولد نتيجة رموز طبيعية -[٧١]؛ ويقرر آخرون نيابة عنا في أمور غيرها، تحت مسميات عديدة: تمثيلية/ انتخابقراطية electocratie حينا وفردية/ مطلقة أو استبدادية أحيانا أخرى.

ليس حدث التاريخ مفصولاً فصلاً ميكانيكيًا عن الإرادة الحرة، المستقلة عن الطبيعة، كما اعتقد إنجلس Engels ذات يوم،[٧٢] إلا إذا كنا نتحدث عن تاريخ آخر غير تاريخ الإنسان، (لم ينتجه البشر، وغير موجه للاستهلاك البشري)؛ لكنها أيضًا ليست الحرية التي صاغها شوبنهاور،[٧٣] تلك الإرادة العمياء اللاعقلانية التي تقصي كل قوانين الطبيعة والمجتمع. تحضر إذن المفارقة، ما يستدعي استحضار مفهوم "البصيرة العلمية"، بالمعنى الذي صاغته به المادية الجدلية، لمباشرة الحل،[٧٤] أي استنباط المستقبل مما توفره تجارب الماضي وشروط الحاضر المحددة، مع الحفاظ على احتمال حدوث ما هو غير متوقع لأن المجتمع له عقل وإرادة حرة (ميرلوبونتي Merleau-Ponty)،[٧٥] بما هو مجموع "الأنا" التي تؤلفه، والتي تتصرف عن وعي وإرادة حرة هي أيضًا؛ فليمارس الإنسان حريته في استخدام حريته، بجميع المعاني التي ذكرها فروم Fromm[٧٦]؛ وليعتبر المؤرخ ما ينبثق عنها من أحداث من صميم مهنته.

لقد قيد سبينوزا Spinoza[٧٧] الحرية بقدرة الفرد على التصرف، أو ما سماه بـ"الحكمة الفردية"، ضمن "قانون شامل للطبيعة": فحيث "العقل" طبيعة و"المجتمع" طبيعة، "لا أحد يترك ما يعتقد أنه خير إلا أملاً في خير أعظم، أو خوفا من ضرر أكبر، ولا يقبل شرا إلا تجنبًا لشر أعظم منه أو أملاً في خير أكبر"[٧٨]؛ في حين رهن فيشته Fichte الحرية بالظرفية التاريخية التي يعيش فيها الفرد، مرددا مقولة كانط Kant بخصوص "القوانين الطبيعية العامة" التي توجه التاريخ، "خفية"، نحو مصيره/قدره، أو ما يسميه "الخيط الناظم" للتاريخ المؤسس على مجموع تصورات الأشخاص العقلانيين[٧٩]؛ وبما يتجاوز الممكن والحقيقي والضروري[٨٠]، أي الماضي والحاضر، و/أو بما تحيل عليه إيتيمولوجيا الكلمة اللاتينية advenir من معنى، ليجعل من المستقبل موضوعًا مُفَكَّرًا فيه أيضًا؛ وتأسيسًا عليه فإن الحرية لا تعتبر مُعطى "طبيعيا" بل "يجب عليّ أن أتصرف بحرية حتى أكون حرا"، يقول فيشته.[٨١]

ليس "الحكيم" وحده "الحر" تاريخيًا، كما قال سبينوزا[٨٢]، وليست "الظرفية" قيدًا لا يمكن الانفلات منه، كما ظن كانط←فيشته. سبينوزا المادي الهولندي، وفيشته المثالي الألماني: ألا يبدو أنهما قلبا الأدوار في هذه النقطة بالذات، رغم أن كليهما كان مصيبا؟ لا تعارض بين المقولتين، رغم أن الهولندي بالغ في قوله بأن الحكيم وحده يمكن أن يكون حرا.[٨٣] كلاهما كان مصيبا، يعني أن الفرد (مبدئيا) قادر على التصرف، والظرفية التاريخية (مبدئيا أيضا) تقيد حرية التصرف؛ فما الذي يمكن أن نضيفه حتى تتجاوز مقولتنا مجرد "التوفيق التلفيقي"؟

ما يمكن أن يكون إسمنتا لاحما بين المقولتين مقولة ثالثة/"إرادة الموت"، أي حرية الفرد في اختيار الموت؛ ليبدو الأمر عند نهاية التحليل أشبه بظاهرة "الطمر" - أو جزء منها على الأقل - التي تحدث في أعماق المحيطات، حيث لا يكف الخسف بالذروات المحيطية عن تدفق متواصل لجحيم من اللاڤا الملتهبة، وحيث تعمل مياه الأعماق باستمرار على تبريدها وتصلبها: فلا الماء يطفئ النار على كثرته، ولا الصهارة تعمل على تبخر الماء رغم استمرار تدفقها.

تعمل الظرفية التاريخية على تحديد هامش حرية الإنسان وتقيد حريته،[٨٤] لكن الفرد يبقى في النهاية، وإذ تضيق كل الآفاق، حرا في اختيار ما تَقَرَّرَ في الذاكرة الجمعية بأنه "الأسوأ"، أعني الموت: مثل بطل "الجدار"[٨٥] الذي اكتشف فجأة أنه لا يريد أن "يموت كحيوان" بل يريد أن يفهم؛ ومن سوء حظنا أننا لا نعرف ما الذي يريد أن يفهمه بالضبط، لكن لأنه لا يستطيع أن يفهم فإنه على الأقل سيموت "على الوجه الصحيح وبالطريقة السليمة"؛[٨٦] ماذا يريد أن يفهم؟ وهل ما عجز بطل "الجدار" عن فهمه هنا هو ما شرحه سارتر Sartre في مكان آخر؟ "إن مشروعي نحو موت ما (الانتحار؛ الاستشهاد؛ النزعة البطولية...) أمر يمكن فهمه؛ أما مشروعي نحو موتي باعتباره إمكانية غير محددة، فقط للكف عن مزيد من الحضور في العالم، فأمر يستعصي على كل فهم!"[٨٧]

حرًا في اختيار الموت: الحرية التي قيدها الوحيد هي الإرادة، التي هي نفسها حرية (في التصرف)؛ إذ إن الفرد عادة لا يُقبل على "إرادة الموت"، فتنتج "التوازنية": لا الظرفية التاريخية تقيد الفرد وتكبله بإطلاق، ولا الفرد قادر على أن يكون حرًا بإطلاق أيضًا. وحده الذي يقبل على جميع الخيارات، بما فيها إرادة الموت، يوسع مجال حريته نحو "المطلق": "التضحية المسيحية" في تاريخها المبكر، "الجهاد" طلبا لـ"الاستشهاد" في الثقافة الإسلامية، "العنف الثوري" في الوعي الماركسي، "السيبوكو" و"الكاميكاز" في الإنجاز الياباني... كلها أشكال تعمل على إنتاج "الشهيد" الذي يؤمن بالحرية المطلقة عبر الاستعداد للموت من أجل قضية/مبدأ/فكرة... ويسعى خلفها؛ وراء "إرادة الموت" يختفي "رمز سلطة" أيديولوجي هو "الاستشهاد": ووحدها الأيديولوجيا تستطيع أن تنتج هذا النوع من الأفراد، لأننا نعرف بأن غريزة الحياة وحب البقاء أقوى لدى الإنسان من "إرادة الموت"، ولهذا قلنا بأن الإرادة هي القيد

الوحيد للحرية. هكذا يتحول "الموت" ذاته (بصيغة المفرد أو الجمع) إلى دينامية تاريخية تدفع "محاور السلطة"، كما تدفعها الحياة سواء بسواء، وليثبت مرة أخرى أن "الدينامية التاريخية" غير قابلة للدمار، تماما كما الحال في "قانون حفظ الطاقة"[٨٨].

كتب همبولت Humboldt[٨٩] بأن تاريخ البشر يستحيل فهمه فهما علميا، لأن قوانينه محكومة بنشاط قوة روحية تتجاوز المعرفة.[٩٠] رأي همبولت صدى لإنكار الطبيعة الموضوعية للسببية عند هيوم Hume[٩١]، فاستباق ظاهرة ظاهرة أخرى لا يسمح أبدا باستنتاج أن الأولى علة والثانية معلولة، حتى لو تميزت الظاهرة بالتكرار في الزمان، وعليه فإن مصدر اليقين ليس المعرفة النظرية بل الإيمان. نتذكر بهذا الصدد حجته المفضلة، ضد الاستقراء: إن طلوع الشمس صباح اليوم والبارحة لا يقوم دليلا على أن الأمر سيكون كذلك غدا بالضرورة[٩٢]؛ لكن رغم تفهمنا لحجة "هيوم" إلا أننا نقول: إن الشمس ستشرق غدا، وهي ستشرق فعلا، إلى أن يثبت العكس، ليس عن إيمان بل عن تجربة استحالت لفرط ترددها إلى قانون. زعمت مدرسة "بادن" Baden (الكانطية الجديدة أو ريكرت ورفاقه) أن التاريخ علم الوقائع الفردية، والعلم الطبيعي علم الظواهر العامة، لذلك فالتاريخي يدرك الفرد والطبيعي يدرك العام. العلم الطبيعي تحكمه القوانين، والعلم التاريخي تحكمه القيم: علم "اللاّ قوانين"؟

هذا نوع من المصادرات التي توقع في "الدائرة الفاسدة" منذ البداية، إذ تنطوي على مغالطة/قفزة منطقية برهانها زائف لأنه قفز على واقع "العلم" كما هو، لا كما أرادته هي. فأمثلة "العلم الطبيعي" أيضا مفردة مخبريا، لكنها تعمل من خلال مجموع "المفرد" لأجل الوصول إلى نوع من "المطابقة" للخروج بالقانون (راجع مثالنا عن سقوط أوراق الأشجار) وهذا ما أغفلته مدرسة بادن بالنسبة للتاريخ. دعونا نستعير من الظاهراتية[٩٣] "قصدية الوعي"، حيث تستحيل "المعرفة" خارج "وعي" الذات بها، وعي مفعم بالحدس والانفعالات الشخصية وما شاكلها... هذا ما سقطت فيه مدرسة بادن، لكن مع ازدواجية في المكاييل – الذي ترفعت عنها الظاهراتية – حيث تفاعلت مع "الطبيعي" فانتهت إلى "القوانين"، وتعسفت على "التاريخي" لتنتهي إلى "القيم".

"رموز السلطة" أشبه بالمونادات التي طورها لايبنيتز Leibniz[٩٤]، والتي لم يتمالك لينين عن مدحها ذات يوم: "هنا نوع من الجدل عميق، رغم مثاليته ونزعته الكنسية"؛ لكن لا ينبغي فهمها على أنها واقع مادي وحسب، بل يجدر استيعابها كتعاليم أيديولوجية أيضا. إنها الدافعية الحقيقية التي تعمل على "تجديل Dialectisation" الإنسان مع واقعه، وتطويرهما (الإنسان والواقع) معا، ذاك الذي عجز الوضعي والكانطي الجديد – أقصد ماكس فيبر – عن ملامسته وإدراكه، رغم أن عبقريته تفتقت عن "تعدد" العوامل المحددة للفعل الاجتماعي[٩٥]، إلا أنه أبى الوصول إلى تجريد علمي للعلوم الاجتماعية.

التاريخ منفعل بــ"رموز السلطة" التي تحرك الفاعلين فيه (أفرادا وجماعات) وتدفعهم لتشكيل تحالفاتهم، أي "محاور السلطة"، تأسيسا على ما راكمته تجارب التاريخ نفسه؛ أما "السلطة" فمعطى طبيعي أبدي (يستغرق الإنسان والطبيعة)، يدركها العقل وتؤكدها الرؤية واللمس؛ إنها ما يجبر "أنانة Solipsisme" المحايثين على الانكفاء، لأنها في الواقع الموضوعي والوعي بصورة مكينة لا فصام بينها: إنها يقيني Apodictique التاريخ البشري. التاريخ يعني استحضار التجربة (وهذا الماضي) من أجل تمثّلها لتدبير الواقع (وهذا الحاضر)، والتدبير يعني بالضرورة التوقع، أي الهندسة، (وهذا يحيل على المستقبل).

عندما درس تيراس Terrasse التجربة الإدريسية في المغرب، التي انتهت سنة ٣٦٣هـ/٩٧٤م بنفي الأدارسة إلى الأندلس، كتب يقول: "وهكذا وضع الحد لأول سلالة شريفة حكمت المغرب بعملية أمنية."[٩٦] يعلق العروي[٩٧] على هذه العبارة بأن فيها كثيرًا من اللؤم والتشفي، فالعبارة كتبت في جو متأزم بين ملك المغرب محمد الخامس والمقيم العام الفرنسي انطلاقا من سنة ١٩٤٦م؛ والعملية التي يومئ إليها تيراس هي التي سيقدم عليها الجنرال غيوم سنة ١٩٥٣م، أي نفي محمد الخامس.

نقول إن تيراس في العبارة السالفة لا يكتب تاريخا مضى وانقضى، بل يسجل أحداث مدة ماضية، ليس بمعنى الانقضاء فقط وإنما ماضية أيضًا في طريقها نحو المستقبل،[٩٨] إنه يهندس التاريخ: مادامت أول تجربة "شريفة" في المغرب انتهت بالنفي، فلماذا لا تنتهي هذه – العلوية – بالنفي أيضا؟ (تحضر الغاية فتحضر الإرادة).

يقترح هنا على الإقامة العامة سيناريو، من ضمن سيناريوهات ممكنة، للتعامل مع وضعية محرجة أواسط الأربعينيات من القرن ٢٠م، تقتنع به السلطات الاستعمارية وتنفذه سنة ١٩٥٣م. لا يهمنا، من المثال، ما جرى بعد ذلك من تفاصيل وجزئيات، وكيف انتهى الصراع، نترك ذلك للإخباريين، بل لا يهم حتى إن كانت الإقامة العامة ستأخذ بتوصية تيراس أم لا، ما يهمنا فعلا هو أن الرجل قد تحول في لحظة من اللحظات من مؤرخ إلى مهندس تاريخ، فهل كان يعي هذا التحول أم لا؟

قال بروديل Braudel ، منتصف ثمانينيات القرن الماضي، بأن أفضل حظوظ أوربا لكي تبقى حية يكمن في توحيد قواها ومجالها في مجموع واحد[٩٩]؛ عبارة نرددها الآن جميعا

بخصوص الاتحادات الجهوية الاقتصادية (الاتحاد الأوربي EU؛ نافتا NAFTA؛ الآسيان ASEAN...) ما تحدث عنه بروديل كان سنة ١٩٨٤ والوحدة الأوربية تمت تدريجيا بعد ذلك بكثير (حتى نهاية القرن العشرين)[١٠٠]؛ عن أي شيء نتحدث إذن؟ عن نبوءة بروديل، عن عرافة أو تنجيم المؤرخ؟ إننا نتحدث عن هندسة تاريخ بكل بساطة.

هكذا يجب أن نؤول مفهوم "الاعتبار" في اعتقادنا. لا يعني "الاعتبار" الحزن والبكاء، السعادة والانبساط، الشماتة والتشفي... من حدث مضى! بل رسم أفق جديد، حدث جديد: من الحدث، وبالحدث، وإلى الحدث؛ من الحدث/الماضي، وبالحدث/الحاضر، وإلى الحدث/المستقبل المشرف. يتناول الباحث في تاريخ الحماية مجموعة من الوثائق، من بينها وثائق تتعلق بنفي محمد الخامس؛ يصنفها ويحللها ثم يعيد تركيبها، هذا هو التاريخ الذي نعرفه، لكن ماذا كان يفعل "تيراس" وهو يومئ بالإيحاء إلى نفي ملك المغرب سنوات قبل أن يتم النفي فعلا؟ هذا هو التاريخ الذي يجب أن نعرفه.

يلخص العروي[١٠١] مصير المغرب في الفترة التي تلت رحيل ابن خلدون إلى المشرق بقوله: "يصح القول إن ما تفوه به ابن خلدون من أحكام قاسية وتنبؤات متشائمة عن مستقبل بلاد المغرب وهو على أهبة الرحيل إلى المشرق، تحقق فعلاً كما لو كان حكمًا مبرمًا." لكنه يستنكر على التاريخ أن يتحول إلى فرضيات، وينكر على المؤرخين أن يشرعوا لها بابا؛ يقول: "يحلو للمؤرخين، قديمًا وحديثًا، أن ينساقوا مع الافتراضات: ماذا كان يحصل لو فعل المرابطون كذا أو تركوا كذا..."[١٠٢]

في العمق ألا يحلو للعروي أيضًا أن يمارس هذه الرياضة الذهنية، فيكتب عن الصراع الزناتي - الإدريسي حول فاس فيقول: "ولنفرض أن أهل فاس كانوا أصلاً من مغراوة، هل كان ينفعهم ذلك في شيء؟"[١٠٣]؛ ويقول: "وبعد أربعين سنة أعلن المعز بن باديس استقلاله عن الفاطميين. كان من الممكن أن يفتح هذا الإعلان صفحة جديدة في تاريخ المنطقة... لكن الخطوة التي أقدم عليها المعز تسببت بالعكس في كارثة..."[١٠٤]؛ ثم يقول عن احتلال الأغالبة لجزيرة صقلية: "عبر الجيش مرارًا مضيق مسينة واستطاع سنة ٢٣٢هـ/٨٤٦م أن يهاجم روما ويدخل إليها... لا شك أنه لو كان للمسلمين آنذاك مركز واحد للتخطيط والتنفيذ، أو لو كان على الأقل تفاهم بين الأمراء المسلمين لتقسيم مناطق النفوذ (كما فعل الأوربيون في فترات لاحقة) لصار التاريخ العام في غير الاتجاه الذي صار فيه."[١٠٥]

بين الإنكار والاستنكار تنتصب حقيقة واحدة طاف حولها العروي كثيرًا لكنه لم يقتحمها كما ينبغي، حقيقة أن المؤرخ الذي يستوعب التاريخ جيدًا لا يملك نفسه، وهو يكتب تاريخا وقع، أن يفترض في نفس الآن ما لم يقع، ويتصور ما يمكن أن يقع. ذكر العروي قوله: "لو كان للمسلمين آنذاك مركز واحد للتخطيط والتنفيذ..." أجل لم يكن لهم هذا المركز؛ لا يعني ذلك أنهم لم يكونوا يخططون وينفذون: كانوا يخططون للمعارك قبل دخولها، كانوا يخططون لعلاقاتهم الخارجية عبر السفارات والمراسلات والهدايا، كانوا يخططون لقمع الثورات وإخماد الفتن... لكن أي نوع من التخطيط؟ تخطيط آني لحظي، أما الوجهة العامة للتاريخ، هندسته - بناء على استراتيجية عقلانية - وتوجيهه لتحقيق مصلحة عُليا بعيدة فظلوا أبعد من ذلك؛ بعبارة أخرى كان تخطيطهم يسير أيضا ضمن مشيئة القدر الأعمى.

ولذلك، وكما لا يتردد المؤرخ، الواعي بحيثيات مهنته، في جذب الأزمنة الماضية إليه، ينبغي أيضا - وربما أكثر - ألا يتردد في الانفتاح على زمنه الحاضر والمستقبل. قال فروم Fromm: المستقبل هو الحاضر الذي سيولد؛[١٠٦] وقال بروديل Braudel: "لا أدعي تحديد مهنة المؤرخ... [لكن] بالنسبة لي فإن التاريخ هو مجموع التواريخ الممكنة، أي مجموعة من المهن المنتمية إلى الأمس واليوم والغد".[١٠٧]

خَاتِمَةٌ

نبدأ من حيث انتهينا: عجز الحكام المسلمون عن هندسة التاريخ، بناء على استراتيجية عقلانية توجهه لتحقيق "مصلحة عامة" بعيدة؛ بل عجزوا حتى عن هندسته لتحقيق "مصلحة خاصة" تضمن لهم الاستمرارية (دون أن يعني ذلك السقوط في أحلام "غلكاميش")؛ فلم يستفيدوا من تجارب التاريخ رغم ادعاء الاهتمام به، بما هو علم، وكأنهم راكموا مؤلفاته في خزائنهم استجداء للتندّر والنوم. ما وقع في الماضي يقع الآن بين ناظرينا: مازال الحكام يجهلون، أو يتجاهلون، بأن استمرارية "مصالحهم الخاصة" تتقاطع مع "المصلحة العامة" التي ظلوا يناصبونها العداء؛ بينما ضمنت "الدولة الحداثية" الغربية استمرارية أنظمتها السياسية من مدخل "الديمقراطية"، على عِلاّته، بعد أن توافقت عليه بناء على قراءة متأنية لتجارب الماضي؛ ثم نراها اليوم تخصص وزارات، أو وكالات عمومية، مدعومة بالأبحاث الجامعية ومراكز الدراسات المتخصصة، للتخطيط واستشراف المستقبل، لأنها استوعبت هندسة التاريخ. فهذا كان أول ما شغلنا في موضوع هذه الدراسة.

في هذه الأثناء تراجع المؤرخ (خصوصًا العربي والمسلم) عن جوهر مهنته، واكتفى بمراقبة "علوم" أخرى وهي تفرغها من محتواها الحقيقي، وتحوله إلى "أراخ"،[١٠٨] يكتفي بالمستوى الأول من مهنته (حفظ الماضي) ويحتفي بأمجاد "الدولة" ويعمل على شرعنتها تاريخيًا، ثم ورثنا نحن هذا الوضع؛ وبدل رفضه، والانقلاب عليه، عملنا على مأسسته أكاديميا في الجامعات. نقول: لا معنى لبحث تاريخي، وبالتالي مؤرخ، لا يبحث في زمنه الراهن، وينطلق من وقائعه؛ فتحليل الحاضر يكون المبدأ والغاية، والارتداد نحو الماضي لا يكون إلا استحضارًا للتجربة، وللمراهنة على تجويد المستقبل؛ وكان هذا ثاني انشغالات موضوعنا.

أما انشغالنا الثالث فكان استقصاء التجريبية التاريخية، باعتماد منهج مقارناتي، وانتهينا فيه إلى أن الحدث التاريخي يولد تحت ضغط رموز السلطة؛ ويكون مقترنا في الحالة الإنسانية بالإرادة، وينبثق في السلوك. نقرر لذواتنا كما تفترض الحياة الروتينية برموزها المعتادة؛ ويقرر آخرون نيابة عنا في أمور غيرها؛ لكننا نقرر في جميع الحالات بناء على مقارنة مع تجارب سابقة، وفي ضوء ما نستشرفه للمستقبل. يحاجج المعترض على هذا القول بقول آخر: وماذا عن المرة الأولى، حيث لا تكون تجربة سابقة؟ حيث لا تجربة سابقة لا يختلف التاريخ عن غيره من العلوم إذ تعترضها تجارب أولى أيضًا، تكون نواة لما يأتي بعدها. لماذا إذن نقبل "التجريبية" (مع نسبيتها وخصوصيتها) في باقي العلوم ولا نقبلها في التاريخ؟ لأننا ننتقل في التاريخ إلى "موضوع" للتجربة، يستحيل الإنسان نفسه إلى فأر تجربة، هو الذي اعتاد في العلوم الأخرى ألا يقنع بغير الفاعل، يجد نفسه مفعولا به دفعة واحدة وهو ما لا يرضي غروره السخيف وكبرياءه الأخرق. نقول مرة أخرى، ضدا عن نقاش العلم الحضوري والعلم الحصولي الذي قاده "هيوم": ليس علينا أن نضع أيدينا في النار حتى نثبت بأنها حارقة! ليس علينا أيضا أن نشعل حربًا حتى نثبت بأنها حارقة! لماذا تشتعل الحروب كل مرة إذن؟ سؤال وجيه؛ لكنه يأتي كل مرة ليؤكد القاعدة، التي دلت عليها التجربة، وليس ليثبت بأن الحرب قد كفت عن كونها حارقة.

قلنا في مقدمة هذا العمل: كأن ابن خلدون بتعريفه الشهير للتاريخ: "إذ هو في ظاهره لا يزيد على إخبار عن الأيام والدول..." قد ألقى على المؤرخين سحرًا فما عادوا يرون فيه غير الماضي، ناقلين أو ناقدين؛ نقول الآن: لكنهم في الحالتين نسوا تتمة القول: "وفي باطنه نظر وتحقيق، وتعليل للكائنات ومباديها دقيق، وعلم بكيفيات الوقائع وأسبابها عميق." ما يحيل بالضرورة على صياغة القوانين، ما دامت تعتبر خلاصات التجارب في العلوم؛ أين أخطأ ابن خلدون إذن؟ لم يخطئ في اجتهاده لاستقصاء القوانين، بل في اعتقاده بقوانين (ومن ثم فلسفة) تاريخية خاصة بالعرب والمسلمين (ما انتهى به إلى العصبية)؛[١٠٩] والحال أن فلسفة التاريخ لا يمكن أن تكون إلا إنسانية عامة.

للتاريخ، كما العلوم الأخرى، قوانينه التي تحكمه، تأسيسًا على تجريبيته الخاصة؛ أثرنا هنا جزءًا منها/ القوانين، لكن صياغتها تحتاج لبيان مفصل وبناء حجاجي وضرب أمثلة... موضوع قد يؤلف الجزء الثاني من هذا البحث؛ قبل ذلك يحتاج ما تم تدبيجه هنا إلى قراءة(ات) متممة، متأنية، ناقدة.

الهَوامِشُ:

(١) **المقدمة**، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٢، ص. ٣ – ٤. ودون أن يعني ذلك بأن ابن خلدون أول من اجترح "الإثم" (إثم سجن التاريخ في قمقم الماضي).

(٢) "تطلق لفظة التاريخ على الماضي البشري." قسطنطين زريق، **نحن والتاريخ**، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٥٩، ص. ١٢؛ "نطلق اليوم كلمة مؤرخ على كل من يهتم بالماضي." عبد الله العروي، **ثقافتنا في ضوء التاريخ**، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط. ٢، ١٩٨٨، ص. ٢١؛ وعندما قال بأن التاريخ هو الماضي الحاضر تمثل التاريخ/الماضي انطلاقًا مما يوفره الحاضر من وثائق وشواهد فقط. انظر **مفهوم التاريخ**، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط. ٤، ٢٠٠٥، ص. ٣٨...؛ وقبل ذلك كان قد تحول إلى سادن للمضمون، وللمنهج، الذي اقتنع به، فما عاد يرى غيره: "إن هم المؤرخ الأول هو تفسير الخاص في صورته الخاصة... إذا قال: لا جديد تحت الشمس أو ادعى أن العاملين في التاريخ خاضعون لنواميس لا انفكاك عنها، غادر حالا ميدان التاريخ..." انظر ثقافتنا في ضوء التاريخ، ص. ٤٤ – ٤٥.

(3) Stephen Hawking, A Brief History of Time: From Big Bang to Black Holes, Bantam Books, 1988.

(٤) إذا جاز لنا أن نمارس بعض التصوف مع القشيري (عبد الكريم)، **الرسالة القشيرية**، دار الجيل، بيروت، ١٩٩٠، ص. ٥٥.

(٥) علمًا بألا أحد يمكنه أن يحجر على حقهم في كتابة تاريخ هذه العلوم، أو أي تاريخ آخر، لكن بمجرد أن يبدؤوا في ذلك يتوقفون حالا عن كونهم فيزيائيين أو رياضيين أو بيولوجيين... ويتحولون إلى مؤرخين.

(٦) لا نجد ما يدعم هذا القول إلا منطق القانون، الذي هو منطق الدولة/ العصابة، إذ يزعم أن هناك من الوثائق (السرية) ما لا ينبغي الإفراج عنه إلا بعد مرور زمن معين لتورط عناصر الدولة فيما يعاقب عليه قانونها نفسه؛ أما المؤرخ الذي تقوم مهنته بالضرورة على النبش في الوثائق، السرية منها بالذات، فيُرجأ عمله إلى وقت لاحق، ليصبح بذلك "مؤرخا للماضي" فقط.

(٧) لسنا بحاجة إلى التذكير بأن مؤسس العلوم السياسية، ميكيافيللي Niccolò Machiavelli، كان مهندس تاريخ بامتياز، ليس لأنه شارك في صناعة أحداث عصره فقط؛ بل لأن كتابه، الأمير، الذي اعتُبر شهادة ميلاد العلوم السياسية، ضمنه أيضا توجيهات براغماتية للحكام، ونداء لآل ميدتشي من أجل إيطاليا موحدة.

(٨) كما أن علومًا أخرى خرجت من عباءة التاريخ أيضًا (خاصة السوسيولوجيا والأنتروبولوجيا) لم تراكم بعد تقليدًا طويلاً، بسبب حداثتها؛ وهي مع التقدم الذي باتت تحرزه من أهم العلوم المساعدة للتاريخ.

(٩) قسطنطين زريق، نحن والمستقبل، مركز الوحدة العربية – مؤسسة عبد الحميد شومان، بيروت، ١٩٧٧. وكأنه يضع كتابه هذا في مقابل كتابه السابق، نحن والتاريخ، (ضمنيا: الماضي!) وفي اعتقادنا كان ينبغي أن يكون الثاني/نحن والمستقبل أيضا بعنوان يحيل على التاريخ، وإن كان مضمونه يحيل على المستقبل؛ أو ربما يوضع بالعنوان الأول نفسه (نحن والتاريخ)، كجزء ثان متمم له؛ رغم ذلك كانت مبادرة ثرية هذه التي قام بها زريق في اتجاه "هندسة التاريخ".

(١٠) عبد العزيز غوردو، **من التاريخ إلى هندسة التاريخ**، مجلة أمل: التاريخ – المجتمع – الثقافة، ع. ١٩ – ٢٠، ٢٠٠٠، ص. ١٦٨ – ١٧٧. وقد قلنا وقتها بأن مستقبل الإنسان مكتوب، تماما كما الهندسة الوراثية، في "الجينوم التاريخي"؛ وكما أن تعديل الخصائص الوراثية للكائن الحي يقتضي المرور عبر التحكم في الجينات، فكذلك التاريخ الاجتماعي يقتضي التعديل الواعي في "الجينات/رموز السلطة"؛ علما بأننا في الحالتين معًا (هندسة الكائن الحي وهندسة التاريخ الاجتماعي) لا نضمن دائما النتائج بالصورة التي نفترضها مسبقًا.

(١١) أعطى لوكاش نفسًا قويًا لمفهوم الوعي، في الفكر الماركسي، وأعاد الاعتبار للذات، حيث التاريخ نتاج تفاعل بينها/الذات وبين الموضوع/الوعي بالقوانين. (Georg Lukács, Histoire et conscience de classe ,trad. Kostas Axelos et Jacqueline Bois, Paris, Minuit, 1960.) وجاء تتويجًا لمسار كامل ابتدعه هيغل (حيث مقولته الأشهر: "العقل يحكم التاريخ"؛ Georg Wilhelm Friedrich Hegel, la raison dans l'histoire, trad. Kostas Papaioannou, Plon, 1965.) قبل أن يستقر ناجزا في الكتابات التاريخانية اللاحقة.

(١٢) مَنْ يريد متابعة ممتعة، ومفيدة، لموضوع الزمن فليقرأ عمل "ستيفن هوكينج": تاريخ موجز للزمن؛ الذي صدر أيضًا بصيغة مبسطة أكثر: تاريخ أكثر إيجازا للزمن، وترجمه أحمد عبد الله السماحي وفتح الله الشيخ. أما عبارة: الزمن بلازما... فهي لبروديل.

(13) François Lurçat, L’autorité de la science, Edit. Cerf, Coll. Passages, Paris, 1995.

(١٤) المرجع نفسه/ "سلطة العلم"، القسم الأخير.

(١٥) نسوق هذا المثال وفي أذهاننا ما سنطور النقاش حوله لاحقا، عندما يُتّهم التاريخ بأن تنبؤاته لا تعدو أن تكون رجما بالغيب!

(١٦) نتيجة لبركان "لاكي" انتشرت موجة من الصقيع امتدت على السنوات الموالية ما أثر على مناطق شاسعة بأوربا، ومنها شمال فرنسا، حيث تراجعت المحاصيل وعم السخط صفوف الفلاحين مما عجل باندلاع ثورة ١٧٨٩؛ لا غرابة إذن في أن ينعته الفرنسيون بـ"بركان الثورة". انظر التفاصيل ضمن:
Roland Rabartin et Philippe Rocher, Les volcans, le climat et la Révolution française, mémoire de l'Association volcanologique européenne, n° 1, 1993.

(١٧) طبعًا لا نقصد هنا الإشارات القليلة (من غازات وتحرك صخور السطح...) التي يرسلها البركان قبيل انفجاره بيوم أو يومين، أو حتى بضعة أيام؛ فإذاك تكون الواقعة قد وقعت فعلا، ولا تدخل وقتها في خانة التنبؤ.

(١٨) معروف بأن موهوروفيتش Andrija MohoroviČiĆ بنى "اقتراحه" سنة ١٩٠٩ على تفاوت سرعة الموجات الزلزالية بين صخور البازلت وصخور البيريدوتيت.

(19) Jean-Paul Collette, Histoire des mathématiques, Edit. Du renouveau pédagogiques, INC, Ottawa, Canada, 1979.

(20) Jean-Paul Collette, Ibid , p. 158 – 159.

(21) Ibid , p. 107.

(22) Ibid , p. 323.

(23) Arend Heyting, Les fondements des mathématiques: Intuitionnisme, théorie de la démonstration, édit. Gauthier-Villars, Paris, 1955.

(24) Heyting, p. 71.

(25) Gottfried Wilhelm Leibniz, Les Nouveaux Essais sur l'entendement humain, 2(ème) édit. Henri Lachelier, 1898. In: Source gallica. bnf. fr/Bibliothèque nationale de France, p. 215 et sui.

(26) Sir Arthur Stanley Eddington, The Nature of the Physical World, The Macmillan Company; Cambridge, Eng., The University Press, New York, 1928.

(27) Jules Henri Poincaré, coll. Champs sciences, Flammarion, 1970, p. 30 – 37.

(28) John Locke, An Essay Concerning Human Understanding, Jonathan Bennett, 2004, p. 38 – 39.

(٢٩) لايبنتز، مرجع سابق.

(٣٠) لا نريد هنا تكرار ما ذكرناه في مكان سابق، (**الفتح الإسلامي لبلاد المغرب – جدلية التمدين والسلطة**، ط.٢، ناشري، الكويت، ٢٠١١، ص. ٣١ وما بعدها)؛ حيث فتحنا نقاشًا حول تفسير التاريخ بـ"ميكنزمات السلطة".

(31) William James, Pragmatism: A New Name for Some Old Ways of Thinking, new York, London, Longman and co, 1907.

(32) Thomas Carlyle, On Heroes, Hero-Worship and the Heroic in History, published with James Fraser, London, 1841.

(33) Wilhelm Dilthey, L'Edification du monde historique dans les sciences de l'esprit, (1910), trad. S. Mesure, Cerf, Paris, 1988, p. 72...

(34) W. Dilthey, Introduction aux sciences de l'esprit, (1883), trad. L. Sauzin, PUF, Paris, 1942, p. 15.

(٣٥) مع ريكرت – امتداد كانط Emmanuel Kant ثم فيشته Johann Gottlieb Fichte – يتجدد العبور من الأنطولوجي إلى الأكسيولوجي في أسمى معانيه. انظر:

Heinrich Rickert, Les problèmes de la philosophie de l'histoire: Une introduction, trad. Brigitte Hébert, Presses Universitaires du Mirail Toulouse (PUM), 1998, p. 61 – 62.

(36) Bertrand Russell, my philosophical development, George Allen and Unwin, Londres, 1959, p. 139.

(37) Rudolf Carnap, "Testability and meaning" in Philosophy of Science, III (1936) and IV (1937).

(38) R. Carnap, Logical Foundations of Probability, Chicago, University of Chicago Press, 1950.

(39) Hans Reichenbach, The Rise of Scientific Philosophy, Berkley, University of California, 1951. And Carl Gustav Hempel, Aspects of Scientific Explanation, Free Press, New York 1965.

(40) Friedrich Engels (1925), Dialectique de la nature, trad. Émile Bottigelli, Éditions sociales, Paris, 1968, p. 41 et sui.

(41) Maurice Merleau-Ponty, Les Aventures de la dialectique, Gallimard, Paris, 1955, p. 52.

(٤٢) لائحة الأمثلة الدالة على هذا الفشل كثيرة أشهرها إعلان شركة ميرك وشركاه Merck & amp Co، الأمريكية، عن إيقاف تجاربها، بعد النتائج المخيبة للآمال التي أجريت على أزيد من ٣ آلاف متطوع (أعمارهم بين ١٨ و٤٥ سنة)؛ سنة ٢٠٠٧؛ علما بأن هذا الفشل لا يهمنا في ذاته، بل نسوقه مثالا من ضمن أمثلة عديدة؛ وعلما أيضا بأن الفيروس يطور نفسه باستمرار.

(٤٣) ليس هناك من ثابت ولا متحرك، بما أن الحركة المطلقة، نفسها، غير موجودة (مفارقة التوأم Twin Paradox).

(٤٤) أصبحت هذه المعلومات كلاسيكية جدا منذ اكتشافات ستيفن هوكينج المذهلة، التي اعتمدت على نظرية الكوانتا، القائمة على الصدفة واللايقين؛ وهو ما كان أينشتاين يرفضه بعبارته الشهيرة: "إن الله لا يلعب النرد".

(٤٥) قول يعيدنا بالضرورة إلى ما قرره كزينوفان Xenophanes (منذ ٢٥ قرنا): لا أحد امتلك، أو سيمتلك، الحقيقة أبدًا.

Xenophanes, Fragments 15-16: James H. Lesher, trans., Xenophanes of Colophon: Fragments: A Text and Translation With a Commentary, University of Toronto Press, 2001, B 34, p. 1 - 2.

(٤٦) صادر عن المركز الثقافي العربي، ٢٠٠٤، ص. ٥.

(٤٧) الرسالة القشيرية، ص.٥٣.

(٤٨) "الاصطلاحات" **مفاتيح العلوم كما كتب الخوارزمي، في مقدمة كتابه "مفاتيح العلوم"**، نشر ج. فان فلوتن، مطبعة بريل، ليدن، ١٨٩٥، ص. ٢.

(49) David Hume (1748), Les essais philosophiques sur l'entendement humain/ Enquête sur l'entendement humain, trad. Philippe Folliot, Edit. Electronique, Québec. 2002, p. 54.

(٥٠) أكيد أن المؤرخين لم يكونوا وحدهم في ذلك؛ والآكد أن ماركس Karl Marx استحال بذلك إلى "مهندس تاريخ" بامتياز. قال بروديل يوما بأن عبقرية ماركس تكمن في انتباهه للمدة الطويلة، والواقع أن عبقرية الماركسية (بإضافة إنجلس قطعا) تكمن في نجاحها في بناء منظومة اصطلاحية تاريخية متكاملة (أدوات الإنتاج؛ نمط الإنتاج؛ الوعي الطبقي؛ المراحل التاريخية

الخمس...)، ما جعلها تهيمن على الفكر التاريخي، وغير التاريخي، خلال القرنين ١٩ و٢٠.

(٥١) يمكننا أن نقرأ ذلك، مثلاً، في النبرة الحزينة التي دبجها، وأعلن فيها، فرانسوا دوس F. Dosse عن ارتداده وتنكره لكثير من جدلياته "المتمركسة" التي "تجاوزها الزمن". انظر: التاريخ المفتت – من الحوليات إلى التاريخ الجديد، ترجمة محمد الطاهر المنصوري، المنظمة العربية للترجمة/ مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ٢٠٠٩، ص. ١٣ – ١٤.

(52) Karl R. Popper, Logique de la découverte scientifique, trad. Fr., Payot, Paris, 1973.

(53) K. Popper, Misère de l'Historicisme, Trad. Hervé Rousseau, plon, Paris, 1956, p. 129.

(٥٤) مقدمة بؤس الفلسفة.

(٥٥) إرنست ماير، **هذا هو علم البيولوجيا**، ترجمة عفيفي محمود عفيفي، عالم المعرفة، ع. ٢٧٧، ص. ٤٢–٤٣.

(56) Max Weber, Science as a Vocation, dans Gerth, H. H. Mills, C. V. (dir. Publ. et trad.) from Max Weber: Essays in Sociology, Oxford, a Galxy Book, New York, 1985, p. 152.

(٥٧) نقول، معممين أو متعامين، بأن البيولوجيا "علم حق" رغم أننا نعلم بأن "الفيسيولوجيا" تختلف عن "سلوك الحيوانات"، مع أنهما معا ينتميان للبيولوجيا، بل حتى داخل فرع الدراسة الواحد، مثلا سلوك الحيوانات، نميز عادة بين سلوك الشامبانزي وسلوك الدلفين وسلوك التمساح... حيث لا تتدخل فقط الغريزة والحاجة، بل لتفاوت "الذكاء" الحيواني أيضا دخل في تفسير السلوك.

(٥٨) نقصد بالذات زملاءنا من البيولوجيا التطورية. إرنست ماير، مرجع سابق، ص. ٥٤.

(59) Edward Hallett Carr, What Is History, Cambridge University Press, 1961, third chapter: "History, Science and Morality".

(٦٠) إرنست ماير، مرجع سابق، ص. ٥٥.

(٦١) فرانسوا دوس، التاريخ المفتت، مرجع سابق، ص. ٩٥.

(62) Keekok Lee, A New Basis for Moral Philosophy, Routlege & Kegan Paul, London, 1985, p. 87 – 115.

(٦٣) يقول همبل: "كل تفسير كاف هو توقع بالقوة" (Aspects of Scientific Explanation, p. 374)؛ وبالتالي فإن معرفة المستقبل لا تختلف عن المعرفة القائمة على الملاحظة، بما أنها قابلة للتأكيد أو الدحض مستقبلاً، كما يقول رايشنباخ (The Reichenbach, Rise of Scientific Philosophy.)؛ مع إضافة تصويب بسيط هو أننا لا نتحدث عن "وقائع" بالنسبة للمستقبل، بل عن سيناريوهات/افتراضات←"هندسة"، تتحول إلى وقائع فعلاً مع الحاضر، ومن ثم الماضي.

(٦٤) نقصد طبعًا التطور من نوع إلى نوع آخر، وليس داخل النوع الواحد.

(65) Arnold Joseph Toynbee, Mankind and Mother Earth: A Narrative History of the World, Oxford University Press, 1976.

ترجمه نقولا زيادة تحت عنوان: **تاريخ البشرية**، الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت، ١٩٨٨، ج.١، ص. ١٦ –١٧.

(66) Paul Vilar, Histoire, in: Ency. Univers. T. 9, p. 421.

(٦٧) سبق لماكس فيبر أن قام بمقارنة مماثلة في كتابه الشهير: **مفاهيم أساسية في علم الاجتماع**، ترجمة صلاح هلال، المركز القومي للترجمة، ٢٠١١، ص. ٤٢.

(٦٨) غوردو، **من التاريخ إلى هندسة التاريخ**، مرجع سابق، ص. ١٧٤.

(٦٩) والمنحى نفسه تبعته العلوم التجريبية عامة.

(٧٠) **الموسوعة الفلسفية**، إشراف م. روزنتال وب. يودين، ترجمة سمير كرم، دار الطليعة، بيروت، ١٩٦٧، ص. ١٧٧.

(٧١) أكيد أن أحداثا كثيرة تقع باستقلال عن الإرادة البشرية، هي الأحداث الطبيعية، لكن الطبيعة لا تقرأ تاريخها؛ لذلك فأحداثها تستحيل إلى مجرد "رموز سلطة" تذوب في التاريخ البشري.

(٧٢) فريدريك إنجلس، **ضدو دوهرينغ**، ترجمة محمد الجندي وخيري الضامن، دار التقدم، موسكو، ١٩٨٤. ص. ١٣٣.

(٧٣) يرى شوبنهاور في الفرد وجهين: "تمثّلا" Representation " و"إرادة "Will"؛ "التمثل" منظورا إليه/الفرد من الخارج، أما "الإرادة" فمنظورا إلى الفرد من الداخل. وهي (أي الإرادة) رغبة ملحة لا تهدأ وقوة عمياء لا عاقلة، تتجاوز المألوف، وتحرك كل شيء، تستغرق الحياة الواعية وتتعداها لتشمل قوى الطبيعة اللاعضوية/ الهامدة.

Arthur Schopenhauer, the World as Will and Representation, Dover Publications, New York, 1958, Volume 1, E. F.J. Payne's Introduction, p. ix.

(٧٤) وهو ما بدأه إنجلس فعلاً في: ضد دوهرينغ، ص. ١٣٣ – ١٣٥؛ ثم تطور في أعمال لاحقة. انظر:

Arnold Reymond, Prévision scientifique et types de déterminisme, Revue de théologie et de philosophie, 1935, p. 32 – 45.

(٧٥) Merleau-Ponty, Les Aventures de la dialectique, ibid, chap. II et III.

حيث نقرأ ردودًا عنيفة على أطاريح ج. لوكاش، التي عرضها في **التاريخ والوعي الطبقي**.

(76) Erich Fromm, Escape from Freedom (The Fear of Freedom), UK, 1942, p. 90...

(٧٧) باروخ سبينوزا، **علم الأخلاق**، ترجمة جلال الدين سعيد، دار الجنوب للنشر، تونس، ص. ٣٥٣ وما بعدها؛ **ورسالة في اللاهوت والسياسة**، ترجمة حسن حنفي، دار التنوير للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ٢٠٠٥، الفصول: ١٦؛ ١٧؛ ٢٠.

(٧٨) وذلك قانون عام استنبطه سبينوزا، رسالة في اللاهوت والسياسة، ص. ٣٧٠.

(79) Emmanuel Kant, Idée d'une histoire universelle au point de vue cosmopolitique,

trad. L. Ferry, in Oeuvres philosophiques II, Gallimard, Paris, 1985, p. 187-189.

(80) Johann Gottlieb Fichte, Initiation à la vie bienheureuse, trad. M. Rouche, Aubier, Paris, 1944, p. 108 – 139.

(81) J. G. Fichte, Le système de l'éthique selon les principes de la doctrine de la science, trad. P. Naulin, PUF, Paris, 1986, p. 147.

(٨٢) سبينوزا، علم الأخلاق، آخر صفحة/٣٩٨.

(٨٣) قول يُذكّرنا بأفضلية "الحكيم" وأحقيته بإدارة المدينة "الفاضلة" كما قرر أفلاطون، وتبعه آخرون. غوردو، من تاريخ الفكر السياسي عند المسلمين، كان التاريخية، ع. ١٨، ديسمبر ٢٠١٢، ص. ١٤ – ١٦.

(٨٤) إذا كان الإنسان/المفرد، المتضمن للوعي، يتخذ قراراته (ضمن ما توفره من إمكانات) بناء على ما تحققه له من منفعة؛ فالإنسان/المجتمع ينبغي أن يتخذ قراراته أيضا بناء على "وعي جمعي" أيضًا. إننا في الحالتين معًا نتحدث عن "هندسة تاريخية" بصيغتي المفرد والجمع.

(85) Jean-Paul Sartre, Le mur, Gallimard, 1939.

(٨٦) رغم أن مشروع بطلنا نفسه باء بالفشل، لأنه ظل على قيد الحياة.

(87) J. P. Sartre, L'être et le néant, Gallimard, 1955, p. 658.

(٨٨) حيث لا تفنى الطاقة ولا تستحدث من عدم، في نظام معزول، لكنها تتحول من شكل لآخر؛ ولتنغلق الدائرة مع مونادات لايبنتز.

(89) Wilhelm von Humboldt (1821), La tâche de l'historien, trad. Annette Disselkamp et André Laks, Presses Universitaires de Lille, 1985.

(٩٠) قول سيتردد صداه لاحقا عند ريكرت H. Rickert ودرويسن J. G. Droysen وكاسيرر E. Cassirer وغيرهم.

(91) D. Hume, Les essais philosophiques sur l'entendement humain, p. 53.

(٩٢) ونديل بيل، **القيم والموضوعية في الخطاب النقدي للعلوم الاجتماعية**، ترجمة ع. غوردو وم. قدوري، مجلة المنعطف، ع. ١٢، ١٩٩٦، ص. ٦٠.

(93) Edmund Husserl, Phénomènologie, Revue philosophique de la France et de l'étranger, N° 4, 1959; et Maurice Merleau-Ponty, Phénoménologie de la perception, Paris, Gallimard, 1945, p. 3 – 5; et Bernard Sichère, Cinquante ans de philosophie française, T.I – Les années cinquante, Paris, Ministère des affaires étrangères, direction générale des relations culturelles, scientifiques et techniques, 1996, p. 37.

(94) Gottfried Wilhelm Leibniz, La Monadologie (1714), Édit. Electro. Québec, 2002.

(٩٥) ماكس فيبر، **مفاهيم أساسية في علم الاجتماع**، ص. ٥٣ وما بعدها. وننبه إلى أن فيبر جعل من التاريخ وعلم الاجتماع علوما أمبريقية في مقابل علوم دوغماتية (القانون؛ المنطق؛ الأخلاق؛ الجمال)؛ المرجع نفسه، ص. ٢٩.

(96) Henri Terrasse, Histoire du Maroc, Edition Atlantides, Casablanca, 1949, T.1, p.180.

(٩٧) عبد الله العروي، **مجمل تاريخ المغرب**، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ١٩٩٤، ج. ٢، ص.٨٠.

(٩٨) غوردو، **مبررات المدة الطويلة**، مجلة أمل: التاريخ – المجتمع – الثقافة، ع. ٢٢ – ٢٣، ٢٠٠١، ص. ١٥٤.

(٩٩) حوار مع فرنان بروديل ضمن مجلة بيت الحكمة، ع. ٥، السنة ٢، أبريل ١٩٨٧، ص. ١٩. ويبدو أن جاك لوكوف سيبحث في جذور هذه الواقعة بالذات، بعد حوالي عشرين سنة من "نبوءة" بروديل، في عمله الرائد: هل ولدت أوربا في العصر الوسيط؟

Jacques Le Goff, L'Europe est-elle née au Moyen Age?, Paris, Seuil, 2003.

(١٠٠) معروف بأن التمام غير الكمال؛ ونحن نقصد هنا فقط الإجراءات الوحدوية الواسعة على مستوى الامتداد والتشريعات والعملة.

(١٠١) العروي، **مجمل تاريخ المغرب**، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ١٩٩٩، ج. ٣، ص. ٩.

(١٠٢) **مجمل تاريخ المغرب**، ج. ٢، ص. ١٣٦ – ١٣٧.

(١٠٣) نفسه، ص. ٨١.

(١٠٤) نفسه، ص. ٩٠ – ٩١.

(١٠٥) نفسه، ص. ٣٧.

(106) Erich Fromm, The Revolution of Hope: Toward a Humanized Technology, Harper and Row, Publishers, New York, 1968, p. 26.

(١٠٧) فرنان بروديل، بيت الحكمة، مرجع سابق، ص. ٣٤.

(١٠٨) المفهوم من اقتراح العروي الذي ميز جيدا بين "الأراخ" و"المؤرخ"، **مفهوم التاريخ**، مرجع سابق، ج. ١، ص. ٤٣ وما بعدها. غير أن كتابات العروي "التاريخية" لا تبرز فيها وقائع الحاضر إلا انعكاسًا شاحبًا لوقائع الماضي، وكان ينبغي أن يحصل عكس ذلك تمامًا؛ فهل تكفي الـ"ضميمة" التي أنهى بها عصارة بحثه التاريخي (**المجمل**، ج. ٣، ص. ٢٢٩...) لتمحو بعض هذا الشحوب؟

(١٠٩) قد بينا فساد نظريته في مكان آخر. انظر: عودة إلى ابن خلدون: العصبية والارتزاق بالدولة المركزية المغربية الوسيطة. نشر عدة مرات.

ISSN: 2090 – 0449 Online
UIF Universal Impact Factor, [0.1101].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [0.88].

مظاهر اهتمام حكام دولة بني رسول في اليمن بالعلـــوم الطبيـــة

أ.د. محمد أحمد الكامل
أستاذ التاريخ الإسلامي وحضارته المشارك
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
جامعة صنعاء – الجمهورية اليمنية

مُلَخّصْ

شهد عصر حكم الدولة الرسولية في اليمن (٦٢٢-٨٥٨هـ/ ١٢٢٩-١٤٥٤م) نهضة متميزة في مختلف الجوانب الحضارية وعلى رأسها النهضة العلمية المتميزة في مختلف مجالات العلوم، ويعود ذلك إلى اهتمام حكام هذه الدولة بهذا المجال وتشجيعه بمظاهر مختلفة ومنها اسهاماتهم العلمية في مختلف أنواع العلوم النظرية والتطبيقية. وتعرض هذه الدراسة لمظاهر اهتمامهم بالعلوم الطبية، التي تنوعت ابتداءً بالاهتمام بالرعاية الصحية الميدانية، واستجلاب وتشجيع الأطباء الذين كانوا في الوقت نفسه علماء مؤلفين في الطب، والطلب من بعضهم التأليف في موضوعات طبية معينة، ثم تصديهم للتأليف والتلخيص والشرح والاختصار، في هذا الجانب العلمي في مختلف جوانبه، الطب والصحة البشرية، الصيدلة، والأدوية، البيطرة، التي تم العرض لها في هذه الدراسة وذلك من خلال ما وصلنا من هذه المؤلفات (مطبوع ومخطوط) ومن خلال ما ذكر عنها في مصادر متنوعة.

بيانات الدراسة:
تاريخ استلام البحث: ١٠ يناير ٢٠١٧
تاريخ قبـول النشـر: ٢٤ مايو ٢٠١٧

كلمات مفتاحية:
تاريخ اليمن, الدولة الرسولية, الأمراض والأوبئة, الرعاية الصحية, العلوم الطبية

معرِّف الوثيقة الرقمي: DOI 10.12816/0047283

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:
محمد أحمد الكامل, "مظاهر اهتمام حكام دولة بني رسول في اليمن بالعلوم الطبية".- دورية كان التاريخية.- السنة العاشرة- العدد الثامن والثلاثين؛ ديسمبر ٢٠١٧. ص٢٦ – ٣٨.

مُقَدِّمَةُ

شهد عهد حكم دولة بني رسول في اليمن (من سنة ٦٢٢-٨٥٨هـ/ ١٢٢٩- ١٤٥٤م) نهضة علمية غير مسبوقة في تاريخ حكم الدويلات الإسلامية في اليمن، وذلك في مختلف مجالات العلوم والمعارف: الشرعية والإنسانية والتطبيقية، وكان لحكام هذه الدولة الإسهام الكبير في نهضة هذه العلوم وازدهارها سواء أكان ذلك من حيث التشجيع والدعم وتهيئة المناخ الملائم، أم من حيث الإسهام في خوض غمار هذه العلوم درسًا وتأليفًا، وهذه الدراسة تلقي الضوء على مظاهر هذا الاهتمام وذلك الإسهام في جانب من جوانب العلوم التطبيقية المتعددة، ذلك هو جانب العلوم الطبية بمجالاتها المختلفة: البيطرة والصيدلة وعلم الأبدان والأمراض. وذلك في ضوء اهتمامهم بالرعاية الصحية لرعايا وبيئة دولتهم. وسنعرض لأبرز مظاهر ذلك الاهتمام فيما يلي:

أولاً: الرعاية الصحية الميدانية

حرص حكام بني رسول –ميدانيًا- على إيجاد بيئة صحية في مناطق حكمهم في اليمن، تحد من ظهور وانتشار وتفشي الأمراض؛ فمما لاشك أن تفشي الأمراض والأوبئة التي طالت مناطق عدة في اليمن في عهد هذه الدولة[١]؛ يُعَدّ من أبرز عوامل اهتمام بني رسول بتوفير بيئة صحية وخدمية تحد من ظهور وتفشي تلك الأمراض، يتمثل ذلك عمليًا في الحفاظ على البيئة والغطاء النباتي ورعايته[٢]، وإنشاء البساتين والمتنزهات الصحية[٣]، وإقامة الحمامات والمطاهير، ودور المضيف، والمرافق الصحية والخدمية الأخرى الملحقة بالمدارس والمساجد والأربطة والزوايا وحبس الأوقاف السخية لصالحها لتستمر في

رسائلها[٤]، وكذا إنشاء وإصلاح وتعبيد الطرقات والجسور والقناطر والدروب الآمنة[٥]، وإيجاد مناطق بيئية صحية وآمنة للنقاهة وبعضها لنقل بعض المرضى إليها لاسيما أصحاب الأمراض المعدية، أو نقل السكان من مناطق حروب إلى مناطق آمنة خوفا على سلامتهم[٦]، وكذا إنشاء قرى ومدن في مواقع صحية وآمنة والتشجيع على سكناها، ويرجح طه حسين وجود وحدات ومرافق طبية وصحية صغيرة في المدن الرئيسية والمناطق الموبوءة[٧]، والاهتمام ببعض الألعاب والسباقات الرياضية[٨]، والحرص على تأمين الغذاء والكساء والدواء لعدد من شرائح المجتمع الفقيرة والمعدمة ومحدودة الدخل، ومسامحة المزارعين والعلماء من الجبايات حال العسر والجدب.[٩]

واهتم حكام بني رسول بشريحة الأطباء- الذين زاولوا مهنة الطب وإعداد الوصفات الطبية- في قصورهم[١٠] وفي مناطق ملكهم [١١]، واستقدام أطباء من خارج اليمن[١٢]، وقد حظيت شريحة الأطباء بمكانة متميزة لدى سلاطين وأمراء هذه الدولة، فعلى سبيل المثال كان في بلاط السلطان المنصور عمر بن علي مؤسس الدولة، طبيبا من طائفة اليهود كان مقربًا من السلطان وذو مكانة لديه لدرجة تجاوزه سلوكيات حقوق وآداب أهل الذمة في دار الإسلام مما أثار حفيظة بعض العلماء ضده وضد السلطان الذي يعمل لديه[١٣] وسار سلاطين الدولة من بعده على المنوال نفسه بالاهتمام بالأطباء وتقريبهم وإغداقهم بالعطايا والهبات الجزيلة.[١٤]

ثانيًا: الاهتمام بالعلوم الطبية

تجسد اهتمام حكام الدولة الرسولية في اليمن بالعلوم الطبية من أوجه كثيرة، كرعاية علماء الطب الذين صنفوا عددًا كبيرًا من المؤلفات الطبية على الساحة اليمنية خلال ذلك العصر ومنهم علماء طب وافدون[١٥]، وتشجيع الرحلة من اليمن إلى خارجها لتعلم الطب ومن ثم العودة للممارسة الطب وتعليمه في اليمن[١٦]، وإرسال من يقتني الكتب والعقاقير الطبية من خارج اليمن للاستفادة منها[١٧]، وكذلك تشجيع تدريس مواد طبية في بعض المرافق التعليمية والخدمية وهي أشبه بدورات متخصصة كانت تقام في بعض المرافق ومنها دار المضيف التي كان ينزل بها بعض العلماء في الطب[١٨]، وكذا تعلمهم هذا الصنف من العلوم وتشجيع أبنائهم على تعلمه، ثم خوضهم التأليف مجالاته المختلفة يتضح ذلك من خلال كتاب السلطان المظفر يوسف الرسولي إلى السلطان الظاهر بيبرس صاحب مصر بعد أن فتح الأول ظفار الحبوضي ووجد مدينة ظفار وبيئة يطلب منه إرسال طبيب كما سبقت الإشارة إليه – فقال: "ولا يظن المقام العالي أننا لا نريد الطبيب لأنفسنا فإنا نعرف بحمد الله من الطب مالا يعرفه غيرنا وقد اشتغلنا فيه أيام الشبيبة انشغالاً كثيرًا وولدنا عمر من العلماء بالطب وله كتاب الجامع ليس لأحد مثله" [١٩]، ولعل أبرز مَنْ خاض من حكام بني رسول غمار التأليف في مجلات علوم الطب من يلي:

١/٢-المظفر يوسف بن عمر (٦٤٧- ٦٩٤هـ/ ١٢٤٩- ١٢٩٤م)

يُعَدّ السلطان المظفر يوسف – ثاني سلاطين دولة بني رسول- من أشهر سلاطين الدولة وأقواهم وأعلمهم، فقد كان عالما أخذ حظا وافرا من العلم على كبار علماء عصره في مختلف فروع العلوم والمعارف، وكان مُكرِما للعلماء مقربًا إياهم ومتقربًا منهم، وله العديد من المدارس والمنشآت التعليمية والخيرية وكانت له مكتبة راجع مؤلفاتها وضبطها بخطه وكان له باع في مجال التأليف في كثير من العلوم لاسيما في علم الطب الذي كان له فيه يد طولي[٢٠]، ومن أشهر كتبه في هذا المجال ما يلي:

- **(المعتمد في الأدوية المفردة):** طبع الكتاب أكثر من طبعة ويعد من أشهر كتب الطب في عصره فقد جمع فيه المؤلف مفردات في الطب ورتبها على حروف المعجم، يقول المؤلف في مقدمته: "فإني اختصرت هذا الكتاب من كتب كبار جمعت التطويل والإسهاب ولم أذكر إلا الموجود دونما يعسر على الطلاب... واستخرجته من كتاب الحكيم... عبد الله بن البيطار المغربي (الجامع لقوى الأغذية والأدوية) ومن كتاب ابن جزلة المعروف بـ (المنهاج) ومن كتاب أبي الفضل التفليسي، ومن (أبدال) الزهراوي... و(أبدال) ابن الجزار.... ورتبته على حروف المعجم ليكون أقرب تناولا وأفهم".[٢١]

– **(البيان في كشف علم الطب للعيان)** ذكر الزركلي أنه في مجلدان ضخمان رآه في خزانة الشيخ العبيكان في مدينة الطائف.[٢٢]

٢/٢-الأشرف عمر بن المظفر يوسف (٦٩٤- ٦٩٦هـ/ ١٢٩٥- ١٢٩٦م)

هو ثالث حكام دولة بني رسول، ورغم مدة حكمه القصيرة؛ إلا أن له آثار ونجاحات واضحة في الجوانب السياسية والحضارية والعلمية على وجه الخصوص، فقد أشادت المصادر بمشاركاته العلمية الواسعة وتلقيه على كبار علماء عصره، وشارك في تصنيف العلوم المختلفة[٢٣] يقول عنه الأفضل في العطايا السنية[٢٤] "... محبًا لمجالسة العلماء ومصاحبة الفقهاء وبلغ درجة عالية في المعرفة ورتبة سامية في العلوم، وكان متقنا في كل فن باحثا في كل مذهب حتى أنه كان يفتي في عشرة علوم وله التصانيف في كل فن ومؤلفاته غزيرة جليلة" ومنها في علم الطب الذي برع فيه – كما تدلنا- رسالة والده السابقة إلى الظاهر بيبرس- وقد ألف الطبيب محمد بن أحمد الحموي (ت. بعد سنة ٧٠٠هـ/ ١٣٠٠م) كتابًا في الطب برسم- مخصصًا- السلطان الأشرف[٢٥] سماه: "البيان في كشف أسرار الطب للعيان" قدمه للأشرف عمر الذي كان شغوفًا بعلم الطب، ويدل

في مقدمته على هذه المكانة والشغف العلمي التي تحلى بها الأشرف بعلم الطب حيث قال فيها: "... رأيت أن أخدم بابه العالي لأنال مرفوع العمل بالعلم بكتاب اجمع فيه من هذا الفن غريبة وأنظم في سلكه عجيبة يشتمل على جميع أجزاء صناعة الطب من علمها وعملها في حفظ الصحة وذكر الأمراض وأسبابها والأعراض اللازمة لها والعلامات الدالة عليها، والعلاج والتدبير بالأدوية والأغذية مما جربته القدماء واختارته وصحت لهم منفعته، وانتزعته من زبد كتب القدماء وأفاضل المحدثين من أهل هذه الصناعة، وسلكت فيه طريقًا متوسطًا، بين الإيجاز الغامض والتطويل المضجر وهو ما يتحرج به المتعلمون ويتضجر به الكاملون في حفظ الصحة على الأصحاء وردها على المرضى، لأتقرب بذلك إلى الخاطر الشريف، وليتم على سعده المنيف، يستغني بهذا الكتاب الناظر فيه عن خزانة كتب طبية، لما فيه من الغرائب والفنون المبوبة، وليس بالنسبة إلى علم من رسم باسمه وعمل برسمه، إلا كنسبة القطرة من المطرة، والنفحة من الزهرة..."[٢٦] ومن مؤلفات الأشرف عمر في هذا العلم ما يلي:

- **(الأبدال لما علم في الحال)**[٢٧]. وهو في علم الأدوية قال في مقدمته: "هذا الكتاب جمعت فيه ما وجدته من أبدال الأدوية المفردة في الطب، إذا كان منها عند الحاجة قد يعلم فيبدل عنه ما قالت الحكماء أنه بدل له أو قريب أو في درجته، وألفته على حروف المعجم ليكون أقرب لطالبه وأفهم ولم أودع فيه إلا ما قاله من تقدم..." [٢٨].
- **(الجامع في الطب)** سبقت إليه الإشارة في الكتاب الذي أرسله والده إلى الظاهر بيبرس يطلب فيه طبيبا لمدينة ظفار التي أصابها وباء حال دخوله إليها.[٢٩]
- **(شفاء العليل)** كتاب في الطب يقول عنه الأفضل[٣٠] "...ولو لم يكن له من مؤلفاته غير "شفاء العليل في الطب" لكفاه شاهدا لفضله وعنوانًا لنقله، فإنه طمس آثار من قبله، وجلى به ظلام ما لم يوضحه الأوائل، ورتبه ترتيبًا عجيبًا، ونقحه تنقيحًا غريبًا..."
- **(المعتمد في مفردات الطب)** ذكر هذا الكتاب بعناوين مختلفة[٣١] ويبدو أنه هو نفسه كتاب المعتمد المذكور أعلاه لوالده.[٣٢]
- **(المغني في البيطرة)** وهو في الطب البيطري – أحد أهم أركان علم الطب الذي حظي باهتمام ملوك بني رسول، وتوجد من هذا الكتاب نسخ خطية في بعض المكتبات اليمنية والعربية والعالمية واليمنية[٣٣]، وقد اطلع علي بن علي خلال إعداده رسالته للماجستير عن (الحياة العلمية في تعز عصر بني رسول) على نسخة محفوظة بجامعة أم القرى مصورة عن نسخة دار الكتب المصرية[٣٤]، نقتبس ما جاء في رسالته حول هذا الكتاب وأبوابه على النحو التالي[٣٥]:" ... قال في مقدمته:

(هذا كتاب مختصر جمعناه فيما جربناه وجربه أهل الخبرة من حكماء الخيل من أهل اليمن في أمراض الخيل وما يعرض لها من سائر أنواع الأمراض وأسبابها وعلاماتها وعلاجاتها، فخير الكلام ما قل ودل وما أمل، واقتصرنا على ما ذكرناه مما لا يستغني عنه من ذكر ألوانها وصفة خلقا وما يستحسن منها وما يستقبح، وقد رتبه على مقدمة وتسعين بابًا على النحو التالي:

الباب الأول:	في ذكر ألوان الخيل وصفاتها وأجناسها واحدا بعد واحد.
الباب الثاني:	في ذكر أسماء الخيل وصفاتها وما يحمد منها وما يذم من العلامات الجيدة لأهل الهند وغيرهم.
الباب الثالث:	في تفسير أسنان الخيل وعلاماتها وعلاجها.
الباب الرابع:	في رياضة الخيل وتأديبها وذكر صفات لجمها.
الباب الخامس:	في ذكر أفعال الخيل والدواب وأصناف ذلك.
الباب السادس:	في ذكر الجرد البقري وسببه وعلامته وعلاجه.
الباب السابع:	في ذكر الجرد العظمي وسببه وعلامته وعلاجه.
الباب الثامن:	في ذكر مرض خنان المفاصل وسببه وعلامته وعلاجه.
الباب التاسع:	في ذكر الخنان الرطب واليابس وسببه وعلامته وعلاجه.
الباب العاشر:	في ذكر مرض زقي الهر في التبن وسببه وعلامته وعلاجه.
الباب الحادي عشر:	في ذكر فقر الدم وسببه وعلامته وعلاجه.
الباب الثاني عشر:	في ذكر حبوب تطلع في الفرس وسببها وعلامتها وعلاجها.
الباب الثالث عشر:	في ذكر أمراض الحمر، وهو من ثلاثة أشياء وسببها وعلامتها وعلاجها.
الباب الرابع عشر:	في ذكر أمراض الخنازير وسببها وعلامتها وعلاجها.
الباب الخامس عشر:	في ذكر أمراض الانتشار وسببه وعلامته وعلاجه.
الباب السادس عشر:	في ذكر مرض السرطان وسببه وعلامته وعلاجه.
الباب السابع عشر:	في ذكر مرض الخلد الطيار، وهو الجذام للخيل وسببه وعلامته وعلاجه.
الباب الثامن عشر:	في ذكر مرض الفرك والخلع وسببه وعلامته وعلاجه.

الباب التاسع عشر: في ذكر مرض انحلال كفل الفرس وعراجه، وسبب ذلك وعلامته وعلاجه.

الباب العشرون: في ذكر ضيق الحافر للفرس والدابة وسببه وعلامته وعلاجه.

الباب الحادي والعشرين: في ذكر مرض التكبد وسببه وعلامته وعلاجه.

الباب الثاني والعشرين: في ذكر مرض الجرذون وسببه وعلامته وعلاجه.

الباب الثالث والعشرين: في ذكر مرض النملة وسببها وعلامتها وعلاجها.

الباب الرابع والعشرين: في ذكر قوة رأس الفرس وسببه وعلامته وعلاجه.

الباب الخامس والعشرين: في ذكر مرض الكزاز وحرق النار وسببه وعلامته وعلاجه.

الباب السادس والعشرين: في ذكر مرض القصر– وسببه وعلامته وعلاجه.

الباب السابع والعشرين: في ذكر النفاخ ورياح التقطيع وسببه وعلامته وعلاجه.

الباب الثامن والعشرين: في ذكر مرض الطابق وهو انخلاع الحافر وسببه وعلامته وعلاجه.

الباب التاسع والعشرين: في ذكر مرض الرهصة والدابة وسببها وعلامتها وعلاجها.

الباب الثلاثون: في ذكر حبوب تطلع في وجه الفرس وسببها وعلامتها وعلاجها.

الباب الحادي والثلاثين: في ذكر مرض القولنج حارًا وباردًا وسببه وعلامته وعلاجه.

الباب الثاني والثلاثين: في ذكر مرض الشظا في يد الفرس وسببه وعلامته وعلاجه.

الباب الثالث والثلاثين: في ذكر الظفر في العين والبياض بها وسببها وعلامتها وعلاجها.

الباب الرابع والثلاثين: في ذكر البرص والبياض والأكلة في عين الفرس أو الدابة وسببه وعلامته وعلاجه.

الباب الخامس والثلاثين: في ذكر الماء الأسود في العين وسببه وعلامته وعلاجه.

الباب السادس والثلاثين: في ذكر الزباد وسببه وعلامته وعلاجه.

الباب السابع والثلاثين: في ذكر مرض الشرا وسببه وعلامته وعلاجه.

الباب الثامن والثلاثين: في ذكر المخاضي وسببه وعلامته وعلاجه.

الباب التاسع والثلاثين: في التجشيب وسببه وعلامته وعلاجه.

الباب الأربعون: في ذكر مرض الحمى وسببها وعلامتها وعلاجها.

الباب الحادي والأربعين: في عراج بيت السبق وسببه وعلامته وعلاجه.

الباب الثاني والأربعين: في ذكر عرق النساء وسببه وعلامته وعلاجه.

الباب الثالث والأربعين: في ذكر مرض السلع وورم الركب من الملح وغير وسببه وعلامته وعلاجه.

الباب الرابع والأربعين: في ذكر مرض السقاوات وسببها وعلامتها وعلاجها.

الباب الخامس والأربعين: في مرض السعال وسببه وعلامته وعلاجه.

الباب السادس والأربعين: في ذكر الأثاليل في الفرس وسببها وعلامتها وعلاجها.

الباب السابع والأربعين: في ذكر الراؤول والتابوت في الفرس وسببه وعلامته وعلاجه.

الباب الثامن والأربعين: في ذكر الخرزتين والسامتين

الباب التاسع والأربعين: في ذكر صهيل الفرس وانقطاع صوته وسببه وعلامته وعلاجه.

الباب الخمسون: في ذكر الأخنف من الخيل والأصدف.

الباب الحادي والخمسين: في ذكر مرض الدنية وسببه وعلامته وعلاجه.

الباب الثاني والخمسين: في ذكر مرض الثوية وسببه وعلامته وعلاجه.

الباب الثالث والخمسين: في ذكر حبوب تطلع تحت عين الفرس وسببها وعلامتها وعلاجها.

الباب الرابع والخمسين: في ذكر مرض الحصر– وسببه وعلامته وعلاجه.

الباب الخامس والخمسين: في ذكر زمن الفرس وسببه وعلامته وعلاجه.

الباب السادس والخمسين: في علاج الدابة إذا كانت تلهث من غير علة.

الباب السابع والخمسين: في ذكر هزال الدابة أو الفرس وسببه وعلامته وعلاجه.

الباب الثامن والخمسين: في ذكر العقر في الفرس أو الدابة وسببه وعلامته وعلاجه.

الباب التاسع والخمسين: في ذكر السعوط للخيل وسائر الدواب الكبار منها والصغار.

الباب الستون: في صفة توقيح الحوافر إذا كان فيها الشقاق والدود وسببه وعلامته وعلاجه.

الباب الحادي والستين: في علاج البغلة الطالب وعلاجها إذا كانت تكثر الصياح.

الباب الثاني والستين: في معرفة ما يسمى الدواب وما يهزلها وصورة علفها وسقيها.

الباب الثالث والستين: في ذكر البشم والتخم وسببها وعلامتها وعلاجها.

الباب الرابع والستين:	في ذكر مرض الحناك وسببه وعلامته وعلاجه.
الباب الخامس والستين:	في ذكر الحافر إذا انقلبت وارتخى العصب وسببه وعلامته وعلاجه.
الباب السادس والستين:	التشمير في الفرس أو الدابة وسببه وعلامته وعلاجه.
الباب السابع والستين:	في معرفة كيف تطيب الحجرة حتى تحبل وذكر القفاز والنتاج.
الباب الثامن والستين:	في الحجر إذا مات والدها في بطنها وسببه وعلامته وعلاجه.
الباب التاسع والستين:	في علاج لسعة الحنش والحية والعقرب.
الباب السبعون:	في ذكر علاج الحقول من سائر الدواب.
الباب الحادي والسبعين:	في معرفة ما ينبت شعر الدابة إذا نحلق من نفسه أو من لزقة أو كي.
الباب الثاني والسبعين:	في ذكر ما يستعمل لصحة الدواب في سائر الأوقات. الباب الثالث والسبعين: في ذكر الحجر الحقوق وسببها وعلامتها وعلاجها.
الباب الرابع والسبعين:	في صفة إخراج العلق من فم سائر الدواب.
الباب الخامس والسبعين:	في ذكر خصي الفرس الكبير وسائر الدواب.
الباب السادس والسبعين:	في عدد عروق الفرس وكم يفصد منها.
الباب السابع والسبعين:	في ذكر أسماء البغال.
الباب الثامن والسبعين:	في معرفة ألوان البغال.
الباب التاسع والسبعين:	في صفات البغال والجيد منها والرديء وما يختار للركوب ولحمل الأثقال.
الباب الثمانون:	في علاج ما يعرض للبغال من جميع العلل.
الباب الحادي والثمانين:	في ذكر الحمير والجيد ومنها والرديء وذكر ألوانها.
الباب الثاني والثمانين:	في ذكر أمراض الحمير وسببها ولاكتها وعلاجها.
الباب الثالث والثمانين:	في أسماء الإبل وألوانها والجيد والرديء وذكر أسنانها.
الباب الرابع والثمانين:	في ذكر أمراض الإبل أسنانها وعلامتها وعلاجها.
الباب الخامس والثمانين:	في معرفة أصناف الجمال المتفق عليها في بلاد التهائم جميعها وما يصلح للمناخ منها وما لا يصلح وذكر الهجن المجلوبة.
الباب السادس والثمانين:	في ذكر أمراض الجمال وما ينبغي أن يفتقد في سائر الأوقات وذكر مراعيها وحسيكها وعلفها.
الباب السابع والثمانين:	في ذكر أسماء البقر وألوانها.
الباب الثامن والثمانين:	في ذكر أمراض الضأن وسببها وعلامتها وعلاجها.
الباب التاسع والثمانين:	في ذكر أمراض الضأن وسببها وعلامتها وعلاجها.
الباب التسعون:	في ذكر أمراض المعز وسببها وعلامتها وعلاجها.

٢/٣-المجاهد علي بن المؤيد داود (حكم ٧٢١-٧٦٤هـ/ ١٣٢١- ١٣٦٣م)

رغم سوء طالعه السياسي حيث تميزت مدة حكمه منذ توليه بالصراعات السياسية في كل اتجاه حتى داخل الأسرة، فإنه وصف بأنه كان مشاركًا في عدد من العلوم وأنه أعلم بني رسول وأنه كان شاعرًا فصيحًا محبًا للعلماء، وهو الذي مدن ثعبات في تعز وبنى سورها واخترع فيها المخترعات العجيبة والبساتين الرائقة وبنى فيها القصور العجيبة والغريبة، وهو الذي بنى الجهملية – المعروفة اليوم بالجحملية في تعز- وأقام أسوارها. وأنشأ عدد من المساجد والمدارس منها مدرسته التي أنشأها في مكة المكرمة ملاصقة للحرم الشريف وأوقف عليها ما يقوم بكافيتها وكفاية المرتبين فيها من المدرسين والطلبة والعاملين، وأنشأ عدد من المدارس والمساجد في تعز وزبيد ومناطق تهامة، ووصف بالعدل والرفق بالرعية وكانت له مشاركات علمية واسعة في مختلف العلوم درسًا وتأليفًا، لاسيما في علم الفلاحة والبيطرة،[٣٦] ومن الآثار العلمية المؤلفة التي تنسب له في علم البيطرة:

(الأقوال الكافية والفصول الشافية في – البيطرة- الخيل)[٣٧]

قال فيه بحسب الحبشي: "أحببت أن أجمع مختصرًا أودعه ما أحاط به معرفة علمي ومعرفتي عيانًا أو مباشرة وأذكر فيه ما يحمد منها "أي الخيل" وما يذم وما يستحب وما يكره وما يجب على السايس والرائض أن يتعهد من مداراة أخلاقها ومداراة أمراضها وعللها ما سأبينه في مواضعه إن شاء الله من الكتاب لتكون حجة لراوية وتبصرة لرائية وكنت أول من عنى بجمع فضائلها والحق ذكر أواخرها بذكر أوائلها إذا كانت من خصائص العرب ومناسب اليمن ولم أقتصر على ذكر الخيل العربية منها دون غيرها بل أضفت إليها أصناف الخيل والبراذين والبغال والحمير، وألحق أيضًا بها ذكر الجمال وأنسابها".

قسمه على فصول أو أقوال:

الفصل الأول: فيما جاء في فضائل الخيل ومحمودها في الكتاب العزيز والحديث والحث على إكرامها وأول من ركبها وأنسابها.

الفصل الثاني: في صفاتها وخلقها وألوانها وسياستها وأسمائها ومحمودها ومذمومها ودوائرها وما يستحب منها وما يكره وما يجوزه أهل الهند منها وذكر عتاقها وهجانها ومقرمها.

الفصل الثالث: في ذكر حملها ونتاجها وتربيتها وسياستها وأنسابها ورياضتها وسباقها وأعمارها ومدة الانتفاع بها وما جاء من الأخبار في السابق في الجاهلية والإسلام.

الفصل الرابع: في ذكر أمراضها وأسبابها ومداواتها وذكر العلة التي حدثت سنة ٧٢٧ هـ بإقليم اليمن.

الفصل الخامس: في ذكر أسماء الخيل المشهورة في الجاهلية والإسلام، وما جاء فيها من الأخبار وذكر ما اشتهر في المملكة اليمنية ثم في المملكة الرسولية من "خيولنا وخيول آبائنا وأجدادنا وما اتصل من أخبارها".

الفصل السادس: في ذكر خيول العجم والبراذين والبغال وما يحمد منها وما يذم وذكر الجمال.

وبحسب قول علي بن علي عن النسخة المطبوعة بتحقيق الجبوري عن دار الغرب الإسلامي، ما يلي[٣٨]: قال في مقدمته: "أما بعد: فإني نظرت بناظر القلب وتمييز العقل فيما أنعم الله به من نعم الصافية والمنن الضافية، وما فضل به بعضهم على بعض مما يقصر عنه شكر الشاكرين، وتكل دون بلوغه ألسن الذاكرين، فرأيت الخيل من أجِّل المواهب الجليلة وأنبل النعم النبيلة، خص الله بها من أراد من العباد وجعلها عزا وقوة للمجاهدين في سبيله عند الجهاد، و إرهابا لمن حارب الله ورسوله من أولي الإلحاد، فقال تعالى: "وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ" سورة الأنفال: آية ٦٠"، ثم جعلها أشرف المخلوقات بعد الآدميين وأفضل ذوات الأربع زينة وأعجبها خلقا وحسنا وأزينها...".

وقال أيضًا: "وإني لما أشرب في قلبي من محبة الخيل والإعجاب بها والاستحسان لها ومقاناتها واختبار أخلاقها واختيار عتاقها وتعرف أحوالها وإدمان ركوبها، لم أزل أرتبطها في مجالسي وآنس بها كأنسي بمجالسي، وأباشر علفها ومرابطها، وأعاني رياضتها وتأديبها وتمرينها وتعليمها وتفقد آلتها وتغيير لجامها وإصلاحها وإسراجها وإلجامها في ليلي ونهاري وإقامتي وإسفاري من لدن حداثة السن وقرب المولد، ولم تزل الأيام تجدد حبي لها في ل يوم جديد، وأقول للذة النفس هل امتلأت فتقول عل من مزيد.

ثم إني نظرت في كثير من الكتب المصنفة في ذكر الخيل فرأيت أكثرهم يحيل على غيره، ويقلد سواه لاعن حقيقة رؤية بعين ولا مباشرة بنفس إلا قليلاً منهم.

ولم أقل هذا إزراء بهم ولا تطاول عليهم، إذ كانت الخيل مختلفة الأصناف والأخلاق كثيرة المحاسن والمساوئ، لا يقدر أحد أن يحيط بمعرفة أوصافها مما يشاهد منها وما لا يشاهد، ولكن يستدل بالمسموع على المشهود، كالطبيب الحاذق يعالج ما يراه بما يسمعه من كلام غيره مع لطف نظره وكثرة تجاربه، لا أن يعول على التقليد، فأن المقلد في أحواله يفتضح عند الامتحان".

وقال أيضًا في مقدمته: (ورأيت في زماننا مَنْ يتعاطى معرفة الخيل ويكثر التفهيق والثرثرة في الكلام عليها ويوهم العامة أنه في الغاية القصوى في العلم، ولو سئل عن دائرة من دوائرها أو شيء من أحوالها وأوصافها لم يعرفه، أو لو أريد منه إصلاح فساد فرس أو تعليمه شيئا مما يراد به أو رياضة مهر أو تذليل صعب لم يحسن شيئًا من ذالك وربما أفسد ما هو صالح. فأحببت أن أجمع مختصرًا أودعه ما أحاط به علمي معرفة، ومعرفتي عيانا ومباشرة، وأذكر فيه ما يحمد منها وما يذم، وما يستحب وما يكره وما يجب على السائس والرائض أن يتعهده من مداراة أخلاقها ومداواة أمراضها وعللها مما سأبينه في مواضعه إن شاء الله تعالى من الكتاب ليكون حجة لرواية وتبصرة لرائيه.

وكنت أولي من عني بجميع فضائلها وألح ذكر أواخرها بذكر أوائلها إذ كانت من خصائص العرب ومناشب اليمن، ولم أقتصر على ذكر الخيل العربية منها دون غيرها، بل أضفت إليها ذكر أصناف الخيل و البراذين والبغال والحمير، إذ كانت داخلة في حيز الزينة التي ذكرها الله عز وجل في كتابه العزيز في قوله تعالى (وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً "سورة النحل: آية ٨)، وألحقت بها أيضًا ذكر الجمال وأنسابها، لأنها أيضا مما تختص بها العرب وتختارها الملوك، وقصدت الاختصار والإيجاز مع استيفاء المراد، وأدخلت في أثناء كلامي ما لابد منه من كلام من سبق من المصنفين المحققين في هذا الفن، والاستشهاد على فضلها بما نزل فيها من كتاب الله عز وجل والحديث النبوي على صاحبه أفضل الصلاة والسلام، وما جرى من أخبارها في الجاهلية والإسلام، وما أشتهر منها بأسمائها وذكر من صفاتها وألوانها و شياتها ودوائرها وأمراضها ومداواتها وبرئها وحملها ونتاجها وتربيتها وركوبها وترتيب أسنانها ومدة الانتفاع بها. وأتبعت ذالك بذكر ما أشتهر منها في ملكي وخيول أبائي وأجدادي رحمهم الله تعالى، وما أشتهر في المملكة اليمنية...).

وقد رتب كتابه المذكور على ستة أقوال:

القول الأول: فيما جاء في فضائل الخيل في كتاب العزيز عن النبي صلى الله عليه وسلم والحث على إكرامها وذكر أوائلها وأنسابها، وأول من ركبها وما جاء في ذالك من الأخبار.

القول الثاني: في ذكر صفاتها وخلقها وألوانها وأنسابها ومحمودها ومذمومها، ودوائرها وما يستحب منها وما يكره وما يختاره أهل الهند منها، وذكر عتاقها وهجانها ومعرفتها.

القول الثالث: في ذكر حملها ونتاجها وتربيتها وسياستها وأنسابها، وركوبها ورياضتها وهيئة سباقها وأعمارها ومدة الانتفاع بها وما جاء من الأخبار في السباق في الجاهلية والإسلام.

القول الرابع: في ذكر أمراضها وأسبابها ومداواتها وذكر العلة التي حدثت بها في سنة (٧٢٨هـ/ ١٣٢٧م).

القول الخامس: في أسماء الخيل المشهورة في الجاهلية والإسلام، وذكر سباقها وما جاء في ذلك من الأخبار، وذكر ما أشتهر منها في المملكة اليمنية الرسولية.

القول السادس: في ذكر البراذين والبغال وخيول العجم والحمير، وما يحمد منها وما يذم وذكر الجمال،(١)، كما صنف أيضًا التذكرة في معرفة البيطرة، وله أيضا كتاب في الخيل وصفاتها وأنواعها وبيطرتها.

- **(كتاب في الخيل وصفاتها وأنواعها وبيطرتها)**. رآه الحبشي ونقل عنه...جاء في أوله: هذه نكت مستحسنة وجدت تعاليق بخط السلطان المجاهد في خدمة السايس لها أعني الدواب كافة والخيل خاصة وقد علمنا أمورهم وما يفعلون من خدمتهم... إلخ" ولعله – بحسب الحبشي– نفس الكتاب السابق[٣٩].

وله:

- **(التذكرة في علم البيطرة)**.[٤٠]
- **(كتاب الجوارح والحمام)**.[٤١]

٢/٤-الأفضل العباس بن المجاهد علي (حكم ٧٦٤- ٧٧٨هـ/ ١٣٦٣- ١٣٧٦م)

يُعَدّ الأفضل من أشهر حكام الدولة الرسولية، فإلى جانب حنكته السياسية والإدارية والعسكرية في المحافظة على هيبة واتساع الدولة، فقد وصف الأفضل بأنه كان ملكًا شهمًا يقظًا حازمًا ذكيًا شجاعًا شديد البأس، وكان كريمًا عدلاً رؤوفًا بالرعية، وكان مشاركًا للعلماء في عدة فنون، فكان عارفًا بالنحو والآداب واللغة والسِّيَر والتواريخ، والفلك والطب....إلخ فيُعَدّ من أكثر ملوك بني رسول في اليمن إنتاجا، وله مؤلفات كثيرة في صنوف علمية متعددة وبديعة، وكان له عدد من المآثر منها مدرسة في مكة المكرمة في المسعى قبالة باب الكعبة المشرفة، ومدرسته في مدينة تعز التي توصف بأن لا مثيل لها في البلاد وأمر بعمارة منارة فيها لم يبن مثلها.. وغيرها من المآثر التي ما يزال آثار بعضها قائما إلى اليوم.[٤٢] له في علم الطب بفروعه عدد من الكتب والرسائل المشهورة، ويوجد مجلد ضخم مخطوط للملك الأفضل مجموع يحتوي على مؤلفات عدة له في مختلف العلوم ومنها في علوم الطب "، نشره تصويرا دانيال فارسكو، وج. ركس سمث، وصدر عن مؤسسة جب، لندن، ١٩٩٨م. وهنالك نسخة مصورة منه في مكتبة المركز الثقافي الفرنسي بصنعاء، قام الدكتور يحي محسن الحجي – من مركز الدراسات التاريخية بجامعة صنعاء– مشكورًا بتصوير تلك النسخة عبر الماسح الضوئي، وأمدني بنسخة منها، ثم استخلص منها بعض ما وجده يتعلق بعلم الطب من مجموع مؤلفات هذا المجموع نعرض له على النحو التالي:

- **(نيل الأعراض في مداواة الأمراض)**[٤٣]. الكتاب مقسم إلى مقدمة وفصول على النحو التالي:

الفصل الأول: في خلق الإنسان وتركيبه، ومرجعه في ذلك العالم جالينوس

الفصل الثاني: في الخلق ومرجعه أبقراط وجالينوس

الفصل الثالث: في الجوهر المخلوق غير ذي الجسم ومصدره جالينوس

الفصل الرابع: في الأزمنة والاعتداد ومصدره جالينوس

الفصل الخامس: في الفصول وهي الربيع والقيط والخريف والشتاء وكذلك في الجهات الأربعة وهي المشرق والمغرب والقبلة.

الفصل السادس: في الأزمنة وطبعها ومشاكلها للمدن.

الفصل السابع: في مشاكل بدن الإنسان للمزاج البارد والرطب.

الفصل الثامن: في مشاكل بدن الإنسان للهواء.

الفصل التاسع: في مشاكل بدن الإنسان للنار.

الفصل العاشر: في مشاكل الأبدان لأزمنة السنة وفصولها.

الفصل الحادي عشر: في مشاكل الإنسان للقيظ

الفصل الثاني عشر: في مشاكل بدن الإنسان للشتاء.

الفصل الثالث عشر: في مشاكل بدن الإنسان للخريف.

الفصل الرابع عشر: في مشاكل القوى الأربع للبدن الإنسي.

الفصل الخامس عشر: في مشاكل أيام الجمعة للإنسان.

الفصل السادس عشر: في مشاكل شهور السنة للإنسان.

الفصل السابع عشر: في مشاكل أيام السنة للأبدان،

الفصل الثامن عشر: في البول

الفصل التاسع عشر: في الحميات.

الفصل العشرون: في الحميات الصفراوية (في هذا الفصل يستقصي المرض ويوصف العلاج المناسب لكل حالة من هذه الأمراض).

الفص الحادي والعشرون: في الحميات البلغمية.

الفصل الثاني والعشرون: في الحميات السوداوية

الفصل الثالث والعشرون: في الحميات التي تكون في الأعضاء السطحية وهي ثلاثة أصناف.

الفصل الرابع والعشرون: الحميات التي تتعلق بالدم.

الفصل الخامس والعشرون: في الحميات المركبة، وهذه الحميات إذا اختلفت أوقاتها، وكانت يوما خفيفة وما صعبة، فينبغي أن تركب العلاج لها بحسب ظهور الأعراض، ويكون ذلك من اختصاص الطبيب.

الفصل السادس والعشرون: في دلائل النبض في الجسم بمختلف أنواعه على قدر القوة والحركة والعرض اللازم للبدن.

الفصل السابع والعشرون: في الإنذارات من كثر الكلام في النوم وهي من علامات السكتة.

الفصل الثامن والعشرون: في سؤالات الطبيب للعليل وهو عشرة أنواع

الفصل التاسع والعشرون: في خلق الإنسان.

الفصل الحادي والثلاثون: في تركيب الجسد من الأعضاء المفردة.

الفصل الثاني والثلاثون: في تركيب الجسد من الأعضاء المركبة والأوصال.

الفصل الثالث والثلاثون: في أقاسم الحجاب الحاجز من الصدر والبطن.

الفصل الرابع والثلاثون: في أقسام الطب (فاعلم ان صناعة الطب قسمان أحداهما العلم، والأخر العمل، أما العلم فهو معرفة............)

الفصل الرابع والثلاثون: في أحوال ساير ما ينقص من فصول الجسد.

الفصل الخامس والثلاثون: في الحركة.

الفصل السادس والثلاثون: الحمام.

الفصل السابع والثلاثون: في الأكل والشرب.

الفصل الثامن والثلاثون: في النوم واليقظة.

الفصل التاسع والثلاثون: الباة.

الفصل الأربعون: في حركات النفس.

الفصل الحادي والأربعون: (يبدو أنه في أحوال الحوامل لعدم القدرة على القراءة لعدم وضوح الكلمة)

الثاني والأربعون: في تدبير المرضعة.

الثالث والأربعون في تدبير الطفل

الفصل الرابع والأربعون (.... لم يتم التمكن من القراءة)

الفصل الخامس والأربعون في الجداول: والجدول مصمم لعرض المرض والأعراض المختلفة ومن ثم وصف العلاج وهو بشكل جميل ومختصر وأن كانت فيه الكثير من الكلمات التي تحتاج إلى وقت طويل لقراءتها لعدم وضوح الكلمات فيها.

- **(رسالة في المواليد)**[٤٤] **محسن. المجموع – ص ٨٤- ٩٦)**

الكتاب أو الرسالة مقسمة إلى عدد من الأبواب غير مرتبة أو متسلسلة:

- باب: يتحدث عن كيفية تكوين الجنين من بداية النطفة وما بعدها من خطوات حتى تكوين الجنين وحتى الولادة، وما بعد الولادة

- باب: في النمو في الرحم (وهذا الباب مرتبط بحسابات فلكية متعلقة بالنجوم)

- باب: في تربية المواليد (مصادر الكتاب من بطليموس).

- **(بغية الحكيم في مداواة السقيم)**[٤٥]

الكتاب مقسم إلى قسمين رئيسين، القسم الأول من الكتاب يتحدث عن قوانين صحية مختلفة من طريقة دخول الحمام لإخراج الفضلات، وكذا طرق النوم، وكيفيته، وكيفية الاعتناء بالطعام واختياره من حيث الفائدة الصحية منه وتنوعه، سواء كان ذلك الطعام من لحوم بمختلف أنواعه وأشكاله، أو من مختلف أنواع الفواكه الطازجة، بالإضافة إلى مشتقات الألبان من الحليب والجبن وغيرها، وكذلك الفوائد الصحية للعسل.

والقسم الثاني من الكتاب يتحدث عن تدبير المرض، وأهمية وجود طبيب حاذق فاهم لصنعة الطب حتى يثق به الناس، وعلى الطبيب أن يكون ملمًا وعارفًا لثلاثة أشياء رئيسة أولها وأشرفها تدبيره الأصحاء، والثاني تدبيره المرضى، والثالث تدبيره من ليس بصحة كاملة، والناس في كل الأحوال محتاجون إلى تدبير الطبيب في كل الأوقات، ولكن الحاجة إلى الطبيب في حالة المرض أشد، ومصادره في هذا الكتاب جالينوس وابقراط وكذلك ارسطاطاليس من كتاب الحس والمحسوس.

الفصل الثالث: حول الهضم، حيث يذكر أن أضعف الأمراض وأعظمها ناتجة عن عسر الهضم وذلك إلى أربعة أمور، كميتها، أو كيفيتها، أو من وقت تناولها، ويتناول بالشرح والتوضيح لكل أمر من هذه الأمور مع العديد من النصائح والإرشادات الواجبة في كل حالة من الأحوال السابقة.

الفصل الخامس: في السكتة.

الفصل السادس: في الفالج.

الفصل السابع: في الزكام.

الفصل الثامن: في الرمد.

الفصل التاسع: في البصر وسيلان الدمع.

الفصل العاشر: في الأم الأذان.

الفصل الحادي عشر: في أمراض الأنف.

الفصل الثاني عشر: في أوجاع الأسنان واللثة.

الفصل الثالث عشر: في الحلق واللسان، وينقسم إلى دموية وبلغمية.

الفصل الرابع عشر: في وجع من ضربة أو صدمة.

الفصل الخامس: عشر السعال

الفصل السادس عشر: (....)

الفصل السابع: عشر السل

الفصل الثامن عشر: نعث الدم

الفصل التاسع عشر: في الدود

الفصل العشرون: في الخفقان

الفصل الحادي والعشرون: ضعف المعدة

الفصل الثاني والعشرون: في القيء

الفصل الثالث والعشرون: في المغص

الفصل الرابع والعشرون: في الفواق

الفصل الخامس والعشرون: الهيضة والإسهال

الفصل السادس والعشرون: الزحير

الفصل السابع والعشرون: في البطن

الفصل التاسع والعشرون: في الكبد

الفصل الثلاثون: في الاستسقاء
الفصل الحادي والثلاثون: في وجع الطحال
افصل الثاني والثلاثون: في اليرقات
الفصل الثالث والثلاثون: في وجع الكليتين
الفصل الرابع والثلاثون: في أمراض المثانة
الفصل الخامس والثلاثون: في خروج الماء من القضيب
الفصل السادس والثلاثون: في أمراض (...)
الفصل السابع والثلاثون: في أمراض الخصيتين
الفصل الثامن والثلاثون: في أقراط الطمث
الفصل التاسع والثلاثون: في النقرس
الفصل الأربعون: في الدوالي
الفصل الحادي والأربعون: (....)
الفصل الثاني والأربعون: في الأورام
الفصل الثالث والأربعون: في البهق والجذام
الفصل الرابع والأربعون: في الحكة والجرب
الفصل الخامس والأربعون: في الحصبة والجذري
الفصل السادس والأربعون: في السرطان والخنازير
الفصل السابع والأربعون: الحميات
الفصل الثامن والأربعون: في الحبوب
الفصل التاسع والأربعون: اللحم والبيض
الفصل الخمسون: اللبنيات
الفصل الحادي والخمسون: البقول والتوابل
الفصل الثاني والخمسون: الفواكه
الفصل الثالث والخمسون: الرياحين والطيب
الفصل الرابع والخمسون: الدهون
الفصل الخامس والخمسون: في الانبذة والأشربة
الفصل السادس والخمسون: في البطيخ
الفصل السابع والخمسون: القول في اللواحق

- أفعال طبقات الدواء، وأما الطعوم فمفرداتها ثمانية: الحلاوة، والمرارة، والملوحة، والحراقة، والقابض.
- **(كتاب الغذاء)**[٤٦] في معرفة الشربات للصفرة والسوداء والبلغم وتقدير الشربة بالوزن من جميع الأشجار، الكتاب يتحدث عن مختلف الأشجار والفواكه وفوائدها، وأضرارها واستخلاص فوائدها عن طريق تركيب الأدوية منها لعمل أشربة مسهلة طبية بمقادير معينة لاستخدامها في العديد من الأمراض، والكتاب كذلك منقول من مصادر غير مذكورة وإنما منقولة كتب أطباء اليونان، حيث يذكر فيه بأنه خلاصة أقوال الحكماء وأصحاب الطب في إصلاح الأدوية المسهلة، وهذا هو القسم الأول من الكتاب، أما القسم الثاني من الكتاب في هو يتحدث في ذكر الأمراض المعدية وأنواعها وطرق معالجتها.

- **(باب في ذكر فساد الهواء وهو الوباء)**[٤٧] يتحدث فيه عن الأدوية المضادة لفساد الهواء والانتفاخ والريح وروائح الجسم الكريهة....الخ.
- **(رسالة في الأدوية المفردة المخلصة من السموم)**[٤٨] وهو فصلان: الفصل الأول في تخلص من نهش الهوام وهو كل الكائنات الضارة، وكذلك في الأدوية الجاذبة للسم، وفي الأدوية التي تنفع في عض بعض الحيوانات الضارة والمفترسة مثل الكلب والتمساح، والفصل الثاني في الأدوية القيالة وأعراضها والأدوية المفردة المخلصة منها عموما أو خصوصا، ومصادر الكتاب موسى الإسرائيلي.
- **(رسالة في معرفة البهائم وعلاج أمراضها)**[٤٩] الرسالة مقسمة إلى أبواب دون ترتيب، فيذكر:
- باب: في صفات البغال الحسنة منها والردي، وما يختار لركوب الملوك والسلاطين، وما يصلح لحمل الأثقال.

باب: في علاج ما يعرض البغال من جميع العلل مع ذكر جميع علاجات الخيل من الأمراض المعروفة.

باب: في ذكر الحمير الجيد منها والردي، وذكر ألوانها

باب: في ذكر أمراض الحمير وسببها وعلامتها وعلاجها

باب: في أسماء الإبل وألوانها والجيد منها والردي، وذكر سنانها وذكر أمراضها

باب: في ذكر أمراض المعز وعلامتها وأسبابها وعلاجها وكذلك في أمراضها

باب: في أمراض الخنازير وأمراض الكلاب وعلاجها، وكذلك في الدجاج، وكذلك في الطاووس،

باب: في البط

باب: في تربية السمك

- **(اللمعة الكافية في الأدوية الشافية)، المجموع)**[٥٠] والجزء الموجود في هذا الكتاب هو مختصر بشكل كبير وأصل الكتاب موجود في دار الكتب المصرية في مصر[٥١] يقع في حدود ٢٠٠ صفحة " والكتاب يعتبر سجل حافل للكثير من الأمراض مع وصف لعلاجها، كما يذكر النصائح المناسبة لكل مرض والطريقة المناسبة للوقاية منها، بالإضافة إلى معرفة الأطعمة المختلفة وفوائدها ومخاطرها، وكذلك إلى فوائد صيدلانية في استخدام بعض المركبات الطبية وعلاجها في بعض الأمراض، ويبدو أنه من أهم مؤلفات الملك الأفضل.

- **(رسالة طبية في الفوائد من أكل حيوانات معينة ومنتجاتها)**[٥٢] الرسالة تعتبر وصف طبي صيدلي يذكر فوائد لحوم وأجزاء جسم الحيوانات التي تستخدم في علاج أمراض معينة مثل الكلف وأوجاع الظهر والحوامل والبواسير والبرص والبهق وغيرها من الأمراض الجلدية والباطنية والحميات

والأمراض العصبية والنفسية، كما تنفع في تقوية الجوانب الجنسية.

خَاتِمَةٌ

مما سبق عرضه نخلص إلى؛ أن حكام الدولة الرسولية في اليمن – وعلى وجه الخصوص من سبقت الإشارة إليهم في هذه الورقة رغم مشاغلهم السياسية والعسكرية والإدارية – قد أولوا العناية الكبيرة بالعلوم الطبية المختلفة، كجزء من اهتمامهم بمختلف فروع العلوم والمعارف الإنسانية والتطبيقية والطبيعية، وأن تلك الجهود تأتي تلبية لمواجهة الأمراض المختلفة المنتشرة في عصرهم، والحرص على نشر الصحة البيئية والإنسانية والحيوانية والنباتية، وأن من مظاهر هذا الاهتمام الرعاية الصحية الميدانية المتمثلة بالاهتمام بالتطبيب وبصحة البيئة، واستقدام الأطباء وابتعاث طلبة لتلقي علوم الطب خارج اليمن ومن ثَمَّ العودة للعمل في الطب والصيدلة ميدانيًا ومعمليًا من خلال تركيب واستخلاص الأدوية، وعلميا من خلال التدريس والتأليف، فقد شجعوا التأليف في علم الطب وأغدقوا على المؤلفين فيه الهبات والجوائز السنية، كما أنهم حرصوا على التعلم في هذا المجال ومن ثَمَّ الخوض في غمار التأليف فيه.

وإن كان ثمة توصية في هذه المناسبة، فالحث على إنشاء مراكز ومعاهد داخل الجامعات العربية والإسلامية متخصصة في دراسة الجوانب الحضارية المختلفة عند المسلمين، ومنها دراسة التجارب والمناهج الطبية عند علماء المسلمين والاستفادة منها في الطب البديل الصحي، وإخراج وتحقيق التراث العلمي التطبيقي.

الهَوامِشُ

(١) انتشرت في اليمن خلال عصر دولة بني رسول منها أمراض عدة كالطاعون والجذام والجدري والرمد والسل والنقرس.... وغيرها. وكذا أمراض وآفات الحيوان والنبات.... للمزيد انظر: هديل، **الحياة الاجتماعية في اليمن في عهد الدولة الرسولية، ٦٢٢** ص٢٥٤ وما بعدها.

(٢) نفسه. **الحياة الاجتماعية**. ص ٣٩٣ وما بعدها.

(٣) ابن عبد المجيد. **بهجة الزمن** ص٢٧٠، الخزرجي. **العقود**. ج١ص ٣٦٠، ٤٠٢، ج٢ ص ١٩٢، ابن الديبع. **قرة العيون**. ص ٣٨٧. ابن فضل الله العمري. **مسالك الأبصار**. ص. ٤٦ وما بعدها؛ هديل. **الحياة الاجتماعية**. ص ٣٨٧.

(٤) يتضح مدى ذلك الاهتمام والسخاء في وثائق الوقفيات الخاصة بالمساجد والمدارس التي أنشأها ملوك وأمراء ونساء هذه الأسرة في مناطق مختلفة من اليمن والمثبتة في سجل محفوظ في وزارة الأوقاف اليمنية يعرف بالوقفية الغسانية (المحفوظة في دائرة الأوقاف في تعز برقم (٦) انظر. الجندي، **السلوك** ج ١ص ٣٠٢، ج٢ص١٣٣، ١٣٤ ،١٤٨، ٥٥٢، ٥٥٦؛ نور المعارف. ٢/ ١٦، ١٣٠؛ الأفضل الرسولي. **العطايا السنية**. ص٦٩٢؛ البريهي. **طبقات صلحاء اليمن**. ص٢٠٦، ٢١٦، ٢١٨، ٣٤٣؛ الخزرجي. العقود. ج١ص ٢٣٣، ج ٢ص١١٣، ٣٣٤

(٥) انظر. غشيم. **الأعمال الخيرية في عهد بني رسول**. ص١١٠-١١٥.

(٦) هديل. **الحياة الاجتماعية**. ص ٣٨٧.

(٧) **الحياة الاجتماعية**، ص٣٩٢.

(٨) هديل. **الحياة الاجتماعية**. ص ٢٠٧ وما بعدها.

(٩) الجندي. **السلوك في طبقات العلماء والملوك**. ج١ ص ٣٨٠، ج٢ص٧٩، ٨٧، ٩٠، ٩٢، ١٤١، ٤٣٨، ٥٦٩؛ الخزرجي. **العقود اللؤلؤية في تاريخ الدولة الرسولية**. ج١ ص٨٤؛ ج٢ص ٢٣٣؛ هديل. **الحياة الاجتماعية**. ص٣٦٣- وما بعدها.

(١٠) الجندي. **السلوك** ج٢ ص٥٣، ١٢٦؛ الخزرجي. **العقود**. ج١ ص ٢٧٧؛ نفسه. **العسجد**. ص.٣٩٩؛ (حيث كان كانت لهم مخصصات ثابتة ضمن قائمة السجلات الرسمية) انظر، **نور المعارف**، ج٢ ص ١٢١، ١٢٨، ١٣٥، ١٤٧، ١٥٠؛ علي بن علي بن حسين. **الحياة العلمية في مدينة تعز وأعمالها في عصر بني رسول**٦٢٢. ص ٤٧٦.

(١١) شهد ذلك العصر وجود عدد من الأطباء في مناطق مختلفة في اليمن زاولوا مهنة الطب بين الناس انظر. الجندي. السلوك ١/ ٥٥٠، ٥٥١، ٢/ ٩٣، ١٢٦، ١٤٨، عبد النور، محمد يسلم. **الحياة العلمية في حضرموت في القرن السابع والثامن للهجرة**. ص٤٦٢؛ علي بن علي. **الحياة العلمية في تعز**. ص٤٧٦.

(١٢) ورد بأن السلطان المظفر – ثاني سلاطين بني رسول- بعد فتح ظفار الحبوضي شرقي حضرموت وجدها منطقة موبوءة فكتب إلى الظاهر بيبرس صاحب مصر يطلب منه أن يرسل طبيبا إلى مدينة ظفار الحبوضي لأنها موبوءة ، ويشير إلى أن هذا الطبيب ليس لنفسه وإنما لهذه المدينة، الخزرجي. **العقود** ١/ ٢٣٤ وقد وفد

إلى اليمن في عهد بني رسول عددا من الأطباء من خارجها انظر: الجندي، **السلوك**. ج٢ ص ٥٧١، ج٢ص ٩٣، ١٠٦.

(١٣) من ذلك موقف الفقيه أبو عبد الله محمد بن عبد الله المأربي، (ت ـ٦٣٨ هـ) مع طبيب المنصور عمر اليهودي، فقد مر اليهودي من جوار الفقيه وهو بمدينة بذي جبلة وهو راكب بغلة ومعه عدة جند وغلمان، فظنه الفقيه وزيرًا أو قاضيًا أو أحد أعيان الدولة، ولما سأل عنه قيل له أنه طبيب يهودي وأنه مقربًا من السلطان عمر، فما كان من الفقيه – حين سمع ذلك- إلا أن انقض على اليهودي وأسقطه من على البغلة وانهال عليه ضربًا بحذائه وهو يقول له: "يا عدو الله وعدو رسوله لقد تعديت طورك وخرجت عن واجب الشرع فينبغي إهانتك " ثم تركه فذهب اليهودي يشتكي إلى السلطان فأرسل السلطان إلى الفقيه يستفهمه عن الأمر، فقال الفقيه للرسول: " سلم على مولانا السلطان وعرفه أنه لا يحل له أن يترك اليهود يركبون البغال بالسروج ولا يحل لهم أن يترأسوا على المسلمين بالركوب والملابس ومتى فعلوا هذا فقد خلعوا ذمة الإسلام عنهم " فلما رجع الجواب إلى السلطان أمر اليهودي بأن يذهب مع الرسول إلى ذلك الفقيه ليعرفه ما يجب عليه من الشرع، فجاء اليهودي مع الرسول ورسالة السلطان إلى الفقيه فعلمه الفقيه حقوقه ووجباته في الشرع ورجع اليهودي إلى السلطان فأخبره بما كان ، فقال له السلطان: "إياك إن تتعدى ما أمرك به الفقيه فتقتل ولا ينفعك أحد فإن هذا حكم الله وشرع رسول الله صلى الله عليه وسلم، انظر: الجندي،. **السلوك في طبقات العلماء والملوك**. ج٢ ص٢٤٧ – ٢٤٨. الحزرجي، **العقود**. ج١ ص ٦٨.

(١٤) الجندي، **السلوك**. ج٢ ص ١٤٨، ٥٦٩، ٥٧١، الخزرجي. **العقود** ج٢ص ٩٣، ١٠٦؛ البريهي. **طبقات صلحاء**... ص ٢١٦. علي بن علي. **الحياة العلمية**، ص٤٧٦.

(١٥) الجندي. **السلوك** ج ٢ ص ٤٨٦، ٥٧١، البريهي. **طبقات صلحاء اليمن**. ص ١٢٢، ٢٠٦، ٢١٧،؛ الخزرجي. **العقود اللؤلؤية** ج١. ص ١٧٨؛ ج ٢ ص ٩٣، ١٠٦؛ بامخرمة. **قلادة النحر في وفيات أعيان الدهر**. ج٣ ص ٣١٣١، ؛ الحبشي، **حياة الأدب اليمني**. ص ٨٦؛ الحبشي، عبد الله محمد. **مصادر الفكر**. ص ٤٥٩ ؛ الشمري. **إسهامات أهل اليمن في علم الطب والطب البيطري**. ص ٩٤ وما بعدها)؛ عبد النور. **الحياة العلمية في حضرموت**. ص ٤٦٢- ٤٦٣؛ علي بن علي. **الحياة العلمية في تعز**. ص ٤٧٨.

(١٦) الجندي. **السلوك** ج٢ ص ٣٥ ؛ البريهي. **طبقات صلحاء اليمن**. ص ١٢٧- ٢١٦؛ علي بن علي. **الحياة العلمية في تعز**. ص ٤٧٦.

(١٧) علي بن علي. **الحياة العلمية في تعز**. ص٤٧٨.

(١٨) منهم العلامة الطبيب صارم الدين بن قايماز الذي قرأ العلم على عدد من العلماء... انظر: البريهي. **طبقات صلحاء اليمن**، ص٢١٧- ٢١٨.

(١٩) الخزرجي. **العقود**.. ج ١ ص ٢٣٤.

(٢٠) ابن حاتم. **السمط الغالي الثمن**. ص ٢٣٤, ٥٦٧؛ الجندي. **السلوك**. ١/ ٤٧٦- ٤٧٧، ٢ /٣٧، ٢٠٤، ٥٤٤- ٥٥١ وما بعدها؛ ابن عبد المجيد. **بهجة الزمن**. ص١٤٤ ، ١٧١؛ الخزرجي. العسجد. ص ٢١١ ، ٢٧٢ – ٢٧٣. العقود. ج١ص ٨٧ ، ٨٨ ، ٢٣٢- ٢٣٥.

(٢١) المظفر الرسولي، **المعتمد في الأدوية المفردة**. ص ٣.

(٢٢) الزركلي. **الأعلام**. ج ٨ ص ٢٤٤).

(٢٣) الجندي، **السلوك**، ج ٤ ص ٥٥٤؛ ابن عبد المجيد اليماني. **بهجة الزمن** ص ١٧٦؛ الأفضل الرسولي. **العطايا**. ص٥١٥- ٥١٦؛ الخزرجي. العسجد ص٢٨١؛ نفسه. **العقود** ج ١ص ٢٤٩.

(٢٤) ص ٥١٥.

(٢٥) الزركلي. الأعلام ج ٥ ص ٣٢٤.

(٢٦) علي بن علي. الحياة العلمية ص ٨٧- ٨٨.

(٢٧) توجد منه نسخة خطية في معهد المخطوطات العربية في جامعة الدول العربية مصورة عن نسخة مكتبة الأحقاف بتريم من مجموعة آل الكاف. وهو متوفر على شبكة الانترنت.

(٢٨) الأشرف الرسولي، الأبدال لما علم في الحال ص ١.

(٢٩) الخزرجي. العقود.. ج١ ص ٢٣٤.

(٣٠) العطايا. ص ٥٥١ة.

(٣١) الزركلي: **الأعلام**. ج٥ ص ٦٩.

(٣٢) الحبشي. **مصادر الفكر الإسلامي في اليمن**. ص ٦٣٧.

(٣٣) الحبشي. **مصادر الفكر**. ص ٦٨٣؛ الزركلي: **الأعلام**. ج٥ ص ٦٩.

(٣٤) علي بن علي. **الحياة العلمية في تعز**. ص.٤٨٠

(٣٥) علي بن علي. **الحياة العلمية في تعز**. ص. ٤٨٠- ٤٨٥.

(٣٦) أبو الفدا. **المختصر في أخبار البشر**.ج٤ ص٩١ ، ٩٢، ٩٤؛ ابن عبد المجيد اليماني. **بهجة الزمن في تاريخ اليمن**. ص ٢٤٦؛ ابن فضل الله العمري. **مسالك الأبصار**... ص ٥١ وما بعدها؛ القلقشندي أبو العباس أحمد بن علي. **صبح الأعشى في صناعة الإنشاء**. ج٥ ص ٣٢، ٣٤، ٣٦)؛ ابن خلدون. ج ٥ ص٥١١ , ٥١٣؛ الفاسي. العقد **الثمين في تاريخ البلد الأمين**. ج١ص، ج ٦ص ١٥٨؛ الخزرجي. **العقود** ج٢ص ١٤، ٣٧، ١٠٠، ١٠٥، ١٠٦؛ نفسه. **العسجد المسبوك فيمن ولي اليمن من الملوك**. ٣٣٨، ٣٥٦، ٣٥٨، ٣٨٦؛ ابن حجر العسقلاني،. **الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة**..ج ٣ ص ٣٠؛ ابن أسير. **الجوهر الفريد في تاريخ مدينة زبيد**. ص٥٨٤، ٥٨٥)؛ ابن الديبع. **قرة العيون بأخبار اليمن الميمون**. ص٣٤٩، ٣٦٦، ٣٦٧، ٣٦٨؛ الشوكاني. **البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع**، ج١، ص٤٤٤؛ محمد عبد العال أحمد. **بنو رسول وبنو طاهر وعلاقات اليمن الخارجية في عهدهما**. ص ١٨٥ وما بعدها.

(٣٧) منه نسخة مخطوطة في ١٢٨ ورقة بمكتبة المتحف البريطاني برقم ٣٨٣٠، ونسخ في مكتبات أخرى الحبشي. مصادر... ص ٦٥٣. وقد طبع الكتاب بعنوان: "**الأقوال الكافية والفصول الشافية في الخيل**" تحقيق الدكتور، يحيى وهيب الجبوري، ط١، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م. دار الغرب الإسلامي، بيروت).

(٣٨) علي بن علي. الحياة العلمية في تعز. ص ٤٨٤- ٤٨٧.

(٣٩) منه نسخة مخطوطة بخط قديم في ١٠٠ ورقة بمكتبة الجامع الكبير بصنعاء، الكتب المصادرة مصورة بدار الكتب المصرية برقم ١٠٧ الحبشي. مصادر. ص ٦٥٣.

(٤٠) توجد نسخ خطية منها في بعض المكتبات. الحبشي. مصادر. ص ٦٥٣.

(٤١) توجد نسخ خطية منها في بعض المكتبات. الحبشي. مصادر. ص ٦٥٣.

(٤٢) الخزرجي. العقود. ج٢ص ١١١, ١٣٤, ١٣٥؛ نفسه. العسجد. ص١١٠ , ٤٣٠ , ٤٣١ ؛ القلقشندي. **صبح الأعشى**. ٥/ ٣٣ ؛ بامخرمة. **تاريخ ثغر عدن** ٢/ ١٠٥, ١٧٠؛ ابن حجر. **إنباء الغمر** ج ١ص ١٤٠؛ الفاسي. العقد الثمين.ج ٥ ص ٩٤ ؛ يحي بن الحسين. غاية الأماني. ٢ج٢ ص ٥٢٦ ؛ الزركلي. **الأعلام** ج ٥ ص ٢٦٢- ٢٦٣؛ الحبشي. مصادر الفكر. ص ٦٥٣- ٦٥٥.

(٤٣) "الأفضل الرسولي. المجموع. ص ٥٦- ٦٧ "محسن"

(٤٤) الأفضل الرسولي. المجموع. ص ٨٤- ٩٦ "محسن"

(٤٥) الأفضل الرسولي. المجموع. ص ٣٥١-٣٨١- "محسن"

(٤٦) الأفضل الرسولي. المجموع. ص ٣٤٨-٣٩٠- "محسن"

(٤٧) الأفضل الرسولي. المجموع. ص ٣٩٠-٣٩١ "محسن"

(٤٨) الأفضل الرسولي. المجموع. ص ٣٩١-٤٢٠"محسن"

(٤٩) الأفضل الرسولي. المجموع. ص ٤٢١- ٤٣٤ "محسن"

(٥٠) الأفضل الرسولي. المجموع. ص١-٦٧ "محسن"

(٥١) ويحمل عنوان (اللمعة الكافية والأرومة الشافية) الحبشي. مصادر. ص ٦٥٥.

(٥٢) الأفضل الرسولي. المجموع. ص ١٢٣- ١٢٦- "محسن".

قائمة المصادر والمراجع

- ابن أسير، محمد بن محمد بن منصور. الجوهر الفريد في تاريخ مدينة زبيد. (مخطوط مصور من أربعة أجزاء عن نسخة المتحف البريطاني).
- الأشرف الرسولي، عمر بن يوسف (السلطان). الأبدال لما علم في الحال (مخطوط. مصور عن نسخة معهد المخطوطات العربية - جامعة الدول العربية (٤٥ صفحة) عن نسخة مجموعة آل الكاف بمكتبة الأحقاف بتريم – حضرموت. رقم (ف ٣٩ ك ١٢٦).
- الأفضل الرسولي، العباس بن علي (السلطان). العطايا السنية والمواهب الهنية في المناقب اليمنية. (ط١. ٢٠٠٤م تحقيق. عبد الواحد الخامري.. وزارة الثقافة والسياحة. صنعاء).
- الأفضل الرسولي، العباس بن علي (السلطان). كتاب مجموع في عدة فنون (نشره تصويرا دانيال فارسكو، وج. ركس سمث، وصدر عن مؤسسة جب، لندن، ١٩٩٨م).
- بامخرمة: أبو عبدا لله محمد الطيب. تاريخ ثغر عدن (ط٢ ١٤٠٧هـ. منشورات المدينة. بيروت).
- بامخرمة، الطيب عبد الله بن أحمد. قلادة النحر في وفيات أعيان الدهر (ط١. ١٤٢٥هـ- ٢٠٠٤م. دراسة وتحقيق: عبد الغني الأهجري، وآخرون. وزارة الثقافة والسياحة. صنعاء اليمن).
- البريهي، عبد الوهاب بن عبد الرحمن. طبقات صلحاء اليمن. (تحقيق عبد الله محمد الحبشي. مركز الدراسات والبحوث اليمني. صنعاء).
- الجندي، بهاء الدين محمد بن يوسف بن يعقوب. السلوك في طبقات العلماء والملوك. (ط١. تحقيق. محمد بن علي الأكوع. وزارة الإعلام والثقافة. صنعاء ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م).
- ابن حاتم الهمداني، بدر الدين محمد بن يوسف بن يعقوب اليامي. السمط الغالي الثمن في أخبار الملوك من الغز باليمن. (١٩٧٣م. تحقيق. ركس سمث، جامعة كمبردج. لندن).
- الحبشي، عبد الله محمد. حياة الأدب اليمني في عهد بني رسول. (ط٢. ١٩٨٠م منشورات وزارة الإعلام والثقافة. صنعاء).
- الحبشي، عبد الله محمد. مصادر الفكر الإسلامي في اليمن. (٢٠٠٤م، المجمع الثقافي. أبو ظبي).
- ابن حجر العسقلاني، أحمد بن علي بن محمد. الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة. (ط١. ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م. ضبط وتصحيح. عبد الوارث محمد علي. دار الكتب العلمية. بيروت).
- الخزرجي، علي بن الحسن. العقود اللؤلؤية في تاريخ الدولة الرسولية. (ط٢. ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م تصحيح ومراجعة. محمد بن علي الأكوع. مركز الدراسات والبحوث اليمني. صنعاء).
- العسجد المسبوك فيمن ولي اليمن من الملوك. (ط٢. ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م نسخة مصورة بالأوفسيت. وزارة الإعلام والثقافة. صنعاء).
- ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد. تاريخ ابن خلدون (١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م. مؤسسة جمال للطباعة..بيروت).
- ابن الديبع، عبد الرحمن بن علي. قرة العيون بأخبار اليمن الميمون (ط٣. ١٩٨٨م. تحقيق. محمد بن علي الأكوع. د. م)
- الزركلي، خير الدين. الأعلام. (ط١٥، ٢٠١٢م. دار العلم للملايين. بيروت).
- الشمري، محمد كريم إبراهيم. إسهامات أهل اليمن في علم الطب والطب البيطري. (بحث منشور في مجلة سبأ، جامعة عدن، عدد ١٣، شوال ١٤٣٥هـ، ديسمبر ٢٠٠٤م).
- الشوكاني. محمد بن علي. البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع ٤٤٤. (دار المعرفة. بيروت. د.ت).
- ابن عبد المجيد اليماني، أبو المحاسن تاج الدين عبد الباقي. بهجة الزمن في تاريخ اليمن. (ط١. ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م. تحقيق. عبد الله الحبشي ومحمد أحمد السنباني.. دار الحكمة اليمانية، صنعاء).
- عبد النور، محمد يسلم. الحياة العلمية في حضرموت في القرن السابع والثامن للهجرة. (ط١، ١٤٣١هـ/ ٢٠١٠م. وزارة الثقافة. صنعاء)
- علي بن علي بن حسين أحمد. الحياة العلمية في مدينة تعز وأعمالها في عصر بني رسول (٦٢٢- ٨٥٨هـ/ ١٢٢٩- ١٤٥٤م). (رسالة ماجستير. جامعة أم القرى. كلية الشريعة والدراسات الإسلامية. قسم الدراسات العليا التاريخية والحضارية. ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م).
- غشيم، مصطفي محمد. الأعمال الخيرية في عهد بني رسول ٦٢٢-٨٥٨هـ/ ١٢٢٩- ١٤٥٤م دراسة تاريخية.. (رسالة ماجستير في التاريخ الإسلامي. قسم التاريخ، كلية الآداب جامعة صنعاء، ١٤٣٦هـ/ ٢٠١٥م).

- الفاسي، تقي الدين بن أحمد الحسيني. العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين. (ط٢. ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م، تحقيق. فؤاد سيد ومحمود محمد الطناجي. مؤسسة الرسالة. بيروت).
- أبو الفدا، عماد الدين إسماعيل بن محمد. المختصر في أخبار البشر.(مكتبة المتنبي. القاهرة. (د.ت).
- ابن فضل الله العمري، أحمد بن يحي. مسالك الأبصار في ممالك الأمصار (القسم الخاص بمملكة اليمن). (تحقيق. أيمن فؤاد سيد. دار الاعتصام. القاهرة (د.ت)،
- القلقشندي أبو العباس أحمد بن علي. صبح الأعشى في صناعة الإنشاء. (المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر. القاهرة د.ت)
- هديل، طه حسين. الحياة الاجتماعية في اليمن في عهد الدولة الرسولية (٦٢٢- ٨٥٨هـ/ ١٢٢٩- ١٤٥٤م). (ط١. ٢٠٠٧م دار جامعة عدن. عدن).
- محمد عبد العال أحمد. بنو رسول وبنو طاهر وعلاقات اليمن الخارجية في عهدهما. ص ١٨٥ وما بعدها (١٩٨٠م، الهيئة المصرية العامة للكتاب. الإسكندرية).
- المظفر الرسولي، يوسف بن عمر. المعتمد في الأدوية المفردة. (ط١، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م) دار الكتب العلمية. بيروت).
- نور المعارف في نظم وقوانين وأعراف اليمن في العهد المظفري الوارف. (ط١.٢٠٠٣م. سجل رسمي من سجلات إيرادات وتنظيمات اقتصاد دولة بني رسول في عهد الملك المظفر يوسف" تحقيق. محمد عبد الرحيم جازم. المعهد الفرنسي للآثار والعلوم الاجتماعية. صنعاء).
- اليافعي، عبد الله بن أسعد – مرآة الجنان وعبرة اليقظان فيما يعتبر من حوادث الزمان،.(ط١. ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م. وضع حواشيه. خليل المنصور دار الكتب العلمية. بيروت).

ISSN: 2090 – 0449 Online
UIF Universal Impact Factor, [0.1101].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [0.88].

العنف في السياسة الجبائية المرينية
من خلال كتاب المسند لابن مرزوق التلمساني

نور الدين امعيط

أستاذ التعليم الثانوي التأهيلي

الأكاديمية الجهوية للتربية والتكوين

جهة تادلا أزيلال – المملكة المغربية

مُلَخّصْ

لعل من بين معوقات التنمية في الأقطار المغاربية خلال العصر الوسيط، ما ظلت تعانيه ساكنتها من عنف ضريبي وتعسف جبائي شمل المنتجين في القطاعات الاقتصادية، مما ظل يعرقل مسيرة التطور والتنمية بهذه الأقطار لعدة قرون. ويسعى هذا المقال إلى تسليط الضوء على ظاهرة العنف في السياسة الجبائية المرينية في المغرب الأقصى انطلاقاً من كتاب المسند الصحيح الحسن في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن لابن مرزوق التلمساني المتوفى سنة ٧٨١هـ وذلك برصد نماذج من مصطلحات الضريبة غير الشرعية وتوضيح دلالتها وسياق ورودها في المصدر السالف الذكر، ومن ثمة الوقوف على مظاهر العنف في السياسة الجبائية المرينية برصد أعمال الجباة وصور تحصيلهم للضرائب وما خلفه ذلك من آثار شملت المنتجين في القطاعات الاقتصادية الثلاثة، وذلك في المجال الذي غطاه الحكم المريني خاصةً المغرب الأقصى من دون إغفال تلمسان وإفريقية التي استولى عليها المرينيون في عهد السلطان أبي الحسن وابنه أبي عنان.

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث: ٢٥ مايو ٢٠١٥

تاريخ قبـول النشـر: ٣١ يوليو ٢٠١٥

كلمات مفتاحية:

العنف الجبائي، المرينيون، الفلاح المغربي، جباية الضرائب، الحرفيون

معرِّف الوثيقة الرقمي: DOI 10.12816/0047286

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

نور الدين امعيط. "العنف في السياسة الجبائية المرينية: من خلال كتاب المسند لابن مرزوق التلمساني".- دورية كان التاريخية.- السنة العاشرة- العدد الثامن والثلاثين؛ ديسمبر ٢٠١٧. ص٣٩ – ٤٧.

مُقَدِّمَةُ

إذا كانت المصطلحات مفاتيح العلوم[١]، وكان باب كل علم مصطلحاته، فإن المصطلحات الضريبية بمثابة المفاتيح الممهدة لفهم العديد من الظواهر في العلاقات الاجتماعية المرتبطة بتاريخ المغرب خلال العصر الوسيط، بل إن المصطلحات وخاصةً الضريبية منها، هي مفتاح فهم العلاقة الرابطة بين الحاكمين والمحكومين في معظم فترات التاريخ الإسلامي، وقد جاءت الاسطوغرافيا المرينية مفعمة بالمصطلحات الضريبية المعبرة عن مظاهر العنف الجبائي التي سادت خلال هذه المرحلة كاشفة بذلك عن أحد وجوه العلاقة بين القمة والقاعدة داخل المجتمع المغربي خلال الفترة موضوع البحث. وفي هذا العرض سوف نتتبع نماذج من مصطلحات الضريبة غير الشرعية من حيث دلالتها وسياق ورودها في كتاب المسند لابن مرزوق[٢] والوقوف على مظاهر العنف في السياسة الجبائية المرينية بتسليط الضوء على أعمال الجباة وصور تحصيلهم للضرائب وما خلفه ذلك من آثار شملت المنتجين في القطاعات الاقتصادية الثلاثة، وذلك في المجال الذي غطاه الحكم المريني خاصة المغرب الأقصى من دون إغفال تلمسان وإفريقية التي استولى عليها المرينيون في عهد السلطان أبي الحسن وابنه أبي عنان. وقبل تناول مظاهر العنف ونتائجه في السياسة الجبائية المرينية من خلال كتاب "المسند الصحيح الحسن" لابن مرزوق، نرى من المفيد تقديم نبذة موجزة عن حياة صاحب المصدر وثقافته.

أولاً: ابن مرزوق حياته وثقافته

ينتسب ابن مرزوق إلى عائلة كبيرة تعرف بالمرازقة ذات الأصل القيرواني، وقد هاجرت من القيروان لتستقر في تلمسان أواخر القرن الخامس الهجري، وهناك كان مسقط رأسه سنة (٧١١هـ/١٣١١م)، وبتلمسان تربى وترعرع ورافق والده لأداء فريضة الحج وهو ما زال صغير السن ليتشبع بثقافة دينية منذ صباه. اكتسب ابن مرزوق ثقافة واسعة في رحلته إلى بلاد الحجاز، خاصةً إذا علمنا أن الحج كان مناسبة للاغتراف العلمي[٣] والإشباع الروحي، وبعد عودته مارس عدة مهام في سلك الدولة كالكتابة والخطابة في جامع العباد بتلمسان، بعد فتح أبي الحسن للمدينة سنة ٧٣٧هـ، وبمسجد الشماعين بتونس، إثر اغتيال السلطان أبي سالم ابن أبي الحسن سنة ٧٦٢هـ. كما تولى القضاء والتدريس في مساجد صلاح الدين[٤] بعد تعيينه من طرف الملك الأشرف ناصر الدين شعبان بن حسين (٧٧٨هـ/١٣٧٦م). وقد كان مقربًا من السلطان المريني أبي الحسن، وعمل في بلاط ثمانية ملوك في فاس وتلمسان وغرناطة وتونس والقاهرة التي توفي بها، سنة ٧٨١هـ/١٣٧٩م.

ويظل ابن مرزوق من المؤرخين الثلاثة الأساسيين للمغرب في نهاية العصور الوسطى إلى جانب كل من ابن الخطيب وابن خلدون، على حد تعبير الأستاذ ليفي بروفنسال[٥]، وعاش حياة مليئة بالنشاط السياسي والروحي والثقافي، فقد كان الرجل"مليح التوسل ،مبدول البشر، طلق الوجه، درب على صحبة الملوك والأشراف، غاص المنزل بالطلبة، عذب التلاوة، متسع الرواية، يكتب ويفيد ويؤلف ويشعر"[٦].وبالجملة فقد كان من أشهر علماء عصره المشهود لهم بالعلم والاطلاع الواسع، والحنكة السياسية[٧]. وبالنظر إلى المناصب التي تقلدها ابن مرزوق في سلك الدولة، فإنه ظل قريبًا من واقع الجباية في العهد المريني، فهو شاهد عيان ومعلوماته تكتسي قيمة تاريخية كبرى، مما جعلنا ننطلق من مصنفه "المسند الصحيح الحسن"، لرصد أهم المصطلحات الضريبية ومقاربة واقع الجباية من خلالها في دولة بني مرين بالوقوف على مظاهر العنف وانعكاساته على الرعية خلال الفترة موضوع البحث.

ثانيًا: تجليات العنف في السياسة الجبائية المرينية

اتجه المرينيون منذ بداية دولتهم إلى فرض عدة ضرائب على الرعايا، خاصة وأن القبائل المرينية، لم تكن تهدف إلى بناء الدولة في بداية الأمر، بل إن طابع البداوة والتمرد الذي كان من تقاليد هذه القبائل، جعلها تمارس الحرابة والسطو، فهم "لايعرفون الحرث ولا التجارات ولا يشتغلون بغير الصيد والغارات" على حد تعبير ابن أبي زرع الفاسي[٨].

وهكذا، فقد فرضت الضرائب على القبائل التي كانت تدخل في حماية بني مرين، لاسيما خلال المرحلة الانتقالية التي انحلت فيها سلطة الموحدين، وقويت شوكة القبائل المرينية التي أحكمت سيطرتها على طرق القوافل التجارية، وفرضت ضرائب مختلفة، بالرغم من أن الدولة كانت لا تزال في طور التأسيس خلال هذه المرحلة.[٩] وقد سمت المصادر هذه الضرائب بمصطلحات خاصة من قبيل "الخراج"[١٠] أو "الخفارة"[١١] أو "الأموال المعلومة"[١٢].غير أن الإجحاف الضريبي سيبلغ ذروته أواخر عهد الدولة حين تشتد حاجتها إلى المزيد من النفقات[١٣]، فاتجهت نحو الرعية لفرض المزيد من المغارم المجحفة.

فماهي تجليات العنف في السياسة الجبائية لبني مرين، وما نتائج ذلك على المنتجين في القطاعات الاقتصادية؟

تعددت مظاهر العنف في السياسة الجبائية المرينية، ويبدو ذلك جليًا من خلال ذكر المصادر المرينية -لا سيما مصنف المسند- لترسانة من المصطلحات الدالة على الضرائب غير الشرعية والتي كانت تجبى، إلى جانب الشرعية منها، بأساليب شاذة وطرق عنيفة، وقد شملت كل القطاعات الاقتصادية. وسننطلق من مصنف المسند الصحيح الحسن لابن مرزوق لنرصد من خلاله أهم الضرائب التي سادت خلال الفترة المرينية، وفيما يلي نقدم اللوحة المصطلحية التالية:

المصطلح الضريبي	المصدر والصفحة	التعريف
الخرص	ابن مرزوق: المسند، ص٢٨٢-٢٨٣.	ضريبة لزمت الفلاحين في جناتهم، ويؤدونها أحيانا قبل بلوغ المحصول.
فوائد الروس	المسند، ص٢٨٢.	ضرائب لزمت التجار بفاس مقابل تخزين بضائعهم بالمروس أو المخازن، وكان يجتمع منها مال طائل ويصرف منها في رواتب النصارى اللازمين لخدمة المخزن.
استغراق السلع	المسند، ص٢٨٣.	ضريبة فرضت على تجار فاس الذين حاولوا التملص من الأداء الضريبي بإخفاء السلع، وقد تجاوزت

المصطلح الضريبي	المصدر والصفحة	التعريف
		قدرها بأن كان الولاة يأخذون السلعة كلها أو تضعيف المغرم المعهود خمس مرات.
المكوس	المسند، ص٢٨٢.	ضريبة لزمت التجار وتؤدى على السلع والدواب.
مغرم الجمون	المسند، ص٢٨٣.	مغرم كان يلزم الفلاحين بسجلماسة ويؤدى عن كل مساحة مغروسة نخلا وزرعا.
ايزغن / مزغان	المسند، ص٢٨٦/ الكفيف الزرهوني، ملعبة، ص١١٣.	ضريبة كانت سائدة في تلمسان وتلاحق من خرج عن وطنه لفقره وحاجته فيطالب حيث كان من البلاد.
مغرم الماء	المسند، ص٢٨٥.	ضريبة فرضت على الفلاحين في تلمسان نظير استفادتهم من الماء لسقي جناتهم وتؤدى لفائدة صاحب الحوز والحراس.
القطيع	المسند، ص٢٨٦.	ضريبة كانت تلزم الفلاحين ببلاد الجريد بإفريقية، ورفعها عنهم السلطان أبو الحسن المريني.
الحبل والمطوي	المسند، ص٢٨٦.	ضريبتان معروفتان عند أهل المغرب وخاصة أهل تلمسان، والراجح أنهما ذات صلة بالقطاع الفلاحي.
مغرم الحطب والبيض والدجاج والتبن	المسند، ص٢٨٥.	ضرائب لزمت ممتلكات الفلاحين البسيطة في تلمسان من حطب وبيض ودجاج... وغيره.
البرنس	المسند، ص٢٨٤.	ضريبة كانت تلزم لباس الرعايا، فالبرنس أو السلهام كان من لباس الخاصة كالسلطان والشرفاء، في حين كانت العامة لا تلبس البرنس إلا مقابل ضريبة.
الضيافة / التضييف	المسند، ص٢٨٤. ابن بطوطة: تحفة النظار، ص٦٧١	مغرم كان يفرضه الولاة على الرعايا عند حلولهم بإحدى المناطق لجباية الضرائب ويشمل مؤونتهم وعلوفة دوابهم.
الإنزال **النزول**	المسند، ص٢٨٤./ ابن الخطيب، نفاضة، ج٢، ص٣٢٤. المسند، ص٢٨٣.	مغرم كان يتيح للولاة والجباة استغلال دور الرعايا المعتبرين بالمغرب والأندلس وكان ينتج عنه ضرر عظيم.
الخطيئة/ الخطيا	المسند، ص٢٨٤/ ملعبة، ص١١٣.	ضريبة كانت تنتج عن المتابعات القضائية.
مغرم القانون	المسند، ص٢٨٤.	مغرم كان يوظف على الرؤوس، ويلزم كل شخص صغير أو كبير قوي أو ضعيف بل حتى الرضيع كان له مغرم يخصه.
ضريبة المساتهة	المسند، ص١١٩.	ضريبة فرضت على الرعية بحسب أغراض الولاة وأهواء الجباة.

٢/١- تعدد الضرائب وتنوعها:

أ- في القطاع الفلاحي: تعددت الضرائب وتنوعت لاسيما أواخر عهد الدولة المرينية فقد فرضت ضريبة الخرص، وسجلت عدة خروقات في حق الفلاحين من طرف الجباة، ففي مدينة فاس والنواحي، كان الزرع يخرص قبل حصاده، بل إن الجباة دأبوا على استباق عمل الفلاح ليطالبونه بأداء هذه الضريبة قبل حلول المحصول فكانت "توظف على الفلاحين وظائف في جناتهم ربما تعجز الجنات عن التوفية"،[١٤] ولم يتردد ابن

مرزوق في نقل صورة واقع مجتمعي يشكو العنف والتعسف من لدن الجباة فوصف هذا الوظيف بأنه كان قاسيا على الفلاحين، و"عظيم المضرة".[١٥] ومما يزيد من وطأة الظلم والحيف الضريبي، أن عمليات الغش وتقاضي الرشاوى، كانت ملازمة لعمل الجباة باستمرار أثناء تقديرهم لقيمة ضريبة الخرص فيتم ذلك بحسب ما يتقاضونه من رشاوى.[١٦] ومن الضرائب التي كانت تعكس عنفًا جبائيًا ضد الفلاحين، يستوقفنا مصطلح "مغرم الماء"، الدال على ضريبة كانت تؤدى مقابل الاستفادة من الماء لسقي الجنات ببادية المغرب، من دون مراعاة كمية الإنتاج واحتمال تأثره بإحدى الجوائح الطبيعية.

ولا تعوزنا القرائن التاريخية في تقديم نماذج لبعض المناطق التي تضرر أهلها من حيف الجباة، ففي منطقة سجلماسة مثلاً، ظل الفلاح يعاني من الحيف والعنف الضريبيين، فقد كان ملزما بأداء ضريبة الجمون[١٧]، وهي ضريبة لا شرعية فرضت على المساحة المغروسة نخلا وزرعا، ويبدو أنها كانت ثقيلة على الفلاح بسجلماسة وسائر بلاد القبلة، حيث ذكر ابن مرزوق أن"كل سنة - كان يجتمع للمخزن منها-أحمال من الذهب".[١٨] وعلاوة على ذلك، فثمة ضرائب عديدة عكست عنفًا ضريبيًا ملحوظًا، منها تلك التي وصفها ابن مرزوق بالمغارم الشائعة والخسيسة[١٩] "كالمغرم على الحطب والبيض والدجاج والتبن وسائر المرافق التي يفتقر إليها القوي والضعيف، وإجحاف الضعيف بها - كان- أشد".[٢٠] بل إن الإجحاف الضريبي أواخر العهد المريني، وصل إلى حد فرض ضريبة على الرؤوس عرفت بمصطلح القانون "كانوا يوظفون فيها المغارم على الرؤوس، فيجعلون على كل شخص صغيرًا أو كبيرًا قويًا أو ضعيفًا حتى الرضيع مغرمًا يخصه"[٢١]. والمعاناة نفسها أكدها الحسن الوزان[٢٢] أواخر عهد الدولة المرينية حين أورد أن الضرائب كانت تؤدى عن "رأس كل رجل جاوز الخمسة عشر من عمره"، بغض النظر عن طبيعة النشاط الاقتصادي الذي يزاوله.

ويبدو أن الفلاح المغربي ظل يرزح تحت ضغط الجباة وعنفهم، لاسيما أواخر عهد الدولة المرينية، حتى إن المصادر تذكر أن الضرائب كانت "تؤدى في بعض الأماكن على كل مساحة أرض يمكن أن يحرثها زوج من الثيران"[٢٣]، بل تؤدى على كل "كانون"[٢٤]، من دون مراعاة لدخل الأفراد وأوضاعهم الاجتماعية وفئاتهم العمرية. ومما زاد من وطأة العنف الضريبي على الفلاحين، قبل الإصلاح الجبائي لأبي الحسن، تعدد الوسطاء في جباية الضرائب، وفي ذلك أورد ابن مرزوق مصطلح "الالتزام"، وهو شراء الجباة للمجابي من متوليها بمال معين ليستخرجوها بأنفسهم، فقد كانوا "يلتزمون مجابي البلاد التزاما، فإذا تولوها، امتدت أيديهم و كثرت عاديتهم وظلمهم، فإذا زجروا اعتلوا بالالتزام"[٢٥] والصورة نفسها نقلها لنا العمري، حيث سمى نظام الالتزام "ضمانًا"، فذكر أن "الضمان كان جاريًا على جميع المجابي "التي يضمنها عمال الجهات، وقد كان يجتمع منها مبالغ وأموال طائلة تستخلص حسب المناطق، ولا يدخل ضمن هذه المبالغ، حسب رواية ابن فضل الله العمري، ما كان خارجا عن عداد المواشي وغلات المجاشر والحصون والقلاع، وقد كان يزيد وينقص باختلاف الأحوال والأوقات".[٢٦]

ب- في القطاع التجاري: عرف القطاع التجاري منذ بداية العهد المريني ضغطًا ضريبيًا ملحوظًا، خاصةً إذا علمنا أن تجارة القوافل، شكلت عصب الحياة الاقتصادية حينذاك، وهكذا فقد فرض أبو سعيد عثمان(٧٠٩-٧٣١هـ) ضريبة الخفارة على القبائل منذ بداية عهد الدولة "على أن يؤمن لهم الطرقات ويكف عنهم الغارات"[٢٧]. ومن مظاهر الإجحاف الضريبي المريني في القطاع التجاري، يذكر ابن مرزوق مصطلح "فوائد المروس" الدال على ضريبة كانت تلزم تجار أهل فاس، حيث يجتمع للمخزن منها "مال جسيم يصرف في مرتبات النصارى"[٢٨] من خدام وأعوان. وبالمثل، فقد فرضت على التجار بنفس المدينة، ضريبة عرفت بمصطلح "استغراق السلع"، لزمت سلع أهل فاس وكانت ثقيلة عليهم، خاصة وأن الولاة ظلت تجتمع لهم منها "أموالا جمة" على حد قول ابن مرزوق[٢٩]، أما من حاول التملص من الأداء ممتنعا عنه أو عاجزا، فكانت عقوبته "أخذ السلعة كلها أو تغريمه خمسة مخازن وهو تضعيف المغرم المعهود خمس مرات"[٣٠]، وقد يصل الأمر إلى اعتقال الممتنعين والعاجزين عن الأداء والزج بهم في "السجن ونحوه من أنواع الإهانات"[٣١].

ولا تعوزنا القرائن الدالة عن معاناة التجار بالمغرب، من ضرائب أخرى، كتلك المعروفة بمصطلح "المكوس"، وهي الضريبة التي فرضت على السلع والدواب بحيث بلغت فداحتها قبل عهد السلطان أبي الحسن، واعتبرها ابن مرزوق من المناكر التي محاها هذا السلطان ضمن إصلاحه الجبائي، بعدما ظلت متفشية بالبوادي والحواضر[٣٢]. وقد ورد مصطلح المكوس أحيانا بمفهومه دون لفظه لدى ابن مرزوق، فذكر أن أبا الحسن المريني لما استولى على تلمسان "أسقط ألقابًا كانت منكرة جملة، فلم يبق لها أثرًا منها ما كانت تعم به البلوى من المطالبات في الأبواب من التفتيش الذي لا يحترم فيه من الناس أحد"[٣٣]، وقد يحيط الجباة بالتاجر" فيفتشونه من رأسه إلى قدمه ظاهرا وباطنا لما عسى أن يدخل به من السلع"[٣٤].

وتجدر الإشارة إلى؛ تعدد المصطلحات الدالة على مفهوم مصطلح المكس "كالمكرى" و"الرسوم" خلال العصر الموحدي، و"الرتب" خلال العصر المريني، وقد اتخذ المكس مفهوم الضريبة التي كانت تضرب على السلع المرتبطة بالتجارة، كما كانت تؤدى في أبواب الأسواق والمسالك، وتفرض على البضائع

المحمولة، واجتياز التجار والأشخاص، وارتبطت جباياتها بالظلم والعنف، حتى إن أحد فقهاء الفترة لم يتردد في اعتبارها "غصبًا وظلمًا".[٣٥]

ج- في القطاع الصناعي: لم يكن القطاع الصناعي لينجو من عنف الجباة وتعسفاتهم خلال العصر المريني، ففضلاً عن الضائقة التي أصابت الحرفيين بسبب ندرة المواد الأولية ذات الأصل الفلاحي، وتراجع الفلاحة وانقباض أيدي الفلاحين عن الكسب والإنتاج، فقد عانوا من حيف الجباة وثقل الضرائب. وعلى الرغم من صمت صاحب المسند عن ذكر مصطلحات ضريبية تهم هذا القطاع، فإن مصادر أخرى، خاصة النوازل الفقهية، قد جادت بمعطيات تاريخية ضافية، أثبتث تضرر الحرفيين جراء التعسف الضريبي، ولعل حالة الحاكة، ومعهم تجار البز، بمدينة سلا تنهض دليلا عما عانته فئة الحرفيين من عنف وضرر جبائيين. ونتيجة لذلك، فقد بحث بعضهم عن حلول ومخارج شرعية بأن سألوا فقهاء زمنهم، عن إمكانية زيادة درهم في السلعة لإعانتهم عن تسديد المغارم المخزنية[٣٦]، في حين التجأ بعضهم إلى أساليب ملتوية مثل الغش والتدليس كحلول لتغطية تكلفة هذه المغارم، وقد كان هذا حال أهل الذمة من اليهود، فقد ذكر صاحب الدوحة المشتبكة، أنه " في سنة ٧٣٦هـ - تشكى الناس بضررهم- من غش هؤلاء لمولانا أمير المسلمين - أبي الحسن المريني- ونفذ أمره الكريم بأن يعتمد من يقف عليه من المشتغلين والخدام وولاة القصبة وسائر الحكام بكل بلد تحت إيالته على أن يرفعوا أيدي اليهود عن الاشتغال بالصياغة والصرف والقبض، وكل ما فيه غش للمسلمين".[٣٧]

وفي المقابل، أمر السلطان المريني، أبو الحسن، برفع كل المغارم الثقيلة التي كانت تلزمهم "فلا سبيل لهم أن يكلفوا مغرمًا ولا ملزمًا ولا يطلبوا بشيء من الوظائف والتكاليف، ماعدا الجزية والأعشار اللازمة شرعًا لأهل الذمة، ومن تحرف بحرفة فيلزمه ما يلزم المسلمين في ذلك من غير حيف ولا طلب بزائد".[٣٨] ومعلوم أن أهل الذمة من اليهود، قد اشتهروا بمزاولة مختلف أنواع الحرف، خاصة "الصياغة والصباغة والدباغة والصبارة[٣٩] والميارة[٤٠]، وأن أكثرهم حمالين وخياطين وكيالين"[٤١]، لذلك لم يتردد المخزن المريني من إلزامهم بأنواع المغارم على غرار أمثالهم من أهل الحرف، زيادة على الجزية التي يبدو أنها تجاوزت مقدارها الشرعي، وشكلت موردا مهما من موارد خزينة الدولة المرينية، لأن مداخيلها كانت تغطي تكاليف كل الفئات الاجتماعية المعوزة من "الجدمى والعميان والفقراء"[٤٢] الذين كانوا يأخذون في كل شهر من جزية اليهود، فضلاً عن طلبة المدارس. وقد أوردت المصادر أن السلطان يعقوب ابن عبد الحق، لما أمر ببناء المدرسة لطلبة العلم بفاس الجديد، "أسكنها بالطلبة والمقرئين وأجرى عليهم المرتبات من جزية هؤلاء".[٤٣]

ومن الجبايات ما كان مفروضًا على كل عناصر المجتمع على حد سواء، بغض النظر عن طبيعة القطاع الذي ينتمي إليه غارم الضريبة، ومن هذه الضرائب يذكر ابن مرزوق مصطلح إيبزغدن، الذي يحمل دلالة ضريبة كانت تلاحق "من خرج عن وطنه لفقره وحاجته فيطلب حيث كان من البلاد، وإن كان قد فارق وطنه السنين الطائلة"[٤٤]، وإيبزغدان حسب ابن مرزوق أو مزغدان حسب الكفيف الزرهوني، معناه في اللسان الأمازيغي السكان، غير أنه ورد كمصطلح يحمل دلالة الضريبة المفروضة على رؤوس الأشخاص، ويؤدونها قهرًا، حتى ولو غادروا بلادهم، ويبدو أنها كانت تسبب للرعايا كثيرًا من الأحزان، وتستخلص إلى جانب مغارم أخرى كالخطيئة والسخرة[٤٥]، وهو ما يعكس القهر الضريبي في أعلى صوره وتجلياته، لأن هذه الضريبة كانت تطال حتى الفقراء ممن خرجوا عن وطنهم طلبًا للرزق، وربما ينتهي العمل إلى طلب أسرهم وذريا تهم.[٤٦]

وبالمثل، فثمة ضرائب أخرى فرضت على أهل المغرب، ومنها ضريبة المساتهة التي أرهقت كاهل أهل فاس وألحقت بهم ضررا كبيرا، حتى إن الفقيه أبا عمران التسولي طلب من السلطان أبي الحسن رفعها عنهم، "فرفعها عنهم وعن سائر أهل بلاد المغرب، وقد كانت تؤدى على حسب "أغراض العمال"[٤٧] وأهوائهم، وقد "حملوا منها من طول الأزمان أثقل الأحمال"[٤٨].

وهكذا، يبدو أن الفترة السابقة لحكم أبي الحسن، عرفت قهرًا ضريبيًا أثر سلبًا على الفلاحين والتجار والحرفيين، وقد تم رفع جل هذه المغارم ضمن الإصلاح الجبائي الذي قام به السلطان المريني أبي الحسن، وإن كانت الضرائب الملغاة قد تعود للظهور كلا أو بعضًا بعد فترة من إلغائها.[٤٩]

٢/٢- سلوك الجباة: (القسوة والشطط)

وصل العنف الضريبي ذروته أواخر عهد الدولة المرينية، فقد بدت الأوضاع الاجتماعية متردية للغاية، خاصة بعد وفاة أبي عنان حيث بالغ الجباة ومارسوا شططًا وقسوة طالت جميع الشرائح الاجتماعية، وقد استعمل ابن مرزوق عبارات عديدة دالة عن السلوك المتطرف للجباة، ففي سياق حديثه عن مغرم" الخرص والبرنس والضيافة والإنزال والخطيئة"، ذكر أنها "ألقاب يعرفها أهل المغرب وهلك الخلائق بسببها"، وعندما أورد ضريبة"الحطب والبيض والدجاج والتبن"، ذكر أنه "كانت المصيبة بذلك داهية"[٥٠]، وعند ذكره لضريبة "القانون" أورد أنها "كانت مظلمة لا نظير لها في المظالم"[٥١]، بل أورد مصطلحات "كالمروس" و"المكوس" و"المغارم المحدثة" مردفة إلى لفظ المظالم التي "هتكت فيها حرمة أموال وأعراض وأبشار"[٥٢]، ووصف المكلفين بجباية

الضرائب بأن أيديهم امتدت إلى أموال الناس ظلما، و"كثرت عاديتهم وظلمهم".[٥٣]

وفي سياق الحديث عن السلوك المتطرف للجباة، لانجد بدًا من ذكر إحدى الرسائل الوعظية الشهيرة لخطيب جامع القرويين ابن عباد الرندي والتي وجهها إلى السلطان المريني أبي فارس عبد العزيز(٧٦٧هـ-٧٧٤هـ)، وتضمنت هذه الرسالة وصفًا دقيقًا لسلوك العنف والشطط الذي مارسه هؤلاء ضد الرعية، وما اتسموا به من جشع و خيانة، فكتب للسلطان ناصحا إياه "فعليكم يا أمير المؤمنين أن تتصفحوا أحوالكم وتتفقدوا عمالكم وتكفوا أيديهم وتستخرجوا ما خانوكم فيه أنتم ومن تقدمكم"[٥٤]، وطالب بالكف عن العنف الجبائي الذي طال الرعية نتيجة التعسف في فرض ضرائب لا شرعية سماها "برسوم الجور"[٥٥]، كما أنه وصف الجباة بالأقوام الذين "لم يعرفوا دينًا ولا مذهبًا"[٥٦] وجعلهم من "أهل الفساد والشر الذين انتشروا في بسيط الأرض، وقطعوا طرقاتها على المساكين والمستضعفين، وحازوا منهم الأموال الحرام بالنهب والغصب ما استعانوا به على ارتكاب الكبائر والفواحش"[٥٧].

ومن مظاهر القسوة والعنف الرمزي في السياسة الجبائية المرينية، تكليف المخزن المريني لعناصر يهودية في منصب جباية الضرائب، وهو ما ولد حساسيات كبرى لدى الرعايا المسلمين.ويذكر ابن مرزوق أن المخزن المريني كلف نساء يهوديات لجباية الضرائب، إلى جانب الجباة من الذكور، فالرعايا من النساء "يوكل بهن يهوديات يفتشنهن ويدخلن أيديهن إلى لحومهن، وفي هذا من الشناعة والبشاعة مالا يخفى"[٥٨]، ويبدو أن استعانة المخزن المريني بعناصر يهودية خاصة أواخر عهد الدولة، كان من أجل دعم خزينته المنهكة ودعم الإصلاحات لتثبيت واستمرار شرعيته.[59] ومن العناصر المكلفة بجباية الضرائب أيضًا، تذكر المصادر المرتزقة من النصارى، ومن هؤلاء، النصراني "بريز ذي قزمان"الذي كان يقتسم المداخيل مع السلطان، وفي إحدى حملاته على القبائل العربية، عاد محملا بأموال كثيرة استحوذ على نصفها وفرق النصف الأخر على أتباعه.[٦٠]

ومما كرس سلوك العنف في الجباية من قبل المخزن المريني، تكليفه للجنود بمهمة الجباية والتحصيل، فكانوا يمارسون شططًا وعنفًا، فعندما كانت السلطة تعجز عن أداء أجور جنودها، فإنها تسمح لهم بالاستفادة من "الرتب"[٦١] وهي ضرائب فرضت على التجار مقابل حمايتهم في محطات الاستراحة وإرشادهم إلى المناطق التي يقصدونها. ولم يسلم المعتقلون بدورهم من العنف الضريبي، فقد أورد ابن بطوطة أن السلطان أبي عنان المريني، قد أمر "بالرفق بالمسجونين ورفع الوظائف الثقيلة التي كانت تؤخذ منهم"[٦٢]، كما أن مدينة فاس، كانت تتوفر على أربعة رؤساء للشرطة، "يتقاضون أجورهم من مجموع المغارم المفروضة على من تم القبض عليه ليلا"[٦٣]، مما يجعلهم يبالغون في الجمع والتحصيل وتعنيف المقبوض عليهم وإجبارهم على الأداء.

ومن شدة حرص المرينيين وحزمهم في استخلاص الضرائب، تقسيم البلاد إلى تسعة أقاليم إدارية تخضع من حيث الإشراف المالي لنظام دقيق وصارم[٦٤]، والمشرف على الجباية كان يسمى في عهد السلطان أبي الحسن "بصاحب الأشغال"[٦٥]، بل إن المرينيين استحدثوا وظيفة جديدة في النظام المالي، لم تكن موجودة قبل ذلك عند المرابطين والموحدين، وهي وظيفة "شهداء البيت" (بيت المال)، وهي "أشرف خطط العدالة يشهدون على الحاصل في بيوت الأموال الداخل والخارج ويرجع إليهم سائر الأعمال وترفع لهم الجرائد"[٦٦]، ومن الذين تقلدوا هذه الوظيفة، أبو العباس أحمد ابن حسن البلياني التلمساني.

وقد وكلت مهمة جباية الضرائب في الأقاليم للولاة، بل قد يحصل تفويض السلطان مهمة الجباية لأحد أبنائه فيشتد العنف ضد الرعية، وهو ما حصل في عهد السلطان أبي سعيد عثمان الذي عقد مهمة الإشراف على تحصيل الضرائب لابنه الأمير عمر سنة ٧١٤هـ، فولاه "على بلاد القبلة ومدينة سجلماسة وبلاد درعة، وما والى ذلك إلى الصحراء، وفوض له الأمر في خراجها وجميع أمورها".[٦٧]

ومن خلال هذا النص، يبدو أن ابن أبي زرع قد أورد مصطلح الخراج بمفهومه العام، مما يفيد أن السلطان المذكور، قد كلف ابنه بجباية الضرائب بشتى أنواعها فتركت له سلطة التقدير من دون تحديد أو تقييد، وهو ما قد يفتح باب الظلم والتخمين من جهة، ويطلق عنان الجباة للتسلط وممارسة العنف والشطط من جهة ثانية. ومما زاد من تعسف الجباة وعنفهم تجاه الرعايا، لجوء المخزن المريني إلى نهج نظام الالتزام، فكان يتم اكتراء الولاة للبلاد، على أن يستخرجوا الضرائب بأنفسهم، فيحصل الاعتداء والتعنيف، "فإذا تولوها التزامًا امتدت أيديهم وكثرت عاديتهم وظلمهم، فإذا زجروا اعتلوا بالالتزام".[٦٨] وقد تضايق الناس وتضرروا من هذا النظام ضررًا بالغًا حتى إن بعضهم ظن أنه "تقارب الخرجان أو زاد أحدهما زيادة ما"[٦٩] وهو ما جعل ابن فضل الله العمري يصرح أن الناس كانوا في عهد السلطان أبي سعيد عثمان "في جور"[٧٠] بسبب ما ساد من هذا النظام، فآثر استعمال مصطلح "الضمان" للدلالة على نفس مفهوم "الالتزام"، أي اكتراء الجباة للمجابي من متوليها بمال معين ليستخرجوها لأنفسهم، فكان "الضمان جاريًا على جميع المجابي، ما كان يستأدى من وجوه الخراج والزكاة والموجبات والمكوس".[٧١]

وقد بلغ جشع الجباة ذروته آواخر عهد الدولة المرينية، وذلك لتعويض النقص الحاصل في خزينتها، فجندت لذلك جيشًا عرمرمًا من الجباة يتكونون من حراس وكتاب

"يتقاضون المكوس عن كل البضائع القليلة الأهمية في الأبواب، بل يذهب هؤلاء الحراس أحيانا إلى خارج المدينة لملاقاة البغالين حتى لايخفوا شيئًا من البضاعة، وإذا أخفوها أدوا عنه أضعاف الرسوم مضاعفة".(٧٢) وفي خضم الاضطرابات التي تلت مقتل السلطان أبي سالم واستيلاء الأمير عبد الحليم على تازة سنة (٧٦٣هـ/١٣٦١م)، مارست السلطة المرينية عنفًا وابتزازًا ضريبيين على هذه المدينة، فقد فرض الأمير المذكور المعونة، وألزمهم بتوفير كمية من السلاح واستعجل مغرم الجزاء(٧٣) قبل أوانه، وابتز أغنياء المدينة ابتزازًا لتوفير"فرش ووطاء لاستمتاع أولي الأمر، وإنزال حامية الدولة ببيوت أهلها مجبورين على إطعامهم من أعالي ما يطعمون به أهلهم".(٧٤)

ثالثًا: آثار العنف الضريبي على المنتجين

٣/١- تضرر الفلاحين:

لعل من أبرز آثار العنف الضريبي على الرعايا، انقباض أيدي المنتجين عن العمل والإنتاج خاصة الفلاحين، فقد ذكر ابن الخطيب أن عهد السلطان أبي سالم (٧٦٠هـ-٧٦٢هـ)، عرف عنفا ضريبيا عانت منه الرعية بشكل كبير، وبتعبير ابن الخطيب "فالرعايا استولت عليها المغارم ونزفها الحلب حتى عجزت عن الفلح وضعفت الإثارة والبذر"(٧٥)، وبذلك فقد معظم الفلاحين حوافز الإنتاج، وأرغموا على الهجرة إلى المدن أو بيع أراضيهم أو رهنها.(٧٦) فكانت النتيجة بوار العديد من الأراضي التي تخلى عنها أصحابها.(77) هربًا من عنف الجباة وتعسفاتهم، فأثر ذلك سلبًا على الوضع المعيشي للفلاح الذي لم يعدّ قادرًا على توفير "ما يلزم ضرورة من لباس وطعام"،(78) بل إن كثيًرا من الفلاحين "انقبضت أيديهم عن الإنتاج والاعتمار عامة لذهاب الأمل من نفوسهم بقلة النفع إذا قابل بين نفعه ومغارمه".(79)

٣/٢- تضرر الحرفيين:

تضرر الحرفيون من العنف الضريبي الذي تزايدت وطأته لاسيما أواخر العهد المريني، فقد شملت الضائقة الاقتصادية الحرفيين بمختلف الحواضر المغربية، خاصةً وأن هؤلاء كانوا شديدي الارتباط بالقطاع الفلاحي الذي شكل مصدر مادتهم الأولية. وإذا سلمنا بتنقلات الحرفيين عبر حواضر وأسواق المغرب طلبًا للرزق وأسباب العيش، فإن العنف الضريبي ظل يلاحقهم أينما حلو وارتحلوا، بل منهم من يؤدي الضريبة في أكثر من منطقة حسب تنقلاته، سواء كان حرفيًا أو تاجرًا،(80) وتظل حالة الحاكة في مدينة سلا قرينة شاهدة عما طال الحرفيين من إجحاف ضريبي عكسته النوازل الفقهية خلال القرنين الثامن والتاسع الهجريين.(81)

٣/٣- تضرر التجار:

تأثرت التجارة الداخلية تأثيرًا مباشرًا نتيجة العنف وتعسف الجباة، فعلى الرغم من حرص السلاطين الأوائل من بني مرين على تأمين الطرقات للتجار وتوفير أمن القبائل الخاضعة لنفوذهم، مقابل فرض ضريبة الخفارة،(82) فإن العنف الضريبي ازدادت وطأته أواخر عهد الدولة المرينية وبداية دولة بني وطاس، مما تسبب في كساد التجارة والأسواق، وإفلاس التجار الذين غدوا عاجزين عن أداء الضرائب الثقيلة، بله توفير حاجياتهم الضرورية، وتذكر المصادر أن تجار الفخار والزيت في مدينة سلا كانوا مثقلين بالضرائب لدرجة أنهم كانوا يعيشون أوضاعا اجتماعية واقتصادية بئيسة.(83)

خَاتِمَةُ

صفوة القول؛ إن آثار العنف الضريبي خلال العصر المريني، قد اتخذت عدة تجليات، ففضلا عن تأثر الفلاحين وهجرتهم لأراضيهم وانقباض أيديهم عن الإنتاج، وإفلاس التجار وإخفاء سلعهم عن الجباة، و استياء الحرفيين، فإن العنف الضريبي، قد ولد عنفا مضادًا تمثل في ردود فعل القبائل التي تسببت في مواجهات دامية ضد المخزن المريني، لا سيما أواخر عهد الدولة، حين تبددت هيبتها وضعفت قوتها، لتمتنع العديد من القبائل عن أداء الضرائب ساعية إلى الاستقلال الفعلي عن السلطة المركزية، وهو ما حصل في عهد السلطان أبي سالم(٧٦٠-٧٦٢هـ)،(84) بل إن أحد الباحثين(85) قد ذهب إلى القول إن ثورة أهل فاس التي حصلت زمن أخر سلاطين بني مرين عبد الحق بن أبي سعيد (٨٢٣-٨٦٠هـ)، كانت نتيجة لعنف الجباة وما طبع سلوكاتهم من حيف وطغيان.

والخلاصة، أن السلطة المرينية، قد غالت في فرض الضرائب على الرعايا ومارست عنفًا ضريبيا كانت له نتائج وخيمة على النشاط الاقتصادي بحيث كسدت التجارة والحرف، وشهدت البادية المغربية خرابًا بفعل هجرة الفلاحين وانقباض أيديهم عن الإنتاج، كل ذلك بفعل عنف السياسة الضريبية وظلم الجباة، وهو ما عكسته كثرة المصطلحات الضريبية وتعددها، حيث شكل مصنف ابن مرزوق وثيقة شاهدة، عكست العنف الضريبي الذي شهده العصر المريني، سواء قبل عهد السلطان أبي الحسن أو بعده، إذ لم تلتزم السلطة المرينية بالوعود الجبائية التي أسست لمشروعيتها، شأنها في ذلك شأن الدول التي تعاقبت على حكم المغرب الوسيط،(86) مع بعض الخصوصيات التي ميزت الحقبة المرينية عن سابقاتها على مستوى نوع الضرائب المفروضة وعددها، ومن هذه الضرائب نذكر، ضريبة الكانون وضريبة الرأس وضريبة البرنس وضريبة الضيافة وضريبة الخطيئة وضريبة إيبزغدن وغيرها من الضرائب التي فاتت ابن مرزوق وصرح نفسه بإغفال بعضها، نظرًا لكثرتها،

فأورد أن" هذا الذي ذكرته أمثلة جرت على ذكري، وإلا فمن عرف عوائد بلاد المغرب، عرف ما أشرت إليه، وما أغفلته ونسيته".[87] ولعل في هذا دليل آخر على سياسة الابتزاز الضريبي التي سادت لاسيما أواخر عهد الدولة المرينية بهدف ضمان الاستمرارية في الحكم.

والجدير بالذكر؛ أن العنف الجبائي، لم تنتج عنه مظالم اجتماعية فحسب، بل خلف آثارًا بنيوية وهيكلية تولدت عنه على المدى الطويل، فكان أحد الأسباب التي عرقلت مسيرة الدول المغاربية نحو الأفضل لعدة قرون، وهو ما تنبه إليه ابن خلدون حين أكد أن استحداث مختلف أنواع الجباية، لما "تحتاج إليه الحامية من العطاء والسلطان من النفقة يتسبب في كساد الأسواق لفساد الآمال، ويؤذن بخراب العمران"،[88] مما ينعكس سلبًا على الدولة التي تتجه حتما نحو الزوال والاضمحلال.

الهَوامِشُ:

(١) انظر الخوارزمي أبو عبد الله محمد ت. ٣٨٧هـ، **مفاتيح العلوم**، نشر إدارة الطباعة المنيرية، مطبعة الشرق، مصر، ١٣٤٢هـ (مقدمة المؤلف).

(٢) ابن مرزوق التلمساني، **المسند الصحيح الحسن في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن**، دراسة وتحقيق ماريا خيسوس بيغيرا، تقديم/ محمود بوعياد، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ١٤٠١هـ/١٩٨١م.

(٣) يذكر صاحب الإعلام أن ابن مرزوق رحل مع والده للشرق سنة ٧١٨هـ، وسمع ببجاية على ناصر الدين، ولما جاور أبوه بالحرمين، رجع هو إلى القاهرة فأقام وقرأ على البرهان الصفاقسي(...) ورجع سنة ٧٣٣هـ للمغرب"، انظر: العباس بن إبراهيم السملالي، **الإعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام**، راجعه: عبد الوهاب ابن منصور، ط٢، الرباط، (١٤١٣هـ/١٩٩٣م)، ج٥، ص.١٥-١٧.

(٤) ابن القاضي المكناسي، **جذوة الاقتباس في ذكر مَنْ حل من الأعلام مدينة فاس**، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط ١٩٧٣، ق١، ص.٢٢٥-٢٢٧. أيضًا: المقري التلمساني، **نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين ابن الخطيب**، دار صادر، بيروت ١٩٦٨، ج٥، ص.٣٩٠-٤١٩.

(5) E.LEVI-PROVENCL; un nouveu texte d'histoire merinide: le musnd d'ibn mrzuk; Hesperis; tome 5;vol 5-1925;p.1-15.

(٦) **جذوة الاقتباس**، م.س، ص٢٢٥-٢٢٧.

(٧) **الإعلام بمَنْ حل مراكش وأغمات من الأعلام**، م. س، ص١٧.

(٨) **الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية**، دار المنصور للطباعة والنشر، الرباط، ١٩٧٢، ص٢٥.

(٩) انظر: محمد ياسر الهلالي، **مجتمع المغرب الأقصى خلال القرنين الثامن والتاسع الهجري، مساهمة في دراسة بعض مصطلحات التراتب الاجتماعي: العامة- الخاصة- الطبقة- المرتبة**، أطروحة دكتوراه، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، ١٩٩٩/٢٠٠٠م، س٢، ص٣٧٥ (مرقونة).

(١٠) ابن أبي زرع، **الذخيرة**، م س ص١٦١. أيضًا: **الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس**، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، ١٩٧٣م، ص٥٢٨.

(١١) الذخيرة السنية، م. س، ص٣٦. أيضًا: ابن خلدون، **العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والعجم والبربر ومَنْ عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر**، دار الفكر، بيروت، ط١٤٠١هـ/١٩٨١م، ج٦، ص.٨٨-٨٩.

(١٢) **الأنيس المطرب**، م س، ص.٢٨٩.

(١٣) ابن خلدون، **المقدمة**، تصحيح وفهرسة أبو عبد الله السعيد المندوه، مؤسسة الكتب الثقافية، ط٢، بيروت، ١٤١٧هـ/١٩٩٦م، ج١، ص.٢٩٧-٢٩٨.

(١٤) **المسند**، ص.٢٨٢.

(١٥) نفسه، ص.٢٨٢-٢٨٣.

(١٦) محمد ياسر الهلالي، م س، السفر(٢)، ص٣٦٩.

(١٧) وتجدر الإشارة إلى؛ أن مصطلح الجمون ما زال متداولاً إلى يومنا الحاضر بين سكان سجلماسة وواحات تافيلالت الممتدة على طول نهري زيز واغريس جنوب شرق المغرب، ويطلق هذا المصطلح على القطعة المغروسة من الأرض.

(١٨) **المسند**، ص٢٨٣.

(١٩) نفسه، ص.٢٨٥.

(٢٠) المرجع نفسه.

(٢١) المرجع نفسه، ص٢٨٤.

(٢٢) **وصف إفريقيا**، ج١، ص.٢٨٨.

(٢٣) **وصف إفريقيا**، ج١، ص٢٨٨.

(٢٤) المرجع نفسه.

(٢٥) **المسند**، ص.٢٨٣.

(٢٦) **مسالك الأبصار في ممالك الأمصار**، تحقيق وتعليق مصطفى أبو ضيف أحمد، مطبعة النجاح الجديدة، البيضاء، ط١٤٠٩/١/١٩٨٨م، ص.١٢٤.

(٢٧) **الذخيرة السنية**، ص.٣٦.

(٢٨) **المسند**، ص٢٨٢.

(٢٩) **المسند**، ص.٢٨٣.

(٣٠) المرجع نفسه.

(٣١) الونشريسي، **المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل إفريقية والأندلس والمغرب**، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المملكة المغربية، الرباط، ودار الغرب الإسلامي، بيروت،١٤٠١هـ/١٩٨١م، ج٥، ص.٣٠٦.

(٣٢) **المسند**، ص.٢٨٢.

(٣٣) المرجع نفسه، ص. ٢٨٥.

(٣٤) المرجع نفسه، ص.٢٨٥.

(٣٥) الونشريسي، م س، ج٢، ص.٢٩٢. ولمزيد من التوضيح حول مصطلح المكس، انظر: نورالدين امعيط، **المصطلح الاقتصادي في تاريخ المغرب والأندلس -نماذج وقضايا من القرنين ٥و٦هـ/١١-١٢م**، أطروحة دكتوراه، جامعة المولى إسماعيل، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، مكناس، ٢٠١١، ص٣٦٥ -٣٦٦ (مرقونة).

(٣٦) المرجع نفسه، ج٥، ص.٢٩٧ -٣٢٦.

(٣٧) علي ابن يوسف الحكيم، **الدوحة المشتبكة في ضوابط دار السكة**، تحقيق حسين مؤنس، دار الشروق، القاهرة، بيروت، ط٢ ١٤٠٦/١٩٨٦م، ص.١١٩.

(٣٨) المرجع نفسه، ص.١١٩.

(٣٩) معلوم أن الصبارة: مصطلح حرفي يحمل دلالة تحنيط الميت بوضع الصبر على بطنه حتى لا تسرع النتانة إليه.

(٤٠) الميارة: مصطلح يحمل دلالة نقل البضائع على الدواب من مكان إلى آخر مقابل أجر. لمزيد من التوضيح حول هذه المصطلحات الحرفية وغيرها، انظر: نور الدين امعيط، م س، ص.٢١٤-٢٢٨.

(٤١) **الدوحة المشتبكة**، ص.١١٩.

(٤٢) **الأنيس المطرب بروض القرطاس**، ص.٣٨٩.

(٤٣) **الذخيرة السنية**، ص.١٦٢-١٦٣.

(٤٤) **المسند**، ص.٢٨٦.

(٤٥) يقول الكفيف الزرهوني في هذا الصدد: مزغدان قطعت والسخرا *** والذمة والخطيا ودار الأحزان انظر: ملعبة، تحقيق محمد ابن شريفة، المطبعة الملكية، الرباط،١٤٠١هـ/١٩٨٧م، ص.١١٣.

(٤٦) المرجع نفسه، ص.٢٨٦.

(٤٧) المسند، ص.١١٩.

(٤٨) المرجع نفسه.

(٤٩) المنوني، **ورقات عن حضارة المرينيين**، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، سلسلة بحوث ودراسات، رقم ٢٠، ط١٤١٦هـ/١٩٩٦م، ص.١٢٢.

(٥٠) **المسند**، ص.٢٨٥.

(٥١) المرجع نفسه، ص.٢٨٤.

(٥٢) المرجع نفسه، ص.٢٨٦.

(٥٣) نفسه، ص.٢٨٣.

(٥٤) ابن عباد الرندي، **الرسائل الكبرى**، تصحيح أحمد المهدي بن العباس بن صابر البوعزاوي، طبعة حجرية، فاس، ١٣٢٠هـ، ص.٦٠. أيضًا: محمد المنوني، **ورقات**، ص.١٢٢. أيضًا: محمد القبلي، **"حول الإصلاح وإعادة الإصلاح بالمغرب الوسيط"**، مجلة المناهل، العدد٦٩-٧٠، يناير ٢٠٠٤، ص.٧- ٢٦.

(٥٥) المرجع نفسه.

(٥٦) المرجع نفسه، ص.٥٣-٦٢.

(٥٧) المرجع نفسه.

(٥٨) **المسند**، ص.٢٨٥.

(٥٩) انظر:

COUR UGUSTE. l dynstie mrocine des bni wtts (1420 – 1554); constntntine 1920; p.63 3

وهو المرجع الذي ترجمه الأستاذ محمد فتحة، بعنوان: **"دولة بني وطاس١٤٢٠-١٥٥٤"**، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية الرباط -سلسلة نصوص وأعمال مترجمة -رقم ١٢-، ط ١٤٣١هـ/٢٠١٠م.

(٦٠) مصطفى نشاط، **الارتزاق المسيحي بالدولة المرينية**، ضمن أعمال ندوة الغرب الإسلامي والغرب المسيحي خلال العصور الوسطى، جامعة محمد الخامس، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط،١٩٩٥م، ص.١٢٣-١٣١.

(٦١) ابن بطوطة، **تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار**، قدم له وحققه ووضع خرائطه وفهارسه، عبد الهادي التازي، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية، سلسلة التراث،١٤١٧هـ/١٩٩٧م، المجلد(٤)، ص.٢٠٠.

(٦٢) المرجع نفسه، ٤ج، ص.٢٠٠.

(٦٣) **وصف إفريقيا**، ج١، ص.٢٥٠.

(٦٤) محمد عيسى الحريري، تاريخ المغرب الإسلامي والأندلس في العصر المريني، ٦١٠هـ/١٢١٣م-٨٦٩هـ/١٤٦٥م، دار القلم للنشر والتوزيع، الكويت، ط١٩٨٧،٢، ص.٢٧٧.

(٦٥) **المسند**، ص.٢٨٣.

(٦٦) **المسند**، ص.٣١٤.

(٦٧) **الأنيس المطرب**، م س، ص٥٢٨.

(٦٨) **المسند**، ص.٢٨٣.

(٦٩) المرجع نفسه.

(٧٠) **مسالك الأبصار في ممالك الأمصار**، تحقيق وتعليق مصطفى أبو ضيف أحمد، ط.١٤٠٩/١٩٨٨م، مطبعة النجاح الجديدة، البيضاء، ص.١٢٥.

(٧١) المرجع نفسه، ص.١٢٤.

(٧٢) **وصف إفريقيا**، ج١، ص.٢٥١.

(٧٣) يعرف هذا المغرم بالجزاء، كما يعرف بالخرص، ويلزم الفلاحين في جناتهم، ويذكر ابن مرزوق أن أبا الحسن "رفع الخرص في الجنات وكان عظيم المضرة...وهو كالجزاء بإفريقية". انظر: **المسند**، ص.٢٨٢-٢٨٣.

(٧٤) ابن الخطيب، **نفاضة الجراب في علالة الاغتراب**، نشر وتعليق محمد مختار العبادي، مراجعة عبد العزيز الأهواني، دار الغرب الإسلامي، دار النشر المغربية، البيضاء، ١٩٨٥، ج٢، ص.٣٢٤.

(٧٥) نفسه، ج٢، ص.٢٧٠.

(٧٦) بنميرة عمر، **النوازل والمجتمع مساهمة في دراسة تاريخ البادية بالمغرب الوسيط**، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية الرباط، سلسلة رسائل وأطروحات، رقم (٦٧)، السنة ٢٠١٢، ص.٩٨ وما بعدها.

(٧٧) **المسند**، ص٢٨٣.

(٧٨) **وصف إفريقيا**، ج١، ص.٢٨٩.

(٧٩) ابن خلدون، **المقدمة**، ج١، ص.٢٩٧.

(٨٠) **الدوحة المشتبكة**، م س، ص.١١٩-١٢٠.

(٨١) **المعيار**، ج٥، ص.٢٩٧-٣٢٦.

(٨٢) **الذخيرة**، ص.٣٦-٣٧.

(٨٣) مارمول كاربخال، **إفريقيا**، ترجمه عن الفرنسية، محمد حجي، محمد زنيبر، محمد الأخضر، أحمد التوفيق، أحمد بن جلون، الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرباط، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م، ج٢، ص.٢٧٤.

(٨٤) المنوني، **ورقات**، م س، ص.١٢٣.

(85) cour; op.cit. P.64.

(٨٦) القبلي محمد، **حول تاريخ المجتمع المغربي في العصر الوسيط مقدمات أولية وقضايا**، نشر الفنك، البيضاء، ١٩٩٨، ص.٤٠.

(٨٧) **المسند**، ص.٢٨٤.

(٨٨) ابن خلدون، **المقدمة**، ج١، ص.٢٩٨.

ISSN: 2090 – 0449 Online
UIF Universal Impact Factor, [0.1101].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [0.88].

مسلمو أفريقيا
في كتابات الدكتور عماد الدين خليل

د. بشار أكرم جميل الملاح
أستاذ مساعد - قسم التاريخ
كلية الآداب
جامعة الموصل - جمهورية العراق

مُلَخّصْ

الدكتور عماد الدين خليل من مواليد مدينة الموصل في جمهورية العراق ومن عائلة موصلية معروفة بالعلم والدين، وهو من مواليد عام ١٩٤١م وقد أنهى دراسته الابتدائية والثانوية فيها، ثم حصل على شهادة البكالوريوس (الليسانس) في الآداب بدرجة الشرف من قسم التاريخ بكلية التربية بجامعة بغداد سنة ١٩٦٢، ثم شهادة الماجستير في التاريخ الإسلامي بكلية الآداب سنة ١٩٦٥ ثم حصل على شهادة الدكتوراه في التاريخ الإسلامي بدرجة الشرف الأولى من جامعة عين شمس في القاهرة سنة ١٩٦٨. يُعَدّ الدكتور عماد الدين خليل واحدًا من مؤرخي العالم الإسلامي، ويبدو أن إيمانه بالحديث النبوي الشريف القائل: "مَنْ لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم"، جاء لينسجم مع كتاباته في الاهتمام بالمسلمين في دول متعددة، ومن هنا جاءت اهتماماته بمسلمي أفريقيا الذين عانوا على يد الاستعمار البرتغالي والبريطاني والفرنسي وأسهمت جميعها في تدمير المنطقة سياسيًا واقتصاديًا، والذي عمل أيضًا على محو هوية وتأريخ المنطقة وربطتها بتأريخ وحضارة الغرب، وعلى هذا الأساس أراد استنهاض همم المسلمين في بقية البلدان وتحفيزهم على دعم إخوانهم المسلمين في أفريقيا وتلبية نداءات الاستغاثة التي يطلقونها.

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث: ٢٢ سبتمبر ٢٠١٦
تاريخ قبـول النشـر: ٠٥ يناير ٢٠١٧

كلمات مفتاحية:

أفريقيا, المسلمين, أثيوبيا, التبشير, الاستعمار الأوربي

معرِّف الوثيقة الرقمي: DOI 10.12816/0047289

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

بشار أكرم جميل الملاح. "مسلمو أفريقيا في كتابات الدكتور عماد الدين خليل".- دورية كان التاريخية.- السنة العاشرة- العدد الثامن والثلاثين؛ ديسمبر ٢٠١٧. ص٤٨ – ٥٦.

مُقدِّمَةُ

بدءًا لابد من التطرق بشكل سريع للسيرة الذاتية والعلمية للأستاذ الدكتور عماد الدين خليل ليتمكن القارئ من معرفة تلك الشخصية التي ستدور حول كتاباتها مجريات الحديث، فعماد الدين خليل من مواليد مدينة الموصل في جمهورية العراق ومن عائلة موصلية معروفة بالعلم والدين، وهو من مواليد عام ١٩٤١م وقد انهى دراسته الابتدائية والثانوية فيها، ثم حصل على شهادة البكالوريوس (الليسانس) في الآداب بدرجة الشرف من قسم التاريخ بكلية التربية بجامعة بغداد سنة ١٩٦٢، ثم شهادة الماجستير في التاريخ الإسلامي بكلية الآداب سنة ١٩٦٥ ثم حصل على شهادة الدكتوراه في التاريخ الإسلامي بدرجة الشرف الأولى من جامعة عين شمس في القاهرة سنة ١٩٦٨.

عُين معيدًا ثم مُدرسًا فأستاذًا مساعدًا في كلية الآداب للأعوام ١٩٦٧-١٩٧٧ ثم انتقل للعمل بصفة باحث علمي ومدير لقسم التراث، ومدير لمكتبة المتحف الحضاري فرع الموصل للأعوام ١٩٧٧-١٩٨٧، وبعد ذلك حصل على لقب الأستاذية سنة ١٩٨٩، لينتدب بعد ذلك للعمل أستاذًا للتاريخ الإسلامي في كلية الآداب بجامعة صلاح الدين بمدينة أربيل للأعوام ١٩٨٧-١٩٩٢، وعمل بعدها أستاذًا في كلية التربية بجامعة الموصل للفترة ١٩٩٢-٢٠٠٠، ثم انتدب استاذًا في كلية الدراسات الإسلامية والعربية في دبي للأعوام ٢٠٠٠-٢٠٠٢، ثم في جامعة الزرقاء في المملكة الأردنية الهاشمية ليعود بعدها للعمل في كلية

الآداب في جامعة الموصل، وهو الآن أستاذ متمرس في قسم التاريخ بكلية الآداب بجامعة الموصل، وله العديد من المؤلفات المنشورة كبحوث وكتب وموسوعات منشورة داخل العراق وخارجه، كما شارك في العديد من المؤتمرات المحلية والعربية والعالمية.[١]

والأهداف التي ينوي البحث تحقيقها تتمثل في توضيح مدى اهتمام المؤرخين المسلمين المعاصرين بتاريخ وحاضر المسلمين في تلك البلاد المسلمة، فقد اهتم الدكتور عماد الدين خليل بتاريخ أفريقيا جنوب الصحراء كاهتمامه ببقية بقاع الإسلام، فهو لم يدع جزءًا من بلاد الإسلام إلا وكتب عنه، ولم يدع حدثًا حدث في أرض المسلمين إلا وتناوله بالسرد والتحليل فتارة يتناول شخصية إسلامية وتارة يكتب عن الحروب الصليبية، وتارة أخرى يتناول بكتاباته أوضاع المسلمين في مكان ما، ونراه يفرح لحدث يسُر المسلمين، وحينًا يحزن لظرف صعب ألم بالمسلمين في بقعة من بقاع الأرض.

أما المشكلة التي تم عرضها هنا، فهي تباطأ العرب المسلمين في دعم إخوانهم ليقدروا على مواجهة الزحف التبشيري الأوربي والصهيوني، والمنهج الذي تم إتباعه في البحث يتمثل في عرض القضايا المهمة التي تطرق لها المؤلف ومقارنتها مع كتابات مؤرخين تناولوا ذلك الموضوع.

كتابات عماد الدين خليل عن مسلمي أفريقيا

يبدو أن إيمان الدكتور عماد الدين خليل بالحديث النبوي الشريف القائل "مَنْ لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم"،[٢] جاء لينسجم مع كتاباته في الاهتمام بالمسلمين في دول متعددة وبعيدة عن مكان سكنه كباحث، وربما للدافع الديني الراسخ في قلب الدكتور عماد الدين خليل دور كبير في كتاباته، كما أن لرغبته في مساعدة المسلمين الذين يقع عليهم الظلم ونصرتهم على من ظلمهم دور آخر في المسألة. ومن هنا جاءت اهتماماته بمسلمي أفريقيا الذين عانوا على يد الاستعمار البرتغالي والبريطاني والفرنسي الكثير من الويلات مع بدء حركة الكشوف الجغرافية وصولاً لما عانته المنطقة على يد المبشرين النصارى القادمين إليها بأشكال متعددة أسهمت جميعها في تدمير المنطقة سياسيًا واقتصاديًا، كما طمست هوية وتأريخ المنطقة وربطتها بتأريخ وحضارة الغرب.

وعلى هذا الأساس أراد الدكتور عماد الدين خليل استنهاض همم المسلمين في بقية البلدان وتحفيزهم على دعم اخوانهم المسلمين في أفريقيا وتلبية نداءات الاستغاثة التي يطلقونها والنداء الذي وجهه مسلم كنغولي بقوله: "نحن المسلمين في الكونغو فقراء ضعاف جهلة ينقصنا كل شيء، ونحملكم مسؤوليتنا أمام الله، إننا – رغم فقرنا – لا نطلب منكم المال بل نطلب منكم من يعلمنا القرآن والإسلام والعربية.. إن فقرنا يحول بيننا وبين الذهاب إلى بلادكم للتعلم"[٣]. لقد كانت معلومات الدكتور عماد الدين عن أفريقيا وأحوال المسلمين فيها قد انصبت على ما ذكره في كتابيه (مأساتنا في أفريقيا/الحصار القاسي) و (أحقاد وأطماع التبشير في أفريقيا المسلمة)، وقد ركز في كتابيه على محاور المأساة الثلاثة الاستعمار والصهيونية والتبشير.

وفي مسألة الاستعمار هناك من يشير إلى أن تنبه الغرب لما تمتلكه أفريقيا من خيرات بدأ قبل وصول البرتغاليين إلى المنطقة وبدء الكشوف الجغرافية حينما خرج سلطان دولة مالي الإسلامية في غرب أفريقيا لأداء فريضة الحج وهو يحمل معه كمية كبيرة من الذهب، وشاهده وهو في الطريق التجار البنادقة فقاموا برسم صورة رجُل زنجي جالس على كرسي من الذهب ويحمل بيده عصا من الذهب في إشارة إلى غنى المنطقة وسكانها وأرسلوا الصورة إلى بلادهم فكانت إحدى الإشارات التي نبهت الغرب على ما تحويه تلك المنطقة من خيرات. فضلاً عن ذلك؛ فإن أفريقيا تمثل المدخل الرئيسي للوصول إلى مركز العالم الإسلامي الذي توجد فيه قبلة المسلمين، والسيطرة عليها تعني القضاء على الإسلام بشكل كبير وسريع، فبدأت التحركات ولاسيما بعد الاتفاقات التي عُقدت بين الغرب الصليبي والمملكة النصرانية في الحبشة والتي تمثلت في محاولة القضاء على الممالك الإسلامية في الحبشة ومن ثَمَّ العبور نحو ميناء جدة من جهة والوصول إلى مصر من جهة أخرى للالتفاف على المسلمين.

كما أن تلك الحقبة وما تبعها شهدت عمليات سبي واسترقاق لأغلب شباب القارة الأفريقية وتحويلهم على متن سفن إلى العالم الجديد كما كانوا يسمونه في أمريكا والبرتغال واسبانيا للعمل في المزارع في ظروف معيشية صعبة يسودها الظلم والقسوة والقضاء على الهوية واللغة والديانة من خلال عمليات التعميد القسرية للسكان. ومع بدء عملية التخلص من الاستعمار والتحرر من قيود الاسترقاق والتي كان للمسلمين الدور الأكبر فيها، ظهرت بوادر استعمار جديد كان قد استفاد من أخطاء الماضي ودرس جيدًا ذلك المجتمع وعرف كيفية التعامل معه، فركز على مسألة الثورات التحررية وتشكيل جيوش من الأفارقة لقيادة الانقلابات المتكررة وصولاً لقيادة تنسجم بتصرفاتها وطموحات الاستعمار[٤].

ويشير الدكتور عماد الدين خليل إلى مسألة تنبه الاستعمار الجديد للخطأ الكبير الذي وقع فيه الاستعمار القديم والمتمثل في عدم الاعتراف بإنسانية السود وجعلهم تابعين للرجل الأبيض، فهو المسيطر على عقولهم وأجسادهم يسخرها كيف يشاء ومتى شاء، وتلك السيطرة لا تنتهي مع دخول السود في النصرانية التي غالبًا ما يدخلوها مكرهين[٥]، وقد أشار إلى ذلك الأمر توماس آرنولد بقوله: "إن الأسود المتنصر يميل إلى الإحساس بأن أبناء دينه من الأوربيين ينتمون إلى لون من الحضارة لا

يلاءم طبائعه في الحياة، على حين يشعر في المجتمع الإسلامي بأنه أكثر تعلقًا به واطمئنانًا إليه".[٦]

وأمام ذلك الأمر عاد الاستعمار إلى المنطقة بثوب جديد يمقت بظاهره أساليب الاستعمار القديم ويدعو إلى المساواة وعدم التفرقة، فتعايش سلميًا مع الصهيونية والحركات التبشيرية والتي بدأت توحي للأفارقة أن العالمية هي الهدف الحقيقي الذي تطمح إليه تلك القوى، والتي عملت في الوقت نفسه بالإيعاز للمرتبطين بها من العرب لتأجيج العرقية والقومية بينهم وبين الأفارقة لتقطع الطريق أمام العديد من الدعاة المسلمين للعمل في أفريقيا. إن أولى ثمار ذلك التغيير في التعامل مع المسألة تمثل في نسيان الكثير من الأفارقة ما عانوه على يد الاستعمار ومد أيديهم لمصافحة المستعمر والتعامل معه، وبالمقابل كانوا يفتكون في جماعات المسلمين بعد عزلهم في مجموعات صغيرة وتجريدهم من السلاح كما هو الحال في الحبشة، أو أن تسلط عليهم مذابح جماعية باسم التحرر والتقدم كتلك التي شهدتها زنجبار عام ١٩٦٣م والتي راح ضحيتها ثلاثة وعشرون ألف مسلم من مجموع ستة وعشرين ألفًا.[٧]

إن أول ما فكر فيه المستعمرون في أفريقيا ليحققوا النجاح تمثل في عملية عزل العرب عن المسلمين من غير العرب وإقناع الأفارقة بأن ارتباطهم بالعرب لن يجدي نفعًا ولن يجر عليهم سوى الخسران والندامة، وساعدهم في مسعاهم هذا المتآمرين على المنطقة من الأفارقة أنفسهم ولاسيما المتطلعين لتولي المناصب الرئاسية والجلوس على كراسي الحكم، فخرجوا بفكرة الوحدة الأفريقية وعدم الانحياز ومفهوم الحياد الايجابي ليحققوا مبتغاهم في تمزيق المنطقة.[٨]

فـ باسم الوحدة الأفريقية يظهر حاكم أفريقي يعمل على تطبيق تلك الوحدة حسب مفهومه هو، وبما ينسجم وطموحات المستعمر، فهذا (هيلاسيلاسي) ينتقد القواعد العسكرية وفي بلاده أكبر قاعدة أمريكية، كما أنه ينتقد التحالفات، في حين أنه أول حاكم أفريقي يعقد تحالف مع كينيا ضد الصومال، وهو من أول من نادى بقطع العلاقات مع بريطانيا كتأديب لها على موقفها في روديسيا، إلا أنه كان من أوائل المتراجعين عن تنفيذ ذلك القرار.[٩] ويبدو هنا وبوضوح لايقبل الشك أن بعض قادة الدول الأفريقية كانوا قد أسهموا بشكل أو باخر في تدمير بلدانهم. وكدليل على ذلك موقف أثيوبيا (الحبشة) من مسلمي ارتيريا والذين عدتّهم متوحشين وخارجين عن القانون ومعتدين واستعانت بالولايات المتحدة الأمريكية لمحاربة تلك القوى الاريتيرية المسلمة من خلال إرسال (٤٠٠٠) ضابط وخبير لمساعدة إمبراطور أثيوبيا على مواجهة الخطر الإسلامي كما سماه Russell Warren Howe مراسل جريدة الكرستيان ساينس في تحقيق له عنوانه (أثيوبيا تحطم الخطر الإسلامي).[١٠]

وما أشبه هذه المساعدة بتلك التي قدمها الغرب النصراني للأحباش خلال العصور الإسلامية الوسطى، إذ أن أول اتصال حدث بين الحبشة والصليبيين كان في سنة (٥٦٠هـ/١١٦٥م)، حينما أرسل ملك الحبشة رسالة إلى الإمبراطور البيزنطي (كومنيوس) جاء فيها: "إن لدي اثنين وسبعين ملكًا يأتمرون بأمري، وإني اذهب إلى الحرب ومعي ثلاثة عشر صليبيًا من الذهب، كل صليب منها على رأس عشرة آلاف فارس ومائة ألف من المشاة، وأن كل أمنيتي أن استخدم هذه الجيوش في قتال أعداء الصليب، وأن أمكّن النصارى من الحج إلى بيت المقدس"،[١١] وبمجرد وصول الرسالة أرسلت نسخ منها إلى البابا وإلى ملوك اوربا وتُليت في الأديرة وبلاطات الملوك.[١٢]

إن أخطر ما تعرض له المسلمين في أفريقيا يتمثل في سكوت زعماء الدول الأفريقية عن الانتهاكات التي يتعرض لها أولئك المسلمين على يد المستعمرين، من خلال موافقتهم على ما تقرره مؤتمرات الوحدة الأفريقية التي صنعت لتمزق شمل الأفارقة وتحاول عزل المسلمين هناك، ومن ثم القضاء عليهم، ففي مقال كتبه (أحمد انيس) في صحيفة باكستان الشابة (عدد ٣ لسنة ١٩٦٦) قال فيه "لاشك أن أول الطُرق وأقربها لنجدة مسلمي تشاد هي أن نطرق أبواب الدول المسلمة في أفريقيا وننشدها الله والإسلام وحقوق الجوار ووحدة المصير، ولكن هذه الدول لم تكتفِ في الكرم – الكرم الغريب – بإلغاء ثقلها في مؤتمر اديس ابابا دون مخطط مسبق فيما بينها ويكفل حماية مصالحها المتجانسة وثقافتها المشتركة ويجعل ثقلها قوة مؤثرة هادفة تستفيد وتفيد، بل خرجت في اتفاق عجيب على تكريس أوضاع الدول الأفريقية المشتركة في المؤتمر، وعلى احترام هذه الأوضاع احترامًا متبادلاً بمقتضى ذلك التكريس، وذلك يعني أنه ليس من حقها منفردة أو مجتمعة أن تتدخل لحماية المسلمين".[١٣]

لقد لعب الحكام الأفارقة المتآمرين مع الصهيونية والغرب النصراني ضد المسلمين دورًا واضحًا وخطيرًا في شق صف المسلمين وضربهم من خلال منظمة الوحدة الأفريقية، فهذا هيلاسيلاسي ومن ورائه الاستعمار الغربي قد جعل نفسه بطلاً للتضامن الأفريقي، وهو في الحقيقة طاغوت كبير وعميل لأمريكا وإسرائيل في أفريقيا، فموقفه المعادي يزيد من حدة التوتر بينه وبين الصومال، فبفضل الاستعمار البريطاني استطاع أن يسيطر ذلك الإمبراطور على مناطق تابعة للصومال، كما ضَم إقليم اريتيريا - الذي تسكنه أغلبية مسلمة – إلى أثيوبيا نتيجة تآمر الدول الكبرى، ومما يثير السخرية أن الأمم المتحدة هي المسؤولة عما يحدث في اريتيريا من إحكام قبضة الطاغوت هيلاسيلاسي على شعب إريتيريا.[١٤]

وعمل ذلك الإمبراطور على تأكيد الصلة بين الكنيسة والدولة من خلال عبارة دستورية تصف الامبراطور بأنه حامي الصليب المقدس والتي تم استخدامها كوسيلة لضرب المسلمين وقمعهم، فبدأت بذلك عملية مهاجمة الإسلام والتعميد الاجباري للمسلمين، وهناك شخصيات إسلامية اضطرت إما إلى ترك دينها أو اللجوء إلى بلدان أخرى، كما أن أكثر من ٥٥٫٠٠٠ مسلم تم تعميدهم قسرًا وطرد آخرين من دورهم أو تعرضهم للإبادة الجماعية.[١٥] ويبدو أن ذلك الأمر لم يكن جديدًا على ملوك وحكام اثيوبيا، ففي سنة ١٨٧٨م عقد الملك جون مجمعًا يضم رجال الكنيسة الحبشية قرروا فيه وجوب الاقتصار على دين واحد في كافة انحاء المملكة وانذر جميع الموظفين المسلمين في حالة عدم قبول التعميد بمواجهة عقوبة الطرد من الوظيفة[١٦].

والأمر المثير للانتباه هنا يتمثل في عدم دعم الحكام المسلمين في أفريقيا للداخلين الجُدد في الإسلام، لا بل على العكس كانوا من أشد المعادين لهم، فهذا (إحسان حقي) مؤلف كتاب (أفريقيا الحرة) يتساءل قائلاً: "لقد أسفت أن يمر حادث إسلام الأمير كيمير شقيق الملك موتسيه الثاني رئيس يوغندا ومائة آخرون وإسلام وزير خارجية غينيا سنة ١٩٦٤ كأي حدث عادي.. في حين كان الواجب على الحكومات الإسلامية أن تسَفر إلى هذا الأمير عالمًا يفقه في الدين ويعمل على نشر الإسلام في يوغندا...".[١٧]

ويعود أولئك الحكام الأفارقة الذين قرروا القضاء على الإسلام وأهله للتحالف مع عدوة العرب الأولى، إسرائيل متناسين ذلك البيان الذي صدر بتواقيعهم في ميثاق الدار البيضاء، بل فتحوا بلادهم لمصالح إسرائيل بشكل علني، "كما أن الكثير من حكام العرب المسلمين وضعوا ثقتهم بإمبراطور اثيوبيا للحد الذي جعلهم يعتمدون عليه كوسيط بين المغرب والجزائر لحل المشكلة التي قامت بينهما وهو في نفس الوقت كان قد ابتلع اجزاء من اريتيريا المسلمة وجزءًا من الصومال، وأعلن في الكونغرس الأمريكي أنه قد وضع الترتيب لإعادة المسلمين في الحبشة إلى دين اجدادهم خلال اثني عشر عامًا، ثم فتح بلاد المسلمين تلك لإسرائيل لتنشئ فيها المشاريع المختلفة..".[١٨]

لقد اعتمدت إسرائيل والصهيونية كحركة أساليب خبيثة في التغلغل داخل الجسد الأفريقي، فعلى الرغم من أن الديانة اليهودية ديانة مغلقة إلا أن للصهيونية الدور الفاعل في ذلك التغلغل من خلال الوصول إلى القمة في تلك الدول ومحاولة استمالة رؤساء الدول من خلال الإقناع بالأموال والهبات وعقد الاتفاقيات الاقتصادية والأمنية ومن ثم الوصول إلى قاعدة تلك الدول الأفريقية المتمثلة بشعوبها، فالصهيونية أسهمت مع الاستعمار والتبشير في محاصرة الحركات الإسلامية والقضاء عليها من خلال التجويع والإرهاب والقتل والفناء، فنجد مثلاً أن مجزرة زنجبار كانت قد اسهمت فيها عناصر صهيونية، وحركات الانفصال عن الدول الإسلامية كحركتي جنوب السودان وبيفارا تسندهما إسرائيل سياسيًا وماليًا وعسكريًا وإعلاميًا، لذلك تجد أن الكثير من حكام أفريقيا قد بدأوا يتصالحون مع إسرائيل ويقيمون معها علاقات وطيدة ليحافظوا على كراسيهم، وبالمقابل فأن الكثير من الحكام الأفارقة المسلمين فقدوا مناصبهم مقابل أولئك الوثنيين أو النصارى المتحالفين مع الصهيونية[١٩].

فضلاً عن ذلك؛ فقد حاولت إسرائيل التقرب من القادة الأفارقة والسياسيين ورجال الأعمال وطلبة العلم من خلال دعوتهم لزيارة فلسطين المحتلة والعمل أو الدراسة هناك ليتسنى لها تدريب وترويض أولئك الناس على كره العرب والمسلمين، والعمل بعد عودتهم إلى بلدانهم في مناصب تخدم مصالح إسرائيل في المنطقة[٢٠]كما أن توثيق علاقات إسرائيل بالدول الأفريقية النامية كان هدفًا من الأهداف التي طمحت الصهيونية لتحقيقها وذلك لفك العزلة التي وضعت بها بعد مقاطعة الدول العربية لها فكان لابد لها من ان تجد منفذًا جديدًا يحقق طموحاتها فكانت أفريقيا المجال الخصب لذلك.

إن الدلائل على صحة القول بأن موظفي الدولة في اثيوبيا مثلاً هم من النصارى الذين تعلموا في إسرائيل أو في جامعات دول تدعمها إسرائيل هو أن أغلب موظفي الدولة هم من هؤلاء، لا بل أنهم من الأقلية فهم من أبناء قبيلة الأمهرة الحاكمة، فيما تجد أن أبناء قبائل (الداناكل والجالا ومراري) وجوراج الذين يشكلون الأغلبية في البلاد قد فقدوا وظائفهم، فلا يستطيع أي مسلم أن يُعين في منصب وزير أو حاكم أو سفير أو أي منصب هام، حتى أنه من النادر أن تجد منهم الكتبه[٢١]. وتزامنًا مع ذلك فقد كانت إسرائيل تنسق أعمالها داخل أفريقيا مع قادة تلك الدول، فقد تمكنت من إقامة علاقات دبلوماسية مع إحدى وثلاثين دولة أفريقية من مجموع ثمان وثلاثين حتى عام ١٩٦٨، ومن بين تلك الدول الإحدى والثلاثين هناك تسع وعشرين تصل علاقاتها بها لدرجة تبادل السفراء، كما أن تعداد الجالية اليهودية في أفريقيا بلغ حتى عام ١٩٦٥ (٥٠١٫٦٨٠) يهوديًا[٢٢].

إن الأمر الذي ركز عليه الدكتور عماد الدين خليل في كتاباته عن مسلمي أفريقيا ولاسيما في كتابه (مأساتنا في أفريقيا) يتمثل في توضيح الدور الصهيوني في السيطرة على مقدرات تلك البلدان من خلال التغلغل كبديل عن الاستعمار الذي بدأ بالانسحاب من المنطقة، ومن ثم أرادت إسرائيل تحقيق هدفين، الأول هو الإفادة من خيرات تلك البلدان واستغلالها من خلال الاستثمار وإنعاش الاقتصاد الإسرائيلي، والثاني التخلص من العزلة التي فرضتها المقاطعة العربية، ولتحقيق تلك الأهداف عملت إسرائيل على تكريم من استجاب لطلباتها وفي المقابل

محاربة وقتل من لم يستجب لها من حكام أفريقيا وهو ما حصل فعلاً للرئيس الراحل (أحمدو بللو) حينما بُلغ برغبة (كولدا مايير) بمقابلته فرد قائلاً: (نعم أسمح لها بشرط أن تسمحوا لي بإطلاق الرصاص عليها بمجرد رؤية وجهها الحاقد الكالح) كما أنه وقبيل مقتله حينما سئل في مطار لاغوس عن تصريح إسرائيلي بعقد اتفاق اقتصادي بين نيجيريا وإسرائيل أجاب بقوة (إن إسرائيل بالنسبة لنا غير موجودة، ولن تكون موجودة أبدًا) فما كان من إسرائيل إلا أن تخلصت من هكذا حكام لا يطيعونها ولا يساعدونها في السيطرة على تلك البلاد وقامت بقتل (أحمدو بللو).[٢٣]

لقد فرحت إسرائيل ودعمت انقلاب ايرونسي الدموي في مطلع عام ١٩٦٦ لأنه أطاح بالرؤوس التي تصدت للامتداد الصهيوني وحرصت على الدفاع عن قضية المسلمين في فلسطين، كما أن ذلك الانقلاب فتح الطريق أمام النشاط اليهودي في نيجيريا ليعود ثانية وليكون له اليد الطولى في اندلاع الحرب في (بيافرا) لتحقيق الانفصال الذي كانت تطمح إسرائيل والغرب الصليبي من وراءه فصل الشرق الغني بالنفط، عن الشمال الفقير والذي يسكنه حوالي الثلاثين مليون مسلم، فدعمت الانفصال بالمال والسلاح عبر فرنسا من خلال المستعمرات الفرنسية القريبة من نيجيريا حتى استطاعت من ان تخرج السلطة في نيجيريا من يد الشمال المسلم[٢٤]

وتبنى الصهاينة مسألة دعم الانقلابات في أفريقيا ولاسيما التي سوف يحصلوا في حالة نجاحها على فوائد كبيرة من خلال تسلم السلطة شخص موالي لهم، ففي موزمبيق تلقت عناصر الأفريقيين المغتربين المتجمعة في منظمة عميلة تُدعى (فريلمو) الدعم من الإسرائيليين والأمريكان وبعض الدول الأفريقية المتأثرة بالإسرائيليين، وفي الكونغو نجد اليهود يسيطرون على تجارتها وبعض صحافتها والبضائع الإسرائيلية تغرق الأسواق وهي تصل إليها عن طريق ميناء العقبة، ونجد في كتب الجغرافيا أن هناك خريطة لسوريا تجعل المسافة بين حدود إسرائيل الشمالية ونهر الفرات لا تتجاوز المائة كيلومتر، وفي بعض الخرائط المصورة نجد خلطًا مقصودًا بين أسماء الأنهار والجبال والأماكن[٢٥].

وفي غانة أنشأت إسرائيل شركة النجمة السوداء ثم اشرفت على معهد البحرية الغاني وفي سنة ١٩٥٧م وقَعت الدولتان اتفاقية منحت غانا بموجبها عشرين مليون دولار، وفي الفترة ما بين ١٩٥٨-١٩٦٠ أسهمت إسرائيل في إنشاء مدرسة الطيران الحربية الغانية، وفي السنغال قامت إسرائيل عام ١٩٦٣ بإنشاء منظمة للشبيبة السنغالية على غرار منظمة الناحال، وفي ساحل العاج قام سبعة ضباط إسرائيليين عام ١٩٦٢ بتدريب مرشدين على إنشاء مستعمرات زراعية في منطقة أدغال ساحل العاج[٢٦].

ويبدو أن مسألة الاستثمار الزراعي جاءت لضرب اليد العاملة المسلمة، فضلاً عن القضاء على مُلاك الأراضي من المسلمين وهو ما حصل فعلاً في اثيوبيا حينما تغلغل المستوطنين الامهريين إلى أراضي المسلمين بدعم من الحكومة التي شجعتهم على الهجرة إلى منطقة (والو) و (مرار) و (اروسي) و (جما)، وقد قوبلت محاولات مُلاك الأراضي من المسلمين بالقسوة من قبل القوات المسلحة وأصبح المُلاك المسلمين رقيقًا في أراضيهم[٢٧].

وفي مجال التعليم فقد حظي السكان الأفارقة من النصارى بقسط وافر من التعليم، فقد تم إرسال خمسة عشر ضابطًا تنزانيًا وخمسة طيارين إلى إسرائيل ليتدربوا، وفي كينيا تدرب ثلاثون ضابطًا وخمسة طيارين في إسرائيل، كما دربت إسرائيل خمسة عشر ضابطًا يوغنديًا وخمسة طيارين حربيين عام ١٩٦٣، فضلاً عن قيام عالم ذرة إسرائيلي بإنشاء مختبر للنظائر المشعة هناك[٢٨]، وبالمقابل فأن حق المسلمين في التعليم ومن ثم الحصول على وظائف عالية ضعيف جدًا ولم يحدث أن افتتحت مدرسة في منطقة مسلمة مالم تتوفر فرص التعليم للنصارى أولاً، ولذلك فمن بين ١٤٠٫٠٠٠ طالب ليس هناك سوى ٢٠٠٠ طالب من المسلمين لأنه لا توجد أية مدرسة تناسبهم في المناطق الإسلامية كما عمل إمبراطور الحبشة (هيلاسيلاسي) على عزل مناطق تواجد المسلمين ليمنع أي عالم من زيارتهم ومنع وفد الأزهر الذي وصل إلى اديس أبابا عام ١٩٥١ من البقاء في البلاد وغادرها بعد ساعات من وصوله، ووضع على المسلمين ضريبة أسمها (الدخل الخلقي) تُدفع للكنيسة، فضلاً عن قيامه ببناء كنيسة في رأس كل قرية مسلمة ليوحي لكل زائر اجنبي بان الكنيسة هي المسيطرة على المكان[٢٩].

والغريب في الأمر هو أن المسلمين في الكثير من الدول الأفريقية كانوا يمثلون الأغلبية، ففي تشاد مثلاً كان هناك حوالي المليوني مسلم مقابل (٨٠٠٫٠٠٠) من غير المسلمين، إلا أن قانون البلاد الذي وضعه الاستعمار والصهيونية منع أي مسلم من تولي منصب الرئاسة، كما أن عدد الوزراء كان متساويًا بين المسلمين وغيرهم وهو أمر مجحف قياسًا لنسبة السكان، وحتى ذلك العدد فقد تم القضاء عليه واستبدل الوزراء المسلمين بوزراء نصارى ووثنيين حالما اعترضوا على وصول السفير الإسرائيلي لبلادهم.[٣٠]

فضلاً عن ذلك؛ فقد عانى مسلمو الحبشة من مسألة انتزاع أراضيهم الزراعية ومنحها من قبل الإمبراطور (هيلاسيلاسي) إلى إسرائيل، ففي عام ١٩٦٦ تم إهداء (٥٠٠٫٠٠٠ دونم) لزراعة القطن إلى إسرائيل بعد انتزاعها من أصحابها المسلمين ومنحتها لشركة (انكودي) الإسرائيلية، وعشرين الف هكتار لشركة إسرائيلية لتربية المواشي ولهذه الشركة فروع في مناطق عدة من إقليم هرر الإسلامي، وألفي هكتار لشركة (اناجن) الإسرائيلية في منطقة (عياش)، وفيما يتعلق بالقوارب الإسرائيلية فقد كانت

تجوب البحر الأحمر وصولاً إلى ميناء (مصوع) الاريتيري المسلم وتشحن الأسماك بأذن الحكومة الاثيوبية من الميناء متجهة نحو ميناء (إيلات) الإسرائيلي دون أن تدفع أية ضرائب أو رسوم كمركية، حيث يتم تعليب تلك الأسماك وبيعها مرة أخرى للدول الأفريقية[٣١].

ولم يقتصر الأمر على ذلك بل قدمت الحبشة الدعم الكامل للكيان الصهيوني خلال حربه ضد العرب عام ١٩٦٧ من خلال إشغال السودان بحرب وهمية معه، فقد حشدت اثيوبيا قواتها على حدود السودان الشرقية لكي لا يتمكن السودان من إرسال جيشه لمحاربة إسرائيل، كما حاولت تعطيل ذهاب المتطوعين الصوماليين للقتال في فلسطين والبلاد العربية الأخرى، فضلاً عن ذلك فقد احتفلت اثيوبيا وحلفاء إسرائيل بانتصار إسرائيل على العرب في تلك الحرب، إلا أن تلك الحرب لم تُعطِ الزعماء العرب والمسلمين في أفريقيا درسًا لمعرفة من يقوم بخداعهم فتراهم يتسابقون للمشاركة في مؤتمر جديد لمنظمة الوحدة الأفريقية سيعقد في اديس أبابا مطلع أيلول عام ١٩٧٠ وكأنهم لم يفهموا الدرس بعد[٣٢].

ويأتي التبشير في المرحلة الثالثة بعد الاستعمار والصهيونية ليكمل ما بدأه كل منهما، وقد وجد الاستعمار القديم أن المسلمين يقودون حركات الجهاد والكفاح ضده من أجل تحرير الأرض الأفريقية من براثنه من خلال القيام بعمليات فدائية، وقد تنبه الكثير من المستعمرين والمبشرين بالنصرانية للأمر وأشاروا إليه، فهذا الأمين العام الممثل للمجلس الأفريقي في قسم البعثات الأجنبية للمؤتمر الوطني لكنائس المسيح في الولايات المتحدة يحذر من خطر الإسلام بقوله : (وهكذا فأن الإسلام في أفريقيا يهيئ مركز الحشد لكل أولئك الذين يقاومون التدخل الغربي نشاطه أو سيطرته)، كما ذكر (برايان) عام ١٩٦٥ أنه: "في المستقبل القريب سيجد الغربيون أنفسهم في صدام مع ثقافة موحدة أكثر عداء لتدخلهم مما شوهد إطلاقًا تحت الظروف القبلية"[٣٣].

والأمر الجدير بالذكر؛ هو ما سجله الدكتور عماد الدين خليل نقلاً عن (برايان) من أن الأفارقة أنفسهم لم يتقبلوا فكرة التحول للنصرانية والتي كان يقوم بها المبشرين النصارى، فهذه شكوى صادرة عن الشبيبة الأفريقية الحُرة عن النشاط التبشيري الاستعماري بقولهم: (في الأول كنا نحن نملك الأرض، أما هم فكانوا يحملون الانجيل، أما الآن فقد اصبحوا يملكون الأرض وتركونا نحمل الإنجيل، ولا يوجد في الإنجيل شيء عن جمع الأموال من اتباع الكنيسة.. ولكن هؤلاء المبشرين يجمعون من الكبير والصغير وعندما يصلى هؤلاء المبشرون يجعلوننا نرفع رؤوسنا إلى السماء، والسبب أنهم ينظرون إلى أسفل الأرض طمعًا فيها.. ذلك الذي يفكرون به دائمًا يعطوك السماء ليأخذوا الأرض)[٣٤].

وتلك الأقوال تذكرنا بالمقارنة التي أجراها توماس آرنولد بين الداعية المسلم والمبشر في أفريقيا فيقول (منذ اللحظة الأولى التي يعترف فيها المتحول إلى الإسلام بالعقيدة، يسير سيرًا عمليًا على المبادئ القائمة على مؤاخاة المؤمنين جميعًا وتساويهم أمام الله وهي مبادئ يشترك فيها الإسلام مع النصرانية، غير أن هذا الداعية المسلم بصفة عامة أسرع وأحسم في القيام بهذا العمل من المبشر النصراني الذي يشعر في أغلب الأحيان بأنه مضطر إلى المطالبة بدليل قوي على إخلاص المتنصر قبل أن يصافحه مصافحة التآخي في النصراني، والذي كان دائمًا يثير تعصبًا جنسيًا لم يكن محتملاً أن يزول في جيل واحد، حيث كان يعد المسيحي الأبيض طوال أجيال سيدًا، كما كان يعد الوثني الأسود عبدًا)[٣٥].

وعلى الرغم من ذلك؛ فإن للمؤسسات التبشيرية أثر واضح في أفريقيا قياسًا بالحركات الإسلامية، إذ تمتلك تلك المؤسسات كل عوامل الدعم والإسناد من الاستعمار فيما تُحارب الحركات الإسلامية من قبل الجميع، كما وفي الوقت الذي تُغدق فيه الأموال لنجاح حركات التبشير تُحاصر وتُحارب فيه الحركات الإسلامية مما جعل نجاحها ضعيفًا قياسًا لحركات التبشير التي تمتلك كُل شيء حتى النشاط الإعلامي كان لصالحها ضد المسلمين[٣٦].

فضلاً عن ذلك؛ فإن اتهامات المبشرين للعرب المسلمين بأنهم هم من دمر القارة الأفريقية وهم من استَرق أبنائها كانت تتردد بشكل مستمر لتقلل من شأن المسلمين وتجعل المسافة بينهم وبين الأفارقة كبيرة، وقد تعمدوا أن يثبتوا تلك الكذبة حتى في كتبهم المدرسية، فهذا كتاب التأريخ للصف السادس الابتدائي والصفوف الأولى المتوسطة في الكونغو والذي ألفه (جورج ديوارد) وهو مدير مدرسة ابتدائية في الكونغو وهو يقول في الدرس التاسع من الكتاب: (.. لكن قوانين دولية حرمت تجارة الرقيق حيث انتهت عبر شاطئ الاطلنطي على أن العرب استمروا في ذلك بل وضخموا هذه التجارة، لقد كانوا يصطادون ضحاياهم من الشواطئ الأفريقية الواقعة على البحر الأحمر والمحيط الهندي، وعندما وصلوا إلى زنجبار سنة ١٨٢٠م سيطروا على البلاد المجاورة وتقدموا إلى داخل أفريقيا ثم توغلوا إلى الكونغو وأسسوا سوقًا للرقيق في بلدة (نيا نغوية).. وكانوا يقودون آلاف الأسرى من النساء والأطفال والرجال...)[٣٧] .

ويبدو أن (جورج ديوارد) نسي أو تناسى ما فعله المبشرين القادمين مع المستكشفين الأوربيين في القارة الأفريقية ولاسيما حينما كانوا يجمعون أبناء القرية في مكان واحد بعد أن يحرقوا دورهم، ثم يتم اصطيادهم في شبكة كبيرة ليعرضوا بعدها على رجل دين يقوم بتعميدهم قسرًا ثم يتم اختيار الشباب من بينهم ليتم نقلهم إلى الساحل حيث يركب الجميع على متن سُفن كبيرة ليتم نقلهم إلى البرتغال واسبانيا وبريطانيا للعمل في الزراعة

ومهن صعبة أخرى، كما أن عملية النقل تلك تتم بوحشية كبيرة يتم خلالها إلقاء من يتمرض منهم في البحر، كما أنهم لم يراعوا مسألة سعة السفينة فتلك التي تتسع لمائة راكب يتم تحميلها بمائتين وهكذا وكلما أحسوا بخطورة الأمر القوا من يعتقدون أنه لن يفيدهم في البحر[٣٨].

فضلاً عن ذلك؛ فإن مؤرخي وكُتاب الغرب دحضوا بأنفسهم تلك الافتراءات فهذا توماس آرنولد يقول: (أن لون الزنجي وجنسه لم يحملا بأية حال إخوانه الجُدد في الدين، على أن يتعصبوا عليه، ولا شك أن نجاح الإسلام قد تقدم في أفريقيا الزنجية تقدمًا جوهريًا بسبب عدم وجود إحساس باحتقار الأسود قط على أنه من طبقة منحطة، كما كانت الحال لسوء الحظ في كثير من الأحيان في العالم النصراني)[٣٩]. لقد رسم صُناع التبشير في أفريقيا خططهم وفق محاور رئيسية ساروا على أساسها وتتمثل في:

- إنتاج أكبر عدد ممكن من القسس والمبشرين السود.
- توجيه عدد من الأكفاء الذين يعول عليهم من رجال اللاهوت إلى التخصص في العلوم المدنية والسياسية كي يشرفوا على المؤسسات ذات الظاهر العلماني لإمداد الأفارقة في الشؤون الإدارية والاقتصادية.
- الترخص في بعض المسائل الدينية التي لا تناسب المزاج الأفريقي كتحريم تعدد الزوجات مثلاً حيث صدرت التعليمات العليا المكتوبة بإباحة ذلك لمن يعشق النصرانية في أفريقيا[٤٠].

تلك المسائل وغيرها عمل المبشرون على التأكيد عليها بعد اصطدموا بجدار الحركات الإسلامية التي لم تمنحهم فرصة للوصول إلى مبتغاهم، فلجأوا إلى وسائل تحقق لهم ما يريدون كدعم المؤسسات التعليمية والطبية من خلال بناء المدارس وتجهيزها بالمستلزمات الدراسية والمعلمين، وتزويد المؤسسات الطبية بالأدوية والأطباء والممرضين، ففي الكونغو مثلاً وصل النشاط التبشيري ذروته بدعم من بلجيكا، فتكاد ترى الرهبان والقسس الكاثوليك في كل مكان وهم يعملون كمتعاقدين مع الحكومة الكنغولية ويتقاضون منها رواتب شهرية، وتأتيهم من مصادر خفية أرزاق لا حصر لها يوزعونها على الأهالي، وهم يشرفون بشكل مباشر على التعليم بجميع مراحله، ويسيطرون بنفوذهم الديني على كل مرافق الدولة، وقد ثارت قبيل استقلال الكونغو مناقشات حادة في الصحف والإذاعة حول اللغة الرسمية للبلاد، وأقترح كثيرون أن تكون لغتهم السواحلية لأنها الأوسع والأغنى، إلا أن ذلك لم يرق للمبشرين وللبلجيكيين الذين تحججوا بأن تلك اللغة هي لغة المستعبدين العرب الذي أغرقوا الكونغو سنين طويلة في البؤس والعبودية ونجحوا في فرض الفرنسية لغة رسمية[٤١].

ولم يقتصر الأمر على ذلك، بل اتخذت الكنيسة في الكونغو قرارًا يقضي بتعميد كل طفل جديد يولد لعائلة مسلمة ويتم منحه أسمًا، وفي حالة رفض أهله فسوف لن يُسجل في السجلات المدنية ولا مكان له على مقاعد الدراسة، إلا أنه وعلى الرغم من كل تلك المضايقات فأن عددًا من الدعاة السنغاليين والماليين والنيجيريين عملوا بنشاط في الكونغو وحاولوا تحقيق نجاحات كبيرة لولا المضايقات التي كانوا يتعرضون لها من قبل الكنيسة والتي كانت تستعين بالشرطة لوضعهم في السجن بضعة أيام أو تطردهم خارج البلاد[٤٢].

وعلى الرغم من أن عمليات التنصير في أفريقيا تسير على قدم وساق من خلال استخدام المغريات، إلا أن تقبل الأفارقة للإسلام كان يتم بمصداقية وتقبُل دون تملق أو خوف من الدعاة لذلك الدين، في حين كان الأسود المتنصر يميل إلى الاحساس بأن أبناء دينه من الأوربيين ينتمون إلى لون من الحضارة لا يلاءم طبائعه في الحياة، في حين يشعر في المجتمع الإسلامي بأنه أكثر تعلقًا به واطمئنانًا إليه[٤٣]، ولذلك ورغم كثرة وقوة الحملات التبشيرية في الكونغو مثلاً فأن المسلمين لازالوا متمسكين بدينهم هناك ويمارسون فرائض دينهم رغم كل ما تعرضوا له، ويبلغ عددهم خلال حقبة السبعينيات من القرن الماضي حوالي (٨٠٠,٠٠٠) مسلم[٤٤].

وقد نشرت مجلة العالم الإسلامي الإنجليزية مقالاً بقلم المستر (وطسون) تحت عنوان (العالم الإسلامي) قال فيه: "إن الموقف في أفريقيا صار حرجًا بسبب سرعة تقدم الإسلام من مركزه الواسع في الشمال ومعاقله التي في السواحل إلى الجنوب والغرب الأفريقي والمبشرون كانوا قد أخطأوا في تقديراتهم السابقة لأنه تبين لهم فيما بعد أن بعض البلاد التي كانوا يحسبونها خالية من الأديان المعروفة هي إما إسلامية وإما أنها على هبة الدخول في الإسلام"[٤٥].

ويشير الدكتور عماد الدين خليل إلى أن دور المبشرين في شرق أفريقيا كان أعظم من وسطها وغربها، حيث الاستعمار البريطاني الخبيث الذي لا يدخل بلدًا ويقرر بعدها الخروج منها إلا وهو قد تركها حطامًا، فما مجزرة زنجبار التي راح ضحيتها ثلاثة وعشرون ألف مسلم من مجموع ستة وعشرون ألفًا إلا صورة من صور الاستعمار والتبشير، فضلاً عن جرائم أخرى كتمرد جنوب السودان، وإرهاب هيلاسيلاسي ومجازره الدامية، أو تسلط الحكومة التشادية النصرانية على رقاب الكثرة المسلمة بمساندة القوات الفرنسية، ليست هذه بمجموعها سوى حلقات ممدودة في سلسلة طويلة بدأت مع دخول أول رجُل أوربي لاستعمار أفريقيا، وستبقى تمتد تعزل المسلمين وتقتلهم وتبيع دماءهم وتستحيي نساءهم وتدمر أمنهم وتسحق سلامهم[٤٦]. ويذكر أن في العاصمة الكينية وحدها أربعين كنيسة مبنية بناءً حديثًا مقابل ثمانية مساجد قديمة في حالة

مزرية، وأن الجمعيات التبشيرية تشتري أفضل المواقع لتقيم عليها أبنيتها وعلى واحد من هذه المواقع أقامت عمارة ضخمة من عشرة طوابق تشغلها رئاسة المجلس النصراني الكيني، فيما يقول صاحب التقرير أن مكتب صغير مستأجر لا يتسع لتأدية الأعمال يعود لجمعية إسلامية[٤٧].

ولم تقتصر عملية التضييق على المسلمين في أفريقيا في جانب مُعين بل شملت كافة نواحي الحياة، فالتعليم لا صلة له بالإسلام، والشؤون الاجتماعية تُستغل لدعم المراكز التنصيرية، والإجازة الأسبوعية يوم الأحد وهو يوم القداس للنصارى، أما التاريخ المعتمد فهو التاريخ الميلادي، والصليب الأحمر بدل الهلال الأحمر، وجميع الأعياد نصرانية ماعدا عيدين للمسلمين وعيد العمال، وجميع المدارس نصرانية معترف بها ومدعومة من الدولة ولا توجد مدرسة إسلامية واحدة معترف بها[٤٨]. وفيما يتعلق بالجيش ولاسيما في اثيوبيا فأن انتساب المسلمين له كان محرمًا حتى منتصف السبعينيات من القرن الماضي حيث سُمح لهم بالانتساب له بنسبة ١% وبشروط صعبة مع وضع العراقيل في وجههم كي لا يصلوا إلى مناصب عالية، وتلك النسبة لم تتحقق إلا بعد صيحات واحتجاجات كثيرة، وحتى التجارة التي كانت بيد المسلمين فأن السلطات الحبشية أصدرت قرارًا غريبًا يمنع المسلمين من الاستيراد والتصدير إلا من خلال تاجر نصراني حبشي وهي ضربة شنيعة للمواطنين المسلمين وجهت لهم من قبل السلطات الحبشية الكهنوتية[٤٩].

ويلاحظ مما سبق؛ مدى القهر والحرمان الذي تعيشه الأكثرية المسلمة على يد الأقلية النصرانية المدعومة من قبل الاستعمار ماديًا ومعنويا مقابل العزلة التي يعيشها مسلمو أفريقيا والتآمر الداخل والخارج عليهم، تلك الصورة الحقيقية نقلها لنا الدكتور عماد الدين خليل في كتاباته عن تلك المنطقة.

نتائج الدراسة

في ختام البحث لابد من توضيح أبرز النتائج التي تم التوصل إليها:

١- علينا أولاً نحن المسلمين أن نبقى دائمًا في حالة تكاتف ضد أعداءنا وأن نفكر بإخواننا في الدين مهما بعُد موطنهم ومهما كانت جنسيتهم.
٢- تُعَدّ أفريقيا الامتداد الطبيعي للوطن العربي ولاسيما لبلدان المغرب العربي التي يقع عليها العبء الأكبر في مسألة مساعدة مسلمي تلك المنطقة.
٣- أن تكون المساعدة المقدمة لمسلمي أفريقيا بمستوى التحديات وتتناسب وعظم المأساة التي تعاني منها شعوب المنطقة.
٤- على المسلمين في بقية البلدان تطوير أساليب الدعم والمساندة لمسلمي أفريقيا بما ينسجم والعون الذي تقدمه الجمعيات التبشيرية النصرانية للمستجيبين لها.
٥- أن يتصدى كُتاب ومؤرخي ومثقفي الأمة الإسلامية للمواضيع المتعلقة بمسلمي أفريقيا، وأن يفضحوا الأساليب الخبيثة للمستعمرين والمبشرين هناك
٦- ذلك التصدي للكتابة عن المنطقة برز جليًا في كتابات الأستاذ الدكتور عماد الدين خليل حينما وضح حجم المؤامرة المشتركة بين الاستعمار والصهيونية والتبشير في تدمير الأمة الإسلامية بشكل عام وأفريقيا بشكل خاص.
٧- على المسلمين فضح المؤامرة الاستعمارية الرامية إلى عزل الأفارقة عن تاريخهم وحضارتهم العربية الإسلامية من خلال إبراز التاريخ الزاهر للإسلام في أفريقيا وهو ما ركز عليه الأستاذ الدكتور عماد الدين خليل.
٨- مَنْ يقرأ كتابات الدكتور عماد الدين خليل عن أفريقيا يلاحظ أنها جاءت مطابقة لما ذكره بعض المستشرقين المنصفين للإسلام، فحينما يسجل ملاحظة عن عمل استعماري أو تبشيري في منطقة ما ترى ذلك المستشرق قد أشار إليها وبين مدى الظلم الذي وقع على مسلمي المنطقة وهو ما يؤكد ويقوي من أدلة الدكتور عماد في ذلك الأمر.

الهَوامِشُ:

(١) الطائي، ذنون يونس: "عماد الدين خليل دراسة ابيستمولوجية في طروحاته الفكرية"، **دراسات موصلية**، العدد (١٥)، سنة (شباط:٢٠٠٧)، ص٤٨.
(٢) الطبراني، سليمان بن أحمد (ت٣٦٠هـ)، **المعجم الأوسط**، تحقيق: طارق بن عوض الله بن محمد و عبد المحسن بن إبراهيم الحسيني، دار الحرمين، (القاهرة: د.ت):٧/ ٢٧٠.
(٣) خليل، عماد الدين: "**مأساتنا في أفريقيا الحصار القاسي وثائق من تاريخنا المعاصر**"، مؤسسة الرسالة، ط١، (بيروت:١٩٧٨)، ص١٥ .
(٤) خليل، **مأساتنا في أفريقيا**، ص٢٠.
(٥) خليل، المرجع نفسه، ص٢١.
(٦) أرنولد، توماس: "**الدعوة إلى الإسلام – بحث في تاريخ العقيدة الإسلامية –** "، ترجمه إلى العربية وعلق عليه: حسن إبراهيم حسن وآخرون، ط٣، (القاهرة:١٩٧٠)، ص٣٩٥.
(٧) خليل، **مأساتنا في أفريقيا**، ص٢٣-٢٤.
(٨) خليل، **مأساتنا**، ص٢٤.
(٩) خليل، المرجع نفسه، ص٢٦-٢٧.
(١٠) خليل، نفسه، ص٢٨.
(١١) النقيرة، محمد عبد الله "**انتشار الإسلام في شرق أفريقيا ومناهضة الغرب له**" (الرياض: ١٩٨٢)، ص٢٩٦
(١٢) هاو، سونيا. ي "**في طلب التوابل**" (القاهرة:١٩٥٧)، ص٦٦.
(١٣) خليل، مأساتنا، ص٣١.
(١٤) خليل، المرجع نفسه، ص٣٤.
(١٥) أحمد، انيس الدين "**مأساة المسلمين في أثيوبيا**"، مقال مترجم من صحيفة باكستان الشابة، العدد الثالث، نوفمبر، (كراتشي: ١٩٦٦)، ص١٦٣.
(١٦) آرنولد، **الدعوة**، ص١٤١.
(١٧) خليل، **مأساتنا في أفريقيا**، ص٣٥.
(١٨) المجذوب، محمد، **مقال منشور في مجلة المسلمون**، مجلد ٨، عدد ٥، ١٩٦٤ ؛ خليل، مأساتنا في أفريقيا، ص٣٦.
(١٩) خليل، **مأساتنا**، ص٤١-٤٢.
(٢٠) خليل، **مأساتنا**، ص٤٥.
(٢١) أحمد، **مأساة المسلمين**، ص١٦٢.
(٢٢) خليل، **مأساتنا**، ص٥٠.
(٢٣) خليل، **مأساتنا**، ص٥٢-٥٣.
(٢٤) المرجع نفسه، ص٥٤.
(٢٥) خليل، **مأساتنا**، ص٥٥-٥٦.
(٢٦) خليل، المرجع نفسه، ص٥٦-٥٧.
(٢٧) أحمد، **مأساة المسلمين**، ص١٦٢.
(٢٨) خليل، **مأساتنا**، ص٥٨.
(٢٩) أحمد، **مأساة المسلمين**، ص١٦٣.
(٣٠) خليل، **مأساتنا**، ص٦٠-٦١.
(٣١) المرجع نفسه، ص٦٥-٦٦.
(٣٢) خليل، المرجع نفسه، ص٦٨.
(٣٣) خليل، عماد الدين "**أحقاد وأطماع التبشير في أفريقيا المسلمة**" المختار الإسلامي للطباعة والنشر، ط٢، (القاهرة: ١٩٧٩)، ص٥-٦.
(٣٤) خليل، **أحقاد وأطماع**، ص٦.
(٣٥) آرنولد، **الدعوة**، ص٣٩٤.
(٣٦) خليل، **أحقاد وأطماع**، ص٨.
(٣٧) خليل، المرجع نفسه، ص٩.
(٣٨) صديق، عمر سلهم، **الحركة الصليبية في ساحل شرق افريقيا (٦٦٩-٩٥٠هـ/ ١٢٧٠-١٥٤٣م)**، رسالة ماجستير غير منشورة، (جامعة الموصل:٢٠٠١)، ص١٧٩.
(٣٩) آرنولد، **الدعوة**، ص٣٩٤.
(٤٠) خليل، **أحقاد وأطماع**، ص١١.
(٤١) خليل، **أحقاد وأطماع**، ص٢٩-٣٠.
(٤٢) خليل، المرجع نفسه، ص٣٠.
(٤٣) آرنولد، **الدعوة**، ص٣٩٥.
(٤٤) خليل، **أحقاد وأطماع**، ص٣١.
(٤٥) باري، محمد فاضل علي و سعيد إبراهيم كريدية، **المسلمون في غرب أفريقيا تاريخ وحضارة**، دار الكتب العلمية، ط١، (بيروت: ٢٠٠٧)، ص١٧٧.
(٤٦) خليل، **أحقاد وأطماع**، ص٣٤-٣٥.
(٤٧) خليل، المرجع نفسه، ص٣٦.
(٤٨) باري، **المسلمون**، ص١٨١.
(٤٩) خليل، **أحقاد وأطماع**، ص٥٩-٦٠.

ISSN: 2090 – 0449 Online
UIF Universal Impact Factor, [0.1101].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [0.88].

العمارة العلمية في مغرب العصر الوسيط
الخزانة المرينية العتيقة في جامع تازة نموذجًا



عبد السلام انويكة
أستاذ باحث في التاريخ المعاصر
المركز الجهوي لمهن التربية والتكوين
تازة – المملكة المغربية

مُلَخّصْ

تُعَدّ العمارة العلمية من الوجهات الحافلة بالعبر، والتي من المفيد توجه اهتمام الدارسين إليها. ولعل البحث في بنية جميع ما يمكن ترتيبه ضمن المعالم المادية، لمن شأنه الإسهام في تجاوز تاريخ ما يزال سجين الحدث. وقد كانت الخزانات العتيقة وما تزال من حيث، إحداثها ومحتوياتها والعناية بها، بمثابة عناوين لمدى نفوذ تجارب سياسية تعاقبت على حكم المغرب. ومؤشرا لقياس درجة الاستقرار والازدهار. كذا ما كان عليه الأمر من رمزية تنافسية مادية، في مجالي البناء والتشييد ليس فقط خلال العصر الوسيط، بل على امتداد فترات لاحقة. وعليه فالخزانات العلمية ذات الامتداد في زمن المغرب، لا تخرج عن كونها شواهد، لمتغيرات طبعت بنية المجتمع والثقافة المغربية عبر التاريخ. بناء على ما يمكن التقاطه من فعل وتفاعل علمي وروحي وثقافي، كانت عليه المدن كدوائر تدافعات منذ تأسيس الدولة المغربية (الأدارسة). ويبقى من شأن توجيه العناية لمثل هذه العلامات التراثية، من خلال البحث في النصوص، ليس فقط كشف سياقات فعل البحث والباحثين، إنما أساسًا طبيعة العلاقات التي كانت تصل العلماء بالسلطة وبالمجتمع. والباحث في تاريخ العمارة العلمية لمدن مغرب العصر الوسيط، كما حال تازة (مدينة مغربية منتصبة على احدى شرفات جبال الاطلس المتوسط)، تحديدًا من هذه الأخيرة خزانتها العلمية المرينية، قد يجد نفسه أمام صعاب موضوعية، أساسًا منها شح الكائن من المادة المصدرية والمرجعية، وحتى في بحوث ودراسات متأخرة.

بيانات الدراسة:
تاريخ استلام البحث: ٢٠ أكتوبر ٢٠١٤
تاريخ قبـول النشـر: ١٥ ينـايـر ٢٠١٥

كلمات مفتاحية:
العمران العلمي، دولة المرينيين، جامع تازة، النصوص الأثرية، المخطوطات

معرِّف الوثيقة الرقمي: DOI 10.12816/0047292

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:
عبد السلام انويكة. "العمارة العلمية في مغرب العصر الوسيط: الخزانة المرينية العتيقة في جامع تازة نموذجًا".- دورية كان التاريخية.- السنة العاشرة- العدد الثامن والثلاثين؛ ديسمبر ٢٠١٧. ص٥٧ – ٦٣.

مُقَدِّمَةُ

باتت العمارة العلمية من الوجهات الحافلة بالعبر، والتي من المفيد توجه اهتمام الدارسين إليها. ولعل دراسة بنية جميع ما يمكن ترتيبه ضمن المعالم المادية، لَمْنْ شأنه الإسهام في تجاوز تاريخ لا يزال سجين الحدث. وقد كانت الخزانات العتيقة ولا تزال من حيث، إحداثها ومحتوياتها والعناية بها، بمثابة عناوين لمدى نفوذ تجارب سياسية تعاقبت على حكم المغرب. ومؤشرا لقياس درجة الاستقرار والازدهار. كذا ما كان عليه الأمر من رمزية تنافسية مادية، في مجالي البناء والتشييد ليس فقط خلال العصر الوسيط، بل على امتداد فترات لاحقة. وعليه فالخزانات العلمية ذات الامتداد في زمن المغرب، لا تخرج عن كونها شواهد، لمتغيرات طبعت بنية المجتمع والثقافة المغربية عبر التاريخ. بناء على ما يمكن التقاطه من فعل وتفاعل علمي وروحي وثقافي، كانت عليه المدن كدوائر تدافعات منذ تأسيس الدولة المغربية (الأدارسة). ويبقى من شأن توجيه العناية لمثل هذه العلامات التراثية، من خلال البحث في النصوص، ليس فقط كشف سياقات فعل البحث والباحثين، إنما أساسًا طبيعة العلاقات التي كانت تصل العلماء بالسلطة وبالمجتمع.

والباحث في تاريخ العمارة العلمية لمدن مغرب العصر الوسيط، كما حال حاضرة تازة (مدينة مغربية منتصبة على احدى شرفات جبال الاطلس المتوسط)، تحديدا من هذه الأخيرة خزانتها العلمية المرينية، قد يجد نفسه أمام صعاب موضوعية، أساسًا منها شح الكائن من المادة المصدرية والمرجعية، وحتى في بحوث ودراسات متأخرة. والذخيرة العلمية للمدينة تظهر جلية إذا ما إعتمدنا علامات ثلاث أساسية مفسرة. منها أولاً: أصالة وقدم تعمير المجال (الممر)، وعليه هناك إرث مادي علمي لايزال قائم الذات، شاهد على العصر، يهم مدارس جمعت في أدوارها بين المعرفة، استقبال وإقامة الطلبة، ثم الدرس والاجتهاد. ثانيًا شبكة واسعة من الأضرحة لعدد هام من العلماء والفقهاء، تتوزع كشهادات لاتزال منتصبة داخل مجال المدينة العتيق وخارج أسواره (تازة العليا)، كذلك في الأرياف المجاورة، بل هناك من أضرحة هؤلاء من توجد بمدينة فاس بحكم المشترك الجغرافي، وما كان من تواصل بين المدينتين عبر التاريخ. وفوق كل هذا وذاك نجد أضرحة علماء من أصول تازية، بعدد من المدن المغاربية، بكل من الجزائر، تونس وليبيا، بل بعيدا حتى في مصر.

ثالثًا وأخيرًا؛ هناك خزانة علمية برصيد هام من الوثائق، للأسف جزء هام من هذه الذخيرة كأرشيف، هو في خبر كان. خزانة اضافة لرمزية ما تعنيه ثقافيًا تجاه ماض علمي للمدينة. فإن ما تحتويه من وثائق وكتب ومخطوطات وتحف، هي بمثابة مادة خبرية على درجة عالية من الأهمية التاريخية، للنبش والاستقصاء فيما كان عليه حال العلم، وأحوال العلماء وإسهاماتهم بها. واذا كان أكثر ما تم تداوله حول الموضوع، قد اقتصر على ما هو كرونولوجي، في علاقته بالأفراد والتجارب السياسية لمغرب العصر الوسيط. فإن مساءلة محتوى وفاعلية هذه المرافق في المعرفة والتكوين والإشعاع، يبقى جديرًا بالاهتمام والالتفاتة. خاصةً وأن الخزانات العلمية بالنظر لما كانت عليه، من إقبال في الأخذ والعطاء. كانت داعمة لتحولات عرفتها بنية المجتمع المغربي، على الأقل منذ العصر الوسيط، وشاهدة على درجة النفود الفكري، الذي كانت عليه بعض مدن مغرب هذه الفترة. فأي موقع رمزي، علمي أية خلفية سياسية وقيمة تواصلية، كانت لخزانة بني مرين بالجامع الأعظم لتازة؟ ماذا عن الحمولة من الكتب والمؤلفات والوثائق والمخطوطات؟ أية اسهامات وبأية نخبة لفائدة هذه المعلمة العلمية؟

أولاً: تازة ومغرب دولة المرينيين اهتمام لا سابق له بالعمران العلمي

مغرب العصر الوسيط المريني كان من الوجهة المجالية/الترابية، يقوم على ثمانية أقاليم كبرى، فإلى جانب كل من مراكش، سجلماسة، سلا، مكناس، فاس، درعة، دكالة، كان هناك اقليم تازة.[١] وكان حكم بني مرين خلال هذه الفترة بحركية عمارة هامة، توجهت الى تشييد مدارس، لم تكن تقتصر على جهة دون أخرى، بحيث قد نجد مدرسة أو اثنتان في كل مدينة من مدن المغرب. وهذه المرافق بمهامها التربوية والعلمية، كانت توجد تحت عناية واشراف مباشر لسلطة الدولة.[٢] فقد اهتم حكام بني مرين بالعلم والعلماء على إثر ما حصل لديهم من استقرار سياسي وازدهار اقتصادي. اضافة لرغبتهم في مجاراة باقي الدول الاسلامية، من خلال تقريب العلماء والأدباء، وبناء المدارس وتحفيز الطلبة على الاكتساب، ما كان وراء عملية تأليف واسعة في جميع ميادين المعرفة كما بالنسبة للتاريخ.[٣] وقد تميز بنو مرين عن غيرهم من الأسر التي حكمت المغرب، بما خصصوه لفائدة العلم والعلماء ومعهم المؤسسات العلمية من عناية. وليس من باب الصدفة ان يؤلف على عهدهم أول تاريخ عام للبلاد وهو "الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس" لابن ابي زرع، "الذخيرة السنية" لمجهول، "روضة النسرين" للأمير إسماعيل ابن الاحمر، "المسند الصحيح "لابن مرزوق، "الحلل الموشية" لابن السماك العامري، كما أنه خلال هذه الفترة تم تدوين أشهر الرحلات كرحلة ابن بطوطة التاريخية.

ولهذا فنظرًا لما أولاه بنو مرين من رعاية لأمر العلم والعلماء، تأسست نهضة عامة سمحت بظهور عدد من رجالات العلم من فقهاء ومؤرخين.[٤] وعلى أساس ما بلغه حال الفقه المالكي، وتشعب الآراء والاعتماد على غير الأصول، ما استهدف الموحدون القضاء عليه نهائيًا.[٥] وإلى جانب ما بذله هؤلاء من جهد لإنهاء هذا المذهب، والقضاء على فقهاءه وأنصاره. تم الاقدام على حرق كتبه ومؤلفاته، تمهيدًا منهم لنشر دعوتهم الدينية وتثبيت موقعهم السياسي. ومن هنا ما حصل من اختلاف وتزايد في ردود الفعل. فقد اعتقد الموحدون أن المذهب المالكي فقد محتواه، بتحوله إلى بناء يقوم على شكليات بعيدة عن القرآن والسنة. وأنه تم التخلي عن الأصول باتجاه الفقهاء الى العناية بالفروع فقط، وعليه فعندما وصل بنو مرين لحكم المغرب، أعادوا للبلاد مذهبها الرسمي، بل عملوا على توطيده وتقويته.[٦]

وبمجرد انهاء التجربة السياسية الموحدية، على يد بني مرين في منتصف القرن الثالث عشر الميلادي. من المدن المغربية التي استعادت موقعها الاعتباري والسياسي، كانت هي فاس من خلال إختيارها عاصمة للملك، لما للمدينة من امتداد فكري، روحي وعلمي.[٧] ويظهر أن ما تم توجيهه من عناية لفاس، كان له أثره على محيط هذه الأخيرة الجغرافي. وعليه بحكم القرب وطبيعة التواصل والارتباط التاريخي بين المدينتين، شهدت تازة في أعالي حوض ايناون، بحكم التحول السياسي الجديد للمغرب، عناية معبرة لأسباب استراتيجية.[٨] وعلى إثر

الأوراش العلمية، المعرفية، والدينية، التي شهدتها فاس من خلال انشاء عدة مدارس في محيط مسجد القرويين، توجه بنو مرين لإبراز أهمية باقي المدن الأخرى، في أفق كسب تعاطف الرعية. وعليه أقدم أبو يعقوب يوسف بتوسيع الجامع الأعظم بتازة.[٩] وفي إطار نفس العناية بالمدينة تم الإقدام على بناء دار الإمارة، المساجد، المدارس، الزوايا، الحمامات، الفنادق وغيرها، كما أقدم بنو مرين على ترميم الأسوار وتحصين البروج، فجلبوا للمدينة كل نفيس وزينوا جدران المرافق الدينية بكل بديع من الزخرفة، بل أحياناً كانت تازة مكانا للإقامة وللملك، فمن الملوك المرينيين الذين شيدوا بها وخلدوا الآثار، هناك يوسف بن عبد الحق المريني، باني قصرالإمارة الذي لاتزال علاماته بادية لحد الآن، وهناك أبي الحسن المريني باني المدرسة الشهيرة بهذه الحاضرة.[١٠] ويتفق اغلب مؤرخي الفنون على أن العمارة المغربية، بلغت في العهد المريني أرقى درجات الإنجاز والتعبير.[١١]

وعلى إثر التحول الذي عرفه مغرب المرينيين وما ما أحيط بتازة من اهتمام لا سابق له، فقد كانت المدينة في بعض الأحيان قاعدة تملك السيادة على سائر اطراف البلاد.[١٢] والذي يسجل لتازة خلال هذه الفترة من تاريخ المغرب الوسيط، تلك العناية الفائقة التي اظهرها سلاطين فاس تجاه المدينة من خلال ما ازداد بها من عمران ديني وعلمي، جمع بين الزوايا والجوامع والمدارس، ثم دور الإقامة أو ما يعرف بالفنادق.[١٣] وكان اهتمام بني مرين بالعمارة العلمية، وفي أهم المدن المغربية كما الحال في تازة، هو بقصد تقوية المذهب المالكي، بعد ما تعرض له على يد الموحدين من تفكيك وتهجم.[١٤] وفي السياق نفسه من اسباب انتشار العلم وتعدد العلماء والفقها، هناك العناية ببناء المدارس، وإحداث الخزانات بقصد المساعدة على تلقي المعرفة، والإقدام على الاجتهاد عند الطلبة. وكان أول مَنْ جمع من ملوك بني مرين بين الشؤون العسكرية والعلمية، هو أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق.[١٥]

وفي عهد ابي الحسن المريني تم توسيع أعداد المدارس، لتشمل كل منطقة من بلاد المغرب، فتم بالمدينة تازة انشاء مدرسة للعلم.[١٦] وهي التي اسسها هذا الأخير عندما كان وليًا للعهد، ما يستشف من متن كتابة على رخامة وقفية، على باب مدرسة الأندلس بفاس، ويستشف من ما أورده ابن مرزوق صاحب المسند الصحيح، عندما قال "فأنشأ بمدينة تازة قديما مدرستها الحسنة"، ويقصد بكلمة قديما هنا ايام ولاية العهد. وكانت مدرسة تازة هاته تاسع مدرسة تم تشييدها في العصر المريني الأول، وهي من المرافق التي كانت تقوم على نظام تعليمي خاص.[١٧] يستوعب البرامج والمواد المدروسة والأساتذة والطلبة، وذلك من أجل تمييزها عن ما كان يوجد عليه التعليم، في جوامع أخرى من البلاد. ومن مواد التكوين التي كانت مدرجة، هناك الفقه والنحو والقراءات وغيرها. وكانت اقامة الطلبة بهذه المدارس، ترتبط بضرورة بلوغ سن العشرين، وحضور قراءة الحزب ومجالس المقرإ بانتظام. وعندما كان يتبين أن الطالب قد بلغ العشر سنوات، ولم يتوفق في مساره التربوي وعملية اكتسابه للمعرفة، كان يتم إخراجه منها نهائيًا.[١٨] وفي رحلته الى الحج سنة (١١٤٣هـ/١٧٣٠م)، صحبة ركب الأميرة خناثة بنت بكار زوجة المولى اسماعيل. تحدث الوزير الاسحاقي عن المدرسة التي انشأها أبو الحسن المريني بتازة، فاورد أبياتًا شعرية كانت مكتوبة على بابها. والمدرسة المعنية هنا تلك التي توجد حاليًا بمشور المدينة الشهير، والذي يتوسط النسيج العتيق بها. للاشارة فالأبيات الشعرية هاته أعيدت كتابتها على قطعة خشبية، بعد عمليات ترميم شملت هذه المعلمة المعمارية لتازة، وهي تقول:

لعمرك ما مثلي بشرق ومغرب
يفوق المباني حسن منظري الحسن
بناني لدرس العلم مبتغيا به
ثواب من الله الأمير أبو الحسن[١٩]

لقد كان لتشييد المدارس عند بني مرين، ارتباط بما هو سياسي. بحيث توزعها على عدة مدن جعل هؤلاء يوظفونها ليس فقط لفائدة مرجعيتهم الإيديولوجية، إنما أساسًا لدعم مشروعيتهم الدينية.[٢٠] هذا بالإضافة الى مقاصدهم في توفير شروط طلب العلم وايواء الطلبة. وكانت هذه المرافق التعليمية خاضعة لرقابة مقدم يعمل تحت إشراف قاضي المدينة، بعد عملية انتقائية عن الطلبة. وكان المقدم يجمع بين مهام المقتصد والمؤذن والبواب والخادم. وكانت بعض بيوت هذه المدارس يتوارثها طلبة من نفس العائلة عن طريق العدول، بل كان بإمكان الطالب بيع مفتاح البيت لزميله، كما كانت للطلبة مؤونة تعتمد على ما كان يخصص لهم من وقف.[٢١]

واسهامات بني مرين في العمران العلمي كانت بالنصيب الأوفر، فكانوا نموذجًا للعناية بفنون البناء والنقل، خاصة عن الفنون الأندلسية الأصيلة، بعد أن كان بلغ الدروة في عصر بني الأحمر. ويسجل ليعقوب المنصور المريني، أنه كان من بناة المغرب على عهد الدولة المرينية، ومن الذين توجهوا بالعناية إلى عمران تازة.[٢٢] وقد انتقلت تازة من وضع رباط زمن المرابطين، الى مدينة محصنة تم بها بناء الأسوار المحيطة، ومعها تأسيس جامع أعظم.[٢٣] إلا أنه خلال عصر بني مرين اتسعت تازة مجاليا، لتظهر كحاضرة عامرة بالمنشآت، خاصةً بعد إحداث قصر بها لأبو يعقوب يوسف، الذي كان يجاور الجامع الأعظم. وبعد إغناء المدينة بمدارس العلم على عهد ابي الحسن وابنه ابي عنان.[٢٤] وما أورده الحسن الوزان حول تازة، يمكن منه التقاط كثير من الإشارات الهامة، عندما اعترف بالمكانة العلمية للمدينة

فقال."تحتل المدينة الدرجة الثالثة في المملكة من حيث المكانة والحضارة، ففيها جامع أكبر من جامع فاس وثلاث مدارس"، مع الإشارة الى أهمية العلم، العلماء، الأثرياء والأخيار.[٢٥] وتازة لم تكن فقط إسما لمدينة بل وعاء للمعرفة، للتلقي العلمي وللعلماء على امتداد تاريخ المغرب، فقد انجبت رجالات فكر، فقه، ادب وقراءات، كانت لها مواقفها في بناء البلاد والحفاظ على استقرارها، نماءها، ووحدتها الروحية، المرتبطة بمسألة المذهب وقضية العقيدة.[٢٦] وتجدر الإشارة الى أنه في الفترة المرينية استعادت الأنشطة العلمية والثقافية اشعاعها، خاصة بالمدن آنذاك التي بلغ عددها ثلاثة عشر، منها في المناطق الجبلية المرتفعة هناك تازة.[٢٧] وقد أورد عبد الله گنون حول هذه المدينة، أن الأنشطة العلمية بها على عهد الدولة المرينية، كانت عالية الازدهار، لما استفادت منه من ترميم ومن إنشاء لمعالم علمية ودينية جديدة.[٢٨]

ثانيًا: خزانة جامع اعظم بتازة وعشرة آلاف مجلد على عهد بني مرين

عمومًا تميزت المدن المغربية العتيقة بتعدد منشآتها، فإلى جانب المدارس والجوامع، كانت هناك الخزانات التي إلتقت فيها الوظيفة العلمية بالدينية، لدرجة أن عددًا من الدارسين يعتبرون اختطاط وإحداث هذه الأخيرة، كان من عناوين درجة التمدن، ومن شواهد الإشعاع في العلم وعند العلماء. ولعل كثرة الخزانات الموقوفة على الجوامع، لأكبر دليل على تقدم الحركة الفكرية، ومعها الإقبال على المعرفة في مغرب بني مرين، وبشكل فاق زمن الموحدين[٢٩] ولقد كانت للخزانات العلمية المرينية موقعًا متميزًا، ليس فقط بالنسبة للمجتمع بل لفائدة العلم والعلماء. مما أهلها لتكون ليس فقط رافعة وأداة للاغتناء الفكري، بل مساهمة في ما شهدته هذه الفترة من تراكمات، شملت كل الاهتمامات الأدبية والعلمية. وقد استمدت هذه الخزانات أهميتها ومركزها، لما ارتبط بها من عناية السلاطين، وما كانت تحتويه من ذخيرة، كان لها دورها في ما عرفه المغرب، من اشعاع خلال العصر الوسيط. وخزانة تازة التي كان قد تم انشاءها لحفظ كتاب "الشفا" للقاضي عياض[٣٠] لا تقل أهمية عن مثيلاتها في باقي مناطق ومدن المغرب، تلك التي لاتزال قبلة للباحثين في التراث والتاريخ، ومعها باقي العلوم الإنسانية الأخرى، كما حال القرويين بفاس، تامكروت بالجنوب، خزانة الجامع الأعظم بمكناس، زرهون، وزان، تطوان، مراكش.

وإذا كانت الخزانة المرينية لتازة، واحدة من أقدم الخزانات بالمغرب بل بالغرب الاسلامي، فقد جعلت من هذه المدينة واحدة كذلك، من مراكز المخطوطات التي لاتزال تتوجه اليها، عناية الدارسين في عدد من الاهتمامات العلمية الإنسانية، ويتوفر المغرب على (١٣) خزانة وقفية، ثلاثة منها مرينية، واحدة من هذه الاخيرة توجد بتازة. والتي تحفظ كتب تفسير، حديث، فقه، تاريخ، فلك، رياضيات، تصوف، ووثائق ورسائل موحدية، هي في مجملها للمهدي بن تومرت، نشر البعض منها في كتاب" أعزما يطلب". وجزء هام من هذه الذخيرة العلمية، والوثائق كانت تحفظها هذه الخزانة، ضاع مع الزمن لأسباب عدة ومتداخلة، منها عوامل التلاشي والتلف الناتج عن التقادم والبرودة، وقد تكون خلال مرحلة الحماية الفرنسية على المغرب وقبلها منذ بداية التوغل الاستعماري في المنطقة، تعرضت لنزيف في محتوياتها، من قبل من كان مسؤولاً عنها خوفا عليها من الضياع، أو من قبل قوات استعمارية لجعل ما كان يوجد بها، رهن إشارة الدارسين من ضباط فرنسيين، تعاقبوا على المنطقة. وقد وصف "الحجوي" الوضع الامني والاجتماعي لتازة، على أثر أحداث ما يعرف بالروگي الفقيه الزرهوني، قبل فرض الحماية على المغرب. فأورد حول تدخل الجيش غير النظامي، في اشارة منه لانعدام الانضباط في السلوك. إلى أنه حتى كتب الخزانة العلمية الحبسية/ الوقفية بالجامع الأعظم بالمدينة، لم تسلم من النهب والسلب.[٣١]

وهناك حديث على أن خزانة تازة، كانت تتوفر على حوالي عشرة آلاف مجلد في عصر بني مرين، لم يتبق منها سوى تسع مائة مخطوط، وهي ضمن وضعية تجمع بين الكتاب المبتور، المتلاشي والصالح للاستعمال العلمي، من قبل الباحثين والمهتمين.[٣٢] وما يدل هذه على تنوع هذه الخزانة من حيث غناها العلمي وتباين مضامين ذخيرتها.. كونها كانت تحتوي على إسطرلاب دقيق الصنع، كان ما يزال إلى عهد قريب، وربما قد يكون ضاع خلال السنوات الأولى لإحتلال المدينة من قبل القوات الفرنسية، وهذه الآلة الفلكية دليل على ما كان عليه الأمر من عناية بهذا العلم. وما تتحدث عنه عدة مخطوطات[٣٣] منها للإشارة "ذكر آلات الإسطرلاب والأسماء الواقفة عليها"، "روضة الأزهار في علم وقت الليل والنهار"، "العمل في الإسطرلاب"، "اليواقيت في المنتقى من علم المواقيت".[٣٤]

ومن خلال فهرسة وزارة الاوقاف والشؤون الإسلامية، لما يوجد بهذه الخزانة من مؤلفات ومصادر ومخطوطات، تظهر القيمة العلمية والمكانة الفكرية التي كانت توجد عليها تازة خلال فترة المرينيين، كذلك ما كان عليه العلم والعلماء من فاعلية. فإلى جانب الكتب الفقهية، كانت هناك العلوم الحقة مثل الطب، الحساب، الفلك. مع أهمية الإشارة إلى غلبة المؤلفات ذات الطابع الديني، الأمر الذي يُفسر بكون الخزانة كانت توجد بقلب الجامع الأعظم للمدينة. ويشير العلامة محمد المنوني إلى أن تازة من المدن المغربية التي كانت تشتهر علميًا وثقافيًا بالمواد الأدبية، الى جانب معارف أخرى كان يتم تلقينها بمدارسها الأصيلة.[٣٥]

والخزانة المرينية العلمية، هذه المعلمة الأثرية الى جانب الجامع الأعظم الذي يحتويها، والثريا المتفردة الصنع التي لا تبعد عنها إلا ببضعة أمتار، والمدرسة المجاورة التي تم إحداثها خلال القرن الثامن عشرالميلادي زمن محمد بن عبد الله،[٣٦] والأزقة الضيقة كتشكيل تعميري وسيط، ومع كل هذا وذاك بنايات عمرانية تاريخية مجاورة. كل هذا الأثاث المادي التاريخي هو بمثابة مركب عمراني بقيمة حضارية، ما تزال تشهد على عظمة زمن المدينة، وهذا المركب الأثري الذي يلتقي فيه الروحي بالعلمي بالفكري، تشكل فيه الخزانة العلمية واحدة من التحف والمنارات المغربية، التي تعود نشأتها إلى عهد بني مرين. الفترة الذهبية من تاريخ تازة الوسيط، حيث اتساع عمارة العلم والدين، وتزايد مهام الجامع الأعظم الذي شهد إضافات، تحول معها الى قبلة جاذبة للفكر، للعلم وللعلماء، خاصةً عندما تم إحداث خزانة الجامع بهدف حفظ الكتب والمخطوطات، ومن أجل تشجيع الدرس والتحليل. الأمر الذي إن دل على شيء إنما يدل على أن تازة، كانت توجد على ايقاع مكانة وحركة فكرية هامة، وأن جامعها الأعظم كان بمثابة جامعة القرويين في فاس.[٣٧] وكان "ذ.عبد الهادي التازي" قد أورد في إحدى إشاراته المكتوبة، صعوبة قفز الباحث في التراث، وفي التاريخ السياسي والحضاري للمغرب، عن تازة كمعالم وأعلام ومؤسسات.[٣٨]

ثالثًا: الخزانة المرينية بتازة كانت خاضعة للأسلوب الوقفي ولعملية التحبيس

يعود فضل إحداث الخزانة العلمية المرينية بتازة، للسلطان المريني فارس المتوكل، خلال القرن الثامن الهجري (٧٥٧هـ) بخلاف ما تم تداوله بعيدا عن أي تأسيس علمي دقيق، حول تجديد هذه المعلمة على أساس أنها أحدثت في الفترة الموحدية. بل هناك من يضيف في إطار الاجتهاد، على أن هذه الخزانة تم احداثها عند انتهاء ابن بطوطة من تحرير كتابه الشهير "تحفة النظار" الذي صادف السنة السابقة الذكر والواردة في أبيات شعرية كانت قد كتبت على بابها والتي تقول:

منزل بين الخزائن شامخ
قد خص من بين الإلاه بمنزل
حفظًا لمجموع الشفا انشئ عن
أمر الخليفة فارس المتوكل
في عام سبع بعد خمس إنقضت
وهي سبع في ربيع الأول[٣٩]

عن هذه الخزانة أورد هنري تيراس، إشارات هامة حول موقعها، إمتدادها ضمن المرافق الملحقة بالجامع الأعظم للمدينة من جهة الشرق، تحدث كذلك عن شكلها، سقفها الخشبي وعن بيت المواقيت الذي كان يوجد أسفل الصومعة، المكان الذي يستوعب حاليًا هذه المعلمة العلمية المرينية.[٤٠] من المفيد الإشارة إلى أن هذه الاخيرة، كانت مصدر معرفة واجتهاد لعدد هام من العلماء والفقهاء من الأهالى ومن غيرهم مثل. "لسان الدين بن الخطيب"، ابن خلدون"، "الحسن الوزان"، "الونشريسي"، "ابي القاسم الزياني" الذي كان واليا للسلطان محمد بن عبد الله على تازة كواحد من كتبته الأكفاء.[٤١] ونضيف كذلك"محمد الحسن الحجوي"، "المختار السوسي"، "محمد المنوني" وخلال العقود الأخيرة من الباحثين المغاربة والأجانب عدد كبير من قصد هذه الخزانة.

ومن جملة ما يمكن تسجيله حول وثائقها ومحفوظاتها، كونها خضعت للأسلوب الوقفي ولعملية التحبيس، ويشكل الفقه المادة العلمية الأكثر حضورًا وبنسبة حوالي ستة وثلاثين بالمائة، يليه الحديث ثم المصاحف.[٤٢] ومن الذين كان لهم فضل إغناء هذه المعلمة العلمية بالمؤلفات والمخطوطات نجد أبي فارس عبد العزيز المريني (٧٦٧-٧٧٤هـ)، عبد الحق بن سعيد المريني والذي كان آخر ملوك المرينيين وأطولهم عهدًا (٨٢٣-٨٦٩هـ) وكان يحكم البلاد تحت وصاية النفود الوطاسي وهو لايزال صغير السن. نجد كذلك عددًا من السلاطين العلويين أمثال: المولى الرشيد، محمد بن عبد الله، الخليفة علي بن عبد الله،المولى سليمان، من المؤرخين محمد بن على عجور التزاني (١٢٨٧هـ)، عن المخزن مزيان بنعمر الجمايعي المكناسي (١١٤٦هـ)، عزوز البرنوصي (١٣٤٨هـ)،عبد الله الزياني (١٣٠١هـ)، من الناسخين للكتب نجد الماحي بن عبد الله البرنوصي (١٢٢٧هـ)، من نظار الأوقاف نجد ناظر أحباس تازة (١٢٠٢هـ)، من الخطباء نجد أحمد بن محمد بن علي بن عيسى(٩٧١ هـ)، من الطلبة نجد بردلة العامري (١١٩٢هـ)، من التجار نجد الحسن بن أحمد الصنهاجي (١٠٣٤هـ)، بواسطة القضاة كالذين كانوا يقيمون بتازة (١٢٩٢هـ)، من طرف نساء كفاطمة بنت الحاج عبد القادر الجزنائي (١٢٠٠هـ)، مريم بنت خالد على أحمد الهاشمي (١٣٦٠هـ)، يطو بنت الشريف الهاشمي المراحي (١١٧٨هـ).

ومن نماذج المخطوطات التي توجد بهذه الخزانة العلمية نجد"شرح حزب البحر الشادلي"، "النصيحة الكافية لَمْنْ خصه الله بالعافية" للشيخ أحمد الزروق البرنوسي صاحب الزاوية الزروقية الشهيرة بليبيا، تحديدًا في مصراتة والتي توفي ودفن بها. وللشيخ ابن يجبش التازي مخطوط بهذه الخزانة بعنوان "إرشاد المسافر للربح الوافر"، هناك كتاب "روض القرطاس" وهو مبتور لمؤلفه ابن ابي زرع، وللقاضي عياض نجد عدة نسخ من كتاب"الشفا في التعريف بحقوق المصطفى"منها من يحتوي على إشهاد سلطاني مريني بتتحبيسها على الجامع الأعظم بتازة، للبوصري نجد مؤلف "البردة" وحالته رديئة

بسبب التلاشي، للونشريسي نجد مؤلف "ايضاح المسالك في قواعد الإمام أبي عبد الله مالك.[٤٣] وتشهد المصادر التاريخية، ومراجع على قدر كبير من الأهمية العلمية، على ما بلغته تازة من إشعاع فكري زمن بني مرين، وأنه كانت لمعظم علماء هذه المدينة توجهات فقهية وصوفية.[٤٤]

خَاتِمَةٌ

الحديث عن عمارة المغرب العلمية، هذا الإرث الثقافي الوطني، هو مقاربة لهوية جماعية. وعيًا بكون الأثر المادي الذي لايزال شاهدًا، هو مساحة معارف وخبرات وأنماط حياة عابرة للزمن. وبما أن التراث هو بمثابة مستودع يختزن ما هو عبارة عن علامات مادية وشفاهية وتجارب، فهو جدير بمزيد من الاهتمام والفحص والدراسة. في أفق استثماره لبناء ثقافة حديثة لا تقوم على إقصاء السابق، بل تجعل منه شجرة ممتدة الأغصان تجاه الآن والــ نحن، وتجاه القادم من الأجيال.[٤٥] والحديث عن التراث في كل مستوياته، بقدر ما هو متشعب بقدر ما يتباين حوله الرأي. الأمر الذي يحتاج الى أهمية الإنفتاح عليه من خلال بحوث علمية أكثر عمقًا وشمولية، تقوم على البنية وليس على الحدث. خاصة وأن هذا التراث بقدر ما هو "هوياتي" مغربي، كما الحال بالنسبة للخزانة المرينية لتازة، بقدر ما هو جزء من حضارة/ ثقافة في بعدها الكوني، وحلقة من حلقات تاريخ الإنسان.[٤٦]

ويظهر أن التخصص لايزال بغير التوجه، وبالقدر الكافي لفائدة القضايا والنصوص الأثرية الماثلة ماديًا، كما الحال بالنسبة للخزانات العلمية المغربية العتيقة. هذه العمارة، المحتويات والشواهد العاكسة لطبيعة حركية المجتمع، دهنياته وعقلياته التي لاتزال ممتدة التواجد في كثير من جوانبها وصورها. ولعل من المفيد في زمن تدفق القيم، ونفود العولة التقنية وثقافة الرقميات، انفتاح البحث العلمي على التراث المغربي، المادي منه والشفاهي. في أفق إعادة قراءة هذا الأخير، وفق رؤى تأخذ بعين الاعتبار التفاعلات الاجتماعية، وكل ما هو تماس ثقافي. فكثيرا ما تكون المعالم الأثرية على تبايناتها وتوزعها، مصدر إشارات على درجة من الأهمية، ليس فقط من أجل ماض/ تاريخ مغربي، بأقل بياضات ممكنة في هذا الجانب، إنما كذلك لتحقيق تتبع تحولات مجتمع، وقائعه السياسية والسسيو ثقافية.

الهَوامِشُ

(١) حركات إبراهيم، **معالم من التاريخ الاجتماعي للمغرب على عهد بني مرين**، مجلة كلية الآداب والعلوم الانسانية، الرباط، عدد ٢، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء،١٩٧٧، ص٢١٥.

(٢) ابن شقرون محمد بن أحمد، **مظاهر الثقافة المغربية**، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ١٩٨٥، ص١٤٢.

(٣) **مفاخر البربر**، مؤلف مجهول، دراسة وتحقيق عبد القادر بوباية، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، الرباط، طبعة أولى، ٢٠٠٥، ص٤٥-٤٦.

(٤) الفاسي محمد، **من وحي البينة**، دار الكتاب، الدار البيضاء، طبعة اولى،١٩٧٠، ص١٢.

(٥) الحسين عبد الهادي أحمد، **مظاهر النهضة الحديثية في عهد يعقوب المنصور الموحدي (١١٥٩- ١١٩٨م)** تحت إشراف اللجنة المشتركة لإحياء التراث الإسلامي بين المملكة المغربية ودولة الامارات العربية المتحدة، مطابع الشويخ، تطوان، ١٩٨٢، ص٢٠٠.

(٦) ابن شقرون محمد بن أحمد، مرجع سابق، ص٥١.

(٧) الطاهري أحمد صالح، **الجمالية المغربية على عهد المرينيين**، مجلة المناهل، منشورات وزارة الثقافة، الرباط، عدد ٧٣- ٧٤، فبراير ٢٠٠٥، ص٦٥.

(٨) حول دخول يعقوب بن عبد الحق المريني لتازة وبقاءه بها لمدة طويلة بناءً على الخلفية الاستراتيجية للمدينة، في اطار التدافع السياسي، يمكن الرجوع لــ أحمد القاضي المكناسي، **جذوة الاقتباس في ذكر مَنْ حل من الأعلام بمدينة فاس**، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، ١٩٧٣.

(٩) الطاهري أحمد صالح، نفسه، ص٦٦.

(١٠) بن منصور عبد الوهاب، **مع جلالة الملك الحسن الثاني من فاس تازة وجدة وتلمسان**، المطبعة الملكية، الرباط، ١٩٧٠، ص٦٩.

(١١) توري عبد العزيز، **العمارة المغربية مادة البناء في بعض استعمالاتها**، مجلة المناهل، عدد ٧٣- ٧٤، وزارة الثقافة، المغربية،٢٠٠٥، ص٣٢.

(١٢) التازي عبد الهادي، **التاريخ الدبلوماسي للمغرب**، مجلة البحث العلمي، عدد(٣٨)، منشورات المعهد الجامعي للبحث العلمي، جامعة محمد الخامس، الرباط، ١٩٨٨، ص٢٨

(١٣) التازي عبد الهادي، رسائل مخزنية، القسم الأول، منشورات المعهد الجامعي للبحث العلمي، مطبعة أكدال، المغرب، الرباط، ١٩٧٩، ص١١.

(١٤) ابن شقرون محمد بن احمد، مرجع سابق، ص٥٢.

(١٥) الفاسي محمد، مرجع سابق، ص١٤.

(١٦) نفسه، ص١٩.

(١٧) المنوني محمد، **ورقات عن حضارة بني مرين**، منشورات كلية الآداب والعلوم الانسانية، الرباط، سلسلة بحوث ودراسات رقم ٢٠، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، طبعة ثالثة، ٢٠٠٠، ص٢٤٤.

(١٨) نفسه، ص٢٥٤.

(١٩) الأمراني محمد بن أحمد، **ابن بري التازي إمام القراء المغاربة**، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، مطبعة فضالة، المحمدية، ١٩٩٦، ص٧٨.

(٢٠) الشريف محمد، "**النقوش الكتابية والسلطة**"، مجلة المناهل، عدد ٧٣- ٧٤، وزارة الثقافة المغربية، الرباط، ٢٠٠٥، ص٤١٠.

(٢١) حركات إبراهيم، **المغرب عبر التاريخ**، ج٢، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء طبعة ثانية، ١٩٨٤، ص١٣٣.

(٢٢) نفسه، ص١٣٠.

(٢٣) الزياني أبو القاسم، **الترجمانة الكبرى في أخبار المعمور برًا وبحرًا**، تحقيق عبد الكريم الفلالي، طبعة ١٩٩١، دار نشر المعرفة، الرباط، ص٨٠.

(٢٤) **معلمة المغرب**، انتاج الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، نشر مطابع سلا، ١٩٩٢، ص٢٠٢٣.

(٢٥) الفاسي الحسن بن محمد الوزان (ليون الافريقي)، **وصف افريقيا**، الجزء الاول، منشورات الجمعية المغربية للتأليف والنشر والترجمة، الرباط، ١٩٨٠، ص٢٧٦.

(٢٦) الأمراني محمد بن أحمد، مرجع سابق، ص٨٤.

(٢٧) المنوني محمد، مرجع سابق، ص٢٥٠.

(٢٨) **التراث وروح المجال**، تازة، منشورات مديرية الهندسة المعمارية، الوزارة المكلفة بالإسكان والتعمير، الرباط، منشورات عكاظ، ٢٠٠٥، ص.٢٦

(٢٩) حركات إبراهيم، **المغرب عبر التاريخ**، مرجع سابق، ص١٤٢.

(٣٠) **التراث وروح المجال**، تازة، مرجع سابق، ص٢٦.

(٣١) الخلوفي محمد الصغير، **انتحار المغرب الاقصى بيد ثواره، دواعي الاصلاح والتنظيم**، مذكرة الحجوي نموذج من الكتابات السياسية في مطلع القرن العشرين، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، طبعة ثانية، ١٩٩٥، ص٤٢.

(٣٢) العلمي عبد الرفيع، **فهرس مخطوطات الخزانة العلمية بالمسجد الأعظم لتازة**، الجزء الثاني، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الاسلامية، مطبعة فضالة، المحمدية، ٢٠٠٢، ص٨.

(٣٣) البوخصيبي أبو بكر، **أضواء على ابن يجبش التازي**، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، طبعة أولى، ١٩٧٦، ص٥٥.

(٣٤) العلمي عبد الرفيع، مرجع سابق، ص٩٤٥.

(٣٥) المنوني محمد، مرجع سابق، ص٢٥٢.

(٣٦) الكنسوسي أبي عبد الله محمد بن أحمد، **الجيش العرمرم الخماسي**، تحقيق أحمد بن يوسف الكنسوسي، الجزء الأول، المطبعة والوراقة الوطنية، مراكش، ١٩٩٤، ص٢٦٣.

(٣٧) الأمراني محمد بن أحمد، مرجع سابق، ص٧٩.

(٣٨) **التراث وروح المجال**، تازة، منشورات مديرية الهندسة المعمارية، مرجع سابق، ص١٠.

(٣٩) نفسه، ص٢٨.

(40) Terrasse Henri, Grande Mosquée De Taza, Tome xxxIx, Les Editions d'art et D'histoire, paris, Publications des Hautes études Marocaines1944, Pp. 30-31,

(٤١) المودن عبد الرحمان، **البوادي المغربية قبل الاستعمار**، قبائل ايناون والمخزن بين القرن السادس عشر والتاسع عشر، منشورات كلية الآداب والعلوم الانسانية، الرباط، سلسلة رسائل وأطروحات رقم (٢٥)، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، طبعة أولى، ١٩٩٥، ص١٠٦.

(٤٢) العلمي عبد الرفيع، مرجع سابق، ص٧.

(٤٣) تم الاعتماد لاستخراج وترتيب هذه العينات ممَنْ كان لهم الفضل، في تحبيس الكتب والمؤلفات والمخطوطات على خزانة الجامع الأعظم بتازة، وهذه النماذج من عناوين المخطوطات الموجودة بهذه المعلمة المرينية، على فهرس مخطوطات الخزانة تازة، الجزء الأول والثاني، تصنيف د.عبد الرحيم العلمي، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، مطبعة فضالة، المحمدية، ٢٠٠٢.

(٤٤) حول الانتاج الفكري والثقافي لتازة خلال العصرين الوسيط والحديث يمكن الرجوع لمقال "**المثقف العضوي بالمغرب الحديث**"، مجلة أمل عدد مزدوج ٢٨- ٢٩، مطبعة النجاح الجديدة، البيضاء، ٢٠٠٣.

(٤٥) المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، المجلة العربية للثقافة، عدد (٣٦)، **المأثور الشعبي في الوطن العربي**، عدد خاص، مارس ١٩٩٩، ص٧.

(٤٦) فيلالي زين حسن، "**كيف يمكن إحياء التراث الإسلامي**"، مجلة المصباحية، منشورات كلية الآداب والعلوم الانسانية، سايس فاس، عدد ١، مطابع البلابل، فاس، ١٩٩٥، ص١٣٧.

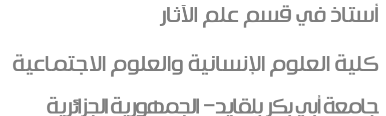
ISSN: 2090 – 0449 Online
UIF Universal Impact Factor, [0.1101].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [0.88].

دراسات

الضرر على المساكن
من خلال فقه عمارة المدن الإسلامية



د. محمد بن حمو


أستاذ في قسم علم الآثار
كلية العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية
جامعة أبي بكر بلقايد- الجمهورية الجزائرية

مُلَخّصْ

الحضارة الإسلامية التي هي وليدة الشريعة، تلبي حاجات الحياة كلها من مختلف جوانبها الروحية والنفسية والتشريعية والفكرية والجسدية والمادية الفردية والاجتماعية، ذلك أنّ الإسلام جاء بنظام اجتماعي شامل انعكس على طبيعة الحياة الاجتماعية في المدن الإسلامية ما أضفى على الحياة داخل أسوار هذه المدن قدرًا من الحيوية والنشاط. تتناول الدراسة الضرر في المدينة الإسلامية وضوابط تحديد كل نوع منها، مع محاولة معرفة سبل قطع ذلك، والموضوع يندرج تحت فقه العمارة الإسلامية. إن الأضرار على المساكن في المدينة الإسلامية إنما تتلخص في ثلاثة أنواع أساسية، أولها ضرر الرائحة وثانيها ضرر الصوت وثالثها ضرر الأشجار، فضرر الرائحة ينقسم بدوره إلى أربعة أنواع ضرر رائحة الخل، ضرر الدخان، ضرر دور الدبغ وضرر الفضلات والنجاسات، وأما ضرر الصوت فيتمثل في صوت الدق والمطاحن وضرر الإسطبلات، وأما ضرر الأشجار فهي تتمثل في ضرر أغصانها وعروقها، وفي كل حال من أحوال هذه الأضرار فقد وجد العلماء حلولاً كفيلة لمنع ذلك.

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث: ١٢ أكتوبر ٢٠١٤
تاريخ قبـول النشـر: ٠٩ فبراير ٢٠١٥

كلمات مفتاحية:
المدن الإسلامية، العمارة الإسلامية، فقه العمارة، المساكن، كتب النوازل

معرّف الوثيقة الرقمي: DOI 10.12816/0047296

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:
محمد بن حمو. "الضرر على المساكن من خلال فقه عمارة المدن الإسلامية".- دورية كان التاريخية.- السنة العاشرة- العدد الثامن والثلاثين؛ ديسمبر ٢٠١٧. ص٦٤ – ٧٢.

مُقَدِّمَةُ

لقد سكن الناس في المدن الإسلامية وتجاوروا مع بعضهم البعض، وهو ما تقتضيه فطرة الإنسان، إذ من المستحيل أن يسكن الشخص منعزلاً بعيدًا عن بني جنسه، وكان من طبيعة تجاورهم مع بعضهم البعض أن تحدث بينهم خصومات يدَّعي فيها كل شخص حقه، فجاء الشريعة الإسلامية مقرّة بأن لكل شخص الحق المطلق في التصرف فيما يملك، ولكن بشرط أن لا يضر بجيرانه، ولقد تعددت صُوَر الضرر في المدن الإسلامية، ونريد هنا أن نجمع تلك الأسباب التي يمكن أن تتسبب في ذلك، ويمكن أن نجملها في ثلاثة عناصر أساسية وهي ضرر الرائحة، ويندرج تحتها رائحة الخل، رائحة الدخان، رائحة دور الدبغ، ورائحة الفضلات والنجاسات، والعنصر الثاني هو ضرر الصوت ويندرج تحته ضرر الدق، ضرر المطاحن وضرر الإسطبلات، والعنصر الثالث ضرر الأشجار والذي نجد به ضرر الأغصان والعروق، ونحاول في هذا المجال معرفة كيفية تحديد الضرر وما هي الحلول الكفيلة لتعايش الناس بحرية في المحيط الذي يجمعهم.

لقد أصَّل ابن الرامي مسألة الضرر فقال بأن الضرر على وجوه كثيرة وينحصر في قسمين: قديم ومحدث، فالقديم ينقسم إلى قسمين، منه ما يكون قبل التأذي ومنه ما يكون بعده، فما كان من الضرر الذي يكون قبل التأذي فلا يغيّر عن حاله وإن أضر بجدران الجار باتفاق، لأنه ضرر دخل عليه، وما كان من الضرر الذي يكون بعد التأذي ويطول زمانه فمنه ما يستحق ومنه ما لا يستحق وإن طال زمانه، كدخان الحمامات والأفران وغبار الأنادر ونتن الدباغين، ولقد اتفق على هذا مجموعة من

أهل العلم، وزاد ابن رشد أنه يقال لمحدث الضرر احتل له وإلا فاقطعه سواءً كان قديمًا أو محدثًا، ولا يستحق الضرر بالقدم إلا أن يكون الضرر أقدم من التأذي، ولا تكون الحيازة في أفعال الضرر حيازة تقوى بها حجة محدثة بل لا يزيده تقادمه إلا ظلمًا وعدوانًا.[١]

أولاً: ضرر الرائحة

كما أن الرائحة الطيبة تنعش النفس وتفرحها فإن الرائحة الخبيثة تؤذي الإنسان وتضره، ومن هذه الروائح الضارة التي ينفر منها الإنسان ويسعى لقطعها **رائحة الخل**، فقد ذكر البرزلي أن أحد العلماء سُئل عمن يعمل الخل في داره وقال الجيران تؤذينا رائحته وتؤذي الحيطان، فرد العالم بأنه إذا قال أهل الطب أن الرائحة تؤذي وقال أهل البناء أن ذلك يؤذي الحيطان منع من ذلك، إلا أن يبني دون حيطانهم حائطًا يمنع وصول ذلك إلى حيطانهم ولا يكون يؤذيهم فلا يمنع[٢]، يفهم من هذا أن بعض الدور جعلها أصحابها لبعض المهن ومنها مهنة صناعة الخل، ولعل هذا الرجل لا يتعيّش إلا من مهنته تلك، لذلك أُمِر ببناء جدار يمكنه من الاستمرار في عمله مع قطع الضرر عن جيرانه، وانظر قول المفتي بأن يُسأل أهل الطب لأن الجيران قد يتمالئون عليه بدعوى الضرر، ولكن بشهادة أهل الاختصاص يمنع الضرر وكذلك بالنسبة للبناء يتكلم فيه العرفاء وهم أهل الاختصاص.

ومن الروائح التي تضر أيضا بالجيران **ضرر الدخان** الناتج عن الأفران، فقد كانت الأفران توجد في بعض شوارع المدن بين الدور، وقد تحدث ضررًا على المساكن المجاورة، وللتأكيد فقط على وجود هذا العنصر المعماري في المدينة فقد ذكرت المصادر هذا العنصر على أنه يوجد داخل المدينة[٣]، وقد ذكر ابن الرامي بأن الدخان ينقسم إلى قسمين، منه ما يمنع وآخر لا يمنع، فالذي يمنع دخان الحمامات والأفران وما قاربه، والذي لا يمنع دخان التنور والمطبخ وما قاربه مما لا بد منه ولا يستغنى عنه من طبخ المعايش وغيرها مما لا يُستدام أمره[٤]. وعلى كل فإن النوازل التي بين يدي إنما ذكرت نوعين من الأفران التي يمكن أن نجدها داخل المدينة وهي أفران الخبز وأفران الفخار، وإن كانت العادة أن مثل هذه الأفران الأخيرة نجدها خارج المدينة قرب السور كما هو الحال مثلاً في مدينة تلمسان في الجزائر.

بالنسبة لأفران الخبز فهي على نوعين المطبخ، والظاهر أنه يختص فقط بطهي الخبز، والأخرى هي الأفران المتخصصة في الطهي الخبز بالإضافة إلى صُنعه وبيعه أو ما نسميه نحن في أيامنا المخبزة، فأما مطابخ الدور فإن الرجل إذا أحدث في داره مطبخًا وثبت أن الجار يتضرر من دخانه، فقد اتفق عدد كبير من الفقهاء على تغييره وقطعه[٥]، ولعل الحكم في هذه المسألة بسبب قرب المطبخ من الجار وأن دخانه كثير، ولم يحاول أن يخفف من مثل هذا الضرر على الجار، ويدلك على هذا تسامح العلماء في مثل هذه الأفران، إذ قالوا بأن باني الفرن في بيته إذا حرق بيوت الجيران لا يترتب عليه ضمان[٦].

وأما النوع الأخير من الأفران-أي التي تختص بطهي الخبر وبيعه- فقد ذكرت كتب النوازل حادثة في هذا المجال، فلقد ذكرت امرأة أن رجلاً أحدث بقرب دارها فرنا يؤذيها بدخانه، فلما أثبتت ذلك احتال له صاحبه حتى قطع عنها ضرر الدخان وذلك بأن جعل له أنبوبا-مِدخنة-يخرج الدخان بعيدا عنها، ثم إنها ادعت بأن الفرن بقرب دارها وهو ينقص من ثمنها، فافترق المفتون في مثل هذا، فمنهم مَنْ ذكر بأن لا مقال لها بادعائها هذا إذا ثبت انقطاع ضرر الدخان عنها، وقال غيرهم إذا ثبت أنه يُنقص من قيمة الدار فإنه يمنع، واتفقوا على أن من أحدث فرنًا على فرن قديم ولا يضر المحدث بالقديم في شيء من وجوه الضرر إلا في نقصان الغلة أو قلة العمارة فإنه لا يمنع الحديث[٧]، وقال آخرون يُقطع ضرر الفرن وشبهه عمن أضر به وإن لم يقدر على ذلك إلا بهدمه هدم[٨]، من خلال هذا يظهر بأنه في بعض الأحيان نجد فرنين بجنب بعضهما البعض في وسط حي من الأحياء أو في طريق من الطرق، ومع هذا فإذا لم يضرا ضررًا بيّنا بدخانهما جيرانهم فإنهم لا يمنعون من ذلك إلا إذا أضرا ضررًا بيِّنا ببناء ولم يقدرا على قطع الدخان فإنهما يمنعان من استعمال الأفران حتى ولو أدى ذلك إلى هدمها لقطع الضرر.

أما أفران الفخار، فقد ذكر المازوني أن سحنون سُئل عن أفران توقد للفخار بين الدور منها القديم ومنها المحدث فربما اشتكى جيرانها من أذى دخانها وربما أمسكوا، فكتب إليه القديم منها لا يُتعرض له[٩]، قلت إن الأصل في وجود مثل هذه الأفران أن يكون خارج المدينة، ولعل مثل هذه التي توجد داخلها إنما كانت صغيرة بحيث أن دخانها يكون قريبا من دخان أفران الخبز، أو أنها كانت أصلا خارج المدينة ومع مرور الزمن توسعت المدينة فأصبحت هذه الأفران بالداخل، ويفهم من النازلة أنها كانت متعددة ورغم هذا فقد ذُكر بأن القديم منها لا يغير، أما الحديث إذا ثبت ضرره على الجيران فإنه يمنع صاحبه منه، وعلى هذا نضيف إلى عمارة المدن بعض أفران الفخار إضافة إلى أفران الخبز.

ويدخل أيضًا في ضرر الرائحة **ضرر دور الدبغ**، وقد رأى العلماء بأن الرجل إذا اتخذ داره لدبغ الجلود واشتكى جيرانه ضرر الرائحة فإن عليه أن يزيلها عنهم، وهذا بمثابة ضرر الدخان[١٠]. ومن خلال كتب النوازل فإن بعضًا من دور الدبغ كانت داخل المدينة وهو ما بُني أصلاً ليكون كذلك ومنها ما كان خارج المدينة.

فأما التي كانت داخل المدينة فكالتي كانت بداخل القيروان وهي قديمة فأخرجهم بعض العمال من دورهم لدور بناها خارج السور معدة للدبغ، ثم بقوا نحو ثلاثين عامًا ورجع بعضهم إلى موضعه وأراد أن يرده للدبغ كما كان، فمنعه بعض الجيران واحتج ببقائه نحو ثلاثين عامًا، فأجابه بأنهم مغصوبون على الخروج من دورهم، وأراد رد داره إلى ما كانت عليه قديما، فرد بعض العلماء أنه إذا ثبت ما قالوه فليس لأحد منعهم[11]، لقد برر العلماء لماذا نستطيع أن نجد مثل هذه الدور –التي الواجب فيها أن تكون خارج السور- داخل السور، وهو حقهم الذي ملكوه منذ زمن بعيد وحقهم هذا لم يسقط رغم أنهم لم يستعملوه منذ ثلاثين عامًا لأنهم أُخرجوا دون رضاهم، كما نفهم من هذا أيضًا أن مثل هذه الدور التي تحدث ضررًا توجد في تجمعات خاصة بها خارج المدينة، كما أن بعض الدور داخل المدينة تعدل لكي تستقبل مثل هذه الأعمال.

هذا بالنسبة لدور الدبغ التي توجد في المدينة ثم تخرج عنوة، أما عن تلك التي تكون أصلاً خارج المدينة فيريد أهلها أن يبنوا داخل المدينة ما سُئل عنه بعض أهل العلم عن مسجد قديم خرب ما حوله من الدور فجعلت دورًا للدبغ، ثم بعد زمان قام محتسب وقطعها ونُقلت خارج البلد، ثم أراد الآن بعض أهل تلك الدور إعادتها دورًا للدبغ، فمنعهم أهل المسجد بسبب الأنتان والقاذورات التي تلحقهم وتلحق المسجد، فأجاب بأنه ليس عليهم إعادة دور الدبغ إذا كان ريح الدبغ ونتنه مؤذيًا لأهل المسجد ولو طال أمد مكوثهم فلا بد من قطعها[12]، من فقه وفهم البرزلي والونشريسي أنهما جعلا هاتين النازلتين متتابعتين ليُفهم أن الدور التي كانت أصلاً منذ بنائها دورًا للدبغ فلا حق لأحد أن يحولها، أما إذا كان الأصل فيها أنها خارج المدينة ثم أراد أصحابها جعلها داخل المدينة فلا يُمَكنون من ذلك أبدا، وإذا أضروا بالمسجد فهذا أدهى وأمر، ويمكن أن نفهم أن بعض الدور استعملت للسكن وفي وقت ما تحولت إلى ممارسة أعمال أخرى وقد تعدل الدار ببناء أو غير ذلك حتى تتناسب مع الوظيفة الجديدة.

وفي باب ضرر الرائحة على الجيران ما قام به رجل كانت له حجرة فيها بيوت للكراء في موضع مرغوب فيه فهدمها وبنى بموادها غيرها في مكان آخر وتركها خرابا، فألقيت فيها **الفضلات والكنّاسات والنجاسات** وتضرر الجيران من ذلك، فطولب بالبناء فلم يفعل فجاء الحكم أن ذلك إذا أضر بالجيران ضررًا كثيرًا فإن على صاحبها أن يبني أو يبيع[13] لغيره حتى يبنيها ليقطع ضرر الرائحة الكريهة على أهل ذلك الموضع.

نستنتج من هذا المبحث؛ أن أضرار الرائحة تنوعت فمنها ضرر الخل ومنها دخان الأفران ومنها ضرر دور الدبغ ومنها ضرر الأوساخ والنجاسات، ومثل هذه النوازل تضيف لنا ما خصصت له بعض المنازل من أعمال سواءً داخل المدينة أو خارجها.

ثانيًا: ضرر الصوت

من الأضرار التي تندرج تحت هذا المبحث **ضرر الدق**، فلقد كان مالك بقر يُبيِّتها في بيته أيام الشتاء ويدق لها النوى لإطعامها وأراد جاره منعه، فذكر العلماء أنه إذا كان الدق يضر بالبناء ويضر بسمع الساكنين وتكرر ذلك مرارًا فإنه يمنع منه[14]، أما إذا لم يتكرر وكان ذلك أحيانًا فلا مانع منه، ونشير هنا إلى أن تخطيط بعض المساكن وجد بها رواء أو الإسطبل، وهو ما يجعل تخطيط هذا المنزل تخطيطًا خاصًا بقدر عدد الدواب التي تبيت بداخله. وسُئل بعض العلماء عن قوم لهم حوانيت لدق النوى في سوق وعليها دور، والدق يضرهم ولهم نحو عشرة أعوام، وقد كانوا مُنعوا وأخرجوا من المدينة ثم رجعوا إلى عادتهم الآن، فأجاب إذا أضروا بالناس وجب زوالهم إلى موضع لا يضرون بالناس، وليس طول مدة مكثهم في حوانيتهم مما يبيح لهم الضرر[15]، فقد اعتبر هؤلاء العلماء الصوت من الأضرار التي يجب قطعها، ونستفيد أيضا أن هذه الحوانيت كانت تحت الدور أي أن بعض المنازل كانت تتخذ في طابقها السفلي في جزء منه حانوتًا، وقد يكون ملكًا لها وقد يكرى لأن مالك الحانوت لا يضر بنفسه وإنما يفعل ذلك المكتري أو الشاري.

ويدخل في ضرر الصوت **ضرر المطاحن** التي كانت توجد في بعض المنازل، ولا شك أنها تحدث ضررًا على الجيران بصوتها من جرّاء الطحن وبحركتها التي تتسبب في إضرار الجدران، وقد اختلف العلماء في منع ضرر الصوت إلى فريقين حين سُئلوا عن رجل نصب مطاحن في بيته واشتكى جاره من دويّها، فقال فريق منهم يقطع الضرر مطلقًا مهما كان واعتبروا ضرر الصوت من أعظم الضرر، وقال غيرهم لا يمنع أي شخص أن يجعل في بيته ما شاء من أعمال يتعيش منها واعتبروا قطع معيشته ضررًا أكبر من المتضرر بالصوت، واحتجوا بأن ضرر الصوت ليس كضرر الرائحة التي قد تتسبب في مرض الإنسان لذلك فهو خفيف، ورأوا أن صوت الرحى والحداد والندّاف (صانع القطن) والكمّاد (الذي يدق الثياب لتنظيفها) لا يمنع، وفرّق غيرهم بين أن يكون الضرر على الجار بسبب الصوت أو بسبب تضرر الجدران، فإن كان على الجدران قطع وإن كان بسبب الصوت فلا يقطع[16]، فهنا اختلفوا في تقدير حجم الضرر إن كان كبيرًا أو صغيرًا، فالذي اعتبر ضرر الصوت كبيرًا منع من إحداث الرحى ومن رآه خفيفًا أجاز بناءها.

ومن العلماء من أخذ بحل وسط بين المجيزين والمانعين وذلك بترك صاحب المطحنة ينتفع برحاه وفي الوقت نفسه يقطع الضرر عن الجار، وذلك بجعل حدٍّ فاصل بين الرحى والدار يقطع ضرر الصوت والهَزِّ، وفي ذلك فقد سُئل بعض

العلماء عن الحد الذي يجعله مُحدث الرحى في داره عن حائط دار الجار، فقال بعضهم ليس لذلك حد معين وإنما يعرف ذلك عرفاء البناء فهم الذين يحددون ذلك، قال ابن الرامي البنّاء والذي عندي في الذي يريد أن يعمل رحى في داره يتباعد من حائط الجار بثمانية أشبار(حوالي١,٦٠م) من حدِّ دوران البهيمة على حائط الجار، ويشغل ذلك بالبنيان بين دوران البهيمة وحائط الجار إما ببيت أو بمخزن أو بمجاز، فلا بد لذلك من حائل لأن البناء يحول بين مضرة البهيمة وحائط الجار[١٧] (انظر الشكل١)، فمثل هذه المطاحن التي تستعمل الدواب في الطحن إنما تتسبب في ضررين، ضرر الصوت وضرر الاهتزاز وهذا ما يؤثر على الدار وعلى ساكنها على حد سواء، لذلك فإن ابن الرامي هنا وصل بهذه الطريقة إلى قطع الضرر بسبب البعد المناسب وبسبب البناء الإضافي بين مكان دوران البهيمة وبين جدار الجار، وبهذه الطريقة أيضًا لا يعاقب صاحب الدابة بحرمانه من الاستفادة من ملكه ولا بالعمل الذي يقوم به، ويمكن من هذا أيضا معرفة تخطيط مثل هذه الدور، فوجود جدار ثاني مستقل أو غرفة مستقلة وبعيدة عن جدار الجار، فهذا قد يجعل الدارس لمثل هذه المنازل يعطيها تفسيرات بعيدة عن الحقيقة، لذلك يجب الأخذ بعين الاعتبار المجتمع الذي ندرسه والمنطقة التي ندرسها، فمثلا لقد رأى الفرسطائي الإباضي أن جعل المنزل الرحى ممنوع منه.[١٨]

ومن الأضرار التي تحدثها الرحى رجل جعل في داره رحى فاشتكى جاره الضرر مما يلحق بحيطان داره من هذا، فأعطى القاضي ابن عبد الرفيع حلا كفيلا بأن يُعرف به الضرر من عدمه، فقال يؤخذ طبق من كاغد وتربط أركانه بأربعة خيوط في كل ركن خيط وتجمع أطراف الخيوط وتعلق من السقف الذي على الحائط الفاصل بين الدار وبين الرحى من جهة الدار، وتجعل على الكاغد حبات كزبر-الجلجلان- يابس ويقال لصاحب الرحى هز رحاك، فإن اهتز الكزبر عن الكاغد قيل لصاحب الرحى اقلع رحاك لأنها تضر بالجار، وإن كان لا يهتز الكزبر عن الكاغد قيل لصاحب الدار أترك صاحب الرحى يعمل لأنها لا تضر بك(انظر الشكل٢)، قيل لابن عبد الرفيع فإن كان الحائط الساتر بين الرحى والدار ليس فيه خشب وإنما هو سترة لا خشب فيه فأين يعلق الكاغد؟ قال تؤخذ قصبة غليظة ويحفر لها في الحائط الفاصل بين الرحى والدار قدر نصف شبر، ويدخل طرف القصبة في الحائط وتشدها من جهة الدار، وتعلق الكاغد في تلك القصبة وتعمل الكزبر على الكاغد، وتقول لصاحب الرحى هز رحاك فإن اهتز الكسبر منع صاحب الرحى من عمل الرحى وإن لم يهتز الكسبر لم يمنع[١٩](انظر الشكل ٣)، إن هذه الطريقة تؤكد وجود حد فاصل بين الرحى وبين جدار الجار المتضرر وقد يكون هذا الحد الفاصل بيت مسقف أو يكون على شكل جدار.

ومن الأضرار التي يمنع منها بسبب الصوت المزعج **الإسطبلات**، قال الشيخ الفقيه القاضي أبو إسحاق ابن عبد الرفيع رحمه الله، يمنع من إحداث الإسطبل عند بيت جاره لما فيه من الضرر وبول الدواب وحركتها بالليل والنهار والحركة المانعة من النوم[٢٠].

قد كان بعض الناس يجعل دابته في روائه* قريبًا من جدار جاره فاشتكى هذا الأخير الضرر عليه، فحكم العلماء بإزالة هذا الضرر، فصاح صاحب الدابة بأن لا غنى له عن دابته لأن عليها معاشه ولا بد له منها، وطلب أن يُبحث له عن حل يقطع الضرر عن جاره ويمكّنه من الاحتفاظ بدابته، فرأى عرفاء البنيان وعلى رأسهم ابن الرامي أن يحفر أساس وينزل فيه قدر القامة أمام حائط الجار ويبني فيه حائطا من تحت وجه الأرض إلى منتهى السقوف بقدر خمسة أشبار ويكون عرضه شبرين، ويجعل بينه وبين الحائط المجاور نصف شبر ترويحا، فلما فعل ذلك انقطع الضرر عن جاره، فأقر العلماء ذلك على أن يُشهَد عليه بذلك حتى لا تسول له نفسه مستقبلا إزالة الجدار المبني وادعاء حقه في هذا المكان كرواء، وقال ابن الرامي البناء أن نازلة أخرى مشابهة وقعت بتونس أيضًا في شخص أراد أن يبني رواءً في موضع كان خرابا، فمنعه صاحب الدار المجاورة فأرسل القاضي أبو إسحاق ابن عبد الرفيع عرفاء البناء ومعهم ابن الرامي للنظر في الموضع، فرأوا أن الموضع يحده الشارع من الغرب ومن الجوف، والدور من القبلة والشرق، والذي يليه من القبلة رواء، فسمح له صاحب الرواء ومنعه صاحب الدار الشرقية، قال ابن الرامي فأمرناه أن يعمل بيتا بين الدار الشرقية وبين المكان الذي يريد أن يجعله رواءً ويكون عرض البيت سبعة أشبار وعرضا الحائط شبرين، فقُطع بذلك الضرر فقبل القاضي ذلك مع الإشهاد على صاحب الرواء حتى لا تزول الدار مستقبلا فيصبح المكان كله رواءً[٢١] ويعودَ الضرر بذلك على صاحب الدار مع ادعاء صاحب الرواء حيازة الضرر بعد المدة.

يفهم من هذه النازلة بأن الدواب التي يكون مكانها بالمنازل فإنها تحدث ضررًا على الجيران، وهنا تتضارب مصلحة صاحب الدابة الذي معاشه منها ومصلحة عدم إزعاج الجار بصوت الدابة وبحركتها، لذلك فإن عرفاء البناء وجدوا حلاّ لهذه المشكلة وذلك بجعل الدابة في مكان منخفض من مستوى المنزل مع بناء سور عريض وعال من عمق حوالي متر ونصف إلى أن يصل إلى مستوى سقف المنزل ويكون هذا السور أمام المنزل المجاور، وبهذا ينقطع الضرر، ولعل هذا يكون في البناءات الملتصقة ببعضها البعض (انظر الشكل٤)، ويمكن أن نطبق هذا الحل في مجتمعنا اليوم، إذ أن كثير من الناس يملكون سيارات أو شاحنات وإذا كانت قريبة من الجدران فإنها تضر بالجيران فمثل هذا الحل كفيل بقطع الضرر، وقد رأيت بعض الناس في أيامنا هذه يمتلك كثيرًا من الشاحنات والتي تحدث ضررًا كبيرًا

خاصةً بصوتها فجعل لها مكانا في أسفل منزله، فانقطع الضرر عن المجاورين له، وهناك طريقة ثانية يمكن بها قطع الضرر وهو أن يبني بيتًا بين مكان دابته وبين الجار الذي يدَّعي الضرر إذا كان هناك متسع بينهما، وبهذا ينقطع الضرر ويحتفظ صاحب الدابة بدابته، كما يمكن الإشارة أيضًا إلى شيء آخر وهو وجود مثل هذه الأبنية في منزل أثري ما، يمكن أن يوقعنا في خطأ في فهم دوره، فوجود جدار مستقل فيه يدعونا للشك أنه جدار منزل قديم أو منشأة معمارية أخرى، ونفس الشيء يقال بالنسبة لبناء بيت بين مكان الدابة والدار المجاورة، فعرض البيت تسعة أشبار (أي حوالي مترين)، فهذا الحجم يوقعنا في عدم فهم وجوده مستقلاً فقد نعتبره مخزنا أو شيء آخر وهو في حقيقة الأمر بناء خاص أحدث لقطع الضرر على الجيران، وهذا العمل ينم على التطور الذي بلغه المسلمون في تنظيم منازلهم وتقسيم الفضاءات فيها بحسب مقتضيات الحياة ومتطلبات المدينة.

مما يمكن قوله في الجملة على هذه الإسطبلات أنها كانت ملحقة بالمنازل في أماكن خصصت لها، وقد تُجعل في دور خاصة وهو ما يمكن أن نسميه إسطبلات مستقلة، أو إن شئت فقل منشآت معمارية خاصة أخذت مكانها في المدينة، وفي حالة ما إذا تسببت في إحداث الضرر على الجيران فإنه يجعل مستواها أخفض من مستوى البناء ويُبنى سور في الجهة التي اشتكى منها الضرر، أو تبنى غرفة بين الرِّواء وبين الجهة المتضررة وبهاتين الطريقتين ينقطع ضرر الدّواب على الجيران.

ثالثًا: ضرر الأشجار

لقد كانت الكثير من الدور تحتوي على صحن، وهذا الصحن إنما يعتبر رئة الدار والفضاء الذي تجد فيه النساء حريتهن كاملة، ولم تكن هذه الصحون مجرد فضاء فارغ وإنما شغلت في الكثير من الأحيان بالنباتات والأزهار وحوض مائي لتلطيف الجو والترويح عن النفس، ومما كان يغرس أيضًا نجد بعض الأشجار الثمرية كالتين والزيتون وغيرها من الأنواع التي توفر الظل ويستفيد صاحبها من ثمرها، ولكن مع مرور الزمن تنمو الشجرة فتتسبب في بعض المشاكل مع الجيران سواءً بسبب أغصانها أو بسبب عروقها، ومن ذلك شجرة زيتون التزم صاحبها بقطع أغصانها الممتدة على جاره وقطع الضرر، ثم ظهر له أنه لا يجب عليه مثل هذا الالتزام، فذكر العلماء أنها إذا فاقت عشر سنين لا تقطع، وإن كانت غير قديمة قطع الضرر عن الجار، وقد اختلف العلماء في المدة[٢٢] أي في مدة حيازة الضرر هل هو أربع سنوات أو عشرون سنة وكان أغلبهم يقول بالعشر سنين.

وإذا غرس الرجل في داره شجرة فطالت وأشرفت على دار الجار وإذا طلع صاحبها ليجني ثمرها كشف ما في الدار الأخرى أو قارب من الكشف، وادعى جاره أن هذا ضرر عليه وأنه قد يخاف أن يدخل عليه منها شخص غريب، فهل يقطع منها ما أضر به أو يقطعها كلها وهي تزيد في كل عام؟ فبيّن المجيب بأن ادعاء الدخول عليه منها وأيضا الكشف حين جنيها غير معتبر ويمنع جانيها من التطلع والإضرار ولا سبيل إلى قطعها، ولكن إذا انتشرت فروعها وعظمت حتى خرجت من حدود صاحبها ودخلت في حدود الجار وأضرت به، فإنه يقطع منها فقط ما أضر به وبجداره، وقال غيره بأن للجار قطع ما أضر به من الأغصان وآذاه، كما له الحق في قطع الشجرة أصلا إذا أضرت بجداره وكانت قريبة منه، أما إذا كانت قديمة قبل بناء الجدار فليس له قطعها ولو أضرت بجداره، واختلف العلماء هل له قطع ما طال من أغصانها وأضر به؟ فقال بعضهم لا يقطع لأنه علم أن هذا من شأن الأشجار، والظاهر الذي قاله جماعة وهو أن يُقطع هذا الذي يضُر، وأيضا إذا أضرت بالجدار[٢٣]، ووافق المازوني على هذا التفصيل الأخير أي على أن الشجرة إذا أضرت بالجدار تقطع أو يطع منها ما يضر[٢٤]، وأضاف القرافي عن بعض الشافعية أن الأغصان إذا كانت ليِّنة يمكن كفها بلا قطع وينتهي بهذا الضرر فله ذلك[٢٥]،قال صاحب كتاب رياض القاسمين، إذا كان بعيدا عن الحائط بأربعة أذرع (حوالي مترين) لا يمنع، لأن الظاهر أن هذا يقطع الضرر[٢٦]، وهذا ما يسمى بحريم الشجر، أي أن كل شجرة لها حق لا يجب التعدي عليه، فالبعد بحوالي مترين كما ذكر هنا حق للشجرة، وهي بهذه الحالة لا تضر بالجار، وبخصوص هذا الحريم فإن لكل نوع من الأشجار حد معين، قال بعض العلماء بأن حريم الأشجار قدر ما تمد إليه أغصانها حواليها، وفي النخلة مد جريدها، وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلّم أنه اختصم إليه في حريم نخلة، فأمر بجريدة من جرائدها فذرعت فكانت سبعة أذرع أو خمسة أذرع، فقضى بذلك،[٢٧] وقيل إذا استوت الشمس قبل الفيء فلها ما أخذ ظلها من كل جانب[٢٨]، وقال غيرهم حريم الأشجار خمسة أذرع أو ستة من نخل وزيتون ورمان وجميع الأشجار[٢٩].

فمن خلال هذا الطرح نخلص إلى أن للشجرة أحكامًا مختلفة، فإذا غرست قبل بناء الجار فهي على حكمين، الأول ليس له ادعاء الضرر لأنه هو المحدث لبنائه، ولأنه حين بنى يعلم أن الأشجار ستكبر وتنتشر فعلى هذا لا تقلع الشجرة وإن أضرت بجداره، والثاني أنها تقلع إذا أضرت بصفة خاصة بالجدار لأنها قد تهدم البناء، أما إذا طالت أغصانها حتى خرجت إلى فضاء جاره فجاز له أن يطلب بقطع ما يضره، وقال آخرون أن أغصانها إذا كانت لينة ويمكن كفها بلا قطع كفت وإلا قطع ما يزول به الضرر، أما إذا كانت الشجرة محدثة أي أنها غُرست بعد بناء الجار فللجار حق في قطع كل ما أضر به حتى لو أدى ذلك إلى قلع الشجرة أصلا، ومن العلماء من أخذ بعين الاعتبار حريم الشجرة وهو حقها الذي لا يجب أن يتعدى عليه.

هذا بخصوص أغصان الشجرة، أما بالنسبة **لعروقها** فقد سُئل بعضهم عن دار لها ماجل وخلفها جنان (بستان) فيه شجرة تين، فبعد مدة ظهرت عروقها في داموس** الماجل فقام رب الدار مدعيًا الضرر، وقال الآخر كانت الشجرة قبل شرائك لهذه الدار، وقال رب الدار لم يظهر هذا إلا الآن ولم يكن قبل هذا الوقت، فأجاب بعضهم إن غرست هذه الشجرة بإذن البائع الأول ثم ظهرت عروقها الآن، فالظاهر أنه إذا كان يعلم أنها لن تنفذ إليه فنفذت فمن حقه إزالة الضرر لأنه إنما أذن فيما لا يضره، والمشتري يحل محل البائع(٣٠)، وذكر ابن الرامي أن مثل هذه الحادثة وقعت بتونس حيث أن شجرة التين أضرت بماجل الجار وشقت حيطانه وذهب ماؤه من جراء هذا، فأمر القاضي ابن عبد الرفيع ابن الرامي ومن معه من العرفاء بأن يحاولوا بأن يقطعوا العروق التي تلي الماجل حتى ينقطع الضرر عنه، فذكروا له أن المحافظة على الماجل تستلزم بأن تقطع الشجرة، لأن ضرر عروق التين أكبر من أي نوع آخر من الأشجار(٣١).

يعلم بالضرورة أن عروق بعض الأشجار تمتد أكثر من عروق أشجار أخرى كما هو الحال في أغصانها، ومن أكثر الأشجار ضررًا بعروقه إنما هو شجر التين، ففي كل الحالات إذا أضرت العروق بالماجل أو بجدران الدار أو بغيرها فإن مثل هذا الضرر يقطع لأنه ولا شك يؤدي إلى تهدم الدار وتشقق الماجل وقد يؤدي مستقبلاً إلى تهدّم الدار، وهو ما يمنع المالك من الانتفاع بملكه.

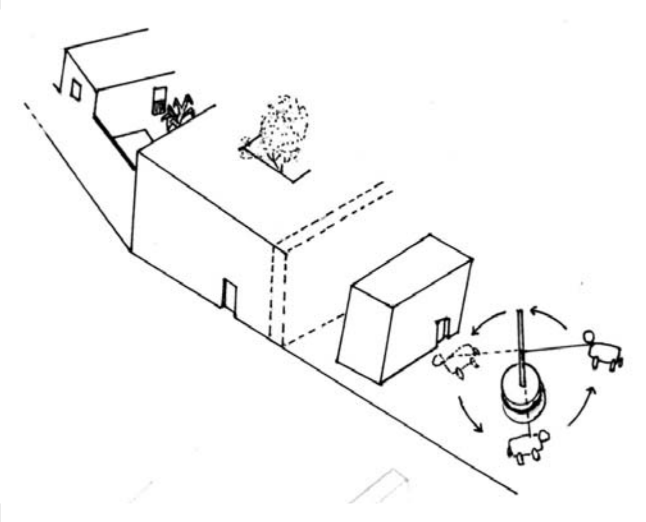
وذكر بعض أهل العلم أن حكم العروق كحكم الأغصان، وقد تؤثر العروق في المواجل والآبار على حد السواء، وتؤدي إلى تشققها وانهيارها مستقبلاً، لذلك فقد أمر صاحب الشجرة بإزالة ضرر العروق، وذلك بقطع الشجرة من أصلها.(٣٢)

يستنتج من هذا المبحث؛ أنه يدخل في النظام التخطيطي للمنازل الأشجار التي كانت تغرس في صحون المنازل، وعلى هذا فقد اهتم الإنسان المسلم بالمظهر الجمالي للمنزل، فلا شك أن وجود مثل هذه العناصر الحيوية تزيد المنزل رونقا وجمالا، كما تبعث في نفسية ساكنيها فضلاً عن زائريها شعورًا بالراحة والانتعاش والحيوية الدائمة والنشاط المستمر.

خَاتِمَةُ

إن الأضرار على المساكن في المدينة الإسلامية إنما تلخصت في ثلاثة أنواع أساسية، أولها ضرر الرائحة وثانيها ضرر الصوت وثالثها ضرر الأشجار، فضرر الرائحة ينقسم بدوره إلى أربعة أنواع ضرر رائحة الخل، ضرر الدخان، ضرر دور الدبغ وضرر الفضلات والنجاسات فإذا ثبت أنها تضر بالسكان المجاورين وأنها تضر أيضًا بالمباني فإنها تقطع عنهم، وأما ضرر الصوت فيتمثل في الدق والمطاحن، فالدق إذا كان يضر ضررًا بيِّنا بالسكان منازلهم فإنه يمنع، وكذلك ضرر المطاحن، غير أن عرفاء البناء وجدوا طريقة لمعرفة الضرر من عدمه كما وجدوا حلاً كفيلاً لقطع أذاها على المجاورين، وهو الشيء نفسه بالنسبة لضرر الإسطبلات، فقد وجد عرفاء البناء سبيلاً لقطع الضرر عن الجار وأقر العلماء ذلك. وبخصوص ضرر الأشجار فهي تتمثل في أغصانها وعروقها، وضبط العلماء أحكامها بحيث تبقى في ملك صاحبها بشرط ألا تضر بجيرانها، ويمكن لنا نحن اليوم أن نطبق مثل هذه الحلول في مجتمعنا، فمثلاً لو أن رجلاً ملك شاحنة أو أكثر، أو أنه ملك حافلة أو غير ذلك مما يمكن أن يضر بجيرانه، فلو جعل مكانها أسفل من مستوى سطح الأرض فإن ذلك كفيلاً بأن يقطع الضرر ويحافظ على حسن الجوار الذي يأمر به الإسلام ويسعى لتحقيقه كل فرد في أي مجتمع.

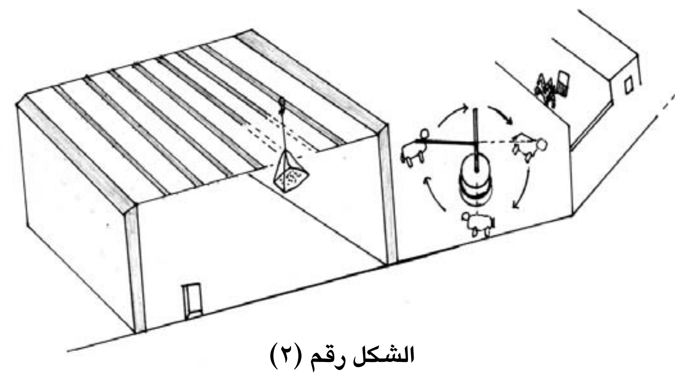
الملاحق



الشكل رقم (١)

تضر الطاحونة بالجار فيبتعد صاحبها عن حائط الجار بقدر ثمانية أشبار(حوالي١,٦٠م) من حد دوران البهيمة، ثم يبنى حاجزًا كبيت أو مخزن وبهذا ينقطع الضرر.

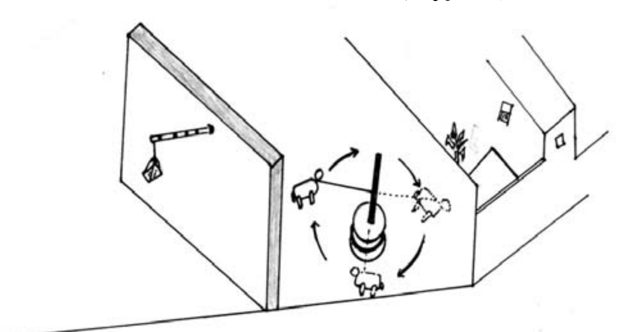
العمل من تصور الباحث.



الشكل رقم (٢)

لمعرفة ضرر الطاحونة من عدمه يُعلق طبق من كاغد في سقف مدعي الضرر ويوضع عليه حبات من كزبر يابس-الجلجلان- ويقال لصاحب الرحى هُز رحاك، فإن اهتز الكزبر فالطاحونة تضر بالجار، وإن لم يهتز لا يمنع صاحبها منها.

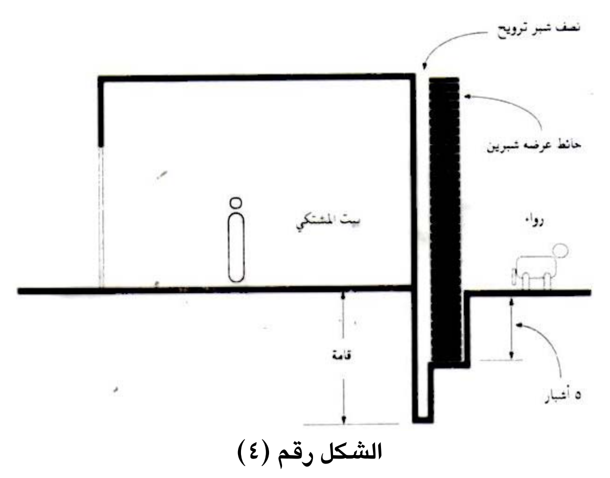
العمل من تصور الباحث.



الشكل رقم (٣)

في حالة ما إذا كان الفاصل بين الرحى والجار جدار لا بناء فيه، يُعلق طبق من كاغد في قصبة ويوضع عليه حبات من كزبر يابس- الجلجلان- وتُدخل القصبة في الجدار الفاصل قدر نصف شبر، ويقال لصاحب الرحى هُز رحاك، فإن اهتز الكزبر فالطاحونة تضر بالجار، وإن لم يهتز لا يمنع صاحبها منها.

العمل من تصور الباحث.



الشكل رقم (٤)

وجد عرفاء البناء حلاّ لهذه المشكلة ضرر الدابة على الجار المجاور، وذلك بجعلها في مكان منخفض من مستوى المنزل مع بناء سور عريض وعال من عمق حوالي متر ونصف إلى أن يصل إلى مستوى سقف المنزل ويكون هذا السور أمام المنزل المجاور، وبهذا ينقطع الضرر. نقلاً عن: عبد القادر أكبر، ص٢١٨.

الهَوامِشُ:

(١) ابن الرامي (أبو عبد الله محمد بن إبراهيم اللّخمي) (ت.٧٣٤هـ)، **الإعلان بأحكام البنيان**، تحقيق ودراسة فريد بن سليمان، تقديم عبد العزيز الدويلاتي، مركز النشر الجامعي، ١٩٩٩م، ص٥٨.

(٢) البرزلي (أبو القاسم بن أحمد البلوي التونسي) (ت.٨٤١هـ)، **فتاوي البرزلي، جامع مسائل الأحكام لما نزل من القضايا بالمفتين والحكام**، تقديم محمد الحبيب الهيلة، ط١، ج٤، دار الغرب الإسلامي، بيروت-لبنان، ٢٠٠٢م، ص٣٨٩. وكل ما له رائحة خبيثة يُمنع، انظر:- الحنبلي (ابن رجب)، **جامع العلوم والحكم، شرح خمسين حديثا من جوامع الكلم**، اعتنى به وحققه محمود النادي، دار ابن الهيثم، ص٣٨٣.

(٣) انظر مثلاً: البرزلي، مصدر سابق، ج٢، ص٦١، ج٣، ص١٨٤؛- المديوني (عبد الله بن العيساوي الشاوي)، **بعض مسائل الدرر المكنونة في نوازل مازونة**، مخطوط خاص، ص٨٦؛- الونشريسي (أحمد بن يحي) (ت.٩١٤هـ)، **المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى علماء إفريقية والأندلس والمغرب**، خرجه جماعة من الفقهاء بإشراف محمد حجي، ج٩، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٤٠١هـ/١٩٨١م، ص٢٨؛- الفكون (محمد بن عبد الكريم)، مخطوط خاص، **النوازل**، جمع وكتابة محمد بن محمد بن عبد الكريم بن الفكون، ص٤٠٣.

(٤) ابن الرامي، مصدر سابق، ص٥٠.

(٥) الونشريسي، مصدر سابق، ج٩، ص٢٨. وانظر:- ابن سعيد (سحنون التنوخي)، **المدونة الكبرى**، التي رواها سحنون عن الإمام عبد الرحمن بن القاسم العتبي عن الإمام مالك بن أنس، ط١، ج٥، دار صادر بيروت، ص٥٢٩؛- أبو الأصبغ عيسى بن موسى بن أحمد بن الإمام التطيلي(ت٣٨٦هـ)، **كتاب نفي الضرر (كتاب في أحكام العمارة)**، تقديم وتحقيق فريد بن سليمان والمختار التليلي، مركز النشر الجامعي-تونس، ٢٠٠٣م، ص٨٢-٨٣؛- أبو الأصبغ عيسى بن عبد الله الأسدي الجياني المعروف بابن سهل، **ديوان الأحكام الكبرى أو النوازل والأعلام لابن سهل**، تحقيق المحامي رشيد النعيمي، ط١، ج٢، شركة الصفحات الذهبية المحدودة، الرياض، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م، ص١٢٠٦؛- الفرسطائي (أبو العباس أحمد بن محمد بن بكر النفوسي) (ت٥٠٤هـ)، **القسمة وأصول الأرضين**، كتاب في فقه العمارة الإسلامية، تحقيق وتعليق وتقديم الشيخ بكير بن محمد الشيخ بلحاج ومحمد صالح الناصر، ط٢، مزيدة ومنقحة، المطبعة العربية جمعية التراث القرارة-غرداية، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م، ص٢٠٥؛- ابن رشد (أبو الوليد القرطبي)(ت٥٢٠هـ)، **البيان والتحصيل والشرح والتوجيه والتعليل في مسائل المستخرجة، وضمنه المستخرجة من الأسمعة** المعروفة **بالعتبية** لمحمد العتبي القرطبي، تحقيق محمد حجي وآخرون، ط٢، ج٩، دار الغرب الإسلامي، بيروت-لبنان، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م، ص٢٦٣؛- برهان الأئمة حسام الدين عمر بن عبد العزيز بن مازة البخاري، **كتاب الحيطان، دراسة فقهية لأحكام البناء والإرتفاق**، ط١، تحقيق، د.عبد الله نذير أحمد، مركز النشر العلمي جامعة الملك عبد

العزيز-جدة، ١٤١٦هـ/١٩٩٦م، ص١٩١؛- ابن الرامي، مصدر سابق، ص٥٩-٦٠.

(٦) **مختصر نوازل المازوني**، مصدر سابق، ص٨٦. وانظر: القرافي (شهاب الدين أحمد بن إدريس) (ت٦٨٤هـ)، **الذخيرة**، تحقيق محمد حجي وآخرون، ط١، ج٥، دار الغرب الإسلامي بيروت، ١٩٩٤م، ص٥٠٩؛- ابن الرامي، مصدر سابق، ص٦١.

(٧) البرزلي، مصدر سابق، ج٣، ص٣٩٩. وانظر:- ابن سهل، مصدر سابق، ج٢، ص١٢١٨-١٢٢٠؛- ابن رشد، مصدر سابق، ج٩، ص٢٦٣؛- ابن قدامة (أبو محمد عبد الله بن أحمد بن محمد المقدسي الجماعيلي الدمشقي الصالحي الحنبلي)(ت٦٢٠هـ)، **المغني**، ويليه **الشرح الكبير** للإمام ابن قدامة المقدسي، تحقيق محمد شرف الدين خطاب والسيد محمد السيد، ط١، ج٨، دار الحديث القاهرة، ١٤١٦هـ/١٩٩٦م، ص١٨١؛- ابن سلمون(أبو القاسم بن علي بن عبد الله الكناني) (ت.٧٤١هـ)، **العقد المنظم للحكام فيما يجري بين أيديهم من الوثائق والأحكام**، مخطوط في الفقه المالكي، مكتبة الحامة بالجزائر تحت رقم ١٣٦٦، ص١٧٥؛- ابن فرحون(برهان الدين أبو الوفاء إبراهيم بن الإمام شمس الدين أبي عبد الله محمد اليعمري المالكي)(ت٧٩٩هـ)، **تبصرة الحكام في أصول الأقضية ومناهج الأحكام**، وبهامشه كتاب **العقد المنظم للحكام فيما يجري بين أيديهم من العقود والأحكام**، للشيخ سلمون الكناني(٧٤١هـ)، ط١، ج٢، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، ١٣٠٣هـ، ص٨٧، ٩١، ٢٥١-٢٥٢، ٢٥٧؛- ابن الرامي، مصدر سابق، ص٦٠.

(٨) البرزلي، مصدر سابق، ج٤، ص٤١٣. وانظر:- القيرواني (أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن أبو زيد)(ت٣٨٦هـ)، **النوادر والزيادات على ما في المدونة من غيرها من الأمهات**، تحقيق عبد الفتاح الحلو، ط١، ج١١، دار الغرب الإسلامي، بيروت-لبنان، ١٩٩٩م، ص٣٧؛- ابن سهل، مصدر سابق، ج٢، ص١٢٣٢، ١٢٣٧.- الثقفي (الشيخ المرجي) (توفي في القرن الرابع هجري)، **كتاب الحيطان، أحكام الطرق والسطوح والأبواب ومسيل الماء والحيطان في الفقه الإسلامي**، مع شرحه وتهذيبه والزيادات عليه، حققه محمد خير رمضان يوسف، ط١، دار الفكر المعاصر، بيروت-لبنان، ١٤١٤هـ/١٩٩٤م، ص١٢٨؛- اللبناني(سليم رستم باز)(ت١٣٣٨هـ)، **شرح المجلة**، ط٣، ج١، دارالكتب العلمية، بيروت-لبنان، ١٣٠٧هـ، ص٦٥٨.

(٩) المازوني (أحمد بن يحيى) (٨٨٣ هـ)، **الدرر المكنونة في نوازل مازونة**، تحقيق حساني مختار، مخبر المخطوطات علم المكتبات بوزريعة-الجزائر.، ج٣، ص١١، ٢٢؛- ابن الرامي، مصدر سابق، ص٦٠. وعن وجود مثل هذه الأفران داخل المدينة انظر: الونشريسي، مصدر سابق، ج٩، ص٦٦.

(١٠) عيسى بن الإمام التطيلي، مصدر سابق، ص٨٤؛- ابن الرامي، مصدر سابق، ص٦١.

(١١) انظر: البرزلي، مصدر سابق، ج٤، ص٣٨٨؛- الونشريسي، مصدر سابق، ج٨، ص٤٤٦. وانظر: الأَدَرْنوي (القاضي كامي محمد بن أحمد بن إبراهيم الحنفي أفندي)(١١٣٦ هـ)، **رياض القاسمين أو فقه العمران الإسلامي**، دراسة وتحقيق أحمد بن حموش، ط١، دار البشائر للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق-سورية، ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م، ص١٨٩؛- أكبر (جميل عبد القادر)، **عمارة الأرض في الإسلام، مقارنة الشريعة بأنظمة العمران الوضعية**، ط٢، دار البشير، عمان-الأردن، مؤسسة الرسالة بيروت- لبنان، ١٤١٦ هـ/١٩٩٥م، ص٢٢٠؛ وانظر الخلاف عند ابن قدامة،- ابن قدامة، مصدر سابق، ج٨، ص١٨١-١٨٢.

(١٢) الونشريسي، مصدر سابق، ج٨، ص ٤٤٦. وانظر: البرزلي، مصدر سابق، ج٤، ص٣٨٨؛- سليم رستم باز، مصدر سابق، ج١، ص٦٥٩. وانظر في معناها: - جميل عبد القادر أكبر، مرجع سابق، ص٢١٤.

(١٣) انظر: البرزلي، مصدر سابق، ج٤، ص٣٩٠؛- الونشريسي، مصدر سابق، ج٨، ص٤٣٦-٤٣٧. وانظر: القيرواني، مصدر سابق، ج١١، ص١١٠-١١١؛- ابن الرامي، مصدر سابق، ص١٥٤-١٥٥.

Revue Algérienne et Tunisienne de **l'Egislation de Jurisprudence**, Fondée par l'Ecol de Droit d'Alger, Publieé sous la Direction de Robert Estoblon, anné, 1900, p55.

(١٤) البرزلي، مصدر سابق، ج٤، ص٣٩٢-٣٩٣؛ وانظر: ابن قدامة، مصدر سابق، ج٨، ص١٨٢؛- القاضي كامي محمد، مصدر سابق، ص١٨٩.

(١٥) الونشريسي، مصدر سابق، ج٨، ص٤٥٧. وانظر: البرزلي، مصدر سابق، ج٤، ص٣٧٢؛- ابن قدامة، مصدر سابق، ج٨، ص١٨٢؛- ابن رجب، مصدر سابق، ٣٨٣؛- ابن الرامي، مصدر سابق، ص٦٢، ٩٩؛- جميل عبد القادر أكبر، مرجع سابق، ص٢٢٠.

(١٦) الونشريسي، مصدر سابق، ج٩، ص٥٩-٦٠. انظر:- القيرواني، مصدر سابق، ج١١، ص٣٧؛- الفرسطائي، مصدر سابق، ص١٧٥؛- ابن رشد، مصدر سابق، ج٩، ص٢٦٣، ٢٦٥؛ - أبو إسحاق إبراهيم بن حسن بن عبد الرفيع، **معين الحكام على القضايا والأحكام**، تحقيق محمد بن القاسم بن عياد، دار الغرب الإسلامي، بيروت-لبنان، ١٩٨٩م، ص٧٨٣؛ - ابن فرحون، مصدر سابق، ج٢، ص٩١؛- الطليطلي (أحمد بن خلف بن وصول)، **منتخب الحكام وبيان ما عُمل به من سير الحكام**، تقديم وتحقيق حميد لحمر، ط١، دار بن حزم، بيروت-لبنان، ١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م، ص١٢٨-١٢٩؛- كامي محمد، مصدر سابق، ص١٩٠؛- سليم رستم باز، مصدر سابق، ج١، ص٦٥٨؛- جميل عبد القادر أكبر، مرجع سابق، ص٢١٤.

(١٧) الونشريسي، مصدر سابق، ج٩، ص٠٩. وانظر:- سحنون بن سعيد، مصدر سابق، ج٥، ص٥٢٩؛- القيرواني، مصدر سابق، ج١١، ص٣٧؛- الفرسطائي، مصدر سابق، ص١٧٥؛- ابن رشد، مصدر سابق، ج٩، ص٢٦٣؛- ابن الرامي، مصدر سابق، ص٦٣. وعن ضرر الطاحونة بالبناء انظر: ابن عبد الرفيع، مصدر سابق، ص٧٨٦؛- ابن فرحون، مصدر سابق، ج٢، ص٩١؛ - سليم رستم باز، مصدر سابق، ج١، ص٦٥٨؛- جميل عبد القادر أكبر، مرجع سابق، ص٢١٨.

(١٨) الفرسطائي، مصدر سابق، ص١٧٥.

(١٩) كما نقل ذلك: الونشريسي، مصدر سابق، ج٩، ص٠٧-٠٨. وانظر: ابن رجب، مصدر سابق، ص٣٨٣؛- ابن الرامي، مصدر سابق، ص٦٤؛ - جميل عبد القادر أكبر، مرجع سابق، ص٢١٨.

(٢٠) ابن الرامي، مصدر سابق، ص٦٤.

(*) الرِّواء بالكسر والمد: حبل من حبال الخباء، وقد يُشدُّ به الحِمل والمتاع على البعير، جمعه أروية، ومنه قول الراجز: إني إذا ما القوم كانوا أنجية وشد فوق بعضهم بالأروية هناك أوصيني ولا توصي بيَ

انظر: ابن منظور (عبد الرحمن بن مكرم) (ت.٧١١هـ)، **لسان العرب**، ط٣، ج١٤، دار صادر بيروت-لبنان، (١٤١٤هـ/١٩٩٤م)، ص٣٢٨؛- البستاني(المعلم بطرس) (ت.١٣٠٣هـ)، **محيط المحيط**، قاموس مطول للغة العربية طبعة جديدة، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، ١٩٨٧م، ص٢٦١. والرواء في العرف المغربي إصطبل الدواب، ويَنطق به العامة مقصورًا "الرِّوا"، انظر:- الونشريسي، مصدر سابق، ج٩، ص٠٨؛- عبد الرحيم غالب، **موسوعة العمارة الإسلامية**، ط١، بيروت-لبنان، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م، ص٢٠٧؛- عبد الستار عثمان، **الإعلان بأحكام البنيان لابن الرامي دراسة أثرية معمارية**، دار المعرفة الجامعية، إسكندرية-مصر، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م، ١٣٧-١٣٨.

(٢١) الونشريسي، مصدر سابق، ج٩، ص٠٨. وقد رأى المنع من ضررها:- القيرواني، مصدر سابق، ج٧، ص١٤٤-١٤٥، ج١١، ص٣٧؛- ابن عبد الرفيع، مصدر سابق، ج٢، ص٧٨٦؛- ابن الرامي، مصدر سابق، ص٦٥؛- القاضي كامي محمد، مصدر سابق، ص١٨٧؛- ابن فرحون، مصدر سابق، ج٢، ص٩١؛- جميل عبد القادر أكبر، مرجع سابق، ص٢١٨.

(٢٢) البرزلي، مصدر سابق، ج٤، ص٤٠٢-٤٠٣. وانظر:- التطيلي، مصدر سابق، ص١٨٢؛- ابن سلمون، مصدر سابق، ص١٧٦-١٧٧.

(٢٣) انظر:- البرزلي، مصدر سابق، ج٤، ص٤٠٠-٤٠١؛- الونشريسي، مصدر سابق، ج٩، ص٢١، ٤٧-٤٨. وانظر أيضًا:- القيرواني، مصدر سابق، ج١١، ص٥٩-٦٠؛- عيسى بن الإمام التطيلي، مصدر سابق، ص١٧٤-١٧٥، ١٨١؛ الفرسطائي، مصدر سابق، ص٥١٩؛ - ابن رشد، مصدر سابق، ج٩، ص٤٠٨-٤٠٩؛- ابن قدامة، مصدر سابق، ج٧، ص١٨-١٩؛- القرافي، مصدر سابق، ج٦، ص١٧٨-١٧٩؛- ابن فرحون، مصدر سابق، ج٢، ص٩٥-٩٧؛ - الشيخ عيسى بن علي الحسني العلمي، **كتاب النوازل**، تحقيق المجلس العلمي بفاس، ج٢، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية-المملكة المغربية، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م، ص١٠٠؛ - ابن الرامي، مصدر سابق، ص٢٢١، ٢٢٦-٢٢٧؛- سليم رستم باز، مصدر سابق، ج١، ص٦٥٦؛- جميل عبد القادر أكبر، مرجع سابق، ص٥٤، ٢٢٨.

(٢٤) المازوني، مصدر سابق، ج٣، ص١٠. وانظر:- مختصر نوازل المازوني، مصدر سابق، ص٩٠؛- أحمد بن خلف الطليطلي، مصدر سابق، ص١٣٦-١٣٧؛- ابن فرحون، صدر سابق، ج٢، ص٩٥-٩٧؛- القاضي كامي محمد، مصدر سابق، ص٤٥٦.

(٢٥) القرافي، مصدر سابق، ج٦، ص١٧٨-١٧٩.

(٢٦) القاضي كامي محمد، مصدر سابق، ص١٩١.

(٢٧) ابن قدامة، مصدر سابق، ج٨، ص١٨١.

(٢٨) ابن القاسم (أبو مطرف عبد الرحمن الشعبي المالقي)(ت٤٩٧هـ)، **الأحكـام**، تقديم وتحقيق، د.الصادق الحلوي، ط١، دار الغرب الإسلامي، بيروت-لبنان، ١٩٩٢م.، ص١٩٩.

(٢٩) الفرسطائي، مصدر سابق، ص٥١٣.

(**) **الداموس**: لغة مكمن الصائد جمعها دوامس والدمّاس كل ما غُطي ووارى، وتنصب دلالات هذه المعاني على التغطية، وفي الإصطلاح النوازلي هو نوع معيّن من أنواع التسقيفات أو التغطية، وهو على شكل قبو أو أقبية، انظر:- عبد الستار عثمان، مرجع سابق، ص١٦٤-١٦٥. والظاهر أن معناها في المتن سقف الماجل.

(٣٠) البرزلي، مصدر سابق، ج٣، ص٢٩١. وانظر:- التطيلي، مصدر سابق، ص١٨٢؛- القيرواني، مصدر سابق، ج١١، ص٦١؛- الفرسطائي، مصدر سابق، ص٥١٩؛- ابن قدامة، مصدر سابق، ج٧، ص٢٠-٢١، ج٨، ص١٨٢؛- ابن سلمون، مصدر سابق، ص١٧٧؛- عيسى العلمي، مصدر سابق، ج٢، ص١٠٨؛- سليم رستم باز، مصدر سابق، ج١، ص٦٥٦.

(٣١) ابن الرامي، مصدر سابق، ص٢٢٧.

(٣٢) ابن قدامة، مصدر سابق، ج٧، ص٢٠-٢١. ج٨، ص١٨٢؛- الشيخ عيسى بن علي الحسني العلمي، مصدر سابق، ص١٠٨؛- سليم رستم باز، مصدر سابق، ج١، ص٦٥٦؛- ابن سلمون، مصدر سابق، ص١٧٧.؛- الفرسطائي، مصدر سابق، ص٥١٩.

الدفن السماوي في الأناضول خلال العصر الحجري الحديث
دراسة مقارنة مع هضبة التبت



د. زينب عبد التواب رياض
مدرس الآثار المصرية القديمة
كلية الآثار – جامعة أسوان
أسوان – جمهورية مصر العربية

مُلَخّصٌ
اتسمت عادات الدفن في العصر الحجري الحديث في بلاد الأناضول بسمات خاصة ميزتها عن غيرها من الحضارات الأخرى التي ترجع إلى الفترة الزمنية نفسها، إذ ارتبطت بأمور عدة أسطورية وعقائدية ودينية، كان منها عبادة الأسلاف، والدفن السماوي إن صح التعبير. ارتبطت الممارسات الجنائزية والشعائرية في بلاد الأناضول بالمنشآت الدينية في أغلب الأحيان، إذ كثير ما عثر على دلائل ارتباط المعابد بأماكن دفن الموتى لاسيما وأن المعابد كانت في كثير من الأحيان عبارة عن جزء معزول داخل المسكن كمزار أو مصلى وكان أحيانًا يدفن الموتى في المساكن أو أسفل مصاطب بأماكن السكنى ويتم وضع الجمجمة بعد نزع اللحم عنها في مكان بأرضية المعبد. وعرفت الأناضول في العصر الحجري الحديث عادة أطلق عليها بعض الباحثين في العصر الحالي مسمى "الدفن السماوي"، ووضحت سمات تلك العادة أو الظاهرة من خلال الرسوم الجدارية التي عثر عليها في العديد من مساكن شاتال هويوك وغيرها من مواقع الأناضول التي ترجع للعصر الحجري الحديث، وكانت تلك الرسوم قد ركزت على إظهار النسور "أحد أنواع الطيور الجارحه" تلتهم جثث الموتى؛ وتنتزع اللحم عنها بحيث لا يتبقى إلا العظام التي كانت تدفن بعد ذلك. وكانت هذه العادة أقرب إلى ما يقوم به سكان جبال التبت في العصر الحالي من عمليات مفادها التخلص من جثث الموتى بتقديمها للطيور الجاحة كطعام فتصعد أجسام موتاهم إلى السماء بتحليق تلك الطيور عاليًا في السماء ويُعَدّ هذا في اعتقادهم أسمى تعبير عن احترامهم للموتى.

بيانات المقال:
تاريخ استلام المقال: ٠٢ سبتمبر ٢٠١٦
تاريخ قبـول النشـر: ٢٦ مارس ٢٠١٧

كلمات مفتاحية:
الأناضول, الدفن, النسور, التبت, عقائد

معرِّف الوثيقة الرقمي: DOI 10.12816/0047299

الاستشهاد المرجعي بالمقال:
زينب عبد التواب رياض. "الدفن السماوي في الأناضول خلال العصر الحجري الحديث: دراسة مقارنة مع هضبة التبت".- دورية كان التاريخية.- السنة العاشرة- العدد الثامن والثلاثين؛ ديسمبر ٢٠١٧. ص٧٣ – ٨٠.

مُقَدِّمَةٌ
"الدفن السماوي" عنوان يجمع في طياته بين الموت "كحدث أرضي" يرتبط بالإنسان الكائن الحي على الأرض، وبين السماء وانتقال الانسان وارتفاعه اليها، حيث حياة الروح في عالم أفضل بعد تخلصها من الجسد. والدفن السماوي أحد الطقوس الجنائزية التي عرفت في بلاد الأناضول في العصر الحجري الحديث، والتي عبر عنها سكان الأناضول من خلال رسوم جدارية متنوعة ونقوش مختلفة تم اكتشافها سواء في جوبيكلى تبة أوشاتال هويوك، وكذلك من خلال عادات الدفن التي وضح فيها دور النسر جنائزيًا في تلك الفترة. والدفن السماوي طقس لازال له شبيه لدى أصحاب الديانة البوذية وسكان التبت (دولة في جنوب أسيا قريبة من جبال الهيمالايا)، وفى هذا الطقس الجنائزي يرسل الميّت الى المناطق العليا المقدسّة في السماء بواسطة النسور عندما يصبح المتوفى طعامًا لها.

وهناك دراسة ترتبط بذلك الموضوع بعنوان:

Shah, B., Sky burial practice of Ancients from Anatolia to China (west to east), in: www, academia.edu.

تتناول هذه الدراسة موضوع الدفن السماوي، ولكن ركزت على أصحاب الديانات الوضعية أكثر من تركيزها على بلاد الأناضول، فقد أشارت فقط إلى بعض نقوش جوبيكلى تبة ولم تلقى بالاً إلى الرسوم الجدارية في شاتال هويوك التى أبرزت بوضوح الطقوس الجنائزية التي عرفها سكان الأناضول في العصر الحجرى الحديث، والتي كان للنسر دور هام فيها، والتي أوضحها "ميلارت" في كتاب له بعنوان:

J. Mellaart, the Neolithic of the Near East, London 1975.

ومن ثَمَّ آثرت تناول هذا الموضوع لإلقاء الضوء على ما أغفلته الدراسة الأولى، وذكرته الدراسة الثانية ولكن بشيء من التبسيط والإيضاح والمقارنة من خلال الأدلة الأثرية.

١-تعريف الدفن السماوي

المقصود بالدفن السماوي هو خروج الروح من الجسد الأدمي الذي ما هو إلا وعاء لحفظ هذه الروح، وترك هذا الجسد لطيور السماء كي تتغذى عليه فتعيده مرة أخرى إلى الوجود، بينما تصعد الروح المقدسة إلى السماء بين مصاف الأسلاف والأرواح الطاهرة. ولقد تعددت تفسيرات طقوس الدفن من مجتمع لآخر، ومن ثقافة لأخرى وكانت أحد العناصر المشتركة في تاريخ الموت بين بلاد الأناضول ومنطقة التبت هو أن الجثث الموجودة لابد من إزاحتها؛ ولكن اختلفت طريقة تلك الإزاحة، إذ تطلب الأمر معاملة من نوع ما؛ كانت مختلفة عما كان سائدًا ومعروفًا من عادات الدفن المتبعة في عصور ما قبل التاريخ في أغلب الحضارات.

وتنوعت طرق إزاحة الموتى جسديًا من الحياة تنوعًا نسبيًا إبان التاريخ البشري، من الدفن في التراب إلى الحرق بالنار وهي ممارسات عرفت منذ أقدم العصور كنمط جنائزي؛ وهذه العمليات إذ تعكس معاملة شكلية من نوع ما للموتى، تستوجب التفسير بأنها نشاط طقسي، على افتراض أن كلمة «طقسي» تتضمن بالتالي «ديانة» تشتمل على اعتقاد ما بالحياة بعد الموت.(١) وتُعَدّ الطقوس الجنائزية أحد أكبر مظاهر الثقافة الإنسانية منذ البدء، كان لابد من الربط بين الماضي والحاضر، فالطقوس الجنائزية تُعَدّ من أهم معطيات الواقع البشري، وإن اختلفت تفسيراته وأنماط التفكير في التعامل معه.(٢)

٢- عادات الدفن في بلاد الأنـاضول

قبل البدء في الحديث عن موضوع الدفن السماوي في بلاد الأناضول، لابد من الاشارة أولاً إلى عادات الدفن التي عرفت في بلاد الأناضول في العصر الحجري الحديث بصفة عامة، والتي ارتبطت في مجملها بأمور عدة؛ أسطورية وعقائدية ودينية، وضحت في مختلف دفنات مواقع هاتشيلار وجوبيكلى تبة وشاتال هويوك في العصر الحجري الحديث.(٣) ففي موقع هاتشيلار الذي يؤرخ بالعصر الحجري الحديث (الألف السابع ق.م) لم يعثر على مقابر صريحة ولكن عُثر على جماجم منفصلة في البيوت، تبعث على الاعتقاد بأنه كان هناك نوع من العبادات تخص سلالة الأجداد أو عبادة الأسلاف من خلال الاحتفاظ بجماجمهم داخل المساكن.(٤) وفى شاتال هويوك ارتبطت عادات الدفن أيضًا بالممارسات الدينية والشعائرية(٥) مما أدى بالعلماء إلى قول أن هذا الموقع كان منطقة معابد؛ وأن ما به من مساكن كانت تخص الكهنة في أغلب الأحيان، وكانت المعابد مزينة بنقوش من الجص على جدران صلبة وتمثل النقوش رؤوس حيوانات لاسيما الثيران لانتشار عبادة الحيوان آنذاك.(٦)

ولقد عُثر على إحدى عشر دفنه ملونة بالمغرة الحمراء "أكسيد الحديد"(٧)، وذلك في مستويات من الثالث وحتى التاسع بشاتال هيوك والتي تؤرخ بالعصر الحجري الحديث، ستة من تلك الدفنات جاءت في مقاصير واضحة المعالم ومحددة، وثلاثة من تلك الدفنات عثر عليها في بقايا أبنية ربما كانت مقاصير، والاثنين الأخرين عثر عليهما في أبنية مفتوحة للعراء شيدت أعلى مقاصير من مرحلة سابقة عنها، ومن ثم فربما كان قد بزغ في الذهن آنذاك معتقدات دينية وجنائزية مرتبطة بمثل تلك الدفنات التي صبغت بالأحمر(٨) والتي كان يتم وضعها فقط في الأماكن المحرمة أو مقاصير العبادة، ولم يعثر على مثل تلك الدفنات في أماكن السكن المعتادة(٩). هذا بخلاف الدفنات الادمية منزوعة الجماجم والتي منها ما يوضحه (شكل: ١) إذ نرى ثلاثة من الدفنات الأدمية منزوعة الجماجم عُثر عليها في المبنى رقم (٦) بشاتال هويوك.(١٠)

ومما سبق يمكن استنتاج؛ أن مكان الدفن كان في نفس الوقت مقصورة العبادة المنزلية التي حوت دلائل وجود ممارسات طقسية خاصة، سواء من خلال ما عُثر عليه من دفنات أو من خلال ما أوضحته بعض الرسوم التي جاءت على جدران تلك المقاصير؛ وأن عادات الدفن آنذاك ارتبطت بعبادة الأسلاف وتقديس الموتى ومن ثَمَّ كان الاهتمام بأداء تلك الممارسات الطقسية الجنائزية.

٣- الدفن السماوي في بلاد الأنـاضول(*)

كان الدفن السماوي –دون النظر إلى حرفية التعريف– أحد أهم السمات الجنائزية التي تميزت بها الأناضول، والتي عرفت منذ العصر الحجري الحديث إن لم يكن قبله، ولقد ربط بعض الباحثين بين الدفن السماوي وبين أعمدة ونصب معابد جوبيكلى تبة والتي أطلقوا عليها مصطلح الميجاليث(*) والتي كثر العثور

عليها في مواقع جنوب بلاد الأناضول، والتي جاء عليها نقوش بارزة لحيوانات وطيور كان النسر من بينها، ويبين (شكل: ٢) أحد أعمدة معبد جوبيكلى تبة وعليه نقش لنسور ولهيئة مستديرة، ربما عبرت تلك النقوش عن الإلهة الأم والروح الآدمية.(١١) ولقد عُثر في بلاد الأناضول على العديد من الدلائل الأثرية التي تؤرخ بالعصر الحجري الحديث، والتي تنوعت ما بين المرسومة على الجدران، والملموسة من خلال اللقى الأثرية أشارت إلى عادات وممارسات طقسية ارتبطت بدفن الموتى، كانت أشبه بما يفعله اليوم سكان جبال التبت فيما يعرف بالدفن السماوي؛ حيث تأكل النسور جثث موتاهم لتدفن رمزيًا في السماء.(١٢)

ففي شاتال هويوك بالأناضول عُثر على رسوم عدة لمناظر طقسية لعب فيها النسر دور هام، اذ صورت النسور محلقة بأجنحتها في الفضاء، وتقوم بمهاجمة جثث آدمية مقطوعة الرأس، وربما كان ذلك راجعًا إلى حرص سكان شاتال هويوك على الاحتفاظ بجماجم موتاهم كنوع من الإعزاز، وربما كان ذلك تأصيل لما عُرف بعبادة الأسلاف في عصور ما قبل التاريخ، وفى ذلك إشارة أيضًا إلى الأهمية الأسطورية للنسر في ذلك الوقت،(١٣) تلك الأهمية التي تأكدت من خلال ما عُثر عليه في جوبيكلى تبة بالأناضول أيضًا؛ فعلى أعمدة معابد جوبيكلى تبة بالأناضول عُثر على نقوش بارزة ومجسمة لأنواع مختلفة من الحيوانات البرية والطيور الجارحة كانت النسور من بينها.(١٤)

كان الدفن في العصر الحجري الحديث في بلاد الأناضول يتم على مراحل، وارتبط في طياته بممارسات طقسية وعقائدية وضحت بشدة في شاتال هويوك اذ تكرر العثور على جماجم الموتى وعلى بعض الدفنات الآدمية أسفل أرضيات المساكن أو أسفل مصاطب وجدت في بعض المقاصير(١٥) التي زخرفت جدرانها برسوم مختلفة كان منها النسور المحلقة في الفضاء والتي صورت تنقض على جثث آدمية ملقاه أسفل منها لتأكلها وهي عملية قصد منها تنظيف وإزالة اللحم من جثث الموتى قبل عملية الدفن. ويعتقد بعض الباحثون أن معالجة الجثث كانت تتم بوضعها خارج القرية، أو في الأفنية الخلفية، حيث يتم تنظيف الجسد من اللحم بواسطة الطيور الجارحة، وذلك طبقًا لرسوم المعابد والتي تصور الطيور الجارحة تهاجم أجساد بشرية منزوعة الجماجم، إلا أن هناك بعض علماء الأنثروبولوجيا اللذين نفوا هذا التفسير، حيث أن الدراسة الأنثروبولوجية للعظام تدل على عدم وجود أي أثر لمناقير الطيور الجارحة على العظام، ويرى أصحاب هذا الرأي أن الجسد كان يترك في الخارج حتى يتآكل اللحم ثم تجمع العظام وتدهن باللون الأحمر أو الأخضر ثم تلف بالقماش.(١٦)

ويبين (شكل: ٣) أحد مقاصير العصر الحجري الحديث – الألف السابع ق.م– بالمستوى الثامن بشاتال هويوك ونرى الجدران المجصاة والتي زخرفت بجماجم ثيران ذات قرون حقيقة، وعلى اليسار نرى مناظر النسور المحلقة أعلى جثة أدمية، وأسفل ذلك المنظر توجد اثنين من الجماجم الآدمية، ولقد تكرر ذلك المنظر في بعض المقاصير الأخرى ولكن لسوء الحظ لم تكن تلك المناظر مكتملة، وبدراستها وبتكرارها سواء في شاتال هويوك أو هاتشيلار، وبارتباط تلك المناظر بوجود بعض الجماجم الآدمية في أغلب الأحيان؛ استطاع ميلارت أن يستنتج أن سكان شاتال هويوك عرفوا عبادة الأسلاف(١٧)، وأنهم كانوا يتركوا جثث موتاهم في الخلاء للنسور لإجلاء اللحم وتنظيف الجثة قبل اعادة دفن ما تبقى منها بتلك المقاصير، وكان يتم الاحتفاظ الجمجمة بعد تجصيتها في ركن ظاهر بالمقصورة (١٨) أو بأحد أركان المنزل كنوع من التقديس لصاحبها وعرفت تلك المقصورة بمعبد الأسلاف.(١٩)

وعرفت عبادة الأسلاف بأنها ممارسات تشير إلى تقديس وتوقير الأسلاف الموتى (طقسيًا أو بطرائق أخرى) اعتقادًا بأنهم يحيون في حيز غير منظور ويمكنهم أن يساعدوا أو يجلبوا الأذى للأحياء ولذلك يجب إرضائهم.(٢٠) وتأكيدًا على ممارسة الدفن السماوي في بلاد الأناضول تبين تفاصيل المنظر (شكل: ٤) إعادة تخيل للنسور المحلقة في السماء وكيف تهبط لتتغذى على الجثث الملقاة على الأرض "عملية إزالة لحم الجثث الآدمية"، والنسر هنا ربما كان يلعب دور الإلهة الأم.(٢١)

أما (شكل: ٥) فيوضح منظر مهاجمة النسور لجثث الموتى(٢٢) أعلى ما يشير الى برج، وأعلى هذا البرج وبين اثنين من النسور المحلقة نرى شكل مستدير، ربما كان رأس أدمية وربما كان اشارة لقرص الشمس، ويرى بعض الباحثين أنه ربما كان إشارة إلى الروح الآدمية التي كثيرًا ما كان يرمز إليها في الفن الصخري في الأناضول في عصور ما قبل التاريخ بالهيئة المستديرة.(٢٣) وصورت تلك النسور العملاقة أحيانا تهاجم شخص بلا رأس وممسكا بعصا، وفى مناظر أخرى كانت تصور مجموعة من الأشخاص تحاول محاربة تلك النسور الضخمة وهو من التصاوير التي تبعث على الحيرة. ويبين (شكل: ٦) مهاجمة النسور لمجموعه من الموتى منزوعي الجماجم الأمر الذي دعا إلى الحيرة وإلى ضرورة إلقاء الضوء على الدور الديني والأسطوري للنسر في الأناضول.(٢٤)

٤- النسور وعلاقتها بالدفن السماوي في بلاد الأناضول

كان للنسر أهمية كبرى في بلاد الأناضول، إذ كان سكان الأناضول يعتبرونه طيرًا مقدسًا، ورمزًا قوميًا لهم، وكان يعتبر ظل الأرواح الحامية، وروح الإله في آسيا الوسطى، فالنسر يرمز إلى الشمس والقوة والنفاذ، وكان سكان الأناضول يؤمنوا قديمًا أن النسر عندما يرفرف بأجنحته يغير الفصول، ولقد عُثر على أدلة ارتباط النسور بالعبادة والدين في مواقع عدة ترجع للعصر الحجري الحديث كان منها شاتال هويوك وجوبيكلى تبة ونيفالى كورى.[٢٥] ولقد كان النسر أحد رموز ثالوث ألهة شاتال هويوك، وقد ظهر بكثرة في معابد ومقاصير العبادة فيها، ويتألف هذا الثالوث غالبًا من الإلهة الأم (وهي إما على شكل صليب أو نسر) والإله الأب (وهو على شكل صليب أو ثور)، والإله الابن (وهو على شكل رأس ثور في الغالب).[٢٦]

ولم يكن هذا التقديس مجرد مشاعر وعواطف وأحاسيس نابعة من أثر هذا الطائر في حياة الإنسان وحسب، باعتباره مثالاً للقوة، وإنما يرتد في جانب كبير منه إلى ماضي أسطوري موروث لدى سكان الأناضول، كان فيه النسر إلها أو شبيها بالإله، يقترن بالجن، ويرتبط بالروح، ويتصل بالموت والخلود، ومعرفة الغيب والتنبؤ بالمجهول، وحين نقّلب صفحات ما قبل التاريخ، نرى النسر ماثلاً في ثقافة (شاتال هيوك) النيوليتية رمزًا للأم الكبرى، "نجده في جميع معابدها، وقد ملأ جناحاه جدار المعبد المقابل لتمثال الإلهة، وهناك من الأدلة[*] ما يشير إلى أن السحرة أو العرافة في عصور ما قبل التاريخ كانوا يلبسون أردية من ريش النسور، ويضعون أقنعة على هيئة رؤوس النسر خلال الطقوس وتقديم القرابين".[٢٧]

وتكرر الأمر نفسه في الطقوس المرتبطة بالشامانية وعبادة الأسلاف إذ كان للنسر أيضًا رمزيته التي ربطت ما بينه وبين الشامانية، وعبادة الأسلاف، وقد عُثر على أدلة ما يؤكد ذلك إذ استخدمت أجنحة النسور من قبل الشامان أو الكهنة في شاتال هويوك في أداء بعض الرقصات الطقسية ذات الصلة بعبادة الأسلاف.[٢٨] إذ كان الشامانيون يؤمنون بأن الأرواح المساعدة كانت تأتي إلى جانبهم على صورة نسر، وفي حال شوهد النسر طائرًا في منطقة ما فهذا يعني أن الشامانية ستمنح لتلك المنطقة[٢٩]. وكان للنسر أيضًا أهميته الدينية في حضارات عدة ترجع لعصور ما قبل التاريخ ففي بلاد الرافدين، وضح دور النسر عقائديًا منذ العصور الحجرية؛ ففي كهف زاوى شيمى شانيدار بالعراق عُثر على بقايا أجنحة لحوالي سبعة عشر من الطيور الجارحة الكبيرة بدراستها تبين انها لنسور،[٣٠] عُثر عليها جنبًا إلى جنب مع بقايا عظام حيوانية وجماجم لماعز وأغنام برية،[٣١] ولا شك أن في ذلك إشارة إلى قدسية معينة ارتبطت بالنسور.

٥- طقوس الدفن السماوي لدى سكان جبال التبت

وقد جاء آنفًا كيف أن الدفن السماوي نوع من طقوس عادات الدفن التي ظهرت ارهاصاتها الأولى في بلاد الأناضول في عصور ما قبل التاريخ، ثم أعاد التاريخ نفسه لتظهر مرة أخرى لدى بعض الشعوب في جنوب أسيا، من خلال طقس ديني جنائزي يتّبعه سكان التبت الصينية ومنطقة منغوليا عرف باسم الدفن السماوي، يعمدوا فيها الى ترك جثث موتاهم للنسور كي تتغذى عليها، ففي اعتقادهم أن الجسد ما هو إلا وعاء يحوي الروح التي تصعد في السماء[٣٢]. ولقد أطلق على هذا الطقس أيضًا باللغة المحلية لسكان التبت "إعطاء الوعاء للطيور"، وهي عادة تعبر عن احترام الميت، وتسود لدى أغلب أصحاب الديانة البوذية والزرادشتية.[٣٣] فأصحاب تلك الديانات الوضعية يؤمنون بتناسخ الأرواح وتحتم عليهم تلك الديانة أن يتصفوا بالسخاء لذلك نجد أن طريقتهم في التخلص من جثث الموتى يعتبرونها نوعًا من الكرم فهم يقدمون الجثث طعام للحيوانات والطيور.[٣٤]

وفى طقوس ذلك الدفن السماوي يتم تقديم جثث الموتى إلى تلك الطيور "النسور"، في أغلب الأحيان يجري تقديم الجسم كاملاً للطيور الكبيرة، وعندما لا يبقى إلا العظام يكون الهيكل محطمًا بمخالب الطيور الكبيرة القوية، فتقدم طعام إلى الطيور الأصغر.[٣٥] وفي بعض المناطق التي تقوم بالدفن السماوي تؤدى بعض الرقصات الطقسية مستخدمين عصا[*]ربما كانت طقسية من أجل تحفيز الطيور على الأكل.[٣٦]

ويبين (شكل: ٧) ما يُعرف بـ" قبر نسور البحر" وهو أحد صور الدفن السماوي حيث يتم وضع الجثة في مكان معلوم مرتفع قرب البحر ليقوم طائر النسر بتنظيف الجثة ونزع اللحم عنها، إذ يُعتقد أن إزالة اللحم تمكن الروح من مغادرة الجسد، وهى رمزية عقائدية لعب فيها النسر الدور الأكبر بحمله رفات الموتى إلى السماء،[٣٧] تمامًا كما كان عليه الوضع في الأناضول في عصور ما قبل التاريخ. ويتطابق هذا النوع من الدفن مع المضمون الإنساني للديانة الهندوسية التي تقوم على الانسجام والتكافل بين مكونات الطبيعة، حيث يكون الناس سعيدين أن يتكرموا بجعل جسدهم طعامًا لاستمرار الحياة عوضًا عن العمل على تحنيطه وحفظه، ففي المفهوم الهندوسي

يكون الجسد بعد أن غادرته الروح مجرد لحم فقط، لم يعدّ له وظيفة أخرى.[٣٨]

نتائج الدراسة

- يتبوأ الفكر الديني والجنائزي في بلاد الأناضول أهمية ومكانه خاصة، لاسيما في العصر الحجري الحديث، وجاءت دلائل ذلك في مواقع جوبيكلي تبة وشاتال هويوك.
- الأسطورة هي الوسيلة المبكرة التي عبرت عن فكر وعقيدة الإنسان الأول، والتي عكست تخيله عن العالم الآخر، وهي الخيط الرابط بين العديد من الشعوب البدائية في الوقت الحالي، وبين حضارات عصور ما قبل التاريخ.
- كان للنسور دور هام جنائزيًا وعقائديًا، أوضحته الأعمال الفنية في العصر الحجري الحديث في بلاد الأناضول، وأوضحته كذلك عادات الدفن الحالية لدى سكان هضبة التبت.
- "الدفن السماوي": مسمى ابتدعه بعض أصحاب الديانات الوضعية في العصر الحالي، ولكنه كان معروفًا في العصر الحجري الحديث في بلاد الأناضول.
- الدفن السماوي في العديد من الديانات الوضعية مظهرًا من مظاهر الرغبة في إظهار "الاحترام للموتى".
- كان الدفن السماوي في بلاد الأناضول يتم من خلال ترك جثة المتوفى على مكان أو ربوة مرتفعة حيث تهبط عليها طيور السماء الجارحة "النسور" وتنزع عنها اللحم، ثم يتم دفن عظام المتوفى المتبقية بعد ذلك.
- أما الدفن السماوي في منطقة التبت فيتم فيه تقديم المتوفى للنسور كي تتغذى عليه بالكامل، حتى يضمنوا أن المتوفى تحول الى السماء؛ فبقاء جزء منه معناه أن طريقه الى السماء غير مأمون.
- لايزال هناك الكثير في غياهب الظلام وهو ما لم يستطع البحث العلمي بعد من تسليط الضوء عليه، إلا أن ثمة شيئا أكيدا هو أنه لم يكن الإنسان في عصور ما قبل التاريخ بدائيًا يلتحف فرو الحيوانات ويقطن المغارات فقط، بل كان على درجة عالية من التأمل والتفكير مكّنه من نسج الأساطير ووضع أسس وقواعد لعادات وممارسات أعادت نفسها مرة أخرى في العصر الحالي فيما نراه في حياة العديد من القبائل البدائية التي لازالت تحيا على الفطرة، ولدى العديد من الشعوب ذات الديانات الوضعية.
- كأن التاريخ يعيد نفسه، وكأننا بحاضرنا نحيا الماضي ولكن بصورة تتماشى مع مستجدات العصر، فدراسة ماضي الأمم والشعوب توقفنا على دلائل نعرف بها أمور لم نكن لنعرفها لولا دراسة هذا الماضي ومقارنته بالحاضر.

الملاحق



شكل رقم (١)

دفنات آدمية الجثث فيها عديمة الجماجم - المبنى رقم ٦ بشاتال هويوك.

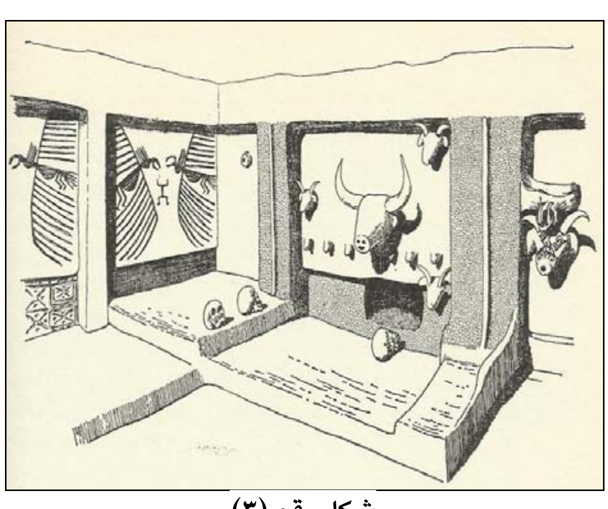
Meskell,L., The nature of the beast: curating animals and ancestors at Çatalhöyük,in: World Archaeology ,8, 2008.,p.379, plate 4.



شكل رقم (٢)

نقوش بارزة لحيوانات ونسور – من أعمدة معبد جوبيكلي تبة

–Ibid., p.376, plate 1.



شكل رقم (٣)

مقصورة للعبادة زخرفت بجماجم الثيران، ومناظر مهاجمة النسور لجثث الموتى

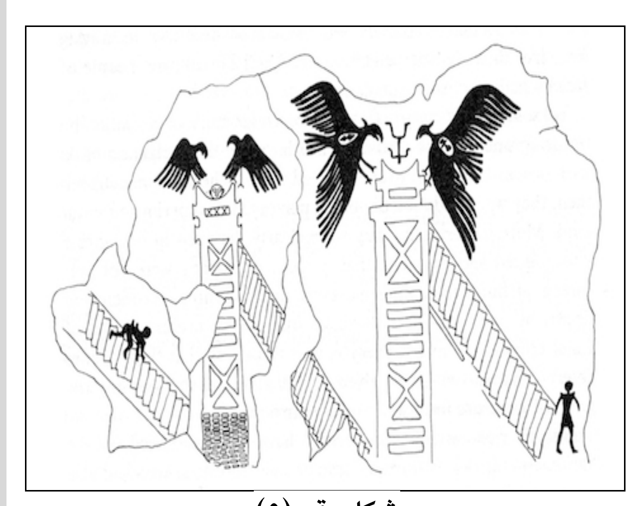
Mellaart, J., Çatal Hüyük, A Neolithic town in Anatolia, New York, 1967, p.83.



شكل رقم (٤)

إعادة تخيل لمقصورة بشاتال هيوك ونرى جمجمة الثور ومنظر النسور التي تهاجم الموتى

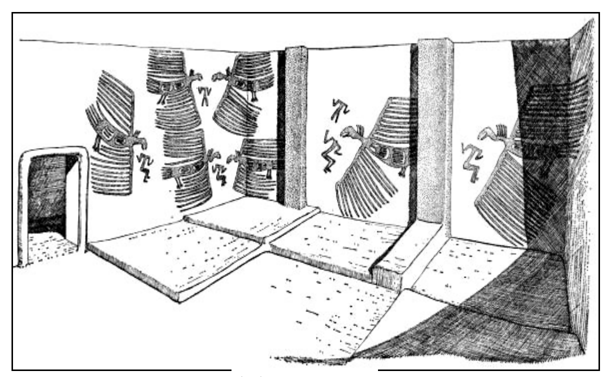
http://popular-archaeology.com/



شكل رقم (٥)

النسور تنقض على جثث الموتى أعلى الأبراج

- Cook J., Recovering the lost world, chapter 12: startum and archaeology, 2001, in: http://saturniancosmology.org/arch.php



شكل رقم (٦)

النسور تهاجم جثث الموتى – شاتال هويوك – العصر الحجري الحديث

Ruether, R.R., Goddesse and the define feminine, p.33, fig.5.



شكل رقم (٧)- قبر نسور البحر

Archaeology Course book, Religion and Ritual, Chapter 6, London, 2001, p.144, fig.6.11.

الهَوامِشُ:

(١) دوغلاس ج. ديفيس، **الوجيز في تاريخ الموت**، مترجم، دمشق، ٢٠١٤، ص٦٩.

(2) See: Alekshin, V. A. "Burial Customs as an Archaeological Source", *Current Anthropology* 24. 2, 1983, 137-149.

(٣) ميسون الحوراني، **الطقوس والمعتقدات في العصر الحجري الحديث في الشرق الأدنى القديم (حوالي ٨٥٠٠ – ٤٥٠٠ ق.م)**، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة اليرموك، ١٩٩٨، ص١٢-١٦.

(٤) رمضان عبده علي، **تاريخ الشرق الأدنى القديم وحضاراته منذ فجر التاريخ حتى مجيء الإسكندر الأكبر**، ج٢، الأناضول – بلاد الشام، القاهرة، ٢٠٠٢، ص٨.

(5) Adair,J., Certain aspects of the goddess in the Ancient near east (10,000 - 330 BCE), submitted in part fulfillment of the requirements for the degree of master of arts with specialisation in Ancient language and cultures , university of south Africa, 2008,p.7-11

(٦) رمضان عبده السيد، مرجع سابق، ص٩.

(7) Wreschner, E.E., (1980). Red Ochre and Human Evolution: A Case for Discussion. Current Anthropology 21 (5): 631-644.

(8) Godlove.I.H., The Earliest Peoples and their Colors, London, 2011,p.1ff

(9) Mellaart,J.,Çatal Hüyük, A Neolithic town in Anatolia, New York, 1967, p.79.

(10) Meskell,L., The nature of the beast: curating animals and ancestors at Çatalhöyük,in: World Archaeology ,8, 2008.,p.379, plate 4

(*) تعرف الأناضول بشبه جزيرة أسيا الصغرى، ويشبه التكوين الجيولوجي إلى تكونها من كتلة صخرية يزداد ارتفاعها كلما اتجهنا شرقًا ليتراوح ما بين ٢٥٠٠ – ٥٠٠٠ قدم، وهي تقع الى الشمال والشمال الغربي من سوريا وبلاد الرافدين في مفترق الطرق بين أسيا وأوروبا، تحيطها البحار من ثلاثة جوانب؛ البحر الأسود شمالاً والبحر المتوسط جنوبًا والأرخبيل غربًا: حسن محمد محى الدين السعدى، **تاريخ الشرق الأدنى القديم**، ج٢، (العراق – إيران – أسيا الصغرى)، الاسكندرية، ١٩٩٥، ٢٧٥.

(*) الميجاليث قوائم حجرية تنصب في أماكن معينة قد يكون المغزى منها ديني أو جنائزي ويقصد بالميجاليث هنا أعمدة معابد جوبيكلي تبة والتي كانت أشبه بقوائم حجرية متخذة شكل حرف T وكانت تحمل نقوش بارزة ومجسمة لحيوانات متنوعة وطيور جارحة كان النسر من بينها، ومن ثَمَّ ربط البعض بينها وبين طقوس الدفن السماوي التي ربما كانت تجرى مراسم طقوسها في هذا المعبد.

(11) Shah,B., Sky burial practice of Ancients from Anatolia to China (west to east),in:www,academia.edu.,

(12) Yılmaz, D., BURIAL CUSTOMS OF THE CHAMBER TOMBS IN SOUTHEAST ANATOLIA DURING THE EARLY BRONZE AGE Anadolu / Anatolia 31, 2006, pp.71-82

(١٣) نائل حنون، **عقائد ما بعد الموت في حضارة وادي الرافدين القديمة**، ط١، سوريا، ١٩٧٨، ص١٨٩.

(14) Schimidt, K., Fruhe tier – und Menschenbilder vom Gobekli Tepe, Istanbuler Mitteilungen des Deutschen Archaologischen Instituts, 49, 1999, pp.5-21

(١٥) خزعل الماجدي، **أديان ومعتقدات ما قبل التاريخ**، عمان، ١٩٩٧، ص١١٩.

(١٦) أحمد أمين سليم، **العصور الحجرية وما قبل الأسرات في مصر والشرق الأدنى القديم**، الإسكندرية، ٢٠٠٠، ص٣٣٤.

(17) Mellaart, J., Op.Cit., p.83; Kvæstad ,C.F., House Symbolism and Ancestor Cult in the Central Anatolian Neolithic, M.A. thesis in Archaeology , Department of Archaeology, History, Cultural Studies and Religion University of Bergen ,2010,p.79.

(18) Mellaart, J., Op.Cit., p.94.

(١٩) أحمد أمين سليم، المرجع السابق، ص٣٣٥، شكل رقم (٩٥).

(٢٠) عن عبادة الأسلاف، انظر: مي نديم الحايك، **عقائد الدفن وعبادة الأسلاف في بعض مواقع شرق البحر المتوسط في عصور ما قبل التاريخ**، رسالة ماجستير غير منشورة كلية الآثار جامعة القاهرة. ٢٠٠٦

(٢١) خزعل الماجدي، المرجع السابق، ص١١٩.

(22) Mckenna, T., food of the gods, New York, 2014, p.48-50; Adair ,J., Op.Cit.,p.12,fig.5

(23) Dohot, M., Gobekli Tepe's Cosmic Blueprint Revealed, in: http://mihaidohot-2.blogspot.com.eg/2013.

(24) Ruether, R.R., Goddesse and the define feminine, 1, gender and the problem of prehistory, London, (n.d), p.33, fig.5.

(25) Erdogu,B., Ritual symbolism in the early chalcolithic period of Central Anatolia, in: Journal for Interdisciplinary Research on Religion and Science, No. 5, July 2009, p.129 – 139.

(٢٦) خزعل الماجدي، المرجع السابق، ص١٠١.

(*) عُثر في العديد من دفنات شاتال هويوك التي اكتشفت في المزارات أو مقاصير العبادة على دفنات لنساء زودت ببعض الحلى ولونت جماجمهم باللون الأحمر، وعثر معها أحيانًا على بقايا عظام حيوانات وبقايا أجنحة نسور مما أكد أنها دفنات لكاهنات. وتكرر الأمر نفسه في بعض الدفنات الذكورية مما أكد على دور الرجال "ككهنة أو شامان" في أداء طقوس مرتبطة بالنسر وعبادة الأسلاف أيضًا.

(٢٧) إحسان الديك، **أسطورة النسر والبحث عن الخلود في الشعر الجاهلي**، دراسات العلوم الاجتماعية والانسانية، المجلد ٣٧، العدد ٢، ٢٠١٠، ص٣٥٨.

(28) Russell,N.,& McGowan,K.J., Dance of the Cranes : Crane symbolism at Ćatal Hüyük and beyond,in: Anyi Quity ,vol.77,no.297,2003,pp.٤٥٣.

(29) Bohnet, U., Crisis Needs Shamans, as Shamans Need Crisis?, In: NEO-LITHICS 2/13,2010, p.53-55; Winkelman, M., Shamanism in Cross-Cultural Perspective, in: Studies 31(2), 2013, pp.47-62.

(30) Solecki,R., "Predatory Bird Rituals at Zawi Chemi Shanidar," Sumer 33 (1977), pp. 42-7.

(31) Solecki, R. L., and Solecki,R.S., "The Zagros Proto-Neolithic and Cultural Developments in the Near East", in Solecki, Solecki, and Anagnostis, pp. 114-58.

(٣٢) التبت هضبة تقع في آسيا الوسطى معدل ارتفاعها يفوق ٤٠٠٠ م فوق مستوى سطح البحر وهي الأعلى من نوعها في العالم ولارتفاع تلك الهضبة يتم وصفها عادةً بأنها أقرب بقعة على الأرض من الشمس، ومن ثَمَّ أطلق على الطريق المبنى في مكانها اسم "الطريق السماوي".

(٣٣) الباحثون السوريون، **أغرب طقوس الدفن في العالم**، الفن والتراث، ٢٠١٤، ص٤.

(34) Avar, R., unlocking the mysteries of calcolithic ossuaries, Excavation: food for Vultures, in: Biblical Archaeology Review, November/December, 2011, p.49.

(35) Avira, R., unlocking the mysteries of chalcolithic ossuaries, Excavation: food for vultures, in: Biblical Archaeology Review, November / December, 2011, pp.40-49.

(*) وربما فسرت مثل تلك الأعمال المناظر المحيرة التي جاءت على جدران مقاصير شاتال هويوك حيث مهاجمة النسور لرجل ممسكًا عصا في يده، وربما فسرت أيضًا دور الرقص الذي كان يمارسه الشامان والكاهنات بارتدائهم أجنحة النسور.

(36) http://wn.com/Tibetan_Odyssey__Sky_Burial_Site_73

(37) Archaeology Course book, Religion and Ritual, Chapter 6, London, 2001, p.١٤٤, fig.6.11.

(38) See: Tweg, S., Sky burial, China, 1999, p.1ff; Rinpoche,S., The Tibetan Book of Living and Dying, Rider, London, 1995

ISSN: 2090 – 0449 Online
UIF Universal Impact Factor, [0.1101].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [0.88].

الواقع الصحي خلال الثورة التحريرية في الولاية الخامسة
المنطقة السادسة نموذجًا

ليلى نـهاري

أستاذة التعليم الثانوي

أستاذة في الديوان الوطني للتكوين عن بعد

سعيدة – الجمهورية الجزائرية

مُلَخّصْ

تميز القطاع الصحي منذ اندلاع الثورة في ١ نوفمبر ١٩٥٤ بنقص فادح أو بالأحرى انعدام تام للتأطير، إذ أن الإطارات الطبية كان تكوينها في معظمه يتصف بالبدائية من حيث الوسائل وحتى وصفات العلاج، والجدير بالذكر؛ أن المرحلة الأولى من عمر الثورة الجزائرية (١٩٥٤-١٩٥٦) عانت الكثير في هذا الميدان، إذ يعتبر تاريخ (١٩ مايو ١٩٥٦) المنعطف الحاسم، فالإضراب الذي شنه الطلبة الجزائريون بهذا التاريخ أعطى دفعة قوية وتحسن ملحوظ، بتخليهم عن مقاعد الدراسة والتحاق العديد من طلبة الطب والصيدلة بالثورة التحريرية. انطلاقًا من طبيعة الموضوع اعتمدنا على المنهج التاريخي الوصفي الذي يهتم بوصف الأحداث وتسلسلها كرونولوجيا في الزمان والمكان، باعتبار أن المجال الصحة خلال الثورة ارتبط بالجانب العسكري وذلك ابتغاء للوصول إلى الحقيقة التاريخية بكل موضوعية، مشيرين إلى الشخصيات الفاعلة فيه والمتفاعلة معه؛ وكذا المنهج التحليلي النقدي؛ ومن خلال ذلك وصلنا لمجموعة استنتاجات منها أن النواة الأولى للميدان الصحي خلال الثورة التحريرية قد تشكلت ابتداء من إضراب الطلبة، والذي سمح للثورة أن تُدعم بأصحاب الاختصاص ويجدر الذكر؛ أن مهمتهم لم تقتصر على الإشراف على الجرحى من المجاهدين، بل تعداه إلى تقديم المساعدة لسكان القرى والمداشر والأرياف، ما خلق تقارب وعزز أواصر الأخوة رجع بفائدة كبرى للثورة الجزائرية إذ ازداد التحام الشعب بها؛ ونظرًا للظروف الصعبة القائمة آنذاك استحدثت عدة طرق للتماشي معها منها المستشفيات المتنقلة، ضف إلى تأسيس قيادة الثورة مدارس لتكوين الممرضين تلبية لمتطلبات الحرب، إذ تولى المهمة بالمنطقة السادسة "يوسف دامرجي"، حيث تمكن بفضل علاقاته مع الأطباء الفرنسيين تموين القطاع الصحي في المنطقة، ولا ننسى اسهامات المرأة إذ برزت عدة أسماء تحملن المسؤولية شأنهم شأن الرجال مثل المجاهدة "مريم مخطاري".

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث: ١٠ ديسمبر ٢٠١٦

تاريخ قبـول النشـر: ١٦ مــارس ٢٠١٧

كلمات مفتاحية:

الثورة التحريرية، جيش التحرير الوطني، المنشآت الصحية، المراكز الاستشفائية

معرِّف الوثيقة الرقمي: DOI 10.12816/0047301

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

ليلى نهاري. "الواقع الصحي خلال الثورة التحريرية في الولاية الخامسة: المنطقة السادسة نموذجًا".- دورية كان التاريخية.- السنة العاشرة- العدد الثامن والثلاثين؛ ديسمبر ٢٠١٧. ص٨١ – ٨٨.

مُقَدِّمَةُ

تميزت ثورة نوفمبر ١٩٥٤ من خلال مبادئها وتنظيمها وتركيبتها البشرية عن باقي الثورات العالمية في القرن العشرين من حيث البعد الإنساني التحرري، كما أن هاته الثورة مكنت الشعب الجزائري من الانتفاض ضد هيمنة استعمارية دامت أكثر من قرن وربع، ولقد اتخذت الثورة كأسباب للنجاح الاهتمام بالعنصر البشري الذي يعتبر وقود الثورة ومحركها وما خلق المصالح الصحية إلا سببًا حيويًا من أسباب النجاح، ولهذا اهتمت بهذا الميدان الحيوي لتوفير وسائل لعلاج أفراد جيش التحرير الوطني، بالرغم من ظروف الحرب الصعبة والمراقبة المفروضة من طرف فرنسا على تحركات المجاهدين والمتعاونين معهم.

إن الجانب الصحي اكتسى قدرًا كبيرًا من الأهمية، وقد حاولنا من خلال هذه الدراسة التعرف على نشاط جبهة التحرير الوطني في هذا الميدان، مع الارتكاز على الولاية الخامسة

التاريخية باعتبارها أكبر ولايات الجزائر، كما نحاول الإجابة على أسئلة فرضت نفسها على الموضوع وهي كالتالي: كيف تمكنت جبهة التحرير من إرساء قواعد المنظومة الصحية الفتية للاستجابة لمتطلبات الحرب المفروضة على الشعب الجزائري؟ ما هي طبيعة العمل والنشاطات التي كانت تقوم بها المصالح الصحية في ظل حركية المقاومة المسلحة؟ كيف تمكنت المنطقة السادسة من تسيير هذا المجال أمام ضغوطات السلطة الفرنسية؟

١-تحديد الإطار الجغرافي للولاية الخامسة

تحتل الولاية الخامسة موقعا استراتيجيا نتيجة للخصائص الطبيعية التي وفرت لها شروطا مناسبة ومساعدة على تطوير العمل المسلح، حيث أنها امتازت بسلسلة جبلية تمتد من جبال (القصور، عمور، تسالة، تلمسان، الظهرة والونشريس)[١]، فضلاً عن ذلك؛ فإن لها حدود إقليمية هامة مما زادت من أهميتها وحيويتها، ذلك أنها جعلتها تطل على منافذ كثيرة وهي: الحدود الموريتانية، والمغربية والصحراوية والمالية، وكذا النيجيرية، إلى جانب إطلالها على إسبانيا، وقد ساعدها ذلك على دخول وعبور الأسلحة وتنقل جيش التحرير، وللإشارة فإن الولاية الخامسة تمثل ثلث مساحة الجزائر، وتشمل ثمانية مناطق[٢]، وتغطي المناطق التالية: (وهران، تلمسان، مستغانم، ندرومة، مغنية، معسكر، تيارت، آفلو، سعيدة، البيض، بشار، تندوف).[٣]

٢-مراحل التنظيم الصحي في الولاية الخامسة

مر التنظيم الصحي للثورة الجزائرية بمرحلتين كبيرتين أثناء تطوره، تمتد المرحلة الأولى من ١٩٥٤حتى ١٩٥٦، والثانية من ١٩٥٦ إلى سنة ١٩٦٢.

٢/١-المرحلة الأولى: (١٩٥٤-١٩٥٦)

تميزت هذه المرحلة بنقص كبير في الوسائل البشرية والمادية، حيث كانت كل منطقة أو ناحية تتدبر أحوالها على حساب الموجود المحلي بالاستنجاد ببعض الأطباء الجزائريين الذين لم يكونوا دائما في الخدمة نظرًا للحراسة التي ضربت عليهم من طرف العدو، كما تميزت بانعدام التنسيق بين مختلف الوحدات القتالية في الولاية نفسها، والشيء نفسه نجده على مستوى الوحدات الحدودية إلا أنه بدأت هنالك بوادر لتنظيم جديد.[٤]

لقد تزامنت هذه الفترة من الثورة مع ظهور إصلاحات فرنسية جاءت لقطع الطريق أمام جيش وجبهة التحرير الوطني منها: إصلاحات منديس فرانس، إصلاحات إدغارفور، وإصلاحات جاك سوستيل...، وغيرها كثير والتي كانت كلها تصب في قالب واحد ألا وهو جلب المواطنين الجزائريين نحو المشروع الاستعماري وإبعادهم عن الثورة الفتية، وتتمثل هذه الإصلاحات في (مصلحة التعليم القاعدي الموجه لكل الأطفال غير المتعلمين، مصلحة تعليم الكبار، مصلحة النشاطات الطبية، مصلحة النشاطات الاقتصادية والاجتماعية)[٥]، فكان لابد على جيش التحرير الوطني من إيجاد مخرج يمكنه من كسب ثقة الشعب خاصة وأن حربا مريرة سوف تدور رحاها، وأصبح من الضروري مساعدة هذا الشعب لجلبه لصالح الثورة وهو الوسيلة الأمثل لنيل الاستقلال، وكان الميدان الصحي من أهم طرق التغلغل داخل المجتمع.

٢/٢-المرحلة الثانية:(١٩٥٦-١٩٦٢)

أعيد تنظيم جيش التحرير الوطني ابتداء من سنة ١٩٥٦ على كل المستويات وفي كل المجالات خاصة بعد مؤتمر الصومام الذي يعتبر في حد ذاته منعرجا حاسما في تنظيم جيش التحرير الوطني، حيث اعتمدت رتب جديدة أصبحت تحدد المسؤوليات، وانتهج تقسيم إداري وحربي جديد[٦]، واعتبارًا من هاته السنة كونت كل ولاية مصالح صحية حقيقية كان هدفها ليس تقديم الإسعافات الأولية لضحايا الحرب الذين كانوا يزدادون يوما بعد يوم فقط، بل أيضًا تقديم إسعافات طويلة الأمد للمجروحين الذين هربوا من قبضة العمليات العسكرية الفرنسية.[٧] كان من الطبيعي أن تبحث الثورة من خلال تجنيد الطلبة عن عنصر الشباب والحيوية وخاصة عن الإطار المثقف والمتعلم،الذي يعطي للثورة دفعًا جديدًا وروحًا تجعل منه أكثر فعالية لمواجهة مشاكله التي أصبحت أكبر مع مرور أيام الحرب المريرة.

ففي (١٩ مايو ١٩٥٦) دعي الاتحاد العام للطلبة المسلمين الجزائريين إلى إضراب عام عن الدروس والتحق الطلبة بصفوف جيش وجبهة التحرير الوطني[٨]، وبالفعل وجد هذا النداء صدى كبير في وسط الطلبة فالتحق مئات الطلبة بالجبال حتى يساهموا بكل الأشكال في صفوف جيش التحرير الوطني، أما بالنسبة للأطباء فإن نداء (١٩ مايو) قوبل بالترحيب، ففي الناحية الغربية للجزائر التحق أطباء وطلبة الطب بصفوف الثورة، فمنهم من بقي في الحدود الغربية، والبعض الآخر ذهب إلى جبال الغرب الجزائري، أما من كان لديهم عيادات خاصة جزائريين كانوا أو أوروبيين(مَنْ اختاروا مساعدة الثورة) بقوا في عياداتهم وأدوا أدوارًا عظيمة، مساعدة لجيش التحرير وتدعيم الوحدات الصحية في الجبال.

أصبح اتحاد الطلبة المسلمين الجزائريين ليس مجرد تنظيم نقابي فقط، بل منظمة ثورية ساهمت في جلب الطلبة في التخصصات الطبية للعمل تحت مظلة جيش التحرير الوطني، حيث يقول "خميستي" رئيس الاتحاد مخاطبًا في مؤتمر انعقد في باريس (فرنسا) أيام (٢٤-٣٠مارس): "كيف ندرس وسلاسل العبودية الاستعمارية تكبل أرجلنا"[٩]، وتم فيه اقتراح

تكوين ممرضين وممرضات من بين طلبة الطب والصيدلة لتمكين جيش التحرير من تدعيم صفوفه.(١٠)

كما ساهم مؤتمر الصومام الذي انعقد بالجزائر في (٢٠ أوت ١٩٥٦) بعد اضراب الطلبة عن الدراسة بالجامعات الفرنسية بما فيها جامعة الجزائر، في إرساء القواعد الأولى لتنظيم صحي(١١)، كما تم تنظيم العلاوات حسب الترتيب العسكري، بحيث أصبح المرضون والممرضات برتبة عريف مرتباتهم (١٥٠٠ فرنك شهريًا)، والأطباء المساعدون برتبة ملازم مرتباتهم (٢٥٠٠ فرنك شهريًا)، أما الأطباء فهم برتبة الضابط الأول مرتباتهم (٣٥٠٠ فرنك شهريًا) كما أخذ الجيش على عاتقه اللباس والغذاء لكل جندي وأصبح على هذا الأخير اقتناء لوازم النظافة الجسمية إجباريًا.(١٢)

٣-التنظيم الصحي لجيش التحرير الوطني

١/٣-التركيبة البشرية وتوزيع المسؤوليات

على العموم في كل قسم مركز علاج يسمى أيضًا مستشفى أو وحدة تمريض، يسيرها ممرض القسم برتبة عريف بمساعدة ممرضين، هؤلاء يتم اختيارهم من بين المجاهدين الذين عملوا قبل التحاقهم في سلك الصحة من أطباء وطلبة في الطب وممرضين وحتى من بين طلبة الثانويات الذين يتم تكوينهم تكوينًا مكثفًا(١٣)، وكان هذا المسؤول الأول عن القسم هو الوحيد الذي له الحق في أخذ القرارات المتعلقة بالجانب الصحي، على العكس من الناحية التنظيمية فإن الكل يخضعون للقوانين العامة المعمول بها، ويفتشه بانتظام المسؤول الصحي الأعلى رتبة مباشرة.(١٤)

كان هذا المسؤول الصحي للقسم هو همزة الوصل رغم تواضع رتبته، نظرا للمهام الجمة التي كان يقوم بها وكان يقدم تقارير شهرية على مختلف نشاطات قسمه بثلاث نسخ (نسخة تذهب إلى مسؤول القسم، وأخرى إلى المسؤول الصحي بالناحية وهذا الأخير وبعد أن يتحصل على جميع التقارير الصحية لمختلف القسمات التابعة له إقليميًا، يحوصله في شكل تقرير نهائي يقدم إلى المسؤول الولائي للصحة (مسؤول المقاطعة) -تقارير مختلف المناطق تكون محل تقرير نهائي يقدم كل ثلاثة أشهر- يعده المسؤول الولائي للصحة إلى لجنة الولاية.(١٥)

(١/٣) ١-الأطباء:

ابتداءً من سنة ١٩٥٦ وحتى سنة ١٩٥٨ التحق دفعة من الأطباء وكثير من طلبة الطب من أجل تنظيم المصالح الصحية على مستوى مختلف الولايات، بعد تكوين قصير في الجراحة الحربية في مستشفى "لوستو" بوجدة (المغرب)، فكل طبيب وممرض كان على علم بأن يكون مستعد للالتحاق بمنطقة من مناطق الولاية في أي وقت متى تلقى الأمر بذلك، وهنا برز دور الطلبة الذين كانوا يدرسون في الخارج خاصة في فرنسا -كان معظمهم من جامعة "مونبولييه"- في تمكين جيش التحرير الوطني على مستوى الداخل من تركيبة بشرية متمكنة من آخر تقنيات العمل الطبي، كانت سندا كبيرا لما بعد ١٩٥٨ -تاريخ إغلاق الحدود الغربية-، وانقطاع معظم المساعدات الحدودية والتنقلات التي كانت تمكن من تحويل المجروحين والمرضى المستعصية أحوالهم إلى المراكز الصحية في المغرب الأقصى(١٦).

أما على المستوى الداخلي فقد ساهم أطباء الداخل مساهمة جبارة إما بالتحاقهم بجيش التحرير، أو من خلال المساعدة في عيادتهم الخاصة وعلى مستوى المراكز الصحية التي كان البعض يعمل بها، فنلاحظ أن هؤلاء الأطباء المستقرين في عياداتهم طيلة فترة حرب التحرير كانوا ذا منفعة كبيرة، بحيث أنهم كانوا يحصلون على ما يريدون من أدوية وأدوات طبية بسهولة رغم بعدهم عن صعوبات الوحدات القتالية، إلا أنهم كانوا أقرب إلى مصادر التموين (المستشفيات الاستعمارية، الصيدليات) مكنهم من القيام بمهامهم على أحسن وجه، في وقت كان وصول المواد الصيدلانية وأدوات التمريض إلى الجبال تكتنفه صعوبات جمة نظرا للحصار المفروض على من كان يتكفل بعمليات الاتصال.

(١/٣) ٢-المرشدات والممرضين:

تفطنت الإدارة الاستعمارية الفرنسية لإنشاء فرق إدارية متخصصة (SAS) التي كان جل نشاطها يعتمد على الدعاية والوشاية، والتي أضرت كثيرًا بصفوف جيش التحرير الوطني، الذي فقد عناصر شابة أثناء الاشتباكات والمعارك مما جعل قيادة جبهة التحرير الوطني تفكر في سبل إنشاء خلايا للتجنيد والتربص(١٧)، فالتحقت عناصر أخرى سميت بنفس الأسماء التي كان يحملها من استشهد من قبل، أما فيما يخص الجنديات المتربصات فكان دورهن يقتصر على توعية نساء المنطقة وإعطائهن معلومات حول التنظيم وتربية الأجيال(١٨)، وكان من واجب المصالح الصحية لجيش وجبهة التحرير الوطني أن تقوم على مساعدة المواطنين في المناطق المحرمة الذين كان الجوع والمرض يهددهم يوميا، وذلك من خلال تقديم المساعدة الطبية لهم وفي نفس الوقت إعطائهم تربية صحية -هذا العمل كانت تقوم به المرشدات-(١٩)، وبذلك تمكنت جبهة التحرير الوطني من قطع الطريق أمام المصالح الصحية الفرنسية التي حاولت استجلاب المواطن لصالح المستعمر وضد ثورته.

وكان المرشدات يقسمن إلى أفواج ويزود كل فوج بأدوية، وتتمثل مهمة كل فوج في التقيح ضد الأمراض (التيفوئيد، الجدري، السل...)، ومن جهة أخرى التربية الصحية والكشف عن الأمراض داخل البيوت -خاصة أمام الطابع المنغلق للمجتمع الجزائري-، ويجدر الإشارة إلى أن بعض المرضين

والممرضات كانوا قد درسوا في معاهد كوهران "بن زعامة صابر" أو في مدن أخرى والتحقوا بالجبال، أما الآخرين فقد مروا بالتكوين إما في الحدود والتحقوا بالوحدات القتالية، أو بالداخل وأصبح يباشر مهامه في الميدان، ويقول في هذا الصدد البروفيسور "زيغود أمين"[*]: (في كل منطقة كان هناك تكوين سريع يسهر عليه أطباء جيش التحرير الوطني، الذين يقومون باختيار وتكوين مرضين من بين الجنود).[٢٠]

القاعدة نفسها التي سادت بين الأطباء، انطبقت على المرضين فقد كان منهم من التحق بالجبال، كما كان هناك مرضين من الذين يعملون في المستشفيات الفرنسية والذين كانوا يقومون بالإسعاف على مستوى المراكز التي أنشأت في البيوت، ولقد أدى تطور الأمور العسكرية إلى الحاجة الملحة للمسعفين وبذلك تطور التكوين في أوساط الجنود وأصبح الجميع ملما بأبجديات التمريض الأولية، ساعد في ذلك الحاجة الملحة لتجاوز أزمات الحرب المريرة –وهذا في حد ذاته مؤشر على انتهاج المصالح الطبية نهج الجيوش المتطورة في الارتقاء إلى فكرة الجندي الكامل–.

٤-المنشآت الصحية

كانت المنشآت الإستشفائية توضع خارج المدينة في مكان محمي قدر الإمكان، بالقرب من منبع مائي في وسط الغابة وفي بعض المرات في الدوار، يكون سكانه مضمونين من حيث عدم تعاملهم مع العدو، تتكون المصحة من عدة مقرات "قرابى" حيث يكون الأكبر مجهز لصالح المجروحين والمرضى الذين يوضعون على أسرة من الخشب أو على الأرض مباشرة فوق حصائر، ونادرًا على الفراش الكثيف.[٢١]

٥-النشاطات الصحية

كان الهدف الأساسي لإنشاء هذه المصالح المختلفة هو السهر على المحافظة على صحة الجندي والمواطن، فتعددت النشاطات حسب المكان والحاجة وتمثلت في:

١/٥- الطب الحربي:

كل مجاهد يبقى دوما عرضة لشتى الجروح خاصة تلك التي تسببها الأسلحة النارية والإصابات المختلفة، وكان تواجد مصلحة التمريض قريبة بإمكانها توفير الرعاية اللازمة، أصبحت من الضروريات الأولية والمهمة وفي هذا جاء قانون الجريح الذي ينص في مادته الأولى: (أن كل مجروح يجب أن يعالجه إخوانه المجاهدين بأنفسهم، وأنه يمكن إذا استحال علاجه نقله إلى الجزائر أو إلى الخارج/ يجب أن يعالج بسرعة ليلتحق بقسمه/ لكل جريح الحق في ماهية قدرها٥٠٠ فرنك في الأسبوع)[٢٢]، وبهذا القانون الصادر عن الولاية الخامسة بأن أصبحت مسؤولية جيش التحرير الوطني كاملة في الاهتمام بكل مجروح من أعضاء جيش التحرير أو المنظمة المدنية لجبهة التحرير الوطني.

٢/٥- الطب العادي:

إن الجندي لم يكن معرض فقط لما تخلفه المواجهات الحربية، بل أيضا هو عرضة لمختلف الأمراض كأي شخص، وعليه يجب أن يجد مصلحة صحية قادرة على إعطائه الرعاية اللازمة ضد مختلف الأمراض، ونظرا للحالة الصحية المزرية لكل الجزائريين فإن هاته الأمراض كانت متفشية بكثرة وخاصة السعال المزمن، فقد كان بكثرة في الوحدات القتالية ومن العوامل التي كانت تزيد من تفشي الأمراض هي: (قلة الأكل/ التغيرات المناخية/العطش/ الراحة والنوم غير الكافيين)[٢٣]، فكل هذه العوامل تنهك الجسد وتجعله عرضة لمختلف الأسقام.

٣/٥- الطب الوقائي:

إن العيش في مجموعات يعرض إلى مختلف الأمراض المعدية والطفيلية، فكان لابد على المصالح الصحية السهر على ضمان النظافة في أوساط الجنود وأن تحترم النظافة الفردية والجماعية من طرف الجميع، ولذلك اتخذت كل الإجراءات في هذا الميدان منه (تطهير المياه الصالحة للشرب، عمليات التلقيح)، ولذلك فإن أهم أسس العمل الوقائي هي تطبيق تدابير حفظ الصحة من خلال تعليمات صارمة إلى كل الهياكل الصحية بالمحافظة على النظافة داخل مراكز العلاج وفي أماكن راحة الجنود، ففي وثيقة سلمت إلى الهياكل الصحية تنص على أنه لا يجب فقط معرفة هاته التدابير بل المهم هو تطبيقها، حيث تقول: (...من جهة أخرى إن الأمراض التي تصيبنا ليست نتيجة جهلنا بها أو بكيفية اتقاء الإصابة منها، بل لعدم إتباع ما نعرفه من معلومات فكانت التعليمات الصارمة في وجوب اهتمام كل جندي بنظافة جسمه وثيابه من كل شيء قد يعلق به من حشرات، والحرص على تنظيف الأيدي قبل كل وجبة طعام وحلق اللحية، وكان التدخين عادة مقيتة يعاقب عليها في بعض الولايات عقابا شديدا غير أننا نلاحظ أنه لم يكن جد ممنوع في الولاية الخامسة).[٢٤]

٦- العمل الفعلي للوحدات الصحية

١/٦- أثناء القتال:

يعمل المرض على إيقاف النزيف عن طريق ربط العضو المجروح، ثم يغطى الجرح ويعطى للمجاهد المجروح أدوية مضادة للنزيف مع إعطائه إبرة للمصل المضاد لمرضى التيتانوس، ويسهر على نقل مريضه على فوق البغال أو على محمل[٢٥]، ثم يجب على المرض أن ينشئ مذكرة إجلاء يكتب عليها الأدوية التي أعطاها للجريح وينقله على وجه السرعة إلى مركز الاستشفاء للناحية أو للمنطقة ثم إلى مستشفى "لوستو"

بـ "وجدة" –المغرب–، لما تكون حالته تستدعي ذلك مثل (الذين قطعت أطرافهم، الجروح الواسعة جدا، النزيف الكثيف...)[٢٦]، أما الحالات الخفيفة فتبقى على مستوى المراكز الصحية تحت نظر أطباء وممرضي الداخل.

٦/٢- في المراكز الاستشفائية:

(٦/٢) ١- الأضرار المتعلقة بالكسور:

أهمها ما تسببه الأسلحة النارية وشظايا القنابل التي ينجم عنها جروح وكسور وإصابات على مستوى البطن تتسبب في كثير من الأحيان في تمزيق الأعضاء الداخلية والمسالك الدموية الكبرى، كان المجروح على مستوى المصحات يلقى الاهتمام اللازم، لكن الفريق المعالج لا يمتلك الوسائل اللازمة للعلاج الكامل، خاصةً أنه لم يكن بالإمكان تخدير المجروحين تخديرًا عامًا، لذلك فقد عمدت هاته الفرق الصحية إلى العمل تحت التخدير الموضعي وكثيرًا هي العمليات التي انتزعت من خلالها الرصاص والشظايا وإخاطة الجروح وقطع الأطراف...الخ[٢٧].

(٦/٢) ٢- الحروق:

تنتج الحروق عن الانفجارات العنيفة وقنابل النابالم وإذا كانت الحروق الخفيفة وغير الممتدة في الجسم سهلة العلاج، فإن الحروق الكبيرة كانت صعبة من حيث علاجها، والمضاعفات التي تنجم عنها خاصة التعفن، وذلك لصعوبة التعقيم الجيد للمعدات.[٢٨]

٦/٣- الانعكاسات السيكولوجية والنفسية:

ما يميز كل الحروب الاضطرابات النفسية المتعددة، التي كانت تصيب أيضا بعض المجاهدين، فيقول أحد المجاهدين :"كان بين إخواننا من شدة تعامله مع الموت يوميا لا يخافها فأصبح بدون قلب وأصبح لا يبالي بمشاهدة الجثث المقطعة، على عكس البعض الآخر كان ذا شخصية مرهفة، رأيناهم يبكون حين نكون محاصرين من طرف العدو لا يشاركون في الدفاع ويختبئون، وبذلك يكونون عرضة للتصفية أو يلقى عليم القبض ولا يستطيعون المناورة للابتعاد عن الحصار أو التمشيط[٢٩]، هاته الاختلالات العقلية والنفسية المعروفة تدخل في إطار "الصدمات المتأتية من خلال الضغط النفسي"، وبطبيعة الحال لم يكن هناك أطباء نفسانيون في وحدات العلاج لجيش التحرير الوطني، ولمعالجته يتم تسليمه لعائلته للسهر عليه.

٧- إشكالية الحصول على الأدوية

٧/١- من الداخل:

أثناء السنوات الأولى للحرب كان الحصول على الأدوية سهلا نوعا ما، بعد ذلك بدأت السنوات العجاف بعد ظهور قوانين تنظيمية لبيع الأدوية ونقلها وتوزيعها، وقننت أيضا حمل المعدات الجراحية[٣٠]، فأصدرت الحكومة الفرنسية القانون رقم ٢٨ الصادر في (٢٨ أكتوبر١٩٥٥) الذي ينص على منع استيراد مواد كيماوية وكحول الجراحين دون ترخيص من السلطات المخولة قانونًا، وعلى كل المخابر والصيدليات أن يصرحوا شهريًا بكميات المواد الصيدلانية التي يخزنونها، وكذا قائمة اسمية للمشترين وكمية البيع كما أعطت السلطات العسكرية الاستعمارية مجموعة من التعليمات لمجموعاتها بالحرص على عدم تصدير الأدوية للجبال.

ثم صدرت قوانين بتاريخ (٢٣ مايو ١٩٦٠) زادت من ضبط أمور نقل وبيع المواد الصيدلانية مع ذكر الأدوية المنوعة، كان الأطباء الجزائريين والفرنسيين المشكوك فيهم وكل الصيادلة محل حراسة مشددة، لكن رغم ذلك تمكنت جبهة التحرير الوطني من الحصول على الأدوية وذلك عن طريق التجنيد الواسع للجميع، فكانت الوصفات الطبية مملوءة بكل ما يلزم للعمل الصحي في الجبال تقدم للمواطنين، وفي كثير من الأحيان ما يدفع تكاليفها الأطباء أنفسهم، ليأتي بعد ذلك المكلف بالاتصال الذي كانت مهمته نقل هاته المواد إلى الوحدات القتالية والمراكز الصحية.[٣١]

٧/٢- من خارج الحدود:

لم يكن مشكل الأدوية في الحدود مشكل كم أو نوع، قدر ما أصبح مشكل نقله إلى داخل الولاية خاصة بعد الانتهاء من بناء خطا شال وموريس، حيث أنه من خلال الهلال الأحمر الجزائري أصبح جزء كبير من الاحتياجات مغطى من طرف هيئات عالمية ودول صديقة.[٣٢]

٨-تنظيم الجانب الصحي للثورة في المنطقة السادسة

أَوْلَتْ القيَّادة بالمنطقة السادسة اهتمامًا كبيرًا بهذا الجانب، فقد سيَّره أكبر أطباء تلك الفترة، وهو "يوسف دامرجي"[*]، ونائبه "عيساني"[**] المدعو "سي خالد"[٣٣] والذي انشأ أول مستشفى طبي بتافرنت سنة (١٩٥٦)[٣٤]، ثم أوجد عدَّة مراكز أخرى بالجبال منها ما هو موجود بالحساسنة، وجبل حرشون بسيدي يوسف، وجبل كسال، وأولاد زياد بعين المانعة[٣٥]. ومن بين المتربِّصات الأوائل "مريم مخطاري" المدعوَّة "ثورية" و"كسري خيرة" المدعوَّة "نصيرة"[***] التي التحقت رفقة زميلاتها (ليلى طيِّب، بخو صليحة، بلعوني عويشة) بمركز بمنطقة السخونة، أين تلقَّت تربُّصها كممرضة، ثم أصبحت تشارك في لمعارك لتقديم الإسعافات الأولية[٣٦]، كما لا يفوتنا أن نذكر الدَّور الكبير الذي لعبته "زوبيدة ولد قابلية" المدعوَّة "صليحة" في هذا المجال رفقة "يوسف دامرجي" والفضل راجع إلى تخصص كل منهما في هذا الميدان[٣٧] وقد أَوْكَلَ لها "يوسف دامرجي" مهمَّة التَّمريض في "بني شقران" بمعسكر.[٣٨]

أشرف "يوسف دامرجي" على تكوين المرضين، إذْ تخرج على يده حوالي سبع عشرة (١٧) ممرِّضة إضافة إلى عدد أخر من المرضين، وفور انتهائهم يوزَّعون على مختلف المراكز الطبية[٣٩]، أين يتلقَّوْن تدريبات عسكرية مثل كيفية استعمال المسدَّسات، وطريقة تنظيفها وتفكيكها وفنون الرَّماية...[٤٠] كما كانت تقدم الرعاية الطبية للسُّكان المدنيين في معظم القرى، حيث كان يزورهم أكثر من مئة (١٠٠) شخص يومياً بسبب الأمراض التي كانت منتشرة (السُّل، القرع، التيفيس، السيفيليس....)[٤١] إضافة إلى ذلك كانت المرِّضات تَقُمْنَ بتعليم النِّساء كيفية الاعتناء بصحَّة أطفالهن وبنظافة الجسم والشَّعر وأواني الأكل، وكذلك الخياطة.[٤٢]

أدَّى تطور الأوضاع الداخلية إلى استحداث نوع أخر من المراكز والمستشفيات، فبالإضافة إلى المستشفيات المستقرة (عين فارس، غابة فرقوق، جبل كسال)،[٤٣] كانت هناك أخرى متنقلة، الهدف منها تفويت الفرصة على العدُو في الاستيلاء على الأدوية والأجهزة الطِّبيَّة عند اقتحامه المراكز، وكانت أصعب مهمَّة هي نقل المرضى وخاصةً إذا كانت حالتهم خطيرة وما يزيد من صعوبتها هو اشتباكهم مع العدو مثلما حدث بجبال اللَّبَّة بالحساسنة عندما توقفت كتيبة للاستراحة بعد المشي الطويل فباغتتهم القوات الفرنسية بالهجوم[٤٤]، ولمحاولة تحطيم النَّواة الأولى للصِّحة، لجأت السُّلطات الفرنسيَّة إلى فرض مراقبة شديدة على الحدود الجزائرية، الهدف منها منْع السِّلع ذات الطَّابع الطِّبي، وحجزها حتى لا تصل إلى أيدي المجاهدين .

تمثَّلت مصادر تموين القطاع الصحي في طريقتين هما:

- اقتناء الأدوية بالاعتماد على الشعب في المدن والقرى[٤٥]، كما قام "يوسف دامرجي" بعقد علاقات مع أطبَّاء فرنسيين منهم "كلود ستيفانيني"[*] والدكتور "كوبيو" (هو جزائري يدعى "جباري") وكان الدكتور "ستيفانيني" يقوم بمداواة المرضى مجانا ويعطيهم الدواء بدون مقابل، كما كان يأخذ الدواء إلى جبل "ثالمست" لإعطائه للمجاهدين وكلما يحتاجونه في الميدان الطبي[٤٦]؛ ودامت هذه الطريقة طيلة الكفاح المسلَّح.
- جلب الدواء من القاعدة الغربية "المغرب الأقصى"، ولكنَّها محدودة وكانت وسائل نقلها عبارة عن الدواب، فكانت تُوضع في صناديق صغيرة وتُلَفُّ بشكل جيد تفادياً لتلفها وضياعها شملت هذه الأدويَّة مراهم وأقراص على مختلف أنواعها وكذلك السَّوائل الخاصَّة بالعلاج وتنظيف الجراحة المضادَّة للميكروبات، إضافة إلى الحقن وأنابيب الدَّم ووسائل العمليَّات الجراحية من أمقاص وأمواس وإبر خيَّاطة الجلد والخيط، كما لم تُستثنى الأدويَّة الخاصة بأمراض أخرى كالسُّم والسُّل وأمراض العينين والصَّدر...إلخ.[٤٧]

خلاصة

وفي الأخير يمكن لنا القول أن؛ التنظيم الصحي في الجزائر أثناء الثورة كان له وجهان متكاملان، الوجه الداخلي على مستوى الوحدات القتالية والمجتمع الجزائري في المداشر والقرى والمناطق المحرمة، وكانت هته المصالح الصحية تتميز بالعمل الميداني المليء بالمخاطر حيث أن معظم من عمل بها انتهى بين أسير أو شهيد، أما الوجه الخارجي للتنظيم الصحي فقد مكن من استقبال الجرحى والمرضى من الداخل ومن تكوين العنصر الفعال من ممتهني التمريض، وذلك قصد إرسالهم إلى الداخل للمساهمة في مساعدة إخوانهم المجاهدين.

مصطلحات الدراسة:

المصطلح	التعريف
قرابى:	**هم أكواخ في الأرياف (مصطلح باللغة المحلية الجزائرية).**
قَسَمَاتْ:	هي منطقة صغيرة ليسهل التحكم فيها، حيث قسم المجاهدون أثناء الثورة الجزائر إلى ولايات، وكل ولاية إلى مناطق، وكل منطقة إلى قسمات، وكل قسمة إلى نواحي.
الفرق الإدارية المتخصصة (SAS):	هي مكاتب خاصة أقامتها السلطات الفرنسية في الأرياف لشن حرب نفسية على السكان لضمان عدم دعمهم للثورة.

دراسات

الهَوامِشُ:

(1) Gentari (Mohamed), Organisation politique administrative et militaire de la révolution Algérienne (1954-1962), OPU, Alger, 1994, p. 199.

(٢) العقيد لطفي، **"الثورة في ولاية وهران أطوارها العظيمة وإنجازاتها الخالدة"**، جريدة المجاهد، العدد: ٤١، ١ماي١٩٥٩، ص٦.

(3) Gentari (Mohamed), Ibid.

(4) Ministère de la santé, séminaire sur le développement d'un système de santé (L'expérience algérienne), le (7-8) avril 1983, Alger: 115.

(٥) مجاود (محمد)، **"المراكز الاجتماعية التربوية: الوظيفة والأهداف إبان حرب استقلال الجزائر(١٩٥٥-١٩٦٢)"**، المجلة التاريخية المغاربية، السنة الثالثة والثلاثون، العدد: ١٢٢، مارس ٢٠٠٦، منشورات مؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات، تونس، ص: ٦١.

(6) Kafi (Ali), du militant politique au dirigent militaire(1946-1962), Casbah édition, p: 80.

(7) Courriere (Yves), la médecine dans le maquis, historia magazine, N° : 285,1973, p : 2018.

(8) Ben Khaled(Ahmed), Chroniques médicales algérienne les années de braise, Edition Houma, Alger, 2006, p: 24.

(9) Perillé (Guy), le sentiment national des étudiants de culture française avant et pendant la guerre d' Algérie, mémoire de mitrise, université de Paris, 1971, p : 114.

(10) Ben Salem (Djamel Eddine), Voyez nos armes voyez nos médecins, Edition Enag Regaia, 2009, p :15.

(١١) سعد الله (أبو القاسم)، **تاريخ الجزائر الثقافي (١٩٥٤-١٩٦٢)**، الجزء١٠، الطبعة١، دار الغرب الإسلامي، ٢٠٠٧، ص: ٨٣.

(١٢) إزغيدي (محمد لحسن)، **مؤتمر الصومام وتطور ثورة التحرير الجزائرية (١٩٥٦-١٩٦٢)**، دار هومة، الجزائر، ٢٠٠٥، ص: ٣٠٦.

(13) Courriere (Yves), Op Cit, p: 2018.

(14) Ministère de la santé, séminaire sur le développement d'un système de santé (L'expérience algérienne),Op Cit ;p: 116.

(15) Ibid, p:117.

(16) Guentari (Mohamed), Op Cit, p :56.

(١٧) بوطمين (لخضر جودي)، **لمحات من الثورة الجزائرية**، ط٢، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ١٩٨٧، ص: ٢١٨.

(١٨) مخطاري(مريم)، **مريم مخطاري سيرة مجاهدة**، منشورات وزارة المجاهدين، الجزائر، ٢٠٠٤، ص: ٧١.

(19) Courriere (Yves), Op cit, p : 2019.

*-ولد بالمسيلة بتاريخ (٨ماي١٩٣٣)، وهو فرنسي الأصل اسمه "برات سيلفا"، تلقى تعليمه في نفس لمدينة وأكمل الثانوية ب"سطيف"، ثم التحق بجمعة "مونبولييه" ثم درس بجامعة "ستراسبورغ"، التحق بإخوانه الجزائريين سنة ١٩٥٦ وعمل بمنطقة تلمسان ثم مشرية ثم سيدي بلعباس، وأصبح الطبيب نقيبًا مسؤولاً عسكريًا عن الكتيبة، ألقي عليه القبض سنة ١٩٥٨ وبحوزته وثائق هامة، حوكم بتهمة حق عام على اعتبار أنه فرنسي فسجن بوهران ثم سركاجي ثم بـ"بومات بمرسيليا، ثم أطلق سراحه قبل الاستقلال، وبعده تقلد مناصب سامية في الجزائر كمنصب سفير الجزائر بكوبا سنة ١٩٦٣، توفي بوهران سنة ١٩٩٥.

(20) Gentari (Mohamed), Opcit, p : 25.

(21) Sminaire sur le développement de la santé, Op cit, p : 116.

(22) Ben Aissa Amir (Mohamed), Contribution à l'étude de l'histoire de santé en Algérie au tour d'une expérience vécue en ALN-Wilaya5, réflexion sur son développement,OPU, Alger,1986,p :301.

(23) Ben khaled (Ahmed),Op Cit, p :36.

(24) Gentari (Mohamed), Op cit, p-p : 22-23.

(25) Ben khaled (Ahmed), Op Cit, p : 49.

(26) Gentari (Mohamed), Op cit, p: 51.

(27) Ben khaled (Ahmed), Op Cit, p : 49.

(28) Ibid, p : 50.

(29) Ben khaled (Ahmed), Op Cit, p :50.

(30) Ibid, p : 44.

(31) Gentari (Mohamed), Op cit, p : 112.

(٣٢) بوجلة (عبد المجيد)، **الثورة التحريرية في الولاية الخامسة**، أطروحة دكتوراه في التاريخ، جامعة تلمسان، الجزائر، ٢٠٠٧، ص: ١٤٢.

*-ولد يوم (٢٢أوت١٩٢٢) في بلدية مليانة –الشلف حاليًا-، درس الابتدائية بمسقط رأسه وفي سنة ١٩٣١ انتقل إلى الجزائر العاصمة لمواصلة دراسته المتوسطة والثانوية، فالتحق بثانوية ابن عكنون وبعد أربع سنوات طرد منها بسبب عبارة كتبها على حائط الثانوية "حاربوا فرنسا" ثم واصلها بثانوية "بيجو" بباب الواد، تحصل على شهادة البكالوريا سنة ١٩٤١، وسجل في كلية الطب بجامعة الجزائر لكن الظروف لم تسمح له بمواصلة الدراسة حتى سنة ١٩٤٦ عندما سافر إلى فرنسا، أين التحق بالمنظمة السرية "لوس" لتحضير الوسائل المادية لاندلاع الثورة، وتزوج من فرنسية "لوسات" وهي طبيبة، وفي سنة ١٩٥٢عاد إلى الوطن واستقر بتيارت ليواصل نشاطه السياسي، وبعد اندلاع الثورة التحق بها سنة ١٩٥٦بالمنطقة السادسة للولاية الخامسة. للمزيد يُنظر: **"مريم مخطاري سيرة مجاهدة"** ص: ٥١-٥٥.

**- ولد سنة ١٩٣٠ في الجزائر، التحق بصفوف جيش التحرير الوطني سنة١٩٥٦، تم إعدامه سنة ١٩٥٨ رميا بالرصاص بجبل زلامطة بمعسكر.

(٣٣) **الملتقى التاريخي لأحداث الثورة في منطقة سعيدة (١٩٥٨-١٩٦٢)**، قسمة جبهة التحرير الوطني، المنظمة الوطنية للمجاهدين، سعيدة، ١٩٨٨، ص: ٨.

(٣٤) مخطاري (مريم)، المصدر السابق، ص: ١٠.

(٣٥) الملتقى التاريخي بمنطقة سعيدة، المرجع السابق، ص:٨.

***- ولدت يوم ٢٢ جانفي ١٩٤٣ بمدينة معسكر، التحقت بالكشافة الإسلامية برفقة (محمد بوراس)، بدأت نشاطها الفدائي سنة ١٩٥٥، وذلك بتوزيع المناشير، وعند اكتشاف أمرها التحقت بالثورة في جوان ١٩٥٦ لتكمل نشاطها كممرضة.

(٣٦) شهادة كسري خيرة، ٦ جويلية ٢٠٠٢.

(٣٧) بوشلاغم (الزوبير)، "**الشهيد يوسف دامرجي**"، مجلة أول نوفمبر، العدد (٥٢)، الجزائر، ١٩٨١، ص١٧.

(٣٨) مخطاري (مريم)، المصدر السابق، ص:١٥١.

(٣٩) بوشلاغم (الزوبير)، المقال السابق، ص: ١٧.

(٤٠) مخطاري (مريم)، المصدر السابق، ص:٢١.

(٤١) نفسه مخطاري (مريم)، المصدر السابق، ص:٦٧.

(٤٢) نفسه، ص:٣٥.

(٤٣) بوهادي (المختار)، بن داهة (عدة)، **السجل التاريخي لشهداء منطقة معسكر**، ب ط، جامعة وهران، الجزائر، ص: ٤٨.

(٤٤) مخطاري (مريم)، المصدر السابق، ص:٧٩.

(٤٥) شهادة طيب نهاري، ١٤ مارس ٢٠١١.

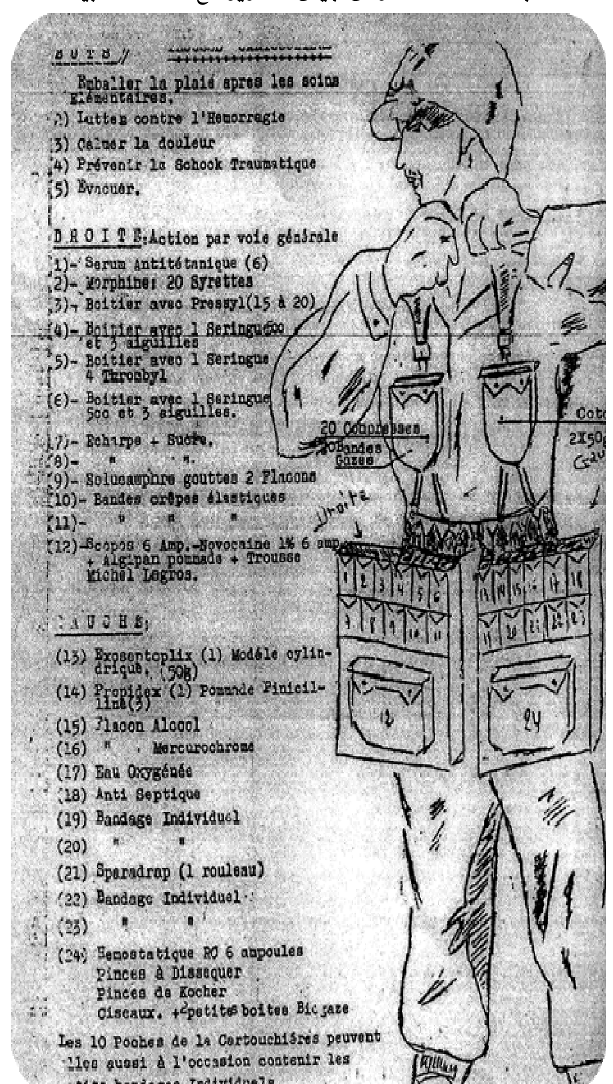
*-ولد بفرنسا حيث زاول دراسته هناك وتحصل على دكتوراه في الطب، استقر بمدينة "سعيدة" سنوات قبل اندلاع الثورة، وكان مددا لها، وبعد اتصالاته مع "دامرجي" أصبح عضوا في المنظمة المدنية لجبهة التحرير الوطني (١٩٥٧-١٩٥٩)، كلن يداوي الجرحى ويساعد عائلات المسجونين من المجاهدين، حكمت عليه فرنسا سنة ١٩٦٠ بالسجن لمدة ٢٠سنة، غادر الجزائر سنة ١٩٦٥ واستقر بمرسيليا بفرنسا.

(٤٦) مخطاري (مريم)، المصدر السابق، ص: ٥٦.

(٤٧) بوطمين (لخضرجودي)، المرجع السابق، ص:٢١٥.

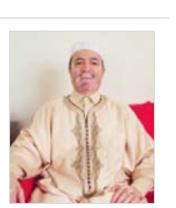
شكل توضيحي

البـدلة الخاصة لمرض جيش التحرير مع المعدات الطبية



ISSN: 2090 – 0449 Online
UIF Universal Impact Factor, [0.1101].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [0.88].

العلاقات الجزائرية السعودية في عهد الملك فهد
من خلال الصحف الجزائرية (١٩٨٢ – ١٩٨٩)



د. محمد بن عبد الكريم مراح
أستاذ مشارك قسم الدعوة والإعلام
كلية الشريعة والدراسات الإسلامية
جامعة قطر - الدوحة - دولة قطر

مُلَخّصْ

شهدت العلاقات الجزائرية السعودية في عهد الملك فهد تحولاً نوعيًا نستدل عليه بعدة مؤشرات، هي الزيارات المتوالية للملك فهد خادم الحرمين الشريفين للجزائر، أولاها الزيارة الثانية الرسمية (سنة ١٩٨٢م) لعاهل سعودي للجزائر منذ الزيارة التاريخية للملك فيصل بن عبد العزيز "رحمه الله تعالى" سنة ١٩٧٠. بالإضافة إلى الدور المحوري الذي لعبه خادم الحرمين الشريفين الملك فهد في التقارب الجزائري ـ المغربي، والذي توج باللقاء التاريخي على الحدود الجزائرية المغربية بين الرئيس الجزائري الشاذلي بن جديد والملك المغربي الحسن الثاني سنة ١٩٨٧ برعاية شخصية من الملك فهد. وقد تضمن البيان الرسمي للدولتين الشكر الخاص والاعتراف الصريح بالجهد الذي بذله الملك فهد يرحمه الله تعالى في عودة العلاقات بين البلدين. زد على ذلك؛ قوة وازدياد وتيرة التعاون المشترك بين الجزائر والمملكة العربية السعودية في المجالات الاقتصادية والثقافية، والتقارب في الرأي والمواقف إزاء كثير من المواقف. وأيضًا الدور المشترك الذي أدياه إزاء الأزمة اللبنانية الذي أسفر عن اتفاق الطائف الشهير. وقد أكد لنا البحث مميزات الخلق السياسي التي اتسم بها الملك فهد، وهو ما كنا قد تحدثنا عنه في مقال سابق حول "فهد الواقعية الأخلاقية والشرعية الإسلامية". كل هذا وغيره سيكون موضع تتبع ودراسة في بحثنا المنوه به في هذا الملخص.

بيانات الدراسة:
تاريخ استلام البحث: ٠٨ أغسطس ٢٠١٧
تاريخ قبـول النشـر: ١٢ أكتـوبـر ٢٠١٧

كلمات مفتاحية:
الدبلوماسية السعودية، التضامن العربي، الأزمة اللبنانية، الصحافة الجزائرية، جريدة الشعب

معرِّف الوثيقة الرقمي: DOI 10.12816/0047315

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:
محمد بن عبد الكريم مراح. "العلاقات الجزائرية السعودية في عهد الملك فهد من خلال الصحف الجزائرية (١٩٨٢ – ١٩٨٩)".- دورية كان التاريخية.- السنة العاشرة- العدد الثامن والثلاثين؛ ديسمبر ٢٠١٧. ص٨٩ – ٩٧.

مُقَدِّمَةُ

يجب التنويه في مطلع الحديث أننا سنقف بهذه الفترة من العلاقات بين الجزائر والمملكة العربية السعودية كما تعكسه الصحافة الجزائرية عند حدود ١٩٨٩م، كونها الفترة التي شهدت تحولاً جذريًا في الوضع السياسي في الجزائر، انتقلت فيه من نظام سياسي أحادي إلى نظام سياسي تعددي، وما صاحبه من تعدد الصحف وتعدد اتجاهاتها السياسية والفكرية والإعلامية، ولذا لم يعدّ من المناسب التحدث عن الموضوع كما تعكسه الصحف الوطنية الجزائرية، على نحو يعبر عن التوجه الرسمي للدولة الجزائرية، خاصةً أن الصحف لا تزال إلى اليوم هي الوثائق الوحيدة المتاحة لتناول واسترداد تلك الفترة من العلاقات، وفهم السياسات التي عبرت عنها.

شهدت العلاقات الجزائرية السعودية في عهد الملك فهد تحولاً نوعيًا نستدل عليه بعدة مؤشرات:

- الزيارات المتوالية للملك فهد خادم الحرمين الشريفين للجزائر، أولاها الزيارة الثانية الرسمية (سنة ١٩٨٢م) لعاهل سعودي للجزائر منذ الزيارة التاريخية للملك فيصل بن عبد العزيز [١٩٠٦-١٩٧٥] "يرحمه الله تعالى" سنة ١٩٧٠.[١]
- الدور المحوري الذي لعبه خادم الحرمين الشريفين الملك فهد في التقارب الجزائري ـ المغربي، والذي تُوّج باللقاء

التاريخي على الحدود الجزائرية المغربية بين الرئيس الجزائري الشاذلي بن جديد والملك المغربي الحسن الثاني يرحمه الله تعالى [١٩٢٩ -١٩٩٩] سنة ١٩٨٧ برعاية شخصية من الملك فهد. وقد تضمن البيان الرسمي للدولتين الشكر الخاص والاعتراف الصريح بالجهد الذي بذله الملك فهد "يرحمه الله تعالى" في عودة العلاقات بين البلدين.

- قوة وازدياد وتيرة التعاون المشترك بين الجزائر والمملكة العربية السعودية في المجالات الاقتصادية والثقافية، والتقارب في الرأي والمواقف إزاء كثير من المواقف.
- الدور المشترك الذي أدياه إزاء الأزمة اللبنانية الذي أسفر عن اتفاق الطائف الشهير.

سوف ندرس هذه السياسة من خلال أهم مقومات ومرتكزات سياسة المملكة منذ أرسى دعائمها الملك المؤسس الملك عبد العزيز "رحمه الله تعالى" وتابع ترسيخها أبناؤه ملوك المملكة من بعده. والمقومات المقصودة هنا هي: (التعاون، والتضامن العربي، والأمن والاستقرار).

أولاً: التعاون

خلصنا في بحثنا حول العلاقات الجزائرية ـ السعودية في عهد الملك خالد [١٩١٣-١٩٨٢] "يرحمه الله تعالى"[٢] إلى أنه حتى إن لم تكن العلاقات الجزائرية السعودية- من خلال ما عكسته الصحافة الجزائرية العربية تحديدًا -على المستوى الذي كانت عليه في عهد الملك فيصل، فإنها لم تنزل إلى درك الخصومة، ولا تخلّفت عن مواكبة المناسبات والواجبات القومية والإسلامية لتؤدي دورها في خدمة قضايا الأمة العربية والإسلامية بكثير من الفعالية والإخلاص، وحسبها -في تقديري - أنها كانت كذلك وإن لم تتجذر وتغزر في هذه الفترة في المجال الثنائي، الذي انفتحت عليه أكثر في الفترات التي تلت. وقد لا حظنا كيف كانت تنظر الصحافة الجزائرية -لسان حال النظام الجزائري آنذاك - لتجسيدات ولي العهد فهد بن عبد العزيز لسياسات الملك خالد العربية والإسلامية، كما هو الشأن في مؤتمر قمة مكة الإسلامي؛ الذي أولته عناية خاصة بتتبع مجرياته، وكلمات القيادة السعودية المُشرفة على المؤتمر بما يشي بالتقدير والاعتزاز، خصوصا في سياق الظروف التي كانت تمر بها الأمة آنذاك، رغم اختلاف النهج السياسي والخط الأيديولوجي بين الجزائر والمملكة.

كما أكبرت الجزائر -عبر صحافتها -المبادرة السعودية لدعم التنمية في العالم الإسلامي؛ إذ نقلت صحيفة "الشعب" ما دار في بداية الجلسة الثانية للمؤتمر ممّا جاء على لسان ولي العهد الأمير فهد بن عبد العزيز؛ إذ دعا إلى بذل المزيد من الجهود والعمل الجاد لتحرير الأماكن المقدسة والأراضي العربية المحتلة. وألح على حتمية تنمية التعاون الاقتصادي بين البلدان الإسلامية، واقترح تخصيص مبلغ ٣٠٠٠ مليون دولار لدعم برنامج التنمية في العالم الإسلامي. وقررت المملكة السعودية في هذا الصدد تقديم ١٠٠٠ مليون دولار لتحقيق هذه الغاية. كما اقترح ولي العهد من جهة أخرى زيادة رأس مال البنك الإسلامي للتنمية في المجال الاقتصادي المشترك.[٣]

ومع هذا فإن انطلاق تعاون وتقارب نوعي في العلاقة بين البلدين تجسد من خلال ـ الزيارات المتوالية للملك فهد خادم الحرمين الشريفين للجزائر، أولاها الزيارة الثانية الرسمية (سنة ١٩٨٢م) لعاهل سعودي للجزائر منذ الزيارة التاريخية للملك فيصل بن عبد العزيز "يرحمه الله تعالى" سنة ١٩٧٠. ونسجل تلك الزيارات على النحو التالي:

- زيارة الملك فهد للجزائر عام ١٤٠٣هـ ـ ١٤/١١/١٩٨٢م
- زيارة الملك فهد للجزائر عام ١٤٠٧هـ ١١/٣/١٩٨٧م
- اجتماع اللجنة الثلاثية العربية [الجزائر ـ المملكة المغربية ـ المملكة العربية السعودية بشأن الأزمة اللبنانية في وهران/ الجزائر ٢٤ ذو القعدة ١٤٠٩هـ/ ٢٨جوان ١٩٨٩.
- زيارة فهد سنة ٨٧ ماي بعد الثانية في السنة نفسها في ٥/رمضان زيارة استغرقت ٢٤ ساعة.

وعلى الرغم من أن أهداف الزيارات المذكورة مختلفة ومتعددة: إذ كانت الأولى والثانية لتعزيز التعاون بين البلدين وتفعيله، فقد كانت الثالثة في إطار المساعي التي بذلها الملك فهد "يرحمه الله تعالى" لعودة العلاقات الجزائرية المغربية إلى حالتها الطبيعية، إثر القطيعة التي كانت تمر بها. ولهذا فنحن نعدّها زيارة رأب الصدع أكثر منها زيارة تمتين التعاون بين البلدين (الجزائر والمملكة العربية السعودية). أما الزيارة الرابعة فقد كانت-كما هو واضح -في إطار اللجنة الثلاثية العربية حول مساعي حل الأزمة اللبنانية.

وأبرز ما نلاحظه على **الزيارات الثلاث الأولى** أن المبادرة فيها بالزيارة كانت تأتي من الملك فهد بن عبد العزيز "يرحمه الله تعالى" مما يترجم بوضوح نزعة التعاون المتأصلة في شخصيته الإنسانية والإسلامية، والسياسية؛ ذلك أنه لابد لكل منصف من الاعتراف صدقًا للملك فهد بالروية في التفكير والأناة.[٤]

وقد كان الملك فهد حريصًا على تمتين التعاون بين الجزائر والمملكة إدراكًا منه ما للبلدين من وزن سياسي في الساحة العربية والإسلامية وحتى الدولية، والحاجة إلى جهودهما مجتمعة لمواجهة الكثير من القضايا المطروحة آنذاك ذات الصلة بالوضع العربي خصوصا؛ كالقضية الفلسطينية والقضية اللبنانية.

الزيارة الأولى:

حظيت الزيارة المذكورة بعناية خاصة من قبل الصحافة الجزائرية، إدراكًا منها لخصوصية المرحلة والمهمة المنوطة بالبلدين؛ فقد نشرت رئاسة الجمهورية البلاغ التالي: بدعوة من فخامة الرئيس الشاذلي بن جديد رئيس الجمهورية الأمين العام لحزب جبهة التحرير الوطني يقوم صاحب الجلالة الملك فهد بن عبد العزيز عاهل المملكة العربية السعودية بزيارة رسمية للجمهورية الجزائرية ابتداءً من ٥ صفر ١٤٠٣هـ الموافق لـ ٢١/١١/١٩٨٢م".(٥)

وتحت عنوان بالبنط العريض في أعلى صفحة الشعب الأولى [مرحبًا بالملك فهد]: "يصل اليوم إلى الجزائر جلالة الملك فهد بن عبد العزيز عاهل المملكة العربية السعودية في زيارة رسمية لبلادنا تستغرق ثلاثة أيام بدعوة من الرئيس الشاذلي بن جديد رئيس الجمهورية الأمين العام لحزب جبهة التحرير الوطني... وهذه هي الزيارة الرسمية الأولى التي يقوم بها الملك فهد منذ توليه عرش المملكة في جوان الماضي. وهي الزيارة الرسمية الثانية التي يقوم بها عاهل سعودي للجزائر حيث كانت الزيارة الأولى هي الزيارة التي قام بها المغفور له جلالة الملك فيصل للجزائر سنة ١٩٧٠م، والتي كانت انطلاقة جديدة للعلاقات الأخوية بين البلدين الشقيقين".

وعرضت جريدة الشعب –اللسان الرسمي المعبر عن السلطة الجزائرية –: "دولة وحزبًا حاكمًا رأي الشعب (في العدد ٥٩٣٠): "إذا كان من نافلة القول التأكيد على أهمية الحوار والتعاون بين البلدين الشقيقين بحكم روابط الأخوة والمكانة المتميزة التي يحتلانه على صعيد المنظمات الإقليمية وعلاقات الشمال بالجنوب، لأنه من المهم بمكان أن نسجل الظرف الخاص الذي تتم فيه الزيارة وأبعادها اللقاء بين الرئيس الشاذلي والملك فهد عربيًا ودوليًا". ثم عرضت للسياق الذي تجرى فيه الزيارة على المستوى العربي؛ الطغيان الصهيوني على الفلسطينيين؛ فقالت: "إن المرحلة الخطيرة التي تمر بها الأمة العربية من جراء تزايد الهجمة الصهيونية وحرب الإبادة التي تشنها ضد الشعب الفلسطيني تلقى بمسؤوليات تاريخية ضخمة على العرب قادة وشعوبًا. إن اللقاء والتشاور بين القادة العرب في هذا الظرف العصيب يصبح أمرًا حيويًا يتوقف عليه إلى حد بعيد مسار الصراع العربي الصهيوني، ووزن العرب ذاتهم على الساحة الدولية".

وقدرت نتائج الزيارة من وجهة نظر استراتيجية، فلن تتوقف عند حدود التعاون الثنائي الذي هو يقينا من أهم أهدف الزيارة، وإنما انعكاساته على الوضع العربي لمواجهة التحديات التي تواجهها الأمة العربية؛ فقالت: "ولا شك أن لقاء اليوم لن تتوقف انعكاساته على العلاقات الثنائية؛ لأن الثّقل الخاص الذي يمثله الطرفان لا يمكن إلا أن يكون له صداه الإيجابي عربيًا وجهويًا ودوليًا" وتفصيل ذلك على النحو الآتي:

"فعلى الساحة العربية يعمل البلدان على حل القضية الفلسطينية من منظور مبدأين أساسين هما:

- تحقيق الحقوق الوطنية للشعب الفلسطيني.
- إشراك منظمة التحرير الفلسطيني في كل عملية تستهدف إعادة السلام إلى المنطقة.

أما انعكاساتها على المستوى الدولي؛ فمن خلال انتماء البلدين المشترك لمنظمات جهوية ودولية، إذ لابد من تنسيق المواقف إزاء القضايا المطروحة ضمن منظمة دول عدم الانحياز والدعوات السائدة آنذاك للحوار بين الشمال والجنوب، قصد جسر الهوة الواسعة بين عالم فقير متخلف وعالم يتطلع للنمو والتقدم من جهة، ودول غنية ومتقدمة (عالم الشمال) يقع عليها واجب مساعدة دول الأخرى على تحقيق آمالها في الرفاه والتقدم. وبما أن الجزائر والمملكة من الدول السائرة نحو النمو والتقدم، وتملكان إمكانات معتبرة لإنجاز التقدم والرفاهية، ولهما مكانتهما جيو-استراتيجيًا كُلّ في محيطه الجغرافي الخاص (المغرب العربي وإفريقيا ومنطقة الخليج والشرق الأوسط عمومًا)، فتتحملان لذلك عبء الريادة لدول المنطقة في التحاور مع الشمال ضمن المنظمات والهيئات الدولية آنذاك، ولعل هذا ما ذهبت إليه الشعب بقولها: "وعلى الصعيد الجهوي والدولي ينتمي البلدان إلى منظمات إقليمية عديدة ويحتل كل منهما مكانة خاصة، مما يعطى للتشاور والحوار بينهما أبعادًا تنعكس بدون ريب على العلاقات بين أغنياء وفقراء هذا العالم. وإذا ما رأينا الأهمية الخاصة التي توليها بلادنا لعلاقاتها مع عالم الجنوب واعتبرنا إمكانيات التعاون الضخمة المتوفرة بين الجزائر والسعودية، أدركنا الترجمة العملية التي يمكن أن يتمخض عنها التعاون الثنائي في مجال ترقية التعاون بين البلدان النامية وإعطائه محتوى في حجم مطامح الأمة العربية وشعوب العالم الثالث".

كما يمكن أن نلاحظ؛ تلاقي مصلحتي البلدين في تجنيب القارة الإفريقية أسباب النزاع وحالات الاستقطاب الدولي لتحقيق مصالح دولية وربما إقليمية على حساب دول القارة السمراء الضعيفة، وتنازع خيراتها من جهة، ومن جهة أخرى اتخاذ مواقع قدم في بعض مناطقها لتتخذ منها نقاط اقتراب من بعض الدول العربية والخليجية والإسلامية ومراقبة مصالحها فيها، والتحرك عند الحاجة بما يضمن لها أهدافها السياسية والاقتصادية. وهذا ما أفصح عن بعضه البيان المشترك الذي توج الزيارة الشهيرة: "كما استعرض الجانبان الوضع في القارة الإفريقية والتعاون العربي الإفريقي الذي يشكل إحدى دعائم التضامن بين الوطن العربي والقارة

الإفريقية، فأكدا إرادتهما على تنشيط هذا التعاون وتوسيعه خدمة للمصالح المشتركة بين الأمة العربية والشعوب الإفريقية في التحرير والتقدم والرفاهية. وأكدا على ضرورية تضافر الجهود للحيلولة دون تدخل القوة الأجنبية في شؤون القارة وجعلها مسرحًا للصراع والاستقطاب الدوليين"، عنها البيان المشترك الذي نشرته.(٦) (انظر: الملحق رقم ١)

وقد أسفرت الزيارة عن نتائج قيمة عبّر عنها البيان المشترك الذي نشرته، وتعبيرًا عن رضا خادم الحرمين الشريفين نظرًا للنتائج التي أثمرتها الزيارة بعث ببرقية مفعمة بالتفاؤل لفخامة للرئيس الجزائري الشاذلي بن جديد_رحمه الله تعالى [١٩٢٩ -٢٠١٢]" يسعدني وأنا أغادر بلدي الثاني الجزائر الغالية أن أعرب لفخامتكم ولحكومتكم والشعب الجزائري الشقيق عن وافر الشكر وعظيم الامتنان على ما لقيته والوفد المرافق لي من حفاوة وترحيب واستقبال أخوي، يدل على ما تتحلون به من أصالة ونبل مما جعلنا نشعر أننا بين أهلنا وذوينا، وأقابل بالتقدير والثناء ما لمسته من فخامتكم من تفهم واع وإحساس صادق لكل ما يحدق بأمتنا من تهديدات وأخطار أثناء مناقشاتنا الأخوية التي اتسمت بروح المودة والمصارحة والتفهم التام راجيا من الله العلي القدير أن يكون من ثمار لقاءاتنا ما يعود بالخير العميم على شعبينا الشقيقين وعلى أمتنا العربية والإسلامية وكافة الشعوب المحبة للسلام متمنيًا لفخامتكم موفور الصحة والسعادة ومزيد الترقي والانجاز والازدهار لشعبكم والله يحفظكم ويرعاكم" أخوكم فهد بن عبد العزيز.(٧)

الزيارة الثانية:

نشرت جريدة الشعب بالبنط العريض الأحمر أعلى الصفحة: [أهلاً بخادم الحرمين الشريفين في الجزائر] ثاني زيارة بدعوة من أخيه الرئيس الشاذلي بن جديد. وقد ركزت الشعب في "كلمة الشعب" على أبرز القضايا التي تستقطب اهتمام البلدين في تلك المرحلة: تثمين الموارد الأولية (خصوصًا البترول) والكفاح الذي تخوضانه سويًا ضمن منظمة المصدرة للنفط؛ فقالت: "تلتقي الجزائر والسعودية في العديد من الجوانب تخص أمهات القضايا التي تشغل البلدين: فالجزائر والسعودية ظلتا تعملان على تنسيق مواقفهما في مجال تثمين المواد الأولية وبصفة خاصة في مجال كفاح منظمة الدول المصدرة للبترول التي عملت الجزائر والسعودية على إعطائها الطابع النضالي من أجل تثبيت حق المنتجين".(٨)

كما أشارت إلى الدور المشترك إزاء القضايا العربية والإسلامية الساخنة آنذاك فقالت "إن الجزائر والسعودية منشغلتان بالحرب الدائرة بين العراق وإيران. بذلتا جهودًا معتبرة قصد وقف هذه الحرب سواء في إطار المساعي الفردية، كالوساطة أو إطار المنظمات الدولية كالمؤتمر الإسلامي ومنظمة الأمم المتحدة.

- للدولتين انشغالات خاصة أيضًا بمأساة لبنان، كما أن للبلدين دورهما الفاعل والبالغ التأثير على مجريات الأحداث من أجل مساعدة لبنان كي يخرج من محنته.
- المسألة الحيوية التي تأتي على رأس اهتمام الزعيمين هي قضية فلسطين، التي تتطابق بشأنها نظرة البلدين العاملين على توحيد الصف العربي كله. وفي هذا الصدد دعت الجزائر إلى قمة عربية ثامنة عشر ورحبت السعودية بالاقتراح الجزائري وسوف يعطي هذا اللقاء دفعة قوية للموضوع نظرًا لوزن البلدين في العالم العربي.
- أما على المستوى الدولي فهي، "مسألة هامة سوف تحتل موقعًا هامًا ضمن المحادثات (التعاون الاقتصادي والمالي) بينهما نظرًا للإمكانات الواسعة لهما".
- وإزاء تحول جديد في تكنولوجيا الإعلام والاتصال الذي دخل المنطقة العربية في صورة تعاون عربي مشترك أشارت الشعب إلى ذلك بقولها "كذلك إمكانية التعاون الثقافي والإعلامي لدعم أواصر الأخوة والتعاون، خاصةً في ظل وجود القمر الصناعي العربي الذي سيساعد على هذا".(٩)

وبيانا لسياسة خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبد العزيز في تفعيل العلاقات الجزائرية السعودية كتب يحي حسن ملاح [رئيس القسم الصحفي بالسفارة السعودية بالجزائر] حول زيارة الملك فهد بمجلة "المجاهد": "الزيارة التي يقوم بها خادم الحرمين الشريفين الملك فهد لأخيه فخامة الرئيس الشاذلي بن جديد لا تستهدف خلق علاقة غير قائمة بل تجسيد لمفهوم علاقات قديمة قدم التاريخ وتبيانًا للتواصل واستمرار بين الأشقاء، وتعميقًا لعلاقات تعيش في وجدان وتراث وعواطف شعبين شقيقين. إننا نرى في هذه المناسبة العظيمة التي يزور فيها ملكنا وطنا ثانٍ لنا تعميقا للتواصل الذي أمر به الباري عز وجل، ونظرة فاحصة شاملة للواقع الأليم الذي تعيشه الأمة العربية في وقتنا الحاضر، تبين لنا أن الزيارة أتت في وقتها المناسب الذي أحوج ما تكون فيه الأمة العربية للتآزر والتآخي".(١٠)

وتزكية واعترافًا جزائريًا بهذه السياسة التي ترجمت عنها زيارات الملك فهد للجزائر كتبت مجلة المجاهد في العدد نفسه: "هذه الزيارة التي واصلت رحلة البحث عن التضامن العربي الذي تعرض لهزات ونكسات في ظل تلك التطورات الخطيرة والمستجدات المؤسفة على الساحة العربية... والحقيقة أن الزيارة الحالية تكتسي أهمية كبيرة من شاناه أن تسهم بشكل فعال في بعث التضامن العربي، عن طريق تصفية الأجواء، وفي العمل الهادف للقضاء على الخلافات والاختلافات الهامشية التي

استفاد منها أعداء أمتنا، واتخذوها بابًا واسعًا للمرور إلى ساحتنا والتأثير في مجريات الأمور".[١١]

وإبرازًا للأهمية التي تكتسيها الزيارة عملت جريدة الشعب على أن تعرضها من زاوية نظر سعودية من خلال حوار مع السفير محمد حسن فقي. ومن المقتطفات الهامة ما جاء في حواره سؤال: كيف تقيمون واقع العلاقات الجزائرية السعودي؟ ج/ التعاون القائم بين البلدين الشقيقين ممتاز، فهناك تنسيق شبه تام، وهناك تطابق في المواقف السياسية، وهناك تشاور مستمر وعلى أعلى مستوى، وأنا أعلم أن خادم الحرمين الشريفين الملك فهد، يقوم باتصال دائم مع أخيه الرئيس الشاذلي، وأنه يكن له كل الاعتزاز والاحترام، ويجد في شخصه القائد المخلص المحنك، ليس للجزائر فحسب، وإنما للوطن العربي والإسلامي والإفريقي. وسمعته مرات عديدة يتحدث عنه بكل تقدير ويجد فيه كل إخلاص، ونزاهة ومصداقية، وكل ذلك سمعته من خادم الحرمين الشريفين الملك فهد شخصيًا. ومن هذا المفهوم وبعد أول مقابلة بـ كانكون في المكسيك خلال انعقاد المؤتمر الاقتصادي الدولي، شعر الملك بمصداقية الرئيس الشاذلي، وحدث نوع من التفاهم وارتياح شخصي بالإضافة إلى التقدير الشعبي العام لدور الجزائر البطولي أثناء حرب التحرير. فكل هذه الأمور جعلتنا نرتبط بالجزائر نظرًا لما لها من ثقل على الصعيد العربي والإسلامي والدولي، ونذكر من ذلك على سبيل المثال لا الحصر قضية الرهائن الأمريكيين في إيران، وما فقدته الجزائر من رجال في سبيل إنهاء الحرب العراقية الإيرانية، وغيرها من المواقف النبيلة التي نعتز بها، ومثل هذه المواقف تنعكس علينا جميعًا.

أما الجانب الاقتصادي، هناك عدة قروض منحت لتمويل مشاريع عديدة في قطاعي الري والزراعة بالخصوص. وقدمت السعودية حوالي ٥٠٠ مليون دولار لمشاريع بناء سدود، وسكة حديدية، وتوسيع ميناء جيجل [مدينة ساحلية ساحرة في الشرق الجزائري] نحو مع ذكر الهبة في إطار إعادة بناء الشلف [المدينة التي تعرضت لزلزال عنيف سنة ١٩٨٠] وقدرت بـ ١٥٠ مليون دولار. ونحن نفكر في إنشاء بنك سعودي جزائري للتنمية برأسمال قدره (٣٠٠ مليون دولار)، ومن أهدافه تقديم قروض ميسرة للقطاع الخاص والعام بالجزائر. كما توجد شركة جزائرية سعودية مختلطة تم في إطارها دراسة العديد من المشاريع المشتركة والتبادل التجاري بين البلدين. وفي هذا الصدد من الممكن أن يقوم المتعاملون السعوديون باستيراد بعض المنتوجات الجزائرية مثل الحمضيات، وتقوم السعودية من جهتها بتصدير بعض المواد في ميدان المحرقات إلى الجزائر. وهناك أعمال مشتركة أخرى. وفي المجال الثقافي نأمل أن تدمج البرامج التلفزيوني عن طرق (عربسات) والتنسيق وتكثيف المبادلات في الميدان الإعلامي، ونحن نفكر بجد عقد اتفاقيات في هذا الميدان.[١٢]

الزيارة الثالثة:

خادم الحرمين الشريفين يبدأ زيارته الرسمية للجزائر:

(معًا في مواجهة التحديات بالرؤية المشتركة والجهود الموحدة)

وقد أكد التصريح الهام الذي أدلى به الملك فهد للصحافة الجزائرية والسعودية عند نزوله بأرض الجزائر الحقائق التي تضمنها حوار سعادة السفير؛ بقوله: "إنه لمن دواعي سروري أن التقى اليوم بأخي فخامة الرئيس الشاذلي بن جديد ولأحيي من خلال هذا اللقاء الأخوي شعب الجزائر الذي يحفظ له التاريخ في أكرم وأخلد سجلاته بكل اعتزاز وفخار قصة نضاله المجيد وكفاحه الطويل في سبيل حريته واستقلاله"، وقال: "لقد عرفت كما عرف جميع إخواني قادة الأمة العربية والإسلامية في شخص أخي فخامة الرئيس الشاذلي بن جديد بعد النظر وسداد الرأي والإدراك العميق لحقائق الأمور مع العمل الدؤوب للإيجاد المخارج والحلول لمختلف القضايا التي نوليها اهتمامنا ومتابعتنا وفي مقدمتها القضية الفلسطينية وما يعانيه الشعب الفلسطيني اليوم من الآلام والنكبات على أرض لبنان والأراضي العربية المحتلة وكذلك بالنسبة للحرب العراقية – الإيرانية التي طال أمدها وتفاقم خطرها، والقضية اللبنانية، بالإضافة إلى قضايا أخرى ونأمل أن نتوصل من خلال لقائتنا المكثفة إلى ما يحقق تطلعات شعوب أمتنا، وما يخدم خطنا نحو الاستقرار السياسي والرخاء الاقتصادي والأمن الوطن".

وعبرت القيادتان الجزائرية والسعودية عن الرؤية الجديدة المشتركة بينهما كما تعكسها زيارة خادم الحرمين الملك فهد للجزائر، بتخليدها من خلال تبادل الأوسمة العليا لدى البلدين؛ إذ نشرت الشعب في مراسيم وكلمات الذكرى على التفصيل الآتي:

وسام الأثير للملك فهد وقلادة بدر الكبرى للرئيس الشاذلي

قلد الرئيس الشاذلي بن جديد رئيس الجمهورية الأمين العام للحزب وسام الأثير من مصف الاستحقاق الوطني لخادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبد العزيز، وذلك خلال حفل رسمي أقيم مساء أمس بإقامة الميثاق. ومما جاء في الكلمة الرسمية بالمناسبة: "إن منح هذا الوسام للملك فهد بن عبد العزيز يُعَدّ بمثابة تقدير وعرفان للدعم المادي والمعنوي الذي قدمته المملكة العربية السعودية للثورة الجزائرية المجيدة، كما أن هذا الوسام يُعد إكبارًا لجهود العاهل السعودي الجليلة المتواصلة في نشر العلم والمعرفة وتحقيق النهضة في المملكة العربية السعودية.

وأن تسليم هذا الوسام للملك فهد إنما هو اعتراف بعمله الدؤوب من أجل وحدة الصف والتصور والعمل العربي الإسلامي وإشادة بدوره في مواصلة نشر الإسلام الحق، وإبرازًا

لمواقفه الثابتة في حركة عدم الانحياز ونضاله من أجل إقامة نظام اقتصادي عالمي منصف، وتنويه بالأخوة العريقة التي تربط الشعبين العربيين المسلمين الجزائري والسعودي. وعلى إثر ذلك وفي الحفل نفسه قلد فهد بن عبد العزيز الشاذلي بن جديد قلادة بدر الكبرى أعلى وسام في المملكة.

ما يمكن استخلاصه مما سبق قوله؛ أن إرساء قواعد تعاون مثمر بين الجزائر والمملكة في عهد الملك فهد انطلق من تفعيل التواصل عبر الزيارات الملكية للجزائر (أي أن المبادرة كانت سعودية من الملك فهد)، ووضع أرضية سياسية مناسبة للتعاون الثنائي بين البلدين في باقي المجالات، وفاتحة إنجازات سياسية نوعية على مستوى العلاقات العربية والإقليمية، كما أثبتته القضايا التالية.(١٣)

ثانيًا: التضامن العربي والأمن والاستقرار

الحقيقة أن بحث هذه الخاصية والقاعدة في سياسة الملك فهد يمكن التدليل عليها في موضوعنا من خلال مسألتين هما:

٢/١-الدور المحوري الذي لعبه خادم الحرمين الشريفين الملك فهد في التقارب الجزائري ـ المغربي:

يبدو أن ما كان مضمرًا في الزيارة الثانية السابقة الذكر التي قام بها الملك فهد للجزائر؛ مسألة التصالح بين الجزائر والمغرب وهو من الحكمة السياسية التي عرف بها الملك فهد، في مثل هذه القضايا أي السعي لإصلاح ذات البين خصوصا الأشقاء والجيران وهو ما كشفت عنه الشعب في تعليقها عن خبر زيارة الملك فهد الخاطفة للجزائر زيارة فهد سنة ٨٧ مايو بعد الثانية في السنة نفسها زيارة استغرقت ٢٤ ساعة فمما جاء في جريدة الشعب بقولها: "جدير بالذكر أن خادم الحرمين الشريفين كان قد قام يومي ١١و١٢/ مارس الماضي بزيارة رسمية للجزائر بدعوة من الرئيس الشاذلي رئيس الجمهورية تميزت بإجراء سلسلة من لمحادثات المكثفة تُوجت بصدور بيان مشترك أكد الروابط الأخوية العريقة والمتينة التي تجمع البلدين. وكان الملك فهد قد قام إثر ذلك بزيارة رسمية للملكة المغربية. وتندرج زيارة العاهل السعودي اليوم إلى الجزائر في إطار مواصلة المشاورات بين قيادتي البلدين".(١٤)

وفعلاً فقد تفاجئ الجزائريون والمغاربة بعقد قمة ثلاثية بين الرئيس الجزائري والعاهل المغربي الحسن الثاني، وخادم الحرمين الشريفين كُلّلت بصدور بيان مشترك في الجزائر والرباط: "في إطار الجهود التي قام بها خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبد العزيز عاهل المملكة العربية السعودية، اجتمع فخامة الرئيس الشاذلي بن جديد وصاحب الجلالة الملك الحسن الثاني عاهل المملكة المغربية بحضور الملك فهد بن عبد العزيز على الحدود الجزائرية المغربية في يوم (٦ رمضان المبارك ١٤٠٧هـ الموافق لـ ٤ مايو ١٩٨٧م) واتفق كل من الرئيس الشاذلي بن جديد وجلالة الملك الحسن الثاني على مواصلة اللقاءات بين البلدين الشقيقين لحل المشاكل القائمة، وأعرب فخامة الرئيس الشاذلي وجلالة الملك الحسن الثاني عن شكرهما وتقديرهما العميقين للجهود الكريمة التي قام بها خادم الحرمين الشريفين في هذا السبيل".(١٥)

وقد انسابت العلاقات بين البلدين الجزائر والمغرب ـ بفضل الدور التصالحي الذي أداه الملك فهد؛ منذ تلك القمة بشكل كامل؛ من فتح للحدود بينهما، وتبادل للقاءات المشتركة على كل الأصعدة، بل والاشتراك في لجان عربية لحل أزمات عربية، وأعنى تحديدًا الأزمة اللبنانية.

٢/٢-الدور المشترك الذي أدياه إزاء الأزمة اللبنانية الذي أسفر عن اتفاق الطائف الشهير

من المعلوم أن القمة العربية الطارئة في عمان خلال نوفمبر١٩٨٧ أنشأت لجنة رباعية لتنقية الأجواء مكونة من: (الجزائر-الأردن-الإمارات- السعودية) عقدت لقاء قمة رباعي مثل الجزائر فيه الرئيس الشاذلي، والمملكة ولي العهد الأمير عبد الله بن عبد العزيز [١٩٢٤- ٢٠١٥]. تطبيقًا لمقررات القمة العربية في الدار البيضاء (٢٣ ـ ٢٦ مايو ١٩٨٩م) المتعلق ببحث الأزمة اللبنانية وآخر تطوراتها تقرر تشكيل لجنة ثلاثية عربية عُليا مكونة من خادم الحرمين الشريفين وجلالة الملك الحسن الثاني والرئيس الشاذلي بن جديد. ومُنحت جميع الصلاحيات لمعالجة الأزمة اللبنانية باشرت اللجنة الثلاثية المكونة من الجزائر والمغرب والسعودية مهامها المتمثلة في مساعدة الإخوة اللبنانيين لحل أزمتهم؛ ولهذا الغرض عقدت عدة لقاءات على مستوى القمة فضلاً عن لقاءات الهيئات الوزارية والاستشارية ذات الصلة بالملف. وهذا ما أكدته جريدة الشعب بقولها: "فتطبيقًا لمقررات القمة العربية الطارئة اللجنة الثلاثية تبدأ اليوم مسعاها لحل الأزمة اللبنانية ينعقد اليوم بالعاصمة المغربية الرباط الاجتماع الأول للجنة الثلاثية العربية المنبثقة عن القمة العربية الطارئة التي انعقدت بمدينة الدار البيضاء المغربية وذلك للعمل على إيجاد حل للأزمة اللبنانية".

وسيستعرض كل من الرئيس الشاذلي بن جديد والعاهلين المغربي والسعودي وجهات النظر والتحليلات الخاصة بالأزمة اللبنانية وإعداد برنامج عمل يسمح بتسوية شاملة لهذه الأزمة يكون محوره الأساسي في البداية العمل على تثبيت وقف إطلاق النار خصوصًا إذا علمنا أن مختلف الأطراف المتصارعة قد عبرت عن رغبتها في مد يد العون لهذه اللجنة ومساعدتها على إيجاد حل للأزمة اللبنانية فبرغم من أن هذه اللجنة لا تملك الوسائل الإلزامية لتنفيذ قراراتها إلا أن الوزن السياسي الذي يتمتع به القادة الثلاث أعضاء اللجنة على الساحة العربية والدولية من شأنه أن يمكن من الحصول على التزام مختلف بأعمال قد تعرقل مهامها.(١٦)

وتعبيرًا عمليًا عن فعالية عمل اللجنة إثر لقاء القمة المذكور، باشر وزراء خارجية الدول الأعضاء في اللجنة الثلاثية العربية العُليا الخاصة بلبنان، اجتمعوا في جدة للبدء في تنفيذ الخطة التي اعتمدتها اللجنة في اجتماعها الذي عقدته أمس الأول في مدينة الرباط المغربية والذي ضم كلاً من الرئيس الشاذلي والملك الحسن الثاني والملك فهد بن عبد العزيز. وهو الاجتماع الذي أبرز عزم القادة الثلاثة على بذل كل الجهود وتعبئة كل الوسائل الضرورية لمساعدة الشعب اللبناني والدولة اللبنانية على تجاوز المحنة التي يواجهانها. ودعت اللجنة عقب انتهاء اجتماعها الأول إلى ضرورة الوقف الفوري لكل أعمال العنف بكل أشكالها، وطالبت أبناء لبنان بالتعاون معها ومساعدتها في كل المراحل التي سيمر بها عملها.

كما وجهت اللجنة نداء إلى مجلس الأمن لوضع حد للاحتلال الإسرائيلي والاعتداءات على حرمة التراب اللبناني طبقًا لقرارات الأمم المتحدة الخاصة بهذا الموضوع.(١٧) ولعلنا من موقعنا الحالي إزاء الوضع العربي الراهن نستطيع أن ندرك الهمّة العالية التي عملت بها اللجنة الثلاثية آنذاك بسلسلة لقاءاتها المتتالية لتدارك الوضع الخطير الذي كان سيودى بلبنان إلى الزوال؛ إذ "اجتمعت بوهران اللجنة الثلاثية في [٢٣/ذو القعدة ١٤٠٩هـ- ٢٧/٦/١٩٨٩]: "إن الوزن الذي يتمتع به أعضاء اللجنة الثلاثية الرئيس الشاذلي بن جديد وخادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبد العزيز والملك الحسن الثاني سواء على الساحة العربية أو الدولية عامل هام يحتم على جميع اللبنانيين أيًا كانت مشاربهم الالتفاف حول اللجنة لإنقاذ لبنان".

وأصدرت بيانًا تاريخيًا حول التصور العملي لحل الأزمة اللبنانية. "اجتمعت بوهران اللجنة الثلاثية التي يرأسها قادة الجزائر والمغرب والمملكة العربية السعودية لدراسة أهم ما بلغته الاتصالات في الساحة العربية فيما يخص القضية اللبنانية. وقد تطرقت القمة إلى مستجدات القضية اللبنانية منذ عقد القمة العربية الطارئة بالدار البيضاء والقمة الثلاثية التي شهدتها مدينة الرباط في المدة الأخيرة ـ وتم ربط ذلك بمساعي وزراء الخارجية للبلدان الثلاثة والسيد الأخضر الإبراهيمي في كل من سوريا والعراق والفاتيكان وبريطانيا وفرنسا، وقد دار جدول أعمال القمة حول محورين أساسيين هما: دراسة الوسائل الأمنية كضرورة وقف إطلاق النار وفتح نقاط العبور ودراسة الوسائل الكفيلة للوصول إلى تحقيق هذين الهدفين القريبين تمهيدا لفتح حوار وطني بين الإخوة المتخاصمين في لبنان هذا لخلق جو سياسي ملائم لفك الإشكالية اللبنانية.... ولعل القمة الثلاثية هذه في عاصمة الغرب الجزائري وهران وما تحمله الدبلوماسية السياسية الحكيمة للبلدان الثلاثة سيكون لها شأن يسمح بتقريب وجهات النظر بين الآراء السياسية ورصاص البندقية من أجل خروج لبنان العربي من تدهوره ليعود إلى ماضيه المشرق، لبنان الديمقراطية والسيادة".(١٨) (انظر ملحق رقم ٢)

وفي سياق المساعي المذكورة نشرت الشعب/ بالبنط العريض في الصفحة الأولى اللجنة الثلاثية العربية تصدر بيانًا في وهران* / ٢٤/ ذو القعدة ١٤٠٩هـ ـ ٢٨/جوان١٩٨٩ العدد ٧٩٨٠]. ومعلوم فيما بعد كيف كلّلت مساعي اللجنة المباركة باتفاق الطائف الذي أنهى واحدة من أكثر الأزمات مأساوية في المنطقة العربية المعاصرة.

خَاتِمَةٌ

نخلص إلى أن؛ أهمم ما تميزت به سياسة الملك فهد الخارجية من خلال علاقاته مع الجزائر: المبادرة بتفعيل العلاقات السياسية على أعلى مستوى -دبلوماسية تطبيع العلاقات مع المحيط الجغرافي الجزائري -اعتماد سياسة المحاور بشكلها الإيجابي، في الوساطة لحل النزاعات والأزمات الداخلية المستعصية. وقد حافظت على مستوى رفيع وأداء إيجابي من الطرفين، إلى اندلاع احداث الفتنة الداخلية الجزائرية بين السلطة والمعارضة، خصوصا بعد إلغاء نتائج الانتخابات برلمانية التي فازت بأغلبيتها جبهة الإنقاذ الإسلامية، واستقالة رئيس بن جديد، والمأساة الوطنية. وفي الجانب الآخر اندلاع الأزمة الخليجية في مطلع التسعينيات.

ملحق رقم (١)

نص البيان المشترك الجزائري السعودي إثر زيارة الملك فهد للجزائر

"تدعيمًا للعلاقات القائمة بين الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية والمملكة العربية السعودية، وتعميقا لوشائج القربى وأواصر الأخوة بين البلدين الشقيقين وبدعوة من فخامة الرئيس الشاذلي بن جديد قام صاحب الجلالة الملك فهد بن عبد العزيز ملك المملكة العربية السعودية بزيارة رسمية للجزائر في الفترة من ٦-٨صفر ١٤٠٣هـ الموافق لـ ٢١-٢٣ نوفمبر ١٩٨٢. وفي جو ساده الإخاء والتفاهم الكامل والرغبة الصادقة في التعاون بين البلدين والحرص على تعزيز التضامن العربي جرت بين الزعيمين محادثات اتسمت بروح الثقة المتبادلة وسادها تطابق الآراء. وقد تناولت المحادثات العلاقات الثنائية بين البلدين الشقيقين والوضع في المنطقة العربية وتطورات القضايا العربية والإسلامية والمسائل الدولية محل الاهتمام المشترك.

وفي مجال العلاقات الثنائية أبدى الزعيمان ارتياحهما لاطراد نمو هذه العلاقات واستمرار تطورها لما فيه خير بلديهما وأكدا على مواصلة جهودهما المشتركة لتعزيز التعاون والتنسيق والتشاور بين البلدين. وفي السياق نفسه أعار الطرفان اهتماما خاصا للنزاع بين العراق وإيران وأبديا قلقهما البالغ إزاء استمراره، فأكدا على ضرورة إيجاد حل له لكي تتمكن الدولتان المسلمتان المتجاورتان من تكريس طاقتهما خدمة لقضايا الأمة العربية والإسلامية المصيرية.

- وأكدا الطرفان تمسكهما بمبادئ عدم الانحياز وتصميميهما على العمل من أجل تكريسه خدمة للسلام والامن الدوليين.
- ولدى استعراضهما للأوضاع الاقتصادية الدولية أكد الطرفان على ضرورة إثامة نظام اقتصادي دولي يأخذ بعين الاعتبار المطامح المشروعة لدى دول العالم الثالث في التنمية وتحقيق العدل والإنصاف بين كافة شعوب العالم.
- وقد أعرب الجانبان عن ارتياحهما للنتائج المرضية التي توصلا إليها كما أعرب جلالة الملك فهد بن عبد العزيز عن شكره وتقديره لكرم الضيافة والحفاوة البالغة التي قوبل بها على المستويين الرسمي والشعبي ووجه جلالته دعوة إلى فخامة الرئيس الشاذلي بن جديد لزيارة المملة وقد قبل الدعوة بسرور"

المصدر: جريدة الشعب ٨ صفر١٤٠٣ هـ الموافق لـ ٢٤ نوفمبر ١٩٨٢م العدد ٥٩٣٣

ملحق رقم (٢)

نص البيان الختامي للجنة العربية الثلاثية العليا

الشعب/ اللجنة الثلاثية العربية تصدر بيانًا في وهران/ ٢٤/ذو القعدة ١٤٠٩هـ ٢٨/جوان١٩٨٩ العدد ٧٩٨٠:

"نحن الحسن الثاني ملك المملكة المغربية وفهد بن عبد العزيز آل سعود خادم الحرمين الشريفين ملك المملكة العربية السعودية والشاذلي بن جديد رئيس الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية عقدنا اجتماعا بوهران في ٢٣ذي القعدة ١٤٠٩هجرية الموافق لـ ٢٧يونيو ١٩٨٩م على مستوى اللجنة الثلاثية من أجل المساهمة في إيجاد حل للأزمة اللبنانية. ولقد سمح لنا هذا اللقاء الثاني بإجراء تقييم مستفيض وشامل لكل الاتصالات والمشاورات التي أجراها باسمنا وزراؤنا للشؤون الخارجية ومبعوثونا للبنان وذلك تطبيقا للتعليمات والتوجيهات التي زودناهم بها خلال اجتماعان الأول بالرباط بهدف تنفيذ خطة العمل التي أقررناها والتي حرصنا على أن تتسم بالإنصاف في معالجة الأزمة اللبنانية من كل جوانبها.

ومن هذا المنطلق فقد كان هدفنا الأول وسيبقى استعادة جو الثقة الضروري بين المواطنين اللبنانيين والتخفيف من حدة المأساة التي يواجهونها والحصول على تعاونهم المسؤول والشجاع والواعي من أجل تنفيذ خطة عملنا التي ترتكز على أساس واحد وهو المصلحة العليا للبنان وكل اللبنانيين.

وفي هذا السياق نعبر عن أسفنا العميق لاستمرار العنف والتدمير والتمزق في لبنان وذلك بالرغم من النداء الذي أصدره كل العرب المجتمعين بالدار البيضاء وتؤكد أنه من أجل إقامة حوار يعود بالفائدة على لبنان واللبنانيين يجب أن يتوقف العنف في كل أشكاله وأنه حتى يمكن تحضير وبناء المصلحة الوطنية في لبنان يتحتم وضع حد لكل الأعمال والإجراءات التي من شأنها خلق أو أحياء الاقتتال والانقسامات في لبنان. وإن ما يزيدنا قوة وثقة في عملنا هو قناعاتنا بالتطلعات العميقة لإخواننا اللبنانيين من أجل استعادة عهد الوحدة والسلم والإشعاع الحضاري الذي ساهم به وطنهم وبإمكانه أن يساهم من جديد بالإثراء الحضاري.

كما نشعر بكل ثقة وبفضل المساندات والاستعدادات للتعاون التي تلقيناها سواء على مستوى الأمة العربية أو على الصعيد الدولي وبهذا الصدد نعرب عن عرفاننا وتقديرنًا للتعاون التي تلقيناها سواء على مستوى الأمة العربية أو على الصعيد الدولي، وبهذا الصدد نعرب عن عرفاننا وتقديرنا العميق لكل هذه المساندات والاستعدادات بالتعاون التي نعتبرها تعبيرا عن الثقة التي وضعت فينا وفي عزمنا على مواصلة العمل حتى يتمكن لبنان من استعادة وحدته وحرمة أراضيه الكاملة بناء عهد تسوده العدالة والسلم لصالح كل أبنائه.

وعلى ضوء جولة الاتصالات الثانية والحاسمة التي سيقوم بها وزراء الخارجية فإن الدعوة ستتوجه للبرلمانيين اللبنانيين للاجتماع خارج لبنان وفي المكان الذي يختارونه وذلك للنظر في مناقشة وإعداد وثيقة الوفاق الوطني ويتحتم في هذا الخصوص وقف إطلاق النار وفك الحصار وفتح المعابر قبل فترة اجتماع البرلمانيين في الخارج والذي سيتم تمهيدا لاجتماع البرلمان اللبناني في داخل لبنان.

وفي الوقت الذي نطالب فيه كافة الأطراف بالتعاون المخلص مع الجهود المبذولة من قبل اللجنة لحل الأزمة اللبنانية فإننا إحساسا منا بمسؤولياتنا التاريخية في هذا الإطار نؤكد تصميما على تذليل كافة الصعوبات والعراقيل التي قد تطرأ في سبيل التوصل إلى الحل الجذري والشامل والمنشود للأزمة اللبنانية وعزمنا على اطلاع الرأي العام اللبناني والعربي والعالمي على ما قمنا وسنقوم به من خطوات في إطار المساعي المبذولة من قبلنا لإنهاء الأزمة.

سائلين الله العلي القدير التوفيق والسداد لكل ما فيه الخير للبنان الشقيق ولأمتنا العربية المجيدة".

المصدر: جريدة الشعب [٢٣/ذو القعدة ١٤٠٩هـ ـ٢٧/٦/١٩٨٩معدد ٧٩٧٩]

الهَوامِشُ:

(١) انظر بحثنا: **العلاقات الجزائرية السعودية في عهد الملك فيصل**، ندوة الملك فيصل التاريخية ٢٠٠٨/ دارة الملك عبد العزيز.

(٢) انظر بحثنا: **العلاقات الجزائرية السعودية في عهد الملك خالد من خلال الصحف الجزائرية'** بحث مقدم للندوة العلمية: "تاريخ الملك خالد بن عبد العزيز آل سعود "ربيع أول ١٤٣١ هـ الموافق مارس ٢٠١٠.

(٣) المصدر نفسه.

(٤) انظر مقالنا: "**فهد الشرعية الإسلامية والواقعية الأخلاقية**" في مجلة الحرس الوطني العدد (٢٨٠). السنة (٢٧). شعبان ١٤٢٦هـ/ سبتمبر ٢٠٠٥م.

(٥) **جريدة الشعب** ١٤٠٣/١/٢٨هـ . ١٩٨٢/١١/١٤م/ عدد: ٥٩٢٤].

(٦) **جريدة الشعب** ٨ صفر١٤٠٣هـ الموافق لـ ٢٤ نوفمبر ١٩٨٢م/ العدد ٥٩٣٣.

(٧) **جريدة الشعب** ١٤٠٣/١/٢٨هـ . ١٩٨٢/١١/١٤م/ عدد: ٥٩٢٤.

(٨) **جريدة الشعب** عدد: ٧٢٧٩/ سنة ٢٤/ الأربعاء ١١ رجب ١٤٠٧هـ ١٩٨٧/٣/١١م.

(٩) المصدر نفسه.

(١٠) في ١٩٨٧/٣/١٣ عدد ١٣٨٨.

(١١) المصدر نفسه.

(١٢) ٦/ رمضان ١٤٠٧هـ ١٩٨٧/٥/٤م عدد ٧٣١٥.

(١٣) المصدر نفسه.

(١٤) ما جاء في **جريدة الشعب** [٦/ رمضان ١٤٠٧هـ ١٩٨٧/٥/٤م عدد ٧٣١٥].

(١٥) **الشعب** عدد١٩٨٧/٦/٥.

(١٦) **الشعب** [٣٠/ شوال١٣٠٩هـ . ١٩٨٩/٦/٤م/ العدد٧٩٥٩].

(١٧) **الشعب** [ع: ٧٩٦١- ٢/ذو القعدة/١٤٠٩هـ- ١٩٨٩/٦/٦].

(١٨) **الشعب** [٢٣/ذو القعدة ١٤٠٩هـ ١٩٨٩/٦/٢٧معدد٧٩٧٩].

ISSN: 2090 – 0449 Online
UIF Universal Impact Factor, [0.1101].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [0.88].

مظاهر العلاقات الثقافية بين سلطنة عمان وبلاد المغرب العربي منذ دخول الإسلام إلى منطقة المغرب حتى القرن العشرين

أ.د. أحمد حسن عمر حسن شلوبة
أستاذ التاريخ الإسلامي
قسم التاريخ - كلية الآداب
جامعة الإمام المهدي- جمهورية السودان

مُلَخّصْ

يهدف هذا البحث إلى تسليط الضوء على العلاقات العمانية المغربية، ولا شك أن العلاقات الثقافية هي الأصل في العلاقات العمانية المغربية، وقد ركز العلى أهم العوامل التي ساعدت على الحفاظ على هذه العلاقة، والمظاهر التي تمثلت فيها، ومنها: حملة العلم، الرحلات، المراسلات، الكتب والمؤلفات، المجلات، المؤتمرات العلمية، الدبلوماسية. اتخذ الباحث المنهج التاريخي، الوصفي، التحليلي، ومن أهم نتائج البحث: إن تاريخ الإباضية في بلاد المغرب يبين بوضوح صلة المغرب الإسلامي بالمشرق وبالإباضية العمانيين. إن الإباضيين حافظوا على هذه الصلة وأصبح المغرب الإسلامي بفضلها أصيلاً في الإسلام والعروبة. نجد بأن جوانب من أخبار المغرب الإسلامي العربي وتاريخ الإباضية فيه وجهودهم في نشر الإسلام وفي إنشاء الإمامة الإسلامية محفوظًا في التاريخ العماني القديم والحديث، ومدونا في سير الفقهاء والعلماء الإباضية العمانيين. إن العمانيين لم يقتصر دورهم على نشر المذهب الأباظي في المغرب، بل هم الذين نشروا المذهب المالكي في المغربي في عهد المهالبة.

بيانات الدراسة:
تاريخ استلام البحث: ٠٩ يناير ٢٠١٥
تاريخ قبـول النشـر: ١٧ أبريل ٢٠١٥

كلمات مفتاحية:
قبيلة الأزد، دولة المهالبة، مجلة التاريخ العربي، الجزائر وعمان، الرحلات العلمية

معرّف الوثيقة الرقمي: DOI 10.12816/0047316

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:
أحمد حسن عمر حسن شلوبة. "مظاهر العلاقات الثقافية بين سلطنة عمان وبلاد المغرب العربي منذ دخول الإسلام إلى منطقة المغرب حتى القرن العشرين".- دورية كان التاريخية.- السنة العاشرة- العدد الثامن والثلاثين؛ ديسمبر ٢٠١٧. ص٩٨ – ١٠٧.

مُقَدِّمَةُ

اهتمّ ثلّة من الباحثين الروّاد بالعلاقات العُمانيّة المغربيّة، منهم: الدكتور إبراهيم القادري بوتشيش المغربيّ الجنسيّة، بكتابه الموسوم ب "التواصل الحضاري بين عُمان وبلاد المغرب "دراسات في مجالات الثقافة والتجارة والمجتمع، منذ الفتح الإسلامي لإفريقيّة، حتى القرن الثامن الهجري نشره عام ٢٠٠٠م.[١] ومنهم الدكتور محمّد بن قاسم ناصر بوحجّام الجزائري، الذي عنون كتابه بِـ: التواصل الثقافي بين عُمان والجزائر، ونشره في عُمان عام ٢٠٠٣م.[٢] ومنهم الدكتور فرحات الجعبيري التونسي الذي عنون كتابه ب: العلاقة بين إباضيّة المغرب وإباضيّة البصرة وعُمان، من القرن الأوّل إلى القرن الحادي عشر الهجري،[٣] وغيرهم من الذين، التفتوا إلى العلاقات العُمانيّة المغربيّة ،ورأيت أن أسلط الضوء على العلاقات الثقافية بين عمان والمغرب واخترت هذا البحث الموسوم بـ "العلاقات الثقافية بين عمان والمغرب" ويهدف هذا البحث إلى بيان الصلة بين سلطنة عمان والمغرب العربي منذ دخول الإسلام إلى منطقة المغرب إلى القرن العشرين، ويركز على العوامل التي ساعدت على ذلك، والمظاهر التي تمثلت فيها تلك العلاقة، واتبع الباحث المنهج الوصفي التاريخي التحليلي.

١- مشاركة قبيلة الأزد العمانية في فتح إفريقية

شاركت قبيلة الأزد في فتح إفريقية، وذكر أنهم كانوا لا يقلون عن ألف وأربعمائة، ولا يستبعد أن يكون بعض علماء الأزد من ضمن تلك الحملة، وكان من أئمتهم: عبد الله بن مسعود النجيبي، والحارث بن تليد الحضرمي، وعبد الجبار بن قيس المرادي، وغيرهم ممَنْ دخلوا الأندلس.[٤]

٢- ضغوط الدولة الأموية والعباسية على المغاربة والعمانيين

ساعد ضغط الأمويين والعباسيين على كل من البلدين على التقارب بين العمانيين والمغاربة؛ لأن المذهب الإباضي حمل في طياته أهداف ترمى إلى تقويض النظامين، مما أدى إلى بذور التقارب الفكري، وساهم في خلق مناخ علمي مشترك.[٥]

٣- الحج

أسهم الحج بنصيب وافر في عقد مؤتمرات علمية، وقد عرفوا بولعهم الشديد بزيارة المسجد الحرام[٦]. كما أن التواصل الثقافي بين عمان والجزائر كان يتم عبر التقاء علماء الإباضية في عُمان والمغرب في موسم الحج، فكان هؤلاء العلماء يجتمعون في مكة المكرمة وغيرها من الأماكن المقدسة؛ يتبادلون الرأي في ما يهم دينهم ودنياهم، وكان للفقه وغيره من العلوم وقضايا المذهب الإباضي نصيبًا كبيرًا في هذا التواصل، وقد أشار ابن سلام إلى اجتماع اباضية المغرب وعُمان بمكة بدار محبوب بن الرحيل العماني، فقال: "........، ودار محبوب بمكة، وله خيامات تسمي مضارب محبوب بمنى أيام الحج، بمقامهم بمنى الثلاثة أيام التشريق ،.......وهي مضارب خيامات فيها مورد حجاج أهل عُمان وجماعتهم،........ اخبرني بذلك صاحب لأبي حماد النفوسي، وهو رجل عالم لقي حجاج عُمان وعلماءهم في أيام منى مقيمين في تلك المضارب، وكان ذلك بعد سنة ثلاث وسبعين ومائتين (٢٧٣هـ/ ٨٨٦م)،......[٧]

ويشير الدرجني إلى أن أباضية المغرب الأوسط (الجزائر)، أرسلوا رسولين إلى مكة لاستفتاء علماء المشرق حول الخلاف الدائر بين الإمام عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم وابن فندين ومَنْ معه، والتقيا هناك بالإمام الربيع بن حبيب العُماني ومن معه من العلماء المشارقة ،واخبراهم بما حدث بالمغرب، فرفعا إليهم كتبهم وقرأوها، واجتمعوا ليجاوبوا عنها، فكتبوا كتابًا إلى اخوانهم بتاهرت عاصمة الدولة الرستمية بالجزائر، وكان جواب الإمام الربيع ومن معه من الفقهاء: أن إمامة الإمام عبد الوهاب بن عبد الرحمن تامة، والشرط باطل، وأن القول قوله وأنه مصيب وله ما صنع ......[٨].

ويتعدد اللقاء الفقهي والفكري بين علماء إباضية المغرب بعلماء عُمان في مكة المكرمة في موسم الحج، لمناقشة القضايا الفقهية وغيرها من المسائل التي تهم المذهب الإباضي، وقد أشار الشماخي إلى ذلك نقلاً عن الرواة من علماء إباضية المغرب فقال عنهم:........، وأدركنا هناك إخواننا أهل عُمان ومعهم فقيهم الذي حج بهم "ناجيه بن ناجيه" فحججنا حجة لم يحجها أحد قبلنا ولا بعدنا من أهل المغرب، فكل من نزلت به مسألة في منسكه أو غيره يجد واحدًا من الفقهاء، فيسأله فيجد عنده الشفاء".[٩]

٤- التكوين الإعدادي المذهبي وحملة العلم

٤/ ١- أبو عبيدة مسلم بن أبي كريمة

هو مسلم بن كورين أشتهر بأبي عبيدة مسلم بن أبي كريمة البصري، ولد في البصرة وترعرع فيها، وقد روي أنه أفنى من عمره في التعلم أربعين عامًا، وعلم أربعين أخرى، وقد تولى إمامة الإباضية بعد جابر بن زيد، أخذ عن جعفر بن السماك أكثر مما أخذ عن جابر.. قال أبو سفيان في جعفر: "كان معلم أبي عبيدة الأكبر، وما حفظ عنه أكثر مما حفظ عن جابر"، كما أخذ عن ضمام بن السائب وقد كان رفيقًا له، وكلاهما أخذ العلم عن جابر بن زيد. وذكر صاحب الطبقات شيوخ الإمام أبي عبيدة في تعداد الطبقة الثانية.[١٠]

كانت مدرسة أبي عبيدة مركز إشعاع أضاء المشرق والمغرب، فوفد إليه مجموعات كبيرة من الطلبة، لا تحصى عددا ،نظرًا للمكانة المرموقة التي يحظى بها داخل الحركة، لكونه كبير تلاميذ جابر، وخليفته في قيادة الإباضية.. يقول عمر مسعود الكباوي: "إن جل علماء الفقه الإباضي الأول كان أستاذهم الإمام أبو عبيدة مسلم بن أبي كريمة التميمي، فمدونة أبي غانم بشر بن غانم الفقهية التي تعتبر من أقدم ما دون في الفقه الإباضي، وما جاء فيها كان كله من طريق تلامذة أبي عبيدة وعنه، كذلك ما جاء عن طريق حملة العلم إلى المغرب فعنه أيضا، حتى إن كل من جرت على أيديهم نسبة الدين في ليبيا أو تونس أو الجزائر من أتباع هذا المذهب ينتمون إليه".[١١]

لقد ترك لنا أبو عبيدة آثارًا علمية عديدة،[١٢] منها: مجموعة أحاديث: رواها عن جابر بن زيد وجعفر بن السماك وصحار العبدي، جمعها تلميذه الربيع بن حبيب في مسنده، المعروف بالجامع الصحيح، الذي يُعَدّ المصدر الثاني للإباضية بعد القرآن الكريم، ومنها فتاوى في الفروع والأصول: متناثرة في بعض الكتب من بينها مدونة أبي غانم الخراساني، وكتاب النكاح لابن عبد العزيز، وبيان الشرع لمحمد بن إبراهيم الكندي (ت. ٥٠٨هـ)، والمصنف لأحمد بن عبدالله الكندي (ت: ٥٥٧هـ)، وغيرها..[١٣]. ومنها مسائل أبي عبيدة وهذه المسائل نقلت عنه مشافهة وهي عبارة عن٢٣٩ مسألة تتضمن شيئا من الأدعية والأذكار وفضلها، بالإضافة إلى مسائل متنوعة في الفقه، وقد

ختمت بأجوبة لبعض علماء المشرق والمغرب، ولا يعرف جامعها على وجه التحديد، ومنها رسالته في الزكاة إلى الإمام أبي الخطاب المعافري ومَنْ معه من حملة العلم، أجاب فيها على بعض أسئلتهم التي بعثوها إليه، وترجح وفاة أبي عبيدة حوالي عام (١٤٥هـ) عن عمر بلغ مائة عام.(١٤)

٢/٤- حملة العلم

كان للبعثة التعلمية التي ارسلت إلى المغرب بعد أن نال أفرادها العلم والمعرفة، على يد أبي عبيدة أهلهم أن يحملوا المذهب الإباضي إلى تلك البلاد، فالمجموعة لما انطلقت من بلاد المغرب كانت تضم كل من: أبو المنيب اسماعيل بن درار الغدامسي، وعاصم السدراتي، وعبد الرحمان بن رستم، أبو داود القبلي النفزاوي. فهذه التشكيلة يتضح أن جميع أفرادها هم من أهل البلاد المحليين.(١٥) وقد سبقهم أول داعية للمذهب الإباضي في المغرب وهو سلمة بن سعد الذى حرص على أن يصل المذهب الإباضي الى معظم أنحاء بلاد المغرب، وأن تقتنع به جل القبائل البربرية. ولقد انخرط العنصر العربي مع عودة الوفد بعد التحصيل، في ظل مرافقة أبي الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافري، ربما لاستمالة العنصر العربي خاصةً وأن الوجود المعافري تحديدًا كان سابقًا لمجيئ أبي الخطاب.(١٦)

إن سرعة إعلان هذه الإمامة من شأنه أن يعطي لنا إشارة واضحة عن مدى ما حظي به حملة العلم العائدين من البصرة، من إجلال وتقدير، ترجمته السرعة الباهرة التي التفت من خلالها القبائل المغاربية حولهم، وزيادة اقتناعها بالمذهب، وانخراطها فيه بصورة أكبر. وبذلك أصبحت الاباضية تحظى بالمزيد من القبول، والاطمئنان لها خاصةً أمام الاضطراب الذي أحدثه ما أقدم عليه عبد الرحمن بن حبيب بتعيينه أخيه إلياس واليًا على طرابلس،(١٧) والأهم من ذلك ما كانت قد أقدمت عليه قبيلة ورفجومة الصفرية، والذي فرض على أبي الخطاب التدخل لنصرة أهل القيروان عليهم.(١٨)

٥- الرحلة من أجل العلم

إن معظم الأباضيين قد عملوا بالتجارة، فقد كانوا يحملون معهم أفكارهم وكتبهم ولقد كان أهل نفوسة يترقبون قدوم قافلة التجار القادمين من المشرق فيجلسون لأخذ العلم منهم.(١٩)

١/٥- أبن مغطير النفوسي:

كانت رحلته في أواخر القرن الأول الهجري، بعد عام ٩٥هـ، وبعد تلقيه العلم قصد بلاده فأصبح رئيس الدعاة الأباضية في جبل نفوسة.(٢٠)

٢/٥- بكر بن سهل ابن أبي اسماعيل الزناتي:

هو من تاهرت سافر إلى البصرة سنة ٢١٨هـ وتلقي العلم، وعاد لبلاده داعية محملاً بعدد هائل من المصنفات، وبذخيرة علمية أهلته ليكون من الذين يشار إليهم بالبنان.(٢١)

٣/٥- عبد العزيز بن الأوز:

رحل إلى عمان أو البصرة في عصر الأمير الرستمي أبي اليقظان محمد بن أفلح(٢٢)

٤/٥- ابن جميع:

رحل إلى المغرب في القرن الرابع الهجري، الذي مارس التعليم في المغرب، وخاصةً تعليمه في مدينة سلجماسة، والذين أصبحوا يستفتونه حتى بعد رحيله منهم.(٢٣)

٥/٥- أبو الأصبع إبراهيم بن عيسى الأزدي:

كان من أسرة أزدية قديمة استقرت في الأندلس، ثم انتقل منها إلى سلجماسة، التي بقي يتولى فيها القضاء إلى أن وافته المنية سنة ٦٢٧هـ.(٢٤)

٦/٥- الشيخ أبو محمد عبد الله بن محمد بن بركة:

اتجه إباضية المغرب إلى المشرق الإسلامي للقاء إخوانهم في عُمان والبصرة وغيرها من المناطق، وقد أشارت الروايات الإباضية(٢٥) إلى قدوم مجموعة من الطلبة المغاربة إلى عُمان للدراسة في مدرسة الشيخ أبو محمد عبد الله بن محمد بن بركة العماني من علماء القرن ٤هـ، كان من كبار فقهاء عُمان وله عدة كتب أهمها: كتاب الجامع، وكتاب الموازنة،(٢٦) وكان محبًا للعلم وطلابه، وقد أنشأ مدرسته المعروفة بمدرسة ((الصرح)) بمدينة بُهلا العمانية، وقد تخرج منها أربعون عالمًا وفقيهًا من بلاد المغرب الإسلامي.(٢٧)

٧/٥- محمد عبد الله العماني:

وصل إلى المغرب سنة ٨٩٤هـ وصحب الشماخي مؤلف كتاب السير وأجرى مناظرات.(٢٨)

٨/٥- الشيخ أطفيش أمحمد بن يوسف بن عيسى:

ولد الشيخ الحاج أمحمد بن يوسف بن عيسى، المعروف بالشيخ أطفيش سنة ١٢٣٦هـ الموافق لسنة ١٨٢٠م. ولم تمر سوى ثلاث سنوات حتى حفظ الطفل أمحمد القرآن الكريم كاملاً عن ظهر قلب. وقد توجت هذه المرحلة الأولية بنظمه أولاً لكتاب مغني اللبيب لابن هشام في خمسة آلاف بيت وعمره حينذاك لا يزيد على ست عشرة سنة. ثم تدشينه لمدرسته ومعهده الخاص والذي تخرج منه العديد من المصلحين منهم: (الشيخ إبراهيم أطفيش أبو إسحاق، والشيخ إبراهيم بن عيسى أبو اليقظان، والشيخ سليمان باشا الباروني من ليبيا، والشيخ المؤرخ سعيد بنتعاريت من تونس، والشيخ سيدي أحمد الرفاعي من المدينة المنورة وغيرهم كثير، ثم انتقل الشيخ أطفيش إلى جوار ربه، في يوم الجمعة ٢٣ ربيع الثاني سنة ١٣٣٢هـ، الموافق ٢٠ مارس ١٩١٤. مخلفًا لنا مكتبة ضخمة من

مؤلفاته، وفي شتى الفنون العلوم والقصائد الشعرية المختلفة الأغراض. وقد بلغ تعداد مؤلفاته عند بعضهم زهاء الثلاثمائة مؤلف، ما بين كتاب ورسالة.[٢٩]

٩/٥- الشيخ أبو إسحاق ابراهيم بن محمد أطفيش:

ولد الشيخ أبو إسحاق إبراهيم بن امحمد بن إبراهيم بن يوسف أطفيش[٣٠] سنة ١٨٨٦م ببلدة بني يزقن من قرى وادي ميزاب جنوب الجزائر، في أحضان عائلة كريمة متدينة، أنجبت للعالم الإسلامي عالمًا فذًا من علماء الجزائر وهو عمه قطب الأئمة الحاج أمحمد بن يوسف أطفيش المتوفي سنة ١٩١٤م. حفظ القرآن، وأخذ مبادئ العلوم العربية والشرعية على يد عمه القطب في مسقط رأسه، الذي تأثر به أشد التأثير، حيث انتهج في خطابه الإصلاحي نهجه، وهو المنهج المعتدل. ثم أخذ عن العالم عبد القادر المجاوي بالجزائر العاصمة رحل إلى تونس في سنة ١٩١٧م والتحق بجامع الزيتونة، تميز أبو إسحاق بذكائه وأخلاقه وسعة علمه، عرف في الأوساط السياسية والثقافية بكرهه الشديد للاستعمار الفرنسي الذي نفاه من الجزائر إلى تونس، وأصبح عضوًا بارزًا في حزب الدستور التونسي بزعامة الشيخ عبد العزيز الثعالبي صحبة زملائه في البعثة أبي اليقظان، ومحمد الثميني، والشيخ صالح بن يحي. وما لبث أن جاءه قرار النفي والإبعاد من السلطات الفرنسية فاختار مصر ورحل إليها سنة ١٩٢٣م، وقد أفاد نفيه القضية الجزائرية إفادة كبرى كشفًا وفضحًا.[٣١]

أصدر وترأس تحرير مجلة المنهاج ما بين (١٣٤٤هـ/١٩٢٥م- ١٣٤٩هـ/١٩٣٠م)، التي عرفت بتوجهها السياسي والاجتماعي القويين، فكانت تنشر مقالات لكتّاب عرفوا بعدائهم الصريح للاستعمار الغربي، تكشف عن مخططات الإنجليز والفرنسيين الاستيطانية في الحجاز والشام والمغرب العربي بأسلوب تحليلي عميق. وفي الميدان الديني والاجتماعي كانت ترد على مقالات التغريبين المعجبين بالمدنية الغربية، المشككين في ثراء الحضارة الإسلامية، وقدرتها على التطور، ومن ثم فإنها منعت من دخول كثير من البلاد العربية والإسلامية. كما أسس مع صديقه الشيخ الخضر حسين جمعية الهداية الإسلامية. في أواخر الخمسينيات وبداية الستينيات أصبح عضوًا فعالاً في جمعية تعاون جاليات شمال أفريقية، والمؤتمر الإسلامي المنعقد في القدس سنة (١٣٥٠هـ/١٩٣٠م) كان عضوًا نشيطًا في جمعية الشبان المسلمين الذي تربطه بزعيمها الحسن البنا صداقة حميمة. كان عضوًا نشيطًا في مكتب إمامة عمان بالقاهرة، إذ أسند إليه الإمام غالب بن علي التعريف بقضية عمان في المحافل الدولية، والجامعة العربية.[٣٢]

امتاز أبو إسحاق في كتاباته بقوة الشخصية، ومعرفته الفذة في تحليلاته للأوضاع والقضايا السياسية والاجتماعية والدينية، عرف بمواقفه الثابتة، ومواكبة لتطورت عصره، وقد وافته المنية بعد عمر من العطاء الفكري والإصلاحي والأدبي والسياسي سنة ١٩٦٥م.[٣٣]

١٠/٥- الشيخ نور الدين السالمي:

هو عبد الله بن حميد بن سلوم بن عبيد بن خلفان بن خميس السالمي، من بني ضبة، ويرجع أصل قبيلته إلى العدنانيين المنتسبين إلى نزار بن معد.[٣٤]

ولد الإمام السالمي ببلدة الحوقين من أعمال الرستاق من مدن الجزء الداخلي من عُمان في سنة ١٢٨٦هـ-١٨٦٩م، ونشأ وترعرع الإمام السالمي في مكان مولده ومسقط رأسه، بجوار أهله وأبناء قبيلته في حوقين من أعمال الرستاق، وتعلّم القرآن الكريم على يد والده حميد، ونشأ في بيت علم وثقافة وتقوى، وشاءت إرادة الله سبحانه وتعالى أن يكف بصره وهو ابن اثنتى عشرة سنة.[٣٥] وعُرف السالمي في صباه بقوة الحفظ، والذاكرة، فلا يكاد يسمع شيئًا إلا وقد حفظه ووعاه، وهذا من نعم الله سبحانه وتعالى عليه.[٣٦]

توفي رحمه الله في اليوم الثامن عشر من صفر سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة وألف من الهجرة، ويقال بأن وفاته كانت نتيجة اصطدامه بغصن شجرة أسقطه الأرض، ومرض نتيجة ذلك واستمر مرضه واشتد عليه حتى وافته المنية.[٣٧]

وفي البداية كانت البصرة هي المركز الرئيس لكل الإباضية في العالم الإسلامي منذ أن وضع الإمام العماني جابر بن زيد أسس المذهب الإباضي الفكري والسياسي، وكانت البصرة في القرنين الأول والثاني الهجريين عمانية برجالها الأفاضل العلماء، ومن البصرة ازدهرت دعوة أبي الشعثاء، وجذبت إليها الكثير من أهل البلاد الإسلامية.[٣٨] وللسالمي صلاته بالعلماء المغاربة حيث يذكر إبراهيم اطفيش عن علم الشيخ وأنه من الأقطاب في هذا الفن بقوله عن ذلك : كان معروفا بغزارة العلم والاجتهاد، إليه انتهت رئاسة العلم بما بلغنا بعُمان، وظهر ذلك في تآليفه الجمة في مختلف الفنون الشرعية والعربية وهو أهل التحقيق والإجادة في التأليف، كان ضريرا قوي الذاكرة، في منتهى الذكاء والفطرة، وكان شديد اليقظة على تطورات الأمة بعُمان. ويظهر كذلك من خلال كتابات الإمام السالمي صلاته بالعلماء المغاربة، وخاصة في مراسلاته مع الإمام محمد بن الحاج يوسف طفيش، ومن ذلك كمثال على هذه الاتصالات الرسالة الموجهة إلى الشيخ السالمي [٣٩]

١١/٥- الإدريسي:

وصفها بأن مستقلة وعامرة بأهلها، وأعطى صورة حية لأهل المغرب، وقراها وجبالها، ومناخها، ومعادنها، والزراعة، والحيوانات، والجذر، وبحر عمان، كما رسمها في خريطته.[٤٠]

١٢/٥- ابن بطوطة:[٤١]

"ثم قصدنا بلاد عمان فسرنا ستة أيام في الصحراء، ثم وصلنا بلاد عمان في اليوم السابع، وهي خصبة ذات أنهار

أشجار وبساتين وحدائق نخل وفاكهة كثيرة مختلفة الأجناس، ووصلنا قاعدة هذه البلاد (وهي مدينة نزوى) عادة أهلها أنهم يأكلون في صحون المساجد، ويأتي كل إنسان بما عنده ويجتمعون للأكل في صحن المسجد، ويأكل معهم الوارد والصادر، ولهم نجدة وشجاعة".

١٣/٥- رحلة محمد ناصر إلى مسقط:(٤٢)

ويأتي محمد ناصر ليؤكد الصلات الموجودة بين المجتمع المزابي والمجتمع العماني، بتأليفه أخبار رحلة أنجزها إلى مسقط، وكان الهدف من الرحلة المشاركة في فعاليات ندوة ثقافية أقامتها وزارة التعليم والشباب للتعريف بشخصية الصحابي الجليل مازن بن غضوبة رضي الله عنه خلال الأيام الثلاثة (٢٨ – ٢٩- ٣٠) من شهر أكتوبر عام ١٩٩٠.

كانت الرحلة فرصة جيدة لمحمد ناصر حتى يتعرف على أهل عمان، وعلى الشخصيات البارزة في المجتمع، وصورت الرحلة أهم المعالم الحضارية والثقافية في البلاد، وقد أعجب بمساعي الحكومة النهضوية في مجال الثقافة، التي انطلقت في سبعينات القرن العشرين، من أجل حماية التراث وبعثه إلى الحياة من جديد، وتطوير الفكر لمواكبة العصر، ولذلك عملت وزارة التراث القومي والثقافة بجهود كبيرة في جمع المخطوطات، وقد سجّل ناصر ظاهرة تميّز العمانيين بالتأليف في العلوم الفقهية، واهتمامهم بكل من يؤلف كتبا حولها، وكذلك استحسن محمد ناصر ما وجده من مكتبات زاخرة بالمخطوطات، ومجهزة بكل المرافق الضرورية لمرتاديها، ومنها مكتبة السالمي ببلدة اسمها "البنية"، ومكتبة محمد البوسعيدي، وهي من أغنى المكتبات بالمخطوطات، وأضخمها في عمان.(٤٣)

٦- دولة المهالبة

كان لابدّ من إيجاد حلّ تستقرّ به أحوال إفريقيّة فانتهى رأي أبي جعفر المنصور الخليفة العباسي إلى أن يولّي هذه الناحية واحدًا من كبار رجاله. ووقع الاختيار على أبي حفص عمرو بن قُبيْصة المهلبي. ووصل ذلك الرجل إلى إفريقيّة سنة (١٥١هـ/ ٧٦٨م). وبدأ بذلك عصر قصير، مدّته خمسة وعشرون سنة من الاستقرار النسبي في إفريقيّة، هو عصر المهالبة؛ لأنّ هذا الرجل لم يذهب وحده، بل أخذ معه نفرا من أهل بيته من آل المهلّب».(٤٤)

إن أسرة المهالبة، أسرة عريقة في التاريخ الإسلامي الوسيط، ولها في التاريخ الحديث والمعاصر امتداد، يقول عنها حمد بن سيف البوسعيدي: تنسب إلى «أبي سعيد المهلّب بن أبي صفرة الأزدي الذي هو من العتبك بن الأسد بن عمران بن عمرو بن عامر ماء السماء». ثم يضيف: «وآباء المهلّب من الأزد الذين خرجوا من اليمن، واستقرّوا بعُمان، وأبوه أبو صفرة، من الذين وفدوا على النبيّ -صلّى الله عليه وسلّم- من أزد عُمان، وعدّ... من الصحابة. ويقال: إنّ لأبي صفرة ثمانية عشر ولدًا ذكرًا، ولابنه المهلّب ... ثلاثة وعشرون (كذا) ولدًا ذكرًا، وإحدى عشرة بنتا. كذا ذكره العوتبي. وإنّ من أولاده سعيد بن المهلّب، وبه يكنّى: المهلّب أبا سعيد ... وتوفّي المهلّب سنة ٨٢ وهذه الأسرة التي اشتُهرت بحروبها ضدّ الخوارج في العصر الأموي، وبعد وفاة المهلّب بن أبي صفرة عام ٨٢هـ في أسرته لبني أميّة قويّا، فظلّ المهالبة أعوانًا للأمويّين، إلى حين سقوطها، فالتحقوا بخدمة الخلفاء العبّاسيّين.(٤٥) كما أنّ هذه الأسرة لها ذكرًا في العلماء، إذ أورد لها السمعاني عددًا من المحدّثين والرواة من مختلف المذاهب الإسلاميّة، وفي مختلف بقاع العالم الإسلامي الفسيح.(٤٦)

إنّ المهلّب بن أبي صفرة الذي عرَفَته البصرة، وكادت أن تطمس انتماءه العُمانيّ، إنّما كان ذلك بسبب رحيل الكثير من الأسر العُمانيّة إلى البصرة، بحكم الجوار والإطلالة على الخليج العربيّ، وبحكم التجارة الرائجة الضاربة في القدم بين عُمان والعراق، وكلّ علماء عُمان إنّما كانوا بين عُمان والبصرة والحرمين ... وكذا أهل المغرب. وإنّما كانت صلتهم بالحرمين الشريفين وبالبصرة إلى أن يأفل نجم البصرة، لتقوم مقامها عُمان ...».(٤٧) إنّ أبا سعيد المهلّب بن أبي صفرة -وإن نشأ في البصرة، ولا يزال المهالبة بعُمان، ولكن بكنية جديدة، هي آل: أبوسعيد، كنية المهلّب بن أبي صفرة، التي استحالت إلى مصطلح البوسعيديّين، الأسرة الحاكمة في سلطنة عُمان اليوم، ومنذ إمامهم الأوّل، الإمام أحمد بن سعيد بن أحمد البوسعيدي، الذي عُقدت الإمامة له عام ١١٦٧هـ.(٤٨)

وقد انجزوا منجزات حضاريّة في بلاد المغرب منها: استعاد المهالبة إفريقيّة للعبّاسيّين من خصوم عنيدين، لهم شأنهم عند العرب لقرشيّتهم من جهة، ولانحدارهم من سلالة فاتح المغرب عقبة بن نافع، ذلك هو عبد الرحمن بن حبيب الفهري وآله الذين كانوا يريدون الاستقلال في إفريقيّة.(٤٩) ومنها القضاء على ثورات البربر الصفريّة في بلاد إفريقيّة قضاء حاسمًا، ومنها إصلاح يزيد بن حاتم إفريقيّة، فأزال الفساد منها، وساد الهدوء. ورتّب أسواق إفريقيّة، وجعلّ كلّ صناعة في مكانها، وجعلّ لكلّ تجارة سوقًا خاصًا بها، ومن القيروان انتقل هذا النظام إلى باقي أرجاء المغرب، وجدّد يزيد بن حاتم المسجد الجامع في القيروان وحسّنها وزاد في قدرها ...».(٥٠)

كما ساهم العُمانيّون الأزد عمومًا والمهالبة منهم خصوصًا في تعريب البربر، بنشر اللغة العربيّة بين أهل المغرب، وتذوّق حلاوتها بحلاوة قولهم للشعر وجلبهم للشعراء والأدباء والمفكّرين. وفي عهد المهالبة دخل الشعراء والنحويّون والأطبّاء

المغرب، فبدأت الحياة الثقافيّة تعرف أنواعًا جديدة من المعارف في إفريقيّة والمغرب، و في هذا العهد دخل وانتشر المذهب المالكي في إفريقيّة، وأصبحت القيروان مَركزًا للعلم الإسلامي لا يقلّ عن البصرة والكوفة والفسطاط.[٥١]

٧- التواصل الثقافي عبر الكتب والمراسلات بين عُمان والجزائر

لعبت الكتب والمراسلات بين علماء وأئمة عُمان من جهة وبين أئمة وعلماء إباضية الجزائر(تاهرت) من جهة أخرى، دورًا هامًا في التواصل الثقافي بين البلدين، فتذكر لنا الروايات التاريخية الإباضية عددًا من مظاهر التواصل عبر الكتب والمراسلات تتضمن أسئلة وأجوبة فقهية وغيرها من العلوم والقضايا التي تهم المذهب الإباضي منها:

ما ذكره الدرجيني عن طلب الإمام عبد الوهاب بن رستم من أخوانه إباضية المشرق بالبصرة، وكان من بينهم علماء إباضية عُمان، فقال ما نصه: ((وبلغنا أن عبد الوهاب بعث بألف دينار إلى إخوانه بالبصرة ليشتروا له بها كتبًا، فاقتضى نظرهم أن يشتروها ورقًا، وتطوعوا بالمداد وأجرة النساخ والمفسرين، حتى اكملوا ديوانًا عظيما فبعثوا به إليه،... فقال: الحمد لله إذ ليس فيه مسألة عزبت عني إلا مسألتان، ولو سئلت عنها لأجبت قياسًا على نظائرهما ووافقت الصواب.[٥٢]

ويشير الشماخي إلى ما قام به أحد علماء إباضية المغرب وهو (عمروس)من نسخ مدونه الإمام أبي غانم بشر بن غانم الخراساني من علماء القرنين الثاني والثالث الهجريين، وكتاب المدونة يقع في اثني عشر جزءًا، يحتوي على أحاديث وفتاوى لعلماء إباضية المشرق منهم: الإمام جابر بن زيد العماني، والإمام الربيع بن حبيب العماني وغيرهما من العلماء، وعمل عمروسًا ذلك النسخ للمدونة حرصًا منه في أحياء العلم، وبقيت نسخة عمروس ينتفع بها إباضية المغرب ويعتمدون عليها.[٥٣] وذكر الكندي: أن الإمام الصلت بن مالك إمام عُمان (٢٣٧-٢٧٣هـ/٨٥١-٨٨٦م) طلب من الشيخ محمد بن محبوب بن الرحيل (ت.٢٦٠هـ/٨٧٣م) أن يكتب كتابًا إلى إباضية المغرب ردًا على بعض الأسئلة والفتاوى تتعلق بالإمام والعالم، والقاضي أو العامل الذي يتلقى الهدية من الناس.[٥٤]

وأشار الدرجيني: أن الربيع بن سليمان بن يخلف، أحد كبار علماء المذهب الإباضي ببلاد المغرب، كان يروي عن ابن بركة العُماني، عند إباضية المغرب، وهو صاحب ((كتاب الجامع))، فيقول عنه: وقد قال ابن بركة العُماني –رضي الله عنه-: ((قلما تعسف أحد مذاهب المسلمين بغير فهم إلا حرم التوفيق))، وقال أيضًا: ((أعوذ بالله من مسامحة الآراء، وتقليد الآباء والكبراء، واتباع الأمراء.[٥٥]

ونستنتج من ذلك؛ أن كتاب ((الجامع)) لابن بركة العُماني، قد وصل بالفعل إلى إباضية المغرب، واتخذه العلماء هناك حجة في بعض القضايا الفقهية، كما وصل إلى المغرب كتاب الدعائم للعالم أحمد بن النظر العُماني، وهو عبارة عن نظم شعري في العقيدة والأحكام.[٥٦]

٨- المجلات العلمية

٨/١- مجلة التاريخ العربي:[٥٧]

عالج الكتاب المغاربة في العدد السادس والثلاثين الخاص بسلطنة عمان في مجلة التاريخ العربي المغربية، مجالات معرفية التي يمكن رصدها فمنها: تسليط الضوء حول جغرافية عمان ومواردها وثرواتها الطبيعية من خلال مقال تحت عنوان ((سلطنة عمان بلد متنوع وتوجه تنموي)). كما تناولت الدراسة أسس الاقتصاد العماني وتنوع مصادره خاصة الغاز والسياحة، ناهيك عمّا تعرفه سلطنة عمان حاليًا من توجه نحو تشغيل الشباب ومشاريع لإحداث توازن تجاري.[٥٨]

أما في المجال التاريخي، فقد غطاه الدكتور عبد الكريم كريم تحت عنوان ((عمان عبر التاريخ)) اعتمادًا على مصادر عمانية ومغربية للكلام عن المعالم الرئيسة في تاريخ عمان، وانتشار الإسلام في ربوعها، ودور أهلها في الفتوحات الإسلامية واعتناق العمانيين المذهب الإباضي. ورحلة ابن بطوطة لعمان، وكتب عن مرحلة الغزو البرتغالي (٩١٣-١٠٣٤هـ/١٥٠٧-١٦٢٤م) موجها بحثه القيم نحو اكتشاف التقاطعات المشتركة بين عمان والمغرب، والتاريخ المشترك لمقاومة الاستعمار، وما تولد عن ذلك من لحظات النصر المشترك.[٥٩]

تناول الدكتور عبد الكريم كريم نماذج من المصادر المغربية التي تتناثر فيها نصوص حول عمان في القرن الثامن عشر، خاصة مخطوطة ((الترجمان المعرب عن دول المشرق والمغرب)) للمؤرخ أبو القاسم الزياني ت،(وهو مؤرخ مغربي من مواليد فاس، له عدة مؤلفات أهمها كتاب الترجمانة الكبرى، توفي سنة ١٢٤٩هـ) الذي يتطرق في هذا المصدر لطبيعة وجغرافية عمان، ويصف مظاهرها العمرانية، ويعرض لبعض المدن العمانية، والثروات الطبيعية. وفي محور آخر عرض الدكتور كريم لبعض أمهات مصادر التاريخ العماني، مركزًا على المؤرخ حميد بن محمد بن رزيق بن بخيت الذي هو من أولاد سعيد بن غسان نسبًا الإباضي مذهبًا. ولد عام (١٢٠٠هـ/ ١٨٧٣م) في مسقط، وتعتبر كتاباته المرجع الرئيس عن تاريخ عمان في الجزء الأول من القرن التاسع عشر وكتاب ((مصلح على العرش، قابوس بن سعيد سلطان عمان)) الذي كتبه برجي بليخانوف.[٦٠]

غطى الأدب العماني مساحة من مجلة "التاريخ العربي" في عددها الخاص بسلطنة عمان، وذلك من خلال دراستين نقديتين لكل من الأستاذين أحمد الطريسي وسعيد علوش، من كلية

الآداب بالرباط. فتحت عنوان ((علاقة النموذج الشعري العماني بالنموذج الشعري القديم)) ، يقوم الدكتور أحمد الطريسي بالتعريف بالدراسات العمانية في مجال الشعرمبينًا أن تلك الدراسات ربطت الشعر العماني بالنموذج الشعري العربي القديم .[٦١] يضيف الدكتور سعيد علوش أسئلة نقدية متميزة حول البدايات الأولى لنقد الأدب العماني المعاصر، وذلك في مقال تحت عنوان ((نقد تاريخ الأدب العماني المعاصر، بدايات التأسيس)) [٦٢] وفيه يستعرض بعض الشخصيات الفكرية العمانية التي حاولت تقعيد أوزان الذهب الشعرية من قبيل مازن بن غضوبة والخليل بن أحمد الفراهيدي.

وموضوع دراسته تتعلق بالمبادرات العملية لاستحداث الموروث العماني. ويذهب في هذا الاتجاه إلى التدليل أن تجربة محمد بن راشد الخصيبي من خلال كتابه ((شقائق النعمان على نمط الجمان في أسماء شعراء عمان))، يعد تجربة رائدة في العملية الاستحداثية للأدب العماني، ويرى في هذا الكتاب تماثلا مع كتاب ((النبوغ المغربي في الأدب العربي)) للأديب المغربي عبد الله بن كنون، معتبرًا إياه ممثلاً للمشاهد الأولى التي حاولت تأسيس نقد تاريخ الأدب العماني. وبخصوص الكتاب الثاني في منحنى بدايات تأسيس نقد تاريخ الأدب العماني، يرى الباحث المغربي سعيد علوش أن كتاب ((قلائد الجمان في أسماء بعض شعراء عمان)) لحمد بن سيد البوسعيدي يُعَدّ تجسيدًا لهذه المرحلة. كماقدم دراسة نقدية لبعض الذين كتبوا عن الأدب العماني منهم الدكتور علي عبد الخالق في كتابه ((اتجاهات الأدب العماني الحديث))، وكتاب شكري بركات، وكتاب ((النبهاني بين الاتباع والإبداع)) للباحث السوري نزار العاتي، دراسة نقدية له.[٦٣] كما تضم مجلة التاريخ العربي في عددها الخاص بعمان قصيدتين لشاعرين مغربيين، يعبران فيهما عن أحاسيسهما المرهفة، وحبهما المتوهج للدولة العمانية قيادةً وشعبًا وردت القصيدة الأولى تحت عنوان ((سلطنة عمان)) التي نظمها عبد الواحد أخريف، وهي قصيدة نونية شملت (٤٣) بيتًا، أما القصيدة الثانية التي وردت تحت عنوان ((المقبس الهادي)) للشاعر محمد البوعناني فهي قصيدة سينية تحوي (٣١) بيتًا.[٦٤]

من بين المقالات المتميزة التي تعكس التواصل الفكري والاجتماعي بين عمان والمغرب، مقالة تحت عنوان ((سلطنة عمان بعيون مغربية))، كتبها الباحث المغربي الدكتور قاسم الحسيني الذي سبق أن قام بمهمة التدريس بكلية الرستاق، معارًا من الجامعة المغربية بالرباط وهي بمثابة المذكرات الشخصية التي رسم ذكريات حول ما عايشه في عمان ووعد بنشرها مفصلة في المستقبل. مما له مغزى في التواصل الثقافي بين البلدين.[٦٥]

٩- دور الشعر في دعم العلاقات بين البلدين

عرف محمد بن يوسف اطفيش، بعلمه وبغزارة إنتاجه. كما عرف عن القطب مقاومته للاستدمار الفرنسي، كما كان مرجع المذهب الإباضي في زمانه مغربًا ومشرقًا. كان لوفاته أثر عميق على الجزائر والأمة الإسلامية، وقد وقع الخبر على الشاعر العماني ناصر بن سالم الرواحي، كالصاعقة فرثاه بقصيدتين طويلتين نقتطف من الأولى ما يخدم الغرض.

لو دافع الصبر حزنا ثم أذهبه لكنت بين رجال الصبر كالجبل[٦٦]
نعيت فردا أم الدنيا بأجمعها   إني أحس بدهش شامل جلل
تلك العلوم التي أوْعَيْتَ جوهرها   قلبا بحب جمال الله في شغل
سقى الإله ربوع الزاب ماطرة   من رحمة الله بالأبكار والأصل
وباشرتك هبات الله دائبة   بعارض من عظيم الفضل منهطل [٦٧]

يقول الشاعر هلال السيابي في اللوحة الأولى مخاطبا الجزائر[٦٨]

بيني وبينك عشق عابق وندي فلست عنك – وإن أرحل- بمبتعد
ولي بواديك أصداء مؤرجة   تنساب كالعطر بين القلب والكبد
ترف منها غوالي الذكريات فما   إلا الروائع تحكي روعة البلد

بلغ التواصل العماني المغاربي أوجه في القرنين التاسع عشر والعشرين للميلاد، فقد نشطت حركة التنقل والرحلة من عمان إلى الجزائر "مما دفع بالتواصل الثقافي إلى أن يتقوّى أكثر فأكثر ... نذكر على سبيل المثال قدوم بعثة عمانية ضمت عشرات الطلبة سنة ١٩٦٤م للدراسة في مدرسة الحياة ومعهد الحياة بالقرارة (الجزائر)، منهم من قصرت مدة إقامته، ومنهم من امتدت به سنوات عديدة".[٦٩] هذا، وقد كانت "لبعض الشخصيات العلمية زيارات متكررة إلى الجزائر للمشاركة في بعض الملتقيات والندوات، ولأغراض علمية أخرى، أمثال سماحة مفتي سلطنة عمان الشيخ أحمد بن حمد الخليلي، والشيخ سالم بن حمد الحارثي، والشيخ أحمد بن سعود السيابي، والدكتور صالح بن أحمد الصوافي، والشيخ سليمان بن محمد السالمي... وغيرهم كثيرون".[٧٠]

١٠- المؤتمرات العلمية والدبلوماسية

بذلت كل من الجزائر وعمان جهودًا معتبرة عبر الممثلين الدبلوماسيين في البلدين من أجل تطوير العلاقات الثقافية، فمثلاً قامت سفارة سلطنة عمان بتزويد المكتبة الوطنية الرئيسية ومكتبة جامعة الجزائر، بكتب ودراسات وبحوث عُمانية من جامعة السلطان قابوس؛ للاستفادة منها وجعلها في متناول الباحث الجزائري.[٧١] كما كانت هناك مشاركات عمانية في كافة الفعاليات والمؤتمرات التي تنظم من قبل الجزائر، ففي مهرجان المسرح العربي شاركت بفرق مسرحية وبشعراء

وبمفكرين وأدباء. وفي معرض الكتاب الدولي المقام بالجزائر تشارك السلطنة كل عام، ممثلة بوزارة التراث والثقافة ومكتبات خاصة كمكتبة الجيل الواعد، ومكتبة مسقط، وهذا يعكس حرس السلطنة على تقوية وتعزيز وتوثيق هذا التعاون الموجود منذ القدم نظرا للعلاقات التاريخية والروحية المتميزة التي تجمع الشعبين ، مع ملاحظة غياب الإطار القانوني بهذا الميدان.[٧٢]

في المدة الأخيرة اتفق الجانبان على الصيغة النهائية لمذكرة تفاهم في المجال الثقافي على أن يتم التوقيع عليها لاحقًا، علما بأن سفارة سلطنة عمان أفادت بأن حكومة السلطنة خولت سفيرها بالجزائر السيد علي بن عبد الله العلوي بالتوقي.[٧٣] عرفت سنة ٢٠١١م مشاركة الشيخ أحمد بن حمد الخليلي المفتي العام لسلطنة عمان في المؤتمر الدولي حول إشكالية الفتوى بين الضوابط الشرعية وتحديات العولمة المنعقد في إطار تظاهرة تلمسان عاصمة الثقافة الإسلامية في الفترة من ٠٩ إلى ١١ مايو ٢٠١١. ومن المتوقع أن تشارك السلطنة في هذه التظاهرة في نهاية ٢٠١١ حسب ما صرح لنا ممثل سفارة السلطنة في الجزائر[٧٤] ومما يميز العلاقات الثقافية بين البلدين هو تبادل الوثائق والمطبوعات بين المكتبات الاباضية لمعهد الحياة بالقرارة و ومكتبات سلطنة عُمان. في المجال الثقافي.[٧٥]

يعتبر التعاون في المجال الديني متميزًا من خلال المذهب الإباضي الذي يمثل المذهب الرسمي في سلطنة عمان. وتم تفعيله من خلال التوقيع على اتفاقية بين وزارتي الشؤون الدينية والأوقاف للبلدين وذلك بتاريخ (١٧/١٢/٢٠٠٨). وقام وزيرا البلدين للأوقاف والشؤون الدينية بزيارات متبادلة في سنتي ٢٠٠٧، ٢٠٠٨ مع المشاركة في فعاليات بعض الندوات، كما في سنة ٢٠١٠ زار الشيخ أحمد الخليلي المفتي العام للسلطنة، مدينة غرداية، وذلك بدعوة من طرف وزير الشؤون الدينية والأوقاف للجزائر، وقد شاركت السلطنة في الطبعة الثامنة لمسابقة الجزائر لحفظ القرآن الكريم وتجويده وتفسيره، المنعقدة في شهر رمضان لسنة ٢٠١١م.[٧٦]

خاتمة

ساهمت الصفحات السابقة في تسليط الضوء على العلاقات العمانية المغربية وهو هدف أساسي ولا شك أن العلاقات الثقافية هي الأصل في العلاقات العمانية المغربية، وقد ركز البحث على أهم العوامل التي ساعدت على الحفاظ على هذه العلاقة والمظاهر التي تمثلت فيها، منها: حملة العلم، الرحلات، المراسلات، الكتب والمؤلفات، المجلات، المؤتمرات العلمية، الدبلوماسية. وقد توصل الباحث إلى النتائج التالية:

- إن تاريخ الإباضية في بلاد المغرب يبين بوضوح صلة المغرب الإسلامي بالمشرق وبالإباضية العمانيين.
- إن الإباضيين حافظوا على هذه الصلة وأصبح المغرب الإسلامي بفضلها أصيلاً في الإسلام والعروبة.
- نجد بأن جوانب من أخبار المغرب الإسلامي العربي وتاريخ الإباضية فيه وجهودهم في نشر الإسلام وفي إنشاء الإمامة الإسلامية محفوظًا في التاريخ العماني القديم والحديث، ومدونًا في سير الفقهاء والعلماء الإباضية العمانيين.
- إن العمانيين لم يقتصر دورهم على نشر المذهب الأباضي في المغرب، بل هم الذين نشروا المذهب المالكي في المغرب في عهد المهالبة.

وأخيرًا؛ نوصى بالاهتمام بدراسة العلاقات الأفريقية الأسيوية، كما نوصى بدراسة المذهب الإباضي دراسة فقهية مقارنة بينه وبين المذاهب الأخرى.

الهوامش:

(١) إبراهيم القادري بوتشيش المغربيّ الجنسيّة، بكتابه المعنون: **التواصل الحضاري بين عُمان وبلاد المغرب: دراسات في مجالات الثقافة والتجارة والمجتمع، منذ الفتح الإسلامي لإفريقيّة حتى القرن الثامن** الهجري، منشورات جامعة السلطان قابوس، وحدة البحوث والدراسات العمانيّة، مسقط، ط١، ٢٠٠٠م.

(٢) محمّد بن قاسم ناصر بوحجّام الجزائري: **التواصل الثقافي بين عُمان والجزائر**، عُمان، مكتبة الضامري للنشر والتوزيع. ط١. ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٣م.

(٣) فرحات الجعبيري التونسي: **العلاقة بين إباضيّة المغرب وإباضيّة البصرة وعُمان، من القرن الأوّل إلى القرن الحادي عشر الهجري**، سراس للنشر، تونس، ٢٠٠٥م.

(٤) ابن عبد الحكم: **فتح مصر وأخبارها**، نشرة شارل طوري، ليدن، ١٩٢٠، ص١٨٤. سيدة اسماعيل كاشف، مصر في فجر الإسلام، بيروت، ١٩٨٦م، دار الرائد العربي، ص٨٥،٨٤.

(٥) محمود اسماعيل: **الخوارج في بلاد المغرب**، دار العودة، بيروت، ١٩٧٦، القاهرة، مكتبة مدبولي، ص٤٢.

(٦) الشماخي، أحمد بن سعيد بن عبد الواحد: **كتاب السير**، تحقيق أحمد سعود السيابي، مسقط، ١٩٨٧م، منشورات وزارة التراث القومي والدرجيني، أبو العباس أحمد بن سعيد، طبقات المشايخ بالمغرب، تحقيق إبراهيم طلاي، قسطنطينية الجزائر، دون تاريخ.

(٧) المصدر السابق، ج١/ ص٤٩-٥٠. الشماخي: **السير**،ج١، ص١٣١-١٣٢.

(٨) مجموعة من الباحثين، **عُمان في التاريخ**، ندوة عُمان في التاريخ (من ٢٤ إلى ٢٧\٩\١٩٩٤م، وزارة الإعلام، سلطنة عُمان، دار أميل للنشر المحدودة، لندن، ١٩٩٥م، ص٢٢٠. الباروني، أبي ربيع سليمان: **مختصر تاريخ الإباضية**، المطابع العالمية، روي، سلطنة عُمان، (د.ت) ص٣٤-٣٥.

(٩) الشماخي: السير، ج٢، ص١٠٧.

(١٠) الدرجيني: م س ج١ ص٧. الشماخي، السير، ج١، ص٥.

(١١) الدرجيني، **طبقات المشايخ بالمغرب**، ج٢/ ٢٣٨. الكباوي عمر مسعود: **الربيع محدثا وفقيها**، المطبعة العربية، غرداية ١٩٩٤م، ص١٨.

(١٢) جمعية التراث، القرارة، **معجم أعلام الإباضية (قسم المغرب)**، دار الغرب الإسلامي، بيروت، م٤ ص٨٧٥.

(١٣) الحارثي، سالم بن حمد بن سليمان: **العقود الفضية في أصول الإباضية**، وزارة التراث القومي والثقافة، سلطنة عُمان، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م، ص١٤٧. سالم بن حمود بن شامس السيابي: **إزالة الوعثاء عن أتباع أبي الشعثاء**. تحقيق وشرح: سيدة إسماعيل كاشف. مطابع سجل العرب. القاهرة، ١٩٧٩م. ص٣٤.

(١٤) أبو زكريا، **كتاب سير الأئمة**، تحقيق إسماعيل العربي، بيروت، ١٩٨٢م، دار الغرب الإسلامي، ص٥٩. أحمد الياس: **الأباضية في المغرب العربي**، مكتبة الضامري، للنشر والتوزيع، مسقط، ١٩٩٢، ص٥٧.

(١٥) ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد الحضرمي المغربي: **مقدمة ابن خلدون**، دار القلم، بيروت، ١٩٨٤م.

(١٦) الرقيق القيرواني أبو إسحاق إبراهيم بن القاسم، **تاريخ إفريقيّة والمغرب**. تحقيق عبد الله الزيدان وعزّ الدين عمر موسى. دار الغرب الإسلامي، بيروت. ط١، ١٩٩٠م.

(١٧) ابن عبد الحكم: **فتوح**، ص٧٦. محمد علي دبوز، **أعلام الإصلاح في الجزائر**. مطبعة البعث. قسنطينة. الجزائر، ١٩٧٤، ج٢، ص٥٦.

(١٨) ابن الأثير، علي بن أبي الكرم محمد عز الدين، **الكامل في التاريخ**، دار صادر، بيروت، ١٩٦٥م، ج٤، ص٥٠٣.

(١٩) الشماخي: **السير**، المصدر السابق، ج١، ص١٤٨.

(٢٠) الجعبري، **"علاقة عمان بشمال أفريقيا"**، بحث قدم لندوة عمان في التاريخ، جامعة السلطان قابوس، سبتمبر ١٩٩٤. سيدة إسماعيل الكاشف، مصر في فجر الإسلام، م.س، ص٢٧٥.

(٢١) سليمان الباروني، **الأزهار الرياضية في أئمة وملوك الأباضية**، مسقط، ١٩٨٧، وزارة التراث القومي والثقافة، ج٢، ص٩٩.

(٢٢) رجب محمد عبد الحليم، **الأباضية في مصر والمغرب، وعلاقتهم بأباضية عمان والبصرة**، مسقط،١٩٩٩م

(٢٣) الدرجيني، **طبقات المشائخ بالمغرب**،ج١، ص١١٠.

(٢٤) ابن الآبار أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي، **المقتضب من كتاب تحفة القادم**، تحقيق إبراهيم الأبياري القاهرة، ١٩٨٢، دار الكتاب المصري.

(٢٥) علماء وأئمة عُمان (أبو المؤثر، أبو الحواري، أبو قحطان وغيرهم): **السير والجوابات**، تحقيق سيدة إسماعيل كاشف، وزارة التراث القومي والثقافة، سلطنة عُمان، ط٢، ١٤١٠هـ/١٩٨٩م، ج٢، ص٣٨٤. **عمان في التاريخ**، لمجموعة من الباحثين، ندوة عُمان في التاريخ (من ٢٤ إلى ٢٧/٩/١٩٩٤م، وزارة الإعلام، سلطنة عُمان، دار أميل للنشر المحدودة، لندن، ١٩٩٥م، ص٢٣٧.

(٢٦) **السير والجوابات**، ج٢، ص٣٨٤. ابن بركة، أبو محمد عبد الله بن محمد البهلوي العماني (ت. ق٤هـ/ق١٠م): **كتاب الجامع**، تحقيق عيسى يحيى الباروني، وزارة التراث القومي والثقافة، سلطنة عُمان، (د.ت)، ج١، ص١٠. السالمي، نور الدين عبد الله، **تحفة الأعيان بسيرة أهل عُمان**، مسقط، ١٩٩٩م، ج١، ص١٤٥.

(٢٧) الكدمي، أبو سعيد محمد بن سعيد بن محمد (ت. ق٤هـ/ق١٠م): **الاستقامة**، وزارة التراث القومي والثقافة، سلطنة عُمان، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م، ج١، ص٥. **عُمان في التاريخ**، ص٢٣٧.

(٢٨) الشماخي،ج٢، ص٢٣. رجب محمد بن عبد الحليم، ص١٥٢.

(٢٩) إبراهيم بن بكير بحاز وآخرون. **معجم أعلام الإباضية من القرن الأول الهجري إلى القرن ١٥ هـ**. جمعية التراث القرارة غرداية الجزائر ١٤٢٠ هـ ١٩٩٩م. المجلد الرابع. الجزء الرابع. قسم المغرب، ص ٨٣٥. أبو عمران الشيخ وآخرون. **معجم مشاهير المغاربة**. د.ط. المؤسسة الجزائرية للطباعة. الجزائر. ص٤٧.

(٣٠) **جمعية التراث، القرارة، معجم أعلام الإباضية (قسم المغرب)**، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ج٢، **ص**: ٢٤-٢٦. محمد ناصر: **الشيخ إبراهيم اطفيش في جهاده الإسلامي**، جمعية التراث، القرارة، الجزائر، ١٩٩١، ص١٥.

(٣١) جمعية التراث، القرارة، **معجم أعلام الإباضية (قسم المغرب)**، ج٢، ص: ٢٤-٢٦.

(٣٢) جمعية التراث، القرارة، **معجم أعلام الإباضية (قسم المغرب)**، ج٢، ص: ٢٤-٢٦. يُنظر: محمد ناصر: الشيخ إبراهيم اطفيش في جهاده الإسلامي، ص٢٢-٢٣.

(٣٣) يُنظر: محمد ناصر: **الشيخ إبراهيم اطفيش في جهاده الإسلامي**، ص٢٦-٢٧.

(٣٤) خالد بن سالم السيابي، **الدور الفقهي للإمام محمد عبد الله بن حميد السالمي** (ت. ١٣٣٢هـ/١٩١٤م) في المدرسة الاباضية من خلال كتابه معارج الآمال على مدارج الكمال بنظم مختصر الخصال، رسالة ماجستير، جامعة آل البيت، الأردن، ١٤٢٤هـ-٢٠٠٤م، ص٢٧.

(٣٥) محسن الحجري، **الإمام السالمي ومنهجه في الأصول من خلال كتابه طلعت الشمس**، رسالة ماجستير، جامعة آل البيت، الأردن، ٢٠٠٢/ ٢٠٠٣م، ص٣٥.
(٣٦) محمد عبد الله بن حميد السالمي، **معارج الآمال على مدارج الكمال**، بنظم مختصر الخصال، تحقيق محمد محمود إسماعيل، وزارة التراث القومي، عُمان، ١٤٠٣هـ-١٩٨٣م، المقدمة.
(٣٧) سيدة إسماعيل كاشف، **اباضية عُمان ونشر، الإسلام في بلاد المغرب**، ص٣٠١، حصاد ندوة الدراسات العمانية ذو الحجة، ١٤٠٠/ نوفمبر ١٩٨٠.
(٣٨) المصدر السابق، ص٣٠١.
(٣٩) ناصر بن محمد المرموري، **السالمي المجتهد**، ص٤٨، **قراءات في فكر السالمي**، حصاد الندوة التي أقامها المنتدى الأدبي في الفترة من ٤-٥ ربيع الآخر ١٤١٣هـ/ الموافق ١-٢ نوفمبر ١٩٩٢م، ص١٣.
(٤٠) الإدريسي، **نزهة المشتاق في اختراق الآفاق**، منشورات المعهد الجامعي الشرقي، نابولي، روما، دون تاريخ، ج٢، ص١٥٥.
(٤١) ابن بطوطة، **تحفة النظار**، مؤسسة الرسالة، ص٢٨٥ دون تاريخ.
(٤٢) ولد محمد ناصر سنة ١٩٣٨م، تدرج حتى نال شهادة الدكتوراه، وعمل أستاذًا في جامعة الجزائر، للكاتب دراسات في الأدب الجزائري الحديث، وله ديوانان توفي عام ٢٠١١م.
(٤٣) محمد ناصر، **أوراق ثقافية من عمان**، جريدة السلام، الجزائر، ع. ١٨، ١٩، ٢٧، ٢٨ نوفمبر ١٩٩٠.
(٤٤) حسين مؤنس (الدكتور): **معالم تاريخ المغرب والأندلس**. دار الرشاد، القاهرة، ٢٠٠٤م.٨١-٨٢.
(٤٥) بوبة مجّاني: **أثر العرب اليمنيّة في تاريخ بلاد المغرب في القرون الثلاثة الأولى للهجرة**. دار بهاء الدين، الجزائر، عالم الكتب الحديثة، الأردن. ط١. ١٤٣٠هـ/٢٠٠٩م. ص٨٨. حمد بن سيف بن محمّد البوسعيدي: **الموجز المفيد، نُبذ من تاريخ البوسعيد**. طبع مطبعة عُمان، ط٢، ١٤١٦هـ/١٩٩٥م. ص١٩-٢٠. وانظر ابن عذاري: **البيان**. ١/٧٨.
(٤٦) السمعاني أبو سعيد عبد الكريم بن محمّد بن منصو (ت. ٥٦٢هـ): **الأنساب**. تقديم وتعليق عبد الله عمر البارودي. ج٥. دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع. بيروت، لبنان. ط١، ١٤١٩هـ/١٩٥٨م. ٥/٤١٨-٤١٩.
(٤٧) الجعبيري: **العلاقة بين إباضيّة المغرب وإباضيّة البصرة**. ٣٦.
(٤٨) السالمي: **تحفة الأعيان**. ٢/١٧٨-١٧٩، ١٨٣. البوسعيدي: **الموجز المفيد**. ١٩.
(٤٩) ابن عذارى: **البيان**. ١/٦٠-٧١. وانظر: حسين مؤنس: **معالم تاريخ المغرب**. ص٨٨.
(٥٠) ابن عذاري: **البيان**. ١/٧٨-٧٩.
(٥١) حسن مؤنس: **معالم تاريخ المغرب**، ص٨٧. بوتشيش: **التواصل الحضاري**، ص٣٦.
(٥٢) الدرجيني: **طبقات**، ج١، ص٥٦-٥٧.
(٥٣) الشماخي: **السير**، ج١، ص١٩٤-١٩٥. السالمي: **اللمعة المرضية من أشعة الإباضية**، ص١٦-١٧.
(٥٤) الكندي، محمد بن إبراهيم بن سليمان (ت. ٥٠٨هـ/ ١١١٤م): **بيان الشرع**، وزارة التراث القومي والثقافة، سلطنة عُمان، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م، ج٢٨، ص١٩٥-١٩٧.
(٥٥) الدرجيني: **طبقات**، ج٢، ص٤٧٩.
(٥٦) المصدر نفسه، ج٢، ٤٨٦، ٤٨٧.
(٥٧) إبراهيم القادري بوتشيش، **"إسهامات المجلات المغاربية في حقل الدراسات الخليجية: مجلة التاريخ العربي نموذجًا"**، بحث نشر ضمن كتاب دول الخليج والمغرب العربيين والمتغيرات الدولية الواقع والآفاق، أعمال بحوث المؤتمر العلمي الخليجي المغاربي الثالث، منشورات دارة الملك عبد العزيز، ١٤٣٠ هـ/ ٢٠٠٩ م، ص ٣٥ – ٧٧.
(٥٨) عبد الله العوينة، **"سلطنة عمان، بلد متنوع وتوجه تنموي"**، مجلة التاريخ العربي، عدد ٣٦، ص٢٤٩ – ٢٥٥.
(٥٩) عبد الكريم كريم، (عمان عبر التاريخ)، المجلة السابقة، ونفس العدد ٣٦، ص ١٦٧ ١٨٨.
(٦٠) برجي بليخانوف، **مصلح على العرش: قابوس بن سعيد سلطان عمان**، ترجمة خيري الضامن، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة ٢٠٠٤.
(٦١) أحمد الطريسي، **(علاقة النموذج الشعري العماني بالنموذج الشعري القديم)**، مجلة التاريخ العربي، عدد ٣٦، ص ٢٥٧ .٣٠٦
(٦٢) سعيد علوش، **نقد تاريخ الأدب العماني المعاصر بدايات التأسيس**، ص٣٠٧ ٣٦٤.
(٦٣) سعيد علوش، **نقد تاريخ الأدب العماني المعاصر بدايات التأسيس**، ص٣٠٧ ٣٦٤، ص ٣٥٦،٣٦٢.
(٦٤) **المجلة التاريخية**، العدد ٣٦، ص٤٠٥-٤٠٦.
(٦٥) قاسم الحسيني، **سلطنة عمان بعيون مغربية**، مجلة التاريخ العربي، عدد ٣٦، ٢٠٠٦، ص ١٢٧-١٤٢.
(٦٦) ناصر بن سالم عديم، **ديوان أبي مسلم**، وزارة التراث القومي والثقافة، سلطنة عمان ١٩٨٧، ص٣١٤ إلى٣٢٧.
(٦٧) المصدر السابق، ص٣٢٧.
(٦٨) **موسوعة جائزة عبد العزيز البابطين للإبداع الشعري**، مختارات من الشعر العربي الحديث في الخليج والجزيرة العربية، المجلد الخامس، الأمانة العامة للجائزة – الكويت ١٩٩٦، ص٥٠٧ – ٥٠٨.
(٦٩) أبو حجام، محمد بن قاسم ناصر، **التواصل الثقافي بين عمان والجزائر**، ص٣٨.
(٧٠) ابو حجام، محمد بن قاسم ناصر، **التواصل الثقافي بين عمان والجزائر**، ص٣٩، ٤٠.
(٧١) **جريدة الوطن**، ١ يونيو ٢٠١١.
(٧٢) وزارة الثقافة – الجزائر.
(٧٣) وزارة الخارجية، أوت ٢٠١١.
(٧٤) الوطن، جانفي ٢٠١١.
(٧٥) موقع تلفزيون سلطنة عمان.
(٧٦) وزارة الخارجية العمانية.

الجوانب الاقتصادية والاجتماعية لعمان في كتب الرحالة الأوروبيين خلال القرن التاسع عشر الميلادي
"جيمس ولستد" نموذجًا

نجية محمد سالم السيابية
باحثة دكتوراه في التاريخ العماني الحديث
مركز البحوث الإنسانية
جامعة السلطان قابوس – سلطنة عمان

مُلَخّص
يُعَدّ أدب الرحلات وتدوين الزيارات المختلفة من قبل الأجانب من أهم مصادر التاريخ العماني، إذ أن كتابات الرحالة تحتوي على وصف مشاهداتهم وملاحظاتهم، فهي تتصف أحيانًا بالصدق وأحيانًا بالإجحاف ضد البلد الذي تم زيارته؛ لذلك وجب التفتيش عما كتبه الرحالة الأجانب عن عمان، وتحليل ملاحظاتهم لنصل لحقيقة صحيحة عن تاريخ عمان في فترة معينة. من أهم الرحالة الأجانب الذين زاروا عمان في فترة الدراسة الرحال جيمس ولستد، فكانت له ملاحظاته ومشاهداته المختلفة. من هنا جاءت هذه الدراسة لتوضح أهم ملاحظات الرحالة جيمس ولستد لعمان لنصل لصورة واضحة لعمان من خلال كتابات هذا الرحالة عن تلك الفترة. في كتاب ولستد "تاريخ عمان: رحلة في شبة الجزيرة العربية"، بالإضافة إلى عدد من المصادر والمراجع ذات الصلة بهذا الموضوع.

بيانات المقال:
تاريخ استلام المقال: ٢٨ مارس ٢٠١٧
تاريخ قبـول النشـر: ٢٢ أبريل ٢٠١٧

كلمات مفتاحية:
شبه الجزيرة العربية، تاريخ عمان، الرحالة الغربيون، المرأة العمانية، الإنسان البدوي

معرِّف الوثيقة الرقمي: DOI 10.12816/0047317

الاستشهاد المرجعي بالمقال:
نجية محمد سالم السيابية. "الجوانب الاقتصادية والاجتماعية لعمان في كتب الرحالة الأوروبيين في القرن التاسع عشر الميلادي: جيمس ولستد نموذجًا".- دورية كان التاريخية.- السنة العاشرة- العدد الثامن والثلاثين؛ ديسمبر ٢٠١٧. ص١٠٨ – ١١٣.

مُقَدِّمَةُ
لقد حظي أدب الرحلة باهتمام كبير عند المؤرخين والمثقفين وعامة الناس منذ أواخر القرن السابع عشر الميلادي، وسعى الكثير من الرحالة الأجانب الذين زاروا عمان إلى تدوين مشاهداتهم وآرائهم وانطباعاتهم عن عمان بكل دقة. ولا شك أن ما كتب في تلك المؤلفات يحتاج إلى دراسة مستفيضة لإبراز نظرة الأجانب للجوانب المختلة للحياة في عمان. وقد تم اختيار فترة القرن التاسع عشر الميلادي كإطار زمني للدراسة؛ لغنى وثراء هذه الفترة بالكتابات الأوروبية عن عمان في كافة المجالات؛ ونظرًا لأنها شهدت تنافسًا بين الدول الأوروبية لعقد علاقات تجارية مع عمان، حيث اشتد الصراع الاستعماري بين بريطانيا وفرنسا لاستغلال الموقع الاستراتيجي لعمان.

وتهدف هذه الدراسة إلى؛ التعرف برحلة ولستد إلى عمان وحيثياتها ومراحلها، وتوضيح الجوانب الاقتصادية والاجتماعية التي تناولها الرحالة ولستد في كتابه. وتسعى هذه الدراسة كذلك إلى معرفة المواقف التي اتخذها هذا الرحالة تجاه الأوضاع السائدة في عمان خلال هذه الفترة من تاريخ عمان. والجدير بالذكر؛ أن هناك عدد من الدراسات السابقة لهذ الموضوع، والتي درست الحالة الأجانب لعمان ووصفهم لها، ومن أهم تلك الدراسات:

الزين، رولا. "**عمان خمسة وعشرون قرنًا في كتابات الرحالة**". مجلة نزوى، العدد ٣، يونيو ١٩٩٥م. وهو عبارة عن مقال بمجلة نزوى تحدث عن الرحالة الذين زاروا عمان منذ العصور القديمة وحتى الحديثة، وعلى مدى خمس وعشرون قرنًا.

بدول. **الرحالة الغربيون في الجزيرة العربية**. ترجمة: عبد الله نصيف، الرياض: ١٩٨٩م. وفيه ذكر لمجموعة من الرحالة توقفوا في مسقط.

بيرين، جاكلين. **اكتشاف جزيرة العرب**. ترجمة: قدري قلعجي، منشورات الفاخرية بالرياض ودار الكتاب العربي ببيروت: ١٩٨٣م. ذكر في هذا الكتاب سلسلة من الرحالة الأوربيين الذين وفدوا إلى عمان بداية بالقرن السادس عشر، والذين استوقفتهم مسقط فسجلوا ملاحظاتهم وانطباعاتهم عن زياراتهم لعمان.

١- دوافع الرحلات الأوروبية إلى عمان

لقد اختلفت الأسباب التي دعت الرحالة الأوروبيين إلى التوافد إلى شبه الجزيرة العربية، فالبعض منهم ذكر أنه جاء لدراسة المعالم الأثرية التي تتوفر في البلاد، والبعض الآخر أعادها إلى الرغبة في دراسة الموارد الطبيعية والظواهر الجغرافية والطوبوغرافية، بينما يذكر بعض من الرحالة فضولهم في دراسة ومشاهدة العادات المختلفة في المجتمع، أو لإشباع حبهم ورغبتهم في المغامرة والكشف عن المجهول. إضافة لكل ذلك هناك الدافع للاستعمار السياسي والاقتصادي للغرب الأوروبي على المشرق.[١]

ولقد كانت الرحلات التي يقوم بها الغربيون عمليات منظمة ومرتبة ذات تخطيط واضح ومدروس، فكانوا حريصين على تعلم اللغة العربية، والدين الإسلامي، وعادات العرب المختلفة. وقد تضمنت كتاباتهم الكثير من الخيال، وكان بعضهم يقوم بإضفاء نوع من الهالة والتقديس على نفسه، والبعض الآخر يقوم بإبراز صفة التعالي خاصة عند وصفهم للبدو، على الرغم من أن البدو هم من ذلل الصعاب لهؤلاء الرحالة. أضف إلى أن بعض الرحالة سجل حتى الأشياء التي لم يشاهدوها، بل نقلوا ما سمعوه من معلومات عن حضارة وثقافة ومعتقدات المنطقة التي يريدون زيارتها دون التأكد منها؛ لذلك اتصفت بعض كتابات هؤلاء الرحالة بالضعف[٢] والمبالغة.

وأما الدوافع والأسباب التي دفعت الرحالة إلى عمان نذكر ما يلي:

١- الدوافع الدينية:

لقد جاءت فكرة نشر الدين المسيحي وتنصير شعوب العالم بالطرق غير الحربية بعد فشل الحملات الصليبية في تحقيق هذا الهدف، فكانت الإرساليات التبشيرية هي البداية التي انطلقت منها الرحلات للعالم الإسلامي بما فيها شبه الجزيرة العربية. وقد توالت جهود التنصير إلى ما بعد القرن التاسع عشر. وتواجدت في عمان خمس كنائس في مطرح ومسقط، وثلاث مستشفيات تملكها الحكومة ولكنها كانت تحت إدارة البعثات التنصيرية، ومن أشهر المنصرين في عمان زويمر، فقد حاول زويمر بحملاته التنصيرية بث الدين المسيحي لكنه لم يفلح في ذلك، حيث قام بزيارة مسقط في ١٨٩٣م وذكر أن الأوضاع في مسقط مبشرة بالخير، وأنه قام بالبحث عم مقر يزاول منه نشر الدين المسيحي.[٣] يتضح لنا بأن الأسباب الدينية لدى بعض الرحالة الأوروبيين كان هدفها الأساسي هو نشر الدين المسيحي في الدول الإسلامية، ونلاحظ هنا؛ أن أغلب هؤلاء الرحالة قد حاولوا إخفاء هذا السبب وتقنعوا بأسباب اقتصادية وغيرها. ومن المؤكد أن السبب الديني من الأسباب القوية التي دعت الرحالة الأوروبيين لزيارة المناطق العربية.

٢- دوافع سياسية:

كانت عمان موضوع تنافسًا استعماريًا كبير بين الإنجليز والفرنسيين والروس والألمان٤ طيلة القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين الميلاديين، وذلك بالنظر إلى موقعها الجغرافي والاستراتيجي المتميز لعدة أسباب:

- كونها تتحكم في مدخل الخليج العربي.
- تحكمها بطرق الملاحة العالمية الجنوبية بين الشرق والغرب.
- مراقبتها لمضيق هرمز.
- السواحل الطويلة التي تملكها والممتدة من بحر العرب مرورًا بخليج عمان وانتهاءً بالخليج العربي.

وقد كانت كلاً من مسقط ومطرح تقوم باستقبال السفن الشراعية المحلية، وتصريف التجارة الداخلية، وتعتبر محطة رئيسة في التجارة الدولية الإقليمية. ومن خلال دراستنا للسياسة الاستعمارية للدول الأوروبية للجزيرة العربية يتضح لنا أن أغلب الرحالات في القرن التاسع عشر والقرن العشرين كانت لدافع استعماري مقصود ومرتب له، كما أن هذا الاستعمار لم يكن دفعة واحدة بل على فترات مختلفة. ولتهيئة الأرضية لمجيئ الاستعمار، نزل الرحالة الأوربيون إلى أرض عمان وقاموا بتسجيل مشاهداتهم عن البلاد وسكانها وطبيعتها وجوانبها المختلفة.

٣- دوافع اقتصادية:

تتمتع عمان بشهرة واسعة بفضل أسطولها التجاري، حيث وردت تفاصيل المكانة التي بلغها الأسطول العماني في وثائق شركة الهند الشرقية الانجليزية، وتقارير الرحالة الأوربيين الذين تمكنوا من زيارتها في الستينات من القرن الثامن عشر الميلادي، والتي ذكرت بأن مسقط كانت تملك ست بوارج ولكل بارجة ما بين (١٤- ٢٠) مدفعًا. وفي النصف الأول من القرن التاسع

الميلادي ازداد صيت البحرية العمانية، حيث عرف عن السيد سعيد بن سلطان بنائه للسفن الكبيرة، وبفضل هذا الأسطول ازدهرت تجارة مسقط مقارنة مع تجارة الدولتين الفارسية والعثمانية اللتين قد تعرضتا للكساد التجاري. إضافة إلى ذلك، فإن الثروات المعدنية (ذكر بعض هذه المعادن) التي كانت تمتلكها عمان جلبت أطماع الدول الأوربية.(٥) يتضح لنا من الدافع الاقتصادي أن رغبة الدول في استغلال الثروات الاقتصادية التي كانت تتمتع بها عمان هي أحد الدوافع التي دعت بعض الرحالة إلى القيام برحلات وجولات استكشافية لعمان لمعرفة مخزون هذه الثروات ومحاولة استغلالها، فقد جاءت كتب هؤلاء الرحالة بذكر هذه الثروات.

٤- دوافع ثقافية:

كانت معرفة الأوربيين بشبه الجزيرة العربية قليل جدًا، فلم تكن معلوماتهم عن هذه المنطقة تتعد معرفتهم بأن هذه المنطقة مجرد صحاري داخلية وشواطئ مطلة على البحر، بل أن الكثير من هؤلاء الرحالة لم يزوروا المنطقة من قبل. كما أن أحد الأسباب التي ترددت على ألسن الكثير من الأوربيين ممَنْ زاروا البلاد انبهارهم بالروايات عن جمال الشرق وعن الأساطير التي سمعوها عنه في الكثير من الكتب والمؤلفات التي تتحدث عن هذه البلاد، وتلك أحد الأسباب التي دعت بالرحالة لزيارة المنطقة رغبة منهم في توسيع ثقافتهم عن المنطقة وأهلها وما تتمتع به.(٦)

بعد هذه الاستعراض لدوافع الرحالة الأوربيين لزيارة عمان، نذكر أن كتب الرحالة ثرية وغنية بالعديد من المعلومات عن تاريخ عمان في فتراته المختلفة، كما أن هذه الكتابات والمؤلفات قد يكون بها بعض الخلط والتزييف والمبالغة والتحامل، إلا أنها وفرت للباحث في التاريخ العماني الكثير من المعلومات التي قد لا يجدها في المؤلفات العمانية، كما أن هذه المؤلفات غنية بالمعلومات عن مجالات مختلفة في تاريخ عمان.

٢- التعريف بالرحالة ولستد

(جيمس ولستد ١٨٠٣- ١٨٤١م) (Gems Welestd): هو جيمس ولستد انجليزي الجنسية، عمل موظفًا لدى الحكومة البريطانية في الهند، حيث كان ضابطًا في الأسطول البريطاني وعضوًا في فريق المسح البحري لسواحل شبه الجزيرة العربية. كان أمل ولستد في اجتياز وادي حضرموت ضمن جيش محمد علي، ولكن آماله خابت بعد هزيمة هذا الجيش في مرتفعات عسير، ولكن ذلك لم ينل من عزيمته في تحقيق طموحه. ففكر في تغيير وجهته وأقنع حكومته بذلك، حيث قرر الذهاب إلى عمان. وقد قام برحلته إلى كل من حضرموت وعمان خلال الفترة ما بين عامي (١٨٣٥- ١٨٣٦م)، وكانت هذه أولى محاولات الإنجليز للوقوف على أهمية الخليج العربي السياسية والاستراتيجية بالنسبة للوجود البريطاني في المنطقة.

لقد قام ولستد برحلته إلى داخلية عمان عام ١٨٣٥م وأشاد بالمساعدات التي قدمها له السيد سعيد بن سلطان منذ اللحظة الأولى لوجوده في عمان، فقدم وصفًا جميلاً للمناطق التي ذهب إليها، والمناظر الرائعة التي شاهدها، وكل التفاصيل التي حدثت له، والأنشطة الاقتصادية التي لاحظها. لكن ولستد لم يلق أي تأييد على المعلومات التي جمعها عن عمان، أو مساعدة من حكومته، كما أنه اتهم بسرقة جهود غيره. دون ولستد رحلاته إلى عمان في ثلاثة مؤلفات، وهي رحلات في داخلية عمان سنة ١٨٣٥م، وكتابًا بعنوان "الرحلات في شبه الجزيرة العربية" وطبع سنة ١٨٧٣م، كما أنه وضع خريطة لعمان حدد فيها القرى والمدن التي مر بها.

أصيب ولستد أثناء وجوده في نزوى بالحمى، وقد علم أن عليه الذهاب إلى السيب للاستشفاء، وفعلاً ذهب واستعاد عافيته. وأثناء تواجده في عمان قام بزيارة غالبية المناطق والمحافظات العمانية، ووصف الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية لعمان.(٧) ويقدم لنا كتاب ولستد الكثير من المعلومات الثمينة عن جوانب مختلفة لتاريخ عمان، حيث أنه يصف الكثير من الأشياء وصفًا دقيقًا، ويركز في وصفه على ذكر كل الأشياء التي يشاهدها.

٣- الجوانب الاقتصادية في كتاب ولستد

٣/١- الزراعة:

تعتبر الزراعة من أهم دعائم اقتصاد عمان، فقد ذكر ولستد أن عمان أغلبها أرض صحراوية، بينما تشكل الأراضي الزراعية نسبة قليلة، وتوجد في الواحات بعض الأشجار القزمية التي ترعاها الإبل، كما يقوم الناس في الواحات بتوصيل المياه للمزارع عن طريق إزاحة التربة إلى عمق ما بين ستة إلى سبعة أقدام حتى يصلوا للتربة الأكثر خصوبة، ثم يصبوا المياه على الأرض التي يريدون سقيها. أما الباطنة فقد أكد بأنها تشتهر بأشجار النخيل.(٨) ويذكر ولستد وجود أشجار الليمون والبرتقال وأشجار النخيل في الواحات، والتي تعمل على تلطيف درجات الحرارة في وقت الصيف.(٩)

ويذكر ولستد أن أهم أسباب خصوبة الأرض في بعض المناطق العمانية هو نظام الري الذي يتبعه العمانيون، وهو الري بالأفلاج حيث يذكر بقوله : "إن العرب يبدأون بالحفر عند طرف عين المياه بميل معين في الاتجاه الذي تساق إليه المياه، في قنوات مغلقة يجعلون على سطحها فتحات على مسافات متساوية؛ لدخول الضوء والهواء للعمال وتأخذ المياه في التدفق على حسب المسافة التي يمكن للمزارع الحصول على المياه".(١٠)

ومن المعلوم أن طريقة الري بالأفلاج هي طريقة مشهورة ومعروفة لدى المزارعين العمانيين من فترة سابقة، وهي أحد الطرق التقليدية للزراعة.

ومن جانب آخر؛ قدم ولستد وصفًا لنزوى وبركة الموز وسمائل التي كانت مشهورة بزراعة النخيل، وكذا العديد من الخضروات والفواكه.[١١] ووصف ولستد الجبل الأخضر الذي كان معجبًا بزراعة المدرجات فيه، حيث كتب: "يصعب التصديق أن العقل الذي خطط لعمل هذه العتبات، ونفذه كان عقلاً عربيًا، والتي لا يعرف أهلها أعمال الأشغال العامة التي ترقى إلى هذه الضخامة".[١٢] كما ذكر ولستد أن الكثير من أهل عبري يعملون في الزراعة، وعدد قليل منهم يعمل في التجارة، فيقومون بمقايضة ما يجمعونه من التمر والقرنفل وقصب السكر بما يحتاجونه إليه من الأرز والبهار والملابس القطنية البيضاء المصبوغة باللون الأزرق.[١٣]

ويتضح لنا من خلال حديث ولستد عن الزراعة في عمان؛ أن عمان تشتهر بزراعة النخيل وأشجار الفواكه ، وأن أغلب أهلها يعملون في الزراعة. ويوضح لنا أهم المزروعات التي كان يقوم المزارعون بزراعتها والتي من المؤكد تتناسب مع طبيعة عمان المناخية، وأهم الأشجار المتوفرة في عمان، ونظام الزراعة الجبلية وكذا نظام الري المستخدم والذي كان متبعًا من قبل أغلب المزارعين.

٢/٣- التجارة:

أما إذا انتقلنا للحديث عن التجارة ووصف ولستد لها، فيذكر ولستد أن من أهم الواردات العمانية البن واللؤلؤ، وقد وصف الطريق الذي كانت تسلكه السفن بداية من ميناء مسقط وانتهاء بميناء جدة، حيث تقوم بإنزال حمولتها من الحجاج لتتوجه بعدها إلى موانئ اليمن، فيقوم أصحابها بشراء البن في طريق عودتهم إلى البلاد، والذي كان يستهلك جزء منه والجزء الآخر يصدر إلى البصرة والبحرين. إضافة إلى ذلك فهناك تجارة اللؤلؤ والتي كانت تحصل عمان على لك (عملة في تلك الفترة) سنويًا، حيث كان الهنود هم من يقوموا بشراء اللؤلؤ ثم يصدرونه إلى الصين.[١٤]

من جانب آخر يذكر لنا ولستد الصادرات العمانية، حيث كانت التمور في المرتبة الأولى، ثم أطراف زعانف الحيتان والأسماك المملحة، إضافة إلى نوع من الصبغة الحمراء. ويذكر ولستد أن السيد سعيد فرض على السلع المستوردة ضريبة لا تتجاوز ٥% مما أدى إلى زيادة واردات البلاد التي قدرت بـ (٩٠٠) ألف جنيه إسترليني سنويًا.[١٥] وذكر ولستد أن السواحل العمانية تزخر بالكثير من الأسماك، أشهرها السردين الذي قلت كمياته ، إضافة إلى الدلافين والسلاحف.[١٦] وعن بركاء، فقد قال ولستد أنها تشتهر بصيد الأسماك، كما أنه وصف لنا عملية الصيد. وأخبرنا أن السكان يستهلكون هذه كميات كبيرة من الأسماك، ويملح المتبقي ليتم بيعه في المناطق الداخلية.[١٧]

من خلال وصف ولستد تتضح لنا أهم الواردات والصادرات العمانية، كما يحدثنا عن تجارة الأسماك في المدن الساحلية العمانية والتي تمثل أحد مصادر دخل التجار العمانيين. وتعتبر التمور كذلك أحد أهم مصادر الدخل في عمان منذ تلك الفترة.

٣/٣- الصناعة:

أما إذا تحدثنا عن وصف ولستد لمجال الصناعة، نجده يركز على صناعة السفن العمانية، حيث يعطينا وصفًا لسفينة البغلة. فذكر أنه مركب ضخم متناسق الشكل، ذات مقدمة طويلة بارزة، ومؤخرة ذات سارية مزينة، وبها شراع واحد.[١٨] كما أشار ولستد إلى أن نزوى تشتهر باستخراج السكر من القصب، إضافة إلى صناعة الحلوى العمانية، والأواني النحاسية، والفضة، والذهب، والمنسوجات. إضافة إلى ذلك؛ يذكر ولستد أن صناعة النسيج منتشرة في عمان، إذ أنه لا يكاد يخلو منزل في مطرح من عجلة النسيج (النول). وذكر أن الباطنة كانت تمتاز بصناعة نوع متميز من الأقمشة، والنيلة والخزف.[١٩]

ويتضح لنا من خلال وصف ولستد للصناعة؛ أن عمان قد اشتهرت بالعديد من الصناعات في القرن التاسع عشر، وقد وجد أن هذه الصناعات متواجدة في هذه الفترة في مناطق متعددة من عمان. من خلال الاستعراض السابق لوصف ولستد للتجارة والزراعة والصناعة في عمان، يتضح لنا كيف أن المجتمع العماني تميز بالعديد من النشاطات الاقتصادية التي أدت إلى توفر مجالات اقتصادية في عمان، وكانت هذه المجالات واضحة يستطيع الرحالة إلى عمان أن يشاهدها وأن يسجل ملاحظاته عنها بكل دقة. وهذا ما أوضحه لنا ولستد في كتاباته.

٤- الجوانب الاجتماعية في كتاب ولستد

١/٤- السكان:

لقد دون ولستد مشاهداته عن السكان في عمان حيث ذكر عناصره كالبلوش، والبانيان، واليهود اللذين كان لهم دور تجاري في مسقط، كما أنه أورد أن البلوش كانوا يعملون في أي مهنة تعرض عليهم، بسبب ظروف معيشتهم، حيث أنهم امتزجوا مع العمانيين بدرجة كبيرة. أما البانيان فقد كانوا يسيطرون على التجارة في مسقط وكانوا يتمتعوا بحرية كبيرة في ممارسة طقوسهم الدينية الخاصة بهم.[٢٠] ومن جانب آخر، نجد ولستد يتحدث عن سكان الساحل وذكر أنهم يختلفون في طباعهم عن سكان الداخل، ومن خصالهم ضيافة للغرباء واستقبالهم أحسن استقبال.[٢١] ونلاحظ أن؛ ولستد حاول وصف السكان في المناطق التي زارها على حسب الناس الذين صادفهم وقابلهم، لذلك نجده لا يدقق في بعض المعلومات التي

ذكرها، لذا يبدو أحيانًا مندفعًا في وصف السكان بأوصاف غير لائقة بهم؛ وقد يكون ذلك الوصف جراء موقف واحد، وهذا ما يدعونا للحذر والتريث وعدم الأخذ بكل ما جاء من وصف عن سكان عمان.

٢/٤- وصف بعض المدن والقرى:

حاول ولستد أن يصف كل المناطق التي زارها، فنجده يصف مسقط بقوله: "تقوم على منحدر من الأرض عند البحر، وأن هذا الانحدار يزداد كلما اتجهنا إلى الداخل، في حين ترتفع على كلا جانبي الخليج الذي تقع عليه مسقط قلعتان الشرقية منها الجلالي، والغربية الميراني، وهي شأنها شأن المدن في الشرق تعلوها مآذن المساجد، ولكن هذا لا يعني خلوها من المنازل الكبيرة، والجميلة، فهناك قصر الإمام، وقصر والدته، وقصور بعض أقربائه، وأصحاب السلطة في البلاد، كما أن المدينة محاطة بسور ارتفاعه ١٤ قدمًا له بوابتان تغلقان في المساء لحماية المدينة إلى جانب الخندق حولها".[٢٢]

أما وصف ولستد لمدينة قلهات، فقال أنها كانت مجموعة من الخرائب بها مسجد صغير، في حين وصف صور بأنها واقعة على ساحل رملي منخفض تتناثر على جانبه عدد من الأكواخ التي كانت مصنوعة من سعف النخيل، وبها سوق يقام بشكل يومي ويباع فيه الكثير من أنواع الحبوب والفواكه والخضروات.[٢٣] من خلال وصف ولستد لبعض المناطق التي زارها يتضح لنا أهمية كتابة الرحالة في التعرف على تاريخ بعض المدن العمانية والتعرف على طبيعتها.

٣/٤- القبائل:

عند الحديث عن القبائل العمانية ذكر ولستد أن منطقة السويق بها قبائل آل سعد، والبورشيد، وآل هلال، والصوالح، والفضول، وقبائل أخرى.[٢٤] وأعجب ولستد ب بني ريام، ويقول عنهم أنهم بقوا متمسكين بالكثير من سماتهم الخاصة. لم يستطرد ولستد في حديثه عن القبائل، كما أن المعلومات القليلة التي ذكرها صحيحة حيث أن بعض القبائل ما زلت تعيش اليوم في نفس الأماكن التي ذكرها.

٤/٤- العادات العمانية:

حاول ولستد أن يصف بعض العادات العمانية، فتحدث عن عادات الأفراح والزواج، فذكر أنه يتم خلال هذه المناسبات دق الطبول، والعزف على الأبواق والغناء. أما بخصوص عادات العزاء، فقد ذكر أن الميت يحمل إلى المقبرة، ويتم تكفينه بكفن أبيض، ويستمر العزاء لمدة ثمانية أيام عند النساء، بينما عند الرجال فهو لا يتعد ثلاثة أيام.[٢٥] إضافة إلى ذلك؛ وصف ولستد عادة الكرم والضيافة عند العمانيين. ووصف ولستد عادات العمانيين في بعض الشعائر الدينية، كما وصف عادات الصلاة والصوم،[٢٦] والفنون الشعبية العمانية كفن الرزحة.

٥/٤- المرأة العمانية:

كانت المرأة العمانية حاضرة في كتابه، حيث أنه حاول أن يصف بعض العادات التي تقوم بها المرأة وما تقوم به من أعمال في المنزل وخارجه. وصف ولستد عادة الحناء عند المرأة وذكر أن نساء إبراء تتسمن بالجمال الفطري، ووصف نساء منح بأنهن كن ذات جرأة كبيرة، حيث أنهن دخلن إلى خيمته وقمن بالتحدث إليه كثيرًا.[٢٧] وتجد الباحثة في هذا الوصف مبالغة من الكاتب في أن النساء دخلن عليه وكن كثيرات الكلام.

أما بالنسبة للمرأة عند بني ريام، فهي تقوم بأعمال الزراعة وممارسة الأعمال المنزلية، وحمل المياه في أواني فخارية.[٢٨] غير أن ولستد تجاوز هذه الأوصاف ليتحامل على المرأة العمانية بغير وجه حق ولا سند.

٦/٤- الإنسان البدوي:

لقد احتك ولستد بالبدو كثيرًا، وعاش معهم، فوصفهم بقوله: "إنا لو قارنا أخلاقه بصفة عامة مع تلك التي يملكها جيرانه لوجدناها تقف شامخة أمامهم، فوطنيته واستقلاليته، تجعله أسمى روحًا من الفارسي الذي يرزح مثل العبد تحت جبروت وطغيان الحكام، كما أنه يتفوق عليه بالقوة الجسمية، وبشجاعته يقف في المقدمة أمام الهندي الهادئ، واللطيف والضعيف".[٢٩] كما أنه وصف البدو بأنهم ينامون في حفرة، ويكيلون على أنفسهم التراب، وبالقرب منهم يضعون أسلحتهم،[٣٠] ولعل هذه العادة كانت في تلك الفترة فقط.

٧/٤-فنون العمارة:

أعجب ولستد بفنون العمارة العمانية، حيث ذكر أن السكان في إبراء بنوا في الأجزاء العليا من منازلهم أسوارًا للتقليل من الرطوبة ووصف الزخارف النحاسية التي تكسو بعض المنازل.[٣١] إضافة إلى ذلك؛ أورد ولستد ذكرًا للتحصينات التي كانت موجودة في قلعة نزوى والتي كانت تستخدم لصد الأعداء والصمود أمامهم.[٣٢] وذكر أن السكان خصصوا فتحات في سور المدينة يعتقد أنها للمدافع. واهتم ولستد بوصف القلاع والحصون التي رآها في بعض المناطق التي زارها، وكذا أغلب التحصينات المستخدمة في هذه القلاع والحصون.

٨/٤-الإيمان بالسحر والشعوذة:

لقد ذكر ولستد أن العمانيين كانوا يؤمنون بالسحر والشعوذة، حيث أنه أورد عددًا من الروايات في هذا المجال، كما ذكر أنهم يرددون بعض الآيات القرآنية كقلائد تقيهم من الشر والحسد.[٣٣] هذه بعض من الاستعراضات للجوانب الاجتماعية

للرحالة الأجانب عن عمان في القرن التاسع عشر، وهي تمثل جانبًا مشرقًا من تاريخ عمان في تلك الفترة.

خَاتِمَةُ

بعد أن استعرضنا أهم الجوانب الاقتصادية والاجتماعية التي دونها الرحالة ولستد عن عمان في القرن التاسع عشر الميلادي نجد أن كتب الرحالة لها قيمة تاريخية كبيرة كمصدر لدراسة الجوانب الاقتصادية والاجتماعية لعمان بما تحتويه من معلومات مختلفة. والجوانب الاقتصادية والاجتماعية في كتابات ولستد قد أعطتنا تصورًا عن المجتمع العماني في تلك الفترة، والتي حاولت أن تصف الجوانب المشرقة والجوانب الأخرى لعمان، لكن على الرغم من ذلك نجد أنه على الرغم من ذلك لا يمكننا الاعتماد على هذه الكتابات؛ لأنها فقط تمثل مشاهدات الرحالة وهم قد جاءوا من مناطق مختلفة عن المجتمع العماني، فهذه الكتابات قد يعتريها بعض الأخطاء أو الزيادات والتهويل. كما أن هذه الكتابات تفتح مجالاً واسعًا للباحثين للحديث عن تاريخ عمان في هذه المجالات المختلفة، ومحاولة التمحيص عن الروايات المختلفة في هذه المجال.

الهَوامِشُ:

(١) المطوع، عبد الله محمد. **الرحالة الغربيون ورواياتهم عن الاحساء**. ج١، ندوة الرحلات إلى شبه الجزيرة العربية، دارة الملك عبد العزيز، الرياض: ٢٠٠٠م، ص٣٥٣.
(٢) الجاسر، حمد. **رحالة غربيون في بلادنا**. مرامر للطباعة الإلكترونية، الرياض: ١٤١٧هـ، ص ٧٠٦.
(٣) الميداني، عبد الرحمن حسن. **أجنحة المكر الثلاثة**. دار القلم، دمشق: ١٩٩٠م، ص ٣٣.
(٤) ياغي، اسماعيل أحمد. "**العلاقات البريطانية العمانية في القرن التاسع عشر**". مجلة دارة الملك عبد العزيز، العدد (٣)، السنة ٦، الرياض: ١٩٨١م، ص١١٨.
(٥) مجموعة باحثين. **عمان في التاريخ**. وزارة الإعلام، سلطنة عمان ودار اميل للنشر، لندن: ١٩٩٥م، ص٥١٤.
(٦) الميداني، مرجع سابق، ص٣٣.
(٧) ولستد، جيمس. **تاريخ عمان رحلة في شبه الجزيرة العربية**. دار الساقي، بيروت: ٢٠٠٢م، ص١٢-١٦.
(٨) ولستد، مصدر سابق، ص ١٨٠.
(٩) نفسه، ص٧٧.
(١٠) نفسه، ص٧٦.
(١١) نفسه، ص ١١٩.
(١٢) نفسه، ص٧٢.
(١٣) نفسه، ص١٥٠.
(١٤) ولستد، مصدر سابق، ص١٣٢.
(١٥) نفسه، ص١٣٣.
(١٦) نفسه، ص١٩٢.
(١٧) نفسه، ص١٣٩.
(١٨) ولستد، مصدر سابق، ص٣٦.
(١٩) نفسه، ص ٣٨.
(٢٠) ولستد، مصدر سابق، ص٢٧.
(٢١) نفسه، ص١٥٠.
(٢٢) نفسه، ص٢٤.
(٢٣) نفسه، ص٤٣.
(٢٤) ولستد، مصدر سابق، ص١٣٨.
(٢٥) نفسه، ص١٤٦.
(٢٦) نفسه، ص٢٠٤.
(٢٧) نفسه، ص ٣٨.
(٢٨) نفسه، ص٩١.
(٢٩) ولستد، مصدر سابق، ص٨٣.
(٣٠) نفسه، ص٨٣.
(٣١) نفسه، ص٤٣.
(٣٢) نفسه، ص٢٥.
(٣٣) نفسه، ص١١٦.

ISSN: 2090 – 0449 Online
UIF Universal Impact Factor, [0.1101].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [0.88].

مقالات

سفراء فرنسيون في المغرب خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلادي
أدوارهم في صياغة السياسة الاستعمارية الفرنسية

محمد العواد
أستاذ التعليم العالي مساعد
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
جامعة ابن زهر - المملكة المغربية

مُلَخّصٌ

وظفت فرنسا عدة آليات من أجل فرض هيمنتها على المغرب، ومن ذلك آلية الامتيازات الأجنبية والتي حصلت بموجبها فرنسا على عدة امتيازات تجارية وقضائية بالمغرب. وهناك أيضًا آلية المعاهدات والمؤتمرات الدولية حيث انتزع الساسة الفرنسيون عدة معاهدات من المخزن المغربي وعقدوا عدة مؤتمرات للضغط عليه. ومن آليات السياسة الفرنسية أيضًا آلية الإصلاحات، فقد عملت فرنسا على فرض إصلاحات على المغرب، أو إفشال تلك المحاولات الإصلاحية الجادة التي حاول المخزن المغربي القيام بها. كما لجأت فرنسا إلى سياسة الحملات الحروب من أجل التوغل في المغرب واحتلال أجزاء من ترابه. ويُعَدّ الجهاز الدبلوماسي حجر الزاوية بالنسبة للإمبريالية الفرنسية تجاه المغرب. فقد عرف المغرب ضغطاً دبلوماسيًا خطيراً لعب فيه السفراء والقناصل دورًا محوريًا. فقد هدفت الدبلوماسية الفرنسية الانفراد بالمغرب خصوصًا وأنها كانت على اطلاع واسع بنقط ضعفه وذلك منذ احتلال فرنسا للجزائر. وفي هذا الإطار وظفت فرنسا عددًا مهمًا من الدبلوماسيين للضغط على المخزن المغربي إما من أجل الحصول على امتيازات تجارية أو قضائية عن طريق عقد عدة معاهدات، وإما بالضغط على السلاطين المغاربة لكي يتراجعوا عن مد يد المساعدة للجزائر أو من أجل افتكاك الأسرى.

بيانات المقال:
تاريخ استلام المقال: ٠٦ مايـــو ٢٠١٥
تاريخ قبـول النشـر: ٣٠ أغسطس ٢٠١٥

كلمات مفتاحية:
تاريخ الدبلوماسية، الدبلوماسي الفرنسي، القناصلة الأوربيون، المخزن المغربي، الإمبريالية الفرنسية

معرِّف الوثيقة الرقمي: DOI 10.12816/0047319

الاستشهاد المرجعي بالمقال:
محمد العواد. "سفراء فرنسيون في المغرب خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلادي: أدوارهم في صياغة السياسة الاستعمارية الفرنسية".- دورية كان التاريخية.- السنة العاشرة- العدد الثامن والثلاثين؛ ديسمبر ٢٠١٧. ص١١٤ – ١٢١ .

مُقَدِّمَةٌ

يُعَدّ السفراء الفرنسيون حجر الزاوية بالنسبة للسياسة الاستعمارية الفرنسية تجاه المغرب خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر. فقد اعتمدت فرنسا على نخبة من السفراء استطاعت بواسطتهم التعرف على مكامن ضعف المخزن المغربي من جهة، وإعداد السياسات المناسبة للتدخل في المغرب من جهة أخرى. ولتحقيق تلك الأهداف عمل الساسة الفرنسيون على تكوين دبلوماسيهم المتوجهين إلى المغرب حتى يكونوا على دراية تامة بالمهام المنوطة بهم. كان الحضور الدبلوماسي الفرنسي صدى للأحداث التي عاشتها فرنسا داخل أوربا، وللأوضاع التي أصبح يتخبط فيها المخزن المغربي. وتبعا لهذا تعددت الأدوار الدبلوماسية التي لعبها السفراء الفرنسيون بالمغرب، ففي البداية عمل هؤلاء السفراء على إيجاد موطئ قدم لفرنسا دون توتير الأوضاع بين الحكومة الفرنسية والمغرب، لكن سرعان ما أصبح الجهاز الدبلوماسي الفرنسي فيما بعد يؤثر في قرارات المخزن المغربي.

تسعى هذه الدراسة إلى تتبع الأدوار التي قام بها السفراء والممثلون الدبلوماسيون الفرنسيون في المغرب والتي تبرز ضمنيا التطور الذي عرفته السياسة الاستعمارية الفرنسية تجاه هذا البلد، بدءا بنهج سفراء فرنسا لسياسة "سلمية" سعت إلى الحصول على العديد من الامتيازات، وانتهاء بممارسة ضغوط عسكرية واقتصادية قوية تمكنت من خلالها فرنسا من احتلال المغرب واستكمال مشروعها الاستعماري بشمال إفريقيا.

فمَنْ هم أهم السفراء الفرنسيون الذين وظفتهم فرنسا في المغرب لتمرير سياستها الاستعمارية، وما هي الأدوار التي أدّاها هؤلاء السفراء، وهل حقق الجهاز الدبلوماسي الفرنسي الأهداف الاستعمارية الفرنسية في المغرب؟

أولاً: مفهوم الآلية الدبلوماسية

ترتبط السياسة الخارجية بالاختيارات الاستراتيجية والسياسية من طرف أعلى هيئة سياسية في الدولة. ففي فرنسا ارتبطت هذه السياسة بالملوك ووزراء الشؤون الخارجية، بينما تعد الدبلوماسية هي التطبيق الفعلي للسياسة الخارجية وذلك بواسطة الدبلوماسيين المفوضين. وفي هذا الصدد فإن البعثة الدبلوماسية تضم مجموعة من الأشخاص المفوضين من طرف دولة معينة يرأسها سفير وتقوم بمهامها الدبلوماسية داخل الدولة التي تم تفويضها بداخلها. وعلى العموم فمن مهام الهيئة الدبلوماسية تمثيل الدولة التي تبعث بها، وحماية مصالحها، والتفاوض مع الدولة التي هي منتدبة بداخلها، وأخيرا وهذا هو الأهم إيصال الأخبار بواسطة كل الوسائل إلى الدولة التي تمثلها عن كل الأحداث التي تجري بالدولة التي تشتغل بها.

ويبقى السؤال المطروح هنا، هو هل يقتصر دور الدبلوماسي على ما يتم إمداده به من أوامر، أم أنه يتجاوز ذلك فيوظف قدراته الخاصة ليمرر سياسات ترتبط إلى هذا الحد أو ذاك بتكوينه أو خلفية معينة تطابق أو تخالف السياسة المنوط له تطبيقها، وبصيغة أخرى عندما نتحدث عن الدبلوماسية الفرنسية هل نكون بصدد الحديث عن دور مؤسسات أم دور أشخاص؟

إن لكلمة (Ambassadeur) مدلولاً يرتبط بواقع أوربا، أي بمؤسسات الدبلوماسية في الدولة الأوربية الحديثة، لقد ظهرت كتابات في أوربا عن السفراء والسفارة منذ القرن السادس عشر الميلادي، حيث ألف مجموعة من السفراء مذكراتهم حاولوا فيها إبراز أهمية المؤسسة الدبلوماسية في العلاقات الدولية. إن السفارة في أوربا مؤسسة واضحة المعالم تتميز بالاستمرارية وبالسهر على رعاية مصالح الدولة التي تمثلها وتعمل على تقويتها، عكس السفارة في المدلول المغربي فهي عمل مؤقت وهي مهمة ذات هدف واحد[(١)]. لقد كانت فرنسا غالبًا ما تعين سفراءها من أوساط الشخصيات التي تنتمي بأفكارها إلى فرنسا "القديمة" L'ancienne France وليس إلى الليبراليين، لقد كان التعيين غالبا من أوساط الأرستوقراطيين ويرجع ذلك إلى كون هؤلاء يمتلكون ثروة خاصة قد يوظفونها في العلاقات الدبلوماسية وذلك لكون أجور السفراء الفرنسيين غالبا ما كانت لا تكفي[(٢)].

إن شخصية السفير وكذا المسؤول الوزاري غالبًا ما تؤثر في الاستراتيجية الدبلوماسية، حيث تكون السياسة الدبلوماسية أكثر نجاعة عندما يكون هناك تفاهم بين المسؤولين الدبلوماسيين. وكمثال على ذلك الوزير "ديلكاسيه" Delcassé (١٨٩٨-١٩٠٥) والذي كان على تفاهم تام مع سفرائه "كامبون" Cambon و "باريير" Barrère و "بامبار" Bompard[(٣)]. ففي الفترة الممتدة مابين (١٨٧١-١٩١٤) كان اتخاذ قرار على مستوى السياسة الخارجية يصدر عن مجموعة صغيرة من الموظفين المدنيين والعسكريين، فإلى حدود ١٩١٥ لم يكن لمجلس الشيوخ الفرنسي لجنة الشؤون الخارجية، حيث كانت الاتفاقيات تدرس من طرف لجان الجمارك أو لجان المستعمرات.[(٤)]

لقد أسس "بوتمي" E.Boutmy المدرسة الحرة للعلوم السياسية سنة ١٨٧٢ والتي تكفلت بإعداد الدبلوماسيين وتلقينهم كل المعارف حتى يكونوا على دراية بالمهام المنوطة بهم خاصة بالعالم الإسلامي. كما تم تحديد دور العسكريين أيضا في الميدان الدبلوماسي، فمساهمة هؤلاء لم تقتصر على التعرف على أسلحة الدولة التي يوجدون بها، بل يمكن لهم أيضا أن يلعبوا دورًا دبلوماسيا ويمكن أن يعين بعضهم سفيرًا.[(٥)]

نلاحظ إذن مدى تشابك الآلية الدبلوماسية الفرنسية ومدى تنوع المتدخلين في تفعيل هذه الآلية. ولهذا يعد الجهاز الدبلوماسي بمعناه العام حجر الزاوية في السياسة الفرنسية تجاه المغرب، فقد لعب السفراء والقناصل دورا مهما في إمداد فرنسا بالتقارير الكفيلة برصد مكامن القوة والضعف بالمغرب. لقد كان الحضور الدبلوماسي الفرنسي صدى للأحداث التي تعيشها فرنسا في أوربا من جهة، وللأحداث التي يتخبط فيها المخزن المغربي خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلادي من جهة أخرى. فما هي أهم ملامح الآلية الدبلوماسية قبل هذه الفترة؟ وكيف كان الحضور الدبلوماسي؟ وما هي اهتمامات هذا الجهاز وهل حقق مبتغاه؟

ثانيًا: الجهاز الدبلوماسي الفرنسي في المغرب قبل القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلادي

لقد تعددت الأدوار الدبلوماسية التي لعبها ممثلوا فرنسا. وكغيره من البلدان الإسلامية كان المغرب تحت عيون الدبلوماسية الفرنسية. أورد "جاك كايي" J.Caille أهم السفراء الفرنسيين الذين كانوا يقيمون بطنجة وهم من سنركز عليهم دونما الحديث عن باقي الترسانة الدبلوماسية التي كانت مبثوثة في مختلف الموانئ المغربية. لقد مثل مصالح فرنسا خلال

القرن ١٦م خمس دبلوماسيين وهم:"بيتون كولونيل بيير" Piton Colonel Pierre de (1533) و"جان باكلون" Pacquelon Jean (1543) و"مانفور" Montfort (1559) و"بوردو روبير" Bordot Robert (1561) وأخيرًا " ليستيل أرنو" Lisle (Arnoult de) (1606-1607).[٦]

أما خلال القرن السابع عشر الميلادي، فقد كان هؤلاء السفراء هم:

"فابر جاك" Fabre Jaques (1614-1616) و "كابان روبير دو بونفاس"Cabanes Robert de Boniface (1617) و"دوماس كلود" Du Mas Claude (1619) و"رزلي شوفالي إسحاق" Razilly Chevalier Isaac و"موليّر" Molères (1631) و"كابرون أنطوان" Cabiron Antoine (1634) و"دوشلاغ بريام" Du Chalard Priam (1635) و"لابار أنطوان دو فيبغ" La Barre Antoine de Febre (1681) و"سانت أمان فرانسوا" Saint-Amans François (1682) وأخيرًا "سانت ألون فرانسوا بيدو" Saint-Olon François Pidou (1693).[٧]

نلاحظ أن أهم المبعوثين كانوا أكثر عددًا خلال القرن السابع عشر الميلادي حيث وصل عددهم إلى (٨) ممثلين دبلوماسيين، في حين كان عددهم خلال القرن السادس عشر الميلادي (٥) ممثلين فقط، وفي القرن الثامن عشر والرابع والقرن التاسع عشر الميلادي (٣) ممثلين دبلوماسيين، مما يطرح سؤالاً عن سبب إرسال فرنسا لمبعوثيها بكثرة خلال القرن السابع عشر الميلادي؟ ألا يكون ذلك راجعًا إلى القلاقل التي كان يعيشها المغرب آنذاك ورغبة فرنسا في الحفاظ على مصالحها وبالتالي ربطها لعدة علاقات سواء مع السلطة الشرعية التي يمثلها السلطان أو مع باقي الكيانات السياسية الأخرى التي ظهرت في المغرب خلال الفترة نفسها. إن أغلب مهام هؤلاء الدبلوماسيين باختلاف أنواعهم كانت تتمحور خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر الميلادي حول الحصول على امتيازات تجارية وضمان تحرك السفن الفرنسية بحرية بالسواحل المغربية، ومن جهة أخرى افتكاك الأسرى الفرنسيين وكان هذا هو الغالب.

هذا باختصار أهم ما يمكن قوله عن التحرك الدبلوماسي الفرنسي تجاه المغرب قبل الفترة المدروسة، هذا التحرك الذي ولاشك لم يكن منعزلاً عما لحقه خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين، فأهداف الامبريالية الفرنسية واحدة رغم اختلاف آليات تنفيذها. فمن هم أعضاء الجهاز الدبلوماسي؟ وما هي المهام التي أنيطت بهم خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين؟ وكيف ساهمت الآلية الدبلوماسية في تفعيل السياسة الاستعمارية الفرنسية تجاه المغرب؟

ثالثًا: أعضاء الجهاز الدبلوماسي ومهامهم خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلادي

عرف المغرب ضغطًا دبلوماسيًا خطيرًا لعب فيه السفراء والقناصل دورًا محوريًا، وما تسارع عمل الآلية الدبلوماسية الفرنسية بالمغرب إلا دليل على رغبة فرنسا في الإنفراد بهذا البلد الذي كانت على اطلاع واسع بنقط ضعفه وذلك منذ احتلالها للجزائر. يقول أحمد بن خالد الناصري راصدًا ملامح تطور السياسة الفرنسية تجاه المغرب أواخر القرن التاسع عشر الميلادي "... وأعلم أيضًا أن أمر هؤلاء الفرنج في هذه السنين قد علا منكرًا وظهر ظهورًا لا كفاء له، وأسرعت أحواله في التقدم والزيادة إسراعًا متضاعفًا... وعاقبة ذلك وغايته عند الله تعالى المنفرد بالغيب"[٨].

ظل القناصلة الأوربيين نشيطين في مدينة طنجة حتى مطلع القرن الثامن عشر الميلادي، وهي وضعية شاذة كانت تحرج العلاقات الفردية مع المخزن حيث بقي المثلون بعيدين عما يجري في داخل المغرب، ولم تكن بريطانيا تمثل إلا في اثنين من أهم المرافئ في هذا البلد، ونفس الوضعية بالنسبة للقنصل العام لفرنسا مع إضافة وكالتين له بكل من الجديدة والرباط. لم يكن عمل الدبلوماسية الفرنسية بالمغرب يتم في ظروف كتلك التي رغبت فيها فرنسا، فالمغرب أيضا ضم قوى أجنبية نافست بحدة الساسة الفرنسيين، ولعل بريطانيا هي أكبر منافس للمشروعات الفرنسية في المغرب خاصةً وفي شمال إفريقيا عامة.

يقول كاتب الدولة في الحكومة البريطانية المكلف بالشؤون الداخلية وشؤون المستعمرات "بورتلاند" Portland في رسالة وجهها إلى "ماترا" Matra ممثل بريطانيا لدى السلطان المغربي مولاي سليمان (١٧٩٢-١٨٢٢) بطنجة "... إن هناك ما يحمل على الاعتقاد بأن الفرنسيين يفكرون في بعض المشاريع العدوانية تجاه بلدان شمال إفريقيا، بأمل أن يكسبهم ذلك قوة إضافية تمكنهم من بلوغ هدفهم المتمثل في غزو مصر... لهذا فإنني أحتكم بصفة خاصة على مراقبة التحركات الفرنسية في تلك الجهة (طنجة) بكل ما يقتضي ذلك من يقظة، وعند إبلاغ سلطان المغرب بخطورة هذه الأطماع، عليك انتهاز الفرصة لفضح سياسة المخادعة والتحايل المتبعة من طرف الفرنسيين وتقوية مكانتنا عنده"[٩].

لم يمنع كل هذا من أن توظف فرنسا عددًا مهمًا من الدبلوماسيين للضغط على المخزن المغربي إما من أجل الحصول على امتيازات تجارية أو قضائية، عن طريق معاهدات و إما

بالضغط على السلاطين المغاربة لكي يتراجعوا عن مد يد المساعدة للجزائر أو افتكاك الأسرى.

٣/١-"أندري ري" Rey André (1733-1736)

كان من تجار مارسيليا استقر بسلا منذ أمد، وقد تم تكليفه سنة ١٧٣٣ من طرف الوزير "موربّاص" Maurepas للتفاوض مع السلطان مولاي عبد الله من أجل تحرير بعض الأسرى الفرنسيين وفي نفس الوقت تحضير الأجواء لقدوم أحد السفراء الفرنسيين الذي أتى في مهمة تدور حول توقيع اتفاقية مع المغرب. بعدما مكث ثلاثة أشهر في مكناس، زوده السلطان برسالة إلى لويس الخامس عشر (١٧١٥- ١٧٧٤) يشترط عليه فيها أن يزوده بالبارود إن أراد أن يطلق سراح أسراه، وبعد تردد طويل أرسلت فرنسا موافقتها في الوقت الذي عزل فيه مولاي عبد الله[١٠]. وقد عاد Rey إلى سلا سنة ١٧٣٧ ممارسًا لبعض الأنشطة التجارية، وقد أرسل إليه Maurepas رسالة يجعله من خلالها مشرفًا على كل التجار الفرنسيين.[١١]

٣/٢-"جان جاك سالفا" Salva (Jean-Jacques) 1761- 1767

يعتبر أيضًا من بين تجار مارسيليا، قام السلطان سيدي محمد بن عبد الله (١٧٥٧-١٧٩٠) باستدعائه لقصره في سنة ١٧٦٤ من أجل أن يناقش معه عقد السلم مع فرنسا، وما يفسر هذا هو أنه في نفس السنة أكد (Le Duc de Praslin) "دوق دو بغاسلين" وزير الشؤون الخارجية على عهد لويس الخامس عشر، على (Salva) بأن يتفاوض مع السلطان حول عقد معاهدة جديدة بين المغرب وفرنسا. ورغم إظهار السلطان رغبته في السلم إلا أنه اقترح إرسال سفير للتفاوض في الأمر، وبعد إقرار السلم بين البلدين تلقى (Salva) مكافئة على أعماله تقدر ب ١٧٠٠ جنيه[١٢]. يبدو أن الجهاز الدبلوماسي خلال النصف الأول من القرن الثامن عشر الميلادي، كان ينهج سياسة المرونة واللين بغية الحصول على موطئ قدم له بالمغرب، فكانت مطالبه ذات صبغة تجارية أو افتكاك الأسرى، ولم يقحم الدبلوماسيون الفرنسيون أنفسهم لحدود تلك الفترة في أمور تتعلق بالسيادة المغربية أو التأثير على قرارات المخزن المغربي.

٣/٣-"كونت دو برينيو بيير أنديِنو" Breugnon (Pierre Handéneau, Comte de)

يُعَدّ "برينيو" قائدًا عامًا للسلاح الملكي على عهد لويس الخامس عشر، أرسل إلى المغرب سنة ١٧٦٧ بمثابة سفير لفرنسا، وذلك من أجل عقد اتفاقية مع المغرب هذه الاتفاقية التي كان قد مهد لها فيما قبل (Salva)، حيث بعد بضعة أيام من التفاوض تمكن "برينيو" من التوقيع على اتفاقية -تم تحضيرها بقصر فرساي- في ٢٨ ماي ١٧٦٧.

مكنت هذه الاتفاقية فرنسا من ترتيب أوراقها وإحكام قبضتها بالتدريج على شؤونها بالمغرب وذلك بعد قطيعة وتوقف منذ ١٧١٨، والأخطر في هذه الاتفاقية أنها تضمنت بنودا هي الأولى من نوعها التي مست بالسيادة المغربية خصوصا سيادة السلطان على رعاياه[١٣]. وعقب توقيع هذه الاتفاقية تم تعيين "لويس دو شينيي" Louis de Chénier قنصلا لفرنسا بالمغرب، وباشرت فرنسا حماية مصالحها التجارية في المغرب وحماية السفن الفرنسية من تهديد قراصنة سلا وتطوان والعرائش[١٤]. إن توقيع معاهدة خلال تلك الفترة لم يكن بالأمر الهين وذلك بالنظر إلى طبيعة العلاقة بين "دار الحرب" و"دار الإسلام"، وكذلك بالنظر إلى اشتداد المنافسة الأجنبية حول المغرب، فآلية المعاهدات رغم طابعها السلمي هي الباب الوحيد الذي كان بالإمكان لفرنسا أن تدخل منه، ولكي توقع معاهدة يجب أن يكون لديها جهازًا دبلوماسيًا بارعًا.

عندما اعتلى نابليون بونابارت (١٨٠٤-١٨١٤) عرش فرنسا أصبحت الدبلوماسية الفرنسية أكثر ضراوة بالمغرب، نظرًا للأوضاع التي كان يعرفها المتوسط من صراع مرير بين فرنسا وإنجلترا. لقد كان احتلال بلاد المغارب يمثل عند نابليون ضرورة إستراتيجية ترمي إلى بسط السيطرة الفرنسية على البحر المتوسط وانتزاع السيادة فيه من يد بريطانيا، ولهذا الهدف أرسل نابليون الضابط "بوتان" Boutin في شهر يوليوز ١٨٠٨ إلى الجزائر ليقدم له دراسة مفصلة عن مراكز الدفاع والتحصينات الإستراتيجية للمنطقة، وقد استفادت فرنسا من تقرير الضابط المذكور سنة ١٨٣٠. كما أرسل نابليون "دومينيكو باديا ليبيليش" (Dominigo Badia y Libilich) إلى المغرب الأقصى سنة ١٨٠١ ، والذي استقر بطنجة لمدة طويلة تحت إسم مستعار وهو "علي العباسي"، حيث كان يحسن التكلم باللغة العربية، وقد قدم تقريرًا مدعمًا بالخرائط عن المغرب وظروفه وحدوده وتحصيناته وعقلية أهله، وأشار على نابليون بأن المغاربة يمكن أن ينهزموا في البحر ولكنه شكك في انهزامهم برًا.[١٥] بهذه الضغوط الدبلوماسية كان نابليون يطمح إلى عزل المغرب عن إنجلترا باقتراح مساعدته من أجل تحرير الثغور المحتلة، لكن نابليون سرعان ما أرسل الضابط الفرنسي"بوريل" (Burel) يهدد بمهاجمة المغرب إذا لم يوقف دعمه للإنجليز.

٣/٤-"كابتان أنطوان بوريل" Burel (Capitaine-Antoine) 1808

لقد حمل "بوريل" سنة ١٨٠٨ رسالة من نابليون إلى السلطان المولى سليمان (١٧٩٢-١٨٢٢) وقد كانت فرنسا تطمح من وراء هذه البعثة إلى الحد من التأثير البريطاني المتزايد في أوساط المخزن المغربي، وفي الوقت نفسه الحصول على

معلومات بخصوص الوضعية العسكرية للمغرب[١٦]. ورغم ضغوط "بوريل" فإن السلطان أكد بأن تعامله مع الفرنسيين لن يخرج عن نفس نمط تعامله مع الإنجليز[١٧]. ورغم ذلك فقد عاد "بوريل" إلى فرنسا وهو يحمل تقريرًا مفصلاً عن أوضاع المغرب في محاولة لاستثمار ذلك عندما تفكر فرنسا في شن حملة على هذا البلد[١٨].

٥/٣-"كولونيل أوفري كيوم" Auvray (Colonel Guillaume) 1830

ففي إطار تداعيات احتلال فرنسا للجزائر تم إرسال Auvray من طرف الجنرال "كلوزيل" (Clauzel) قائدًا لجيش إفريقيا بالجزائر، لكي يقدم للسلطان المولى عبد الرحمن (١٨٢٢-١٨٥٩) إنذارا مضمنه أن يسحب المغرب جيشه من تلمسان[١٩]، وأن يسلم الأمير مولاي علي إلى وهران وأن يقوم المغرب بأداء تعويضات عن الخسائر الناجمة عن تدخله[٢٠]. رفض عامل طنجة أن يوجه إنذار الجنرال إلى السلطان وعاد Auvray إلى الجزائر في يناير ١٨٣١، في الوقت الذي قام فيه ممثل الحكومة الفرنسية "شارل دومورنيي" بمهمة مماثلة بطنجة مواصلاً مساعيه بصبر لدى المخزن[٢١].

٦/٣-"كونت شارل دو مورني" Mornay (Comte Charles de) 1832

قدم إلى المغرب في ٢٢ مارس ١٨٣٢ بخصوص الوجود المغربي بتلمسان وتم استقباله من طرف السلطان بمكناس، وقد أخذ المبعوث الفرنسي وعدا بتحرير الأسرى الفرنسيين وإنهاء احتلال تلمسان.[٢٢] إن الأهم من ذلك هو كون "مورنيي" قد جاء لمهمة سرية أخرى وهي إحصاء القوة العسكرية المغربية، الأمر الذي قام به على أحسن وجه، حيث استطاع أن يحصل على معلومات عن وضعية أهم الأقاليم المغربية الأمر الذي مكنه من وضع تقرير حول "الحالة العسكرية للأقاليم والمدن الساحلية وبعض المدن الرئيسة والقبائل الكبرى بالمناطق الداخلية للمغرب سنة ١٨٣٢".[٢٣]

لقد تضمن التقرير إحصائيات ومعلومات غاية في الدقة، من المؤكد أنه تم توظيفها بعد معركة إيسلي والدخول الفعلي للفرنسيين للمغرب، فقد ذكر "مورنيي" أهم المدن وما تضمنته من عتاد حربي فجاءت الإحصائيات على الشكل التالي:

- تطوان: (١٠٠) فارس و(١٠٠) مكلف بالمدفعية.
- طنجة: حصن واحد و(١٠٠) مدفع و(٢٠٠) فارس و(٧٠٠) جندي.
- العرائش: حامية واحدة تضم ٥٠٠ رجل موزعين على الشكل التالي: (٣٠٠) فارس و(١٠٠) مكلفين بالمدفعية و(١٠٠) من المشاة.
- المهدية: حامية واحدة تضم (٤٠) رجل و(١٦) قطعة مدفعية.
- سلا: حامية من (٨٠٠) رجل و(١) مركب Goélette حربي مسلح.
- الرباط: (٣٠) إلى (٤٠) مدفع.
- الدار البيضاء: (٢٠) مكلف بالمدفعية و(١٠٠) فارس.
- مازغان: (١٠٠) مكلف بالمدفعية.
- آسفي: (١٠٠) فارس و(١٠٠) من المشاة والمكلفين بالمدفعية.
- موكادور: برج واحد بالجزيرة القريبة من المدينة لحماية الميناء و(١٠٠) قطعة مدفعية[٢٤].

وقد أكد السفير على الأهمية التجارية التي تحظى بها موكادور، وأن السيطرة عليها يعد بمثابة ضربة قاضية لتجارة البلد، والواقع أن ما أشار إليه السفير هو ما وقع بالفعل وذلك عندما تم قصف مدينة الصويرة بعد معركة إيسلي من طرف "جوان فيل" Joinville سنة ١٨٤٤. ويضيف التقرير بأن المغرب جهز حوالي (١٠) موانئ تضم حوالي ١٠.٠٠٠ رجل، و(٥٠٠) مدفع، كما أن للسلطان المغربي احتياطات بالمدن الداخلية، تتلخص في: ٩٠٠٠ رجل و٥٠ قطعة مدفعية بفاس، و ١٢.٠٠٠ رجل و٤٠ مدفع بمكناس ثم ٤٥٠٠ رجل بمراكش[٢٥]. لم يغب عن ذهن السفير "دومورنيي" الحديث عن أهمية القبائل المغربية ومجالات تأثيرها، وعلى الخصوص قبائل الشمال والجهة الشرقية والتي اعتبرت بأنها تشكل خطرا على فرنسا بالجزائر، وقد خلص السفير بأن أكبر عدد يمكن للسلطان جمعه في حرب من حروبه هو ١٠٠.٠٠٠ رجل[٢٦].

إن احتلال المغرب ما هو إلا جزء من مخطط عام حضره الساسة الفرنسيون لإنشاء إمبراطورية فرنسية بشمال إفريقيا، هذا المخطط الذي عبرنا عنه بالسياسة الفرنسية التي وظفت مختلف الآليات في سبيل تنفيذ مشروعها الاستعماري الذي كان يحمل شعاره كل الساسة الفرنسيين.

٧/٣-"ليوتنان كولونيل فريديرك دو لاروا" La Rue (Lieutenant-Colonel Frédéric de) 1836

لقد قدم "دولاروا" إلى المغرب لكي يحتج لدى المخزن على المساعدات التي يتلقاها الأمير عبد القادر من المغرب حيث تفاوض مع السلطان المغربي الذي أقره بسيادة فرنسا على الجزائر وبأن يلتزم الحياد تجاه الأمير عبد القادر[٢٧]. ومن بين من وظفهم الجهاز الدبلوماسي الفرنسي من أجل الحصول على معلومات تخص المغرب خلال تلك الفترة الضابط والدبلوماسي الفرنسي (Léon Roches) "ليون روش".[٢٨] ألحق "ليون

روش" في ماي ١٨٤٥ بالسفارة الفرنسية في طنجة ليعمل على إقناع السلطان بالمصادقة على اتفاقية للامغنية المضاة في ١٨ مارس من نفس السنة، فعمل جهده واستغل موهبته ومعرفته باللغة العربية وعادات المغاربة لحمل السلطان ووزرائه وعماله على التعاون مع فرنسا. وقد ساهمت ضغوطه في موافقة السلطان على اتفاقية الحدود، عندها حولت القنصلية العامة بطنجة إلى بعثة دبلوماسية وعين "ليون روش" سكرتيرا بها حيث أصبح اسمه يذكر في المراسلات التي جرت بين السلطان مولاي عبد الرحمن ووزيره محمد بن إدريس، وبين ملك فرنسا وحكومته ودبلوماسيه المعتمدين في المغرب(٢٩).

نلاحظ إذن كيف تطور دور الدبلوماسيين الفرنسيين على اختلاف مشاربهم وأصبحوا يكيدون للمغرب بمختلف الطرق، ولم يعد يكفيهم ويكفي الساسة الفرنسيين ما حصلوا عليه من امتيازات تجارية عن طريق المعاهدات التي وقعوها، بل أصبح الحديث عن احتلال مناطق من المغرب، وهناك عامل آخر ساهم في تطور عمل الهيئة الدبلوماسية الفرنسية بالمغرب، وهو منافسة الجهاز الدبلوماسي البريطاني في شخص "جون دراموند هاي" John Drummond Hay .

من بين الساسة الفرنسيين الذين اجتهدوا في تطبيق سياسة فرنسا بالمغرب، الوزير المفوض بطنجة "أورديكا" Ordega الذي عين منذ ١٨٨١، وامتاز بسياسة احتضان أصحاب الطرق الصوفية أولهم شريف وزان. عندما اجتمع "أورديكا" ب "دراموند هاي" في نهاية مارس ١٨٨٣ أكد له بأن احتلال فرنسا لفكيك قد لا يضر بالمصالح البريطانية، لكن "هاي" أكد بأن ما ستأخذه فرنسا بالمغرب سيفتح الباب واسعا أمام القوى الأجنبية التي ستطالب بنفس الأمر الذي سيؤثر فعلا على المصالح البريطانية بالمنطقة(٣٠). لقد ذهب "أورديكا" إلى حد التهديد باحتلال المغرب، وذلك عندما أبلغ "دراموند هاي" بأن نفوذ السلطان بدأ يتضعضع وبأن فرنسا لن تصبر على الفوضى التي تشهدها البلاد، وأكد له بأنه يجب أن تقوم بريطانيا بفرض سيطرتها على المغرب لكي يتمكن الفرنسيون الموجودون بالجزائر من أن يتعاملوا مع أشخاص موثوق بهم، وإن لم يحدث هذا فلن تتردد فرنسا في بسط سيطرتها على ممتلكات السلطان(٣١). لقد كان سلوك "أورديكا" يتميز بعدم الحذر وعدم الرزانة، فقد تميز كدبلوماسي فرنسي بالمغرب بالشدة وتنفيذ سياسة قد فاقت في أحيان عدة ما كانت تطمح له فرنسا على الأقل خلال تلك الفترة، وبعد المغرب ذهب لممارسة مهامه ببوخاريست بعدما خلق فرصا عديدة من التوتر داخل المغرب.

لقد اضطرت فرنسا أن تغير سياستها تجاه المغرب، حيث اعتمدت على سياسة التقرب من أصحاب القرار واختارت لذلك "شارل فيرو" Charles Féraud الذي عين وزيرا مفوضا لفرنسا بالمغرب ما بين (١٨٨٤-١٨٨٨) خلفا ل "أورديكا"، وقد عمل "فيرو" على الدمج بين التغلغل السياسي والتغلغل الاقتصادي. لقد تقلد "فيرو" عدة مهام ويعد من أهم من تعرف على عادات المسلمين ودينهم وتكلم اللغة العربية، وتعد مهمته إلى فاس من أهم البعثات التي جنت منها فرنسا امتيازات مهمة في وقت حرج ازدادت فيه شراسة الدول الأجنبية المنافسة لها في المغرب.

ومن بين القوى الأجنبية التي ظهرت على الساحة المغربية ألمانيا التي حاول "ديلكاسيه" من قبل جس نبض ساستها بخصوص طموحاتهم بالمغرب، ورغم الجهود التي بذلها الدبلوماسيون الفرنسيون في سبيل أن تمكن ألمانيا فرنسا من المغرب، فإنهم كانوا على علم بأن عقدة المسألة المغربية توجد في لندن، وبأن الحل الذي سيضمن حياد بريطانيا تجاه المغرب هو التنازل لها على مصر وهو الأمر الذي نص عليه فيما بعد الاتفاق الودي سنة ١٩٠٤.

إن آخر الدبلوماسيين الذين يمكن الحديث عن دورهم، هو "سان روني طاياندي" Saint René Taillandier الذي تقلد منصب الوزير المفوض بطنجة مكان "ريفوال" Revoil الذي تولى منصب الوالي العام بالجزائر. وبعدما احتلت فرنسا الواحات كثرت مشاكل الحدود بين الطرفين مما جعل فرنسا تحتج وتنذر المغرب من مغبة هذه المسألة، ففي ٢٨ مارس ١٩٠١ سلم الوزير المفوض في طنجة Taillandier تحذيرا للمخزن حول هجمات القبائل المغربية على القوافل الفرنسية نحو الواحات وقد حمل التحذير المسؤولية مباشرة للمخزن ومما جاء فيه "... إن الحكومة الفرنسية تلفت مرة أخرى انتباه جلالة السلطان إلى خطورة هذا الموقف، وإن الحكومة الفرنسية قد أوضحت أن لا مطمح لها في الأراضي المعترف بأنها مغربية حسب معاهدة ١٨٤٥..."(٣٢).

خَاتِمَةُ

إذا تتبعنا للأدوار التي قام بها هؤلاء السفراء والمثلون الدبلوماسيون الفرنسيون، نلمس من خلاله التطور الذي عرفته السياسة الفرنسية تجاه المغرب بدء بالمطالبة بامتيازات تجارية على عهد السلطان محمد بن عبد الله (١٧٥٧- ١٧٩٢)، وزمن السفير "برينيو"، إلى مرحلة أصبحت تغازل فيها فرنسا المجالات المغربية وتهدد Ordiga و"أورديكا" Taillandier باحتلالها على عهد "تاياندي".

عرف المغرب إذن تحركا مكثفا للآلية الدبلوماسية زاد من حدته وتنوعه خوف فرنسا من ضياع مصالحها في المغرب خاصة وأن فرنسا لم تجن بعد ثمارها كليًا خصوصًا وأنها تحلم بإنشاء إمبراطورية فرنسية بشمال إفريقيا، هذه الإمبراطورية التي كانت إلى حدود نهاية القرن التاسع عشر الميلادي بعيدة التحقق.

اتبع الجهاز الدبلوماسي الفرنسي بالمغرب في البداية سياسة مرنة وذلك من أجل الحفاظ على مصالح فرنسا بهذا البلد، خصوصا أمام منافسة بريطانيا. فكانت مطالب فرنسا تركز على ما هو تجاري أو ما تعلق بقضية الأسرى. بعد ذلك أقحم الدبلوماسيون أنفسهم في أمور تتعلق بالسيادة المغربية بل وأثروا في قرارات المخزن المغربي.

استطاع الدبلوماسيون الفرنسيون انتزاع العديد من الامتيازات التجارية والقضائية، بل وتمكنوا من كشف مكامن الضعف التي كان يعاني منها المغرب سواء على المستوى الاقتصادي أو العسكري أو الإداري. الأمر الذي مهد الطريق أمام الإمبريالية الفرنسية بهذا البلد.

الهَوامِشُ:

(١) عبد المجيد القدوري، **سفراء مغاربة في أوربا ١٦١٠-١٩٢٢، في الوعي بالتفاوت**، منشورات كلية الآداب، ط١، الرباط، ١٩٩٥، ص٨-٩.

(2) René Girault, **Diplomatie européenne et impérialismes**, Masson, Paris, New York, Barcelone, Milan, 1979, pp. 13-14.

(3) René Girault, **Op.Cit**, p.16.

(4) **Ibid**. p.18.

(5) **Ibid**., pp.20-21.

(6) J.Caille"Ambassadeurs-envoyes Particuliers et représentants Officieux de la France au Maroc", In **Héspéris**, T. 3-4, PP. 355-361.

(7) J.Caille, "Ambassadeurs...", PP.157-360.

(٨) أحمد بن خالد الناصري، **الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى**، تحقيق جعفر الناصري ومحمد الناصري، البيضاء، ١٩٥٦، ج٩، ص ٢٠٩.

(٩) محمد المنصور، "**الجهود المغربية من أجل استرجاع مدينة سبتة في عهد مولاي سليمان**"، مجلة كلية الآداب، الرباط، العدد ٥-٦، ١٩٧٩، ص ٣٠.

(١٠) وفيما بعد (سنة ١٧٣٦) قدم Rey إلى المغرب صحبة العديد من رجال الدين الفرنسيين، لكنه بقي لمدة تفوق الشهر على ساحل سلا، وعندما لم يعط له ترخيص بالقدوم إلى مكناس عاد أدراجه إلى فرنسا، يُنظر:

J.Caille, "Ambassadeurs"..., P.360.

(11) **Ibid**., p.360.

(12) **Ibid**., p.360.

(١٣) لقد أسست هذه الاتفاقية لنظام الحمايات القنصلية بالمغرب الذي عانى من تبعاته المخزن المغربي بشكل كبير.

(١٤) Pierre de Cenival, "la Mission de Louis Chénier, Consul de France à Salé 1767-1782", In **Héspéris**, T.8, 1929, pp.23-35.

(١٥) للإشارة فقد أدى "باديا" مهمة مشابهة قبل ذلك لبلاده، وقد قدم مشروعه إلى Godoy رئيس الحكومة الإسبانية المعروف بأمير السلم. وقد هيأ "باديا" الظروف ل "أنطوان بوريل" الذي حل بالمغرب سنة ١٨٠٨، ودون معلومات عسكرية غاية في الدقة. يُنظر: إبراهيم حركات، **المغرب عبر التاريخ**، دار الرشاد الحديثة للنشر والتوزيع، ط٢، البيضاء، ج٣، ١٩٩٤، ص ١٦٧.

J.L.Miège, **le Maroc et L'Europe** , La Porte, Rabat 1989, T.2, p.19.

(١٦) لقد تخرج "أنطوان بوريل" من البوليتكنيك وساهم في حروب نابليون بإيطاليا ومصر وهولندا، وقد أعد تقريرًا مفصلاً عن المغرب يرصد فيه أهم مكونات الجيش المغربي آنذاك. يُنظر: إبراهيم حركات، **المغرب**...، ج.٣، ص ١٥٥.

(17) J.Caille," Ambassadeurs"..., p.362.

(١٨) لقد كثر الحديث في أوساط المخزن المغربي خلال تلك الفترة حول إمكانية شن نابليون لحملة على المغرب كتلك التي شنها على مصر، وقد لعبت الدعاية البريطانية في ذلك دورًا كبيرًا.

(١٩) على إثر احتلال فرنسا للتراب الجزائري، قدم وفد من أهل تلمسان راغبين في أن يبايعوا المولى عبد الرحمن وأن يعين من ينوب عنه، وبعد استفتاء العلماء تم رفض الأمر، لكن إلحاح هذه القبائل جعل السلطان يرسل مولاي علي بن مولاي سليمان للنيابة عنه بالمنطقة وأصطحب معه ٥٠٠ جندي، هذا الأمر الذي لم يرق للفرنسيين. يُنظر: خالد بن أحمد الناصري، **الاستقصا**...، ج.٩، ص ٢٧-٣١. إبراهيم حركات، **المغرب**...، ج.٣، ص ١٨٨-١٨٩.

(٢٠) J.Caille, "Ambassadeurs"..., P.362.

(٢١) وبفعل تطور الأحداث بالجزائر وتوتر العلاقات بين الإدارة المغربية في تلمسان وبعض القبائل، تم سحب الإدارة المغربية سنة ١٨٣٢. ينظر: إبراهيم حركات، **المغرب**...، ج.٣، ص ١٨٩-١٩٠.

(22) Jean Ganiage, **Histoire Contemporain du Maghreb de 1830 à nos Jours**, Fayard, 1994, p.323. J.Caille, "Ambassadeurs"..., p.362.

عثمان المنصوري، **العلاقات المغربية – البرتغالية ١٧٩٠- ١٨٤٤**، مطبعة فضالة، المحمدية، ٢٠٠٥، ج١، ص ٧٥.

(23) Ahmed Farouk, "Les Forces Marocaines Pouvaient-elles inquiéter la France Lors de la Prise d'Alger", In **Héspéris Tamuda**, Vol 28, 1990, Pp.47-63.

(24) Ahmed Farouk, "Les Forces"..., pp.47-63.

(25) Ibid., pp.47-63.

(26) Ibid., pp.47-63.

(27) J.Caille," Ambassadeurs"..., p.362.

(٢٨) التحق "ليون روش" بالجزائر سنة ١٨٣٢ حيث كان والده من المعمرين فيها، فتعلم العربية وعين ضابطًا مترجمًا، وفي سنة ١٨٣٧ التحق بمعسكر الأمير عبد القادر، فتظاهر بالإسلام وسمى نفسه "عمر ولد روش" وزوجه الأمير بامرأة مسلمة وجعله أمين سره الخاص، ولما استأنف الأمير عبد القادر المقاومة ضد فرنسا تخلى "ليون روش" عنه سنة ١٨٣٩ والتحق بالجزائر العاصمة وكلفته الحكومة الفرنسية بعدة مهام في القيروان والقاهرة ومكة، كما حضر معركة إيسلي. يُنظر: **الوثائق**، المجموعة الثانية، المطبعة الملكية، الرباط، ١٩٧٦، ص ١٨.

(٢٩) نفسه، ص ١٨.

(٣٠) خالد بن الصغير، **المغرب وبريطانيا العظمى في القرن التاسع عشر (١٨٥٦-١٨٨٦)**، منشورات كلية الآداب، ط٢، الرباط، ص٣٤٥-٣٤٦.

(٣١) روجرز، **تاريخ العلاقات المغربية-الإنجليزية**، ترجمة يونان لبيب رزق، دار الثقافة، ط١، ١٩٨١، ص ٢٦٢-٢٦٣.

(32) Jacques Caille, **La Petite Histoire du Maroc, T.3, (1852-1912)**, Librairie Farairre, Céré, 1954, p.116.

المغرب في مرآة الآخر
تحليل صورة المغرب في الكتابات الكولونيالية

د. محمد مزيان
أستاذ التعليم الثانوي التأهيلي
دكتوراه في التاريخ المعاصر
فاس – المملكة المغربية

مُلَخّص

تجمع الأدبيات التاريخية المغربية على أن التكالب الأوربي بشكل عام والفرنسي بشكل خاص تزايد بعد احتلال هذه الأخيرة للجزائر سنة ١٨٣٠، وعلى وجه التحديد بعد هزيمة الجيوش المغربية أمام نظيرتها الفرنسية في واقعة إيسلي ١٨٤٤ التي لم تكن هزيمة عسكرية فحسب بل معركة أزالت هيبة الدولة المغربية وأظهرت عتاقة المخزن المغربي واهتراء مؤسساته. لهذا وجهت فرنسا جهودها لاحتلال المغرب بأقل تكلفة ممكنة وكانت تردد: "كما قادتنا الجزائر لاحتلال تونس يجب أن توصلنا لاحتلال المغرب". لهذا وظفت جميع الوسائل الممكنة لتحقيق هذا الغرض من ضغط عسكري وديبلوماسي ومالية... كل ذلك كان مصحوبا بدراسات سوسيولوجية وأنثروبولوجية وتاريخية للمنطقة، بغية تحقيق الاحتلال. لهذا سيصبح العالم في خدمة الأجندة العسكرية. كان الغرض من هذه الدراسات التي تتداخل فيها التخصصات هو تقديم نتائج "عِلمية" للسلطات الاستعمارية، عن المغرب وبنياته السياسية والاجتماعية والاقتصادية ومعرفة كيفية تحرك دواليب الأمور وكيف تتعايش مكونات المجتمع المغربي. نتج عن هذه الأعمال مجموعة من الأحكام الجاهزة والأفكار المسبقة لتبرير سياسة الغزو من ذلك مثلا: الفوضى الدائمة التي يعشها المغرب، وغياب الدولة، وأن المغرب عبارة عن غبار بشري.... إلى غير ذلك من الأحكام، ساهمت بشكل أو بآخر في تسهيل عملية الاحتلال وأنتجت صورة مغلوطة عن المغرب. ذلك ما سنحاول تتبعه في هذا المقال.

بيانات المقال:

تاريخ استلام المقال:	٢٨	مايو	٢٠١٥
تاريخ قبول النشر:	٢٢	أغسطس	٢٠١٥

كلمات مفتاحية:
الاستعمار الفرنسي، الكتابات الكولونيالية، الكتابات الفرنسية، صورلوجيا مغربية، المخيال الفرنسي

معرِّف الوثيقة الرقمي: DOI 10.12816/0047320

الاستشهاد المرجعي بالمقال:
محمد مزيان. "المغرب في مرآة الأخر: تحليل صورة المغرب في الكتابات الكولونيالية".- دورية كان التاريخية.- السنة العاشرة- العدد الثامن والثلاثين؛ ديسمبر ٢٠١٧. ص ١٢٢ – ١٢٧.

مُقَدِّمَةُ

يشكل الحديث عن صورة المغرب في المخيال الفرنسي خلال القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين نوعًا من البحث عن ملامح الذات والأنا المغربيتين في فترة زمنية مثقلة بالهواجس والتنافس الاستعماري وبهدف البحث عن الميكانيزمات المتحكمة في هذه الكتابات. وهو ما يجرنا بالضرورة للحديث عن الانتاجات الفرنسية خلال الفترة المذكورة رغم صعوبة المسألة لأن الأمر يتداخل فيه مجموعة من التخصصات (السوسيولوجيا، الأدب، التاريخ، الأنتروبولوجيا...) فقراءة هذه الأعمال المتعلقة بتاريخ ومجتمع المغرب الذي تم إنتاج جزء كبير منها من خلال مؤسسات "علمية" كـ"البعثة العلمية" و"معهد الدراسات العليا المغربية"، تكشف عن الكيفية التي تحولت بها أحكام القيمة والايديولوجيا الاستعمارية إلى مسلمات معرفية، يعاد استخدامها للتهيئ للتدخل الاستعماري ثم لتنفيذ وتبرير سياسة الغزو. إن الرغبة في ملامسة ملامح صورة المغرب ومحاولة إبراز عيوب النظرة الاستعمارية هو ما دفعنا لكتابة هذا المقال.

١- ميلاد صورلوجيا مغربية

كان المغرب ضحية موقعه الجغرافي، حيث كان محورًا هامًا للكتابات الاستشراقية والغزو المنهج بكل تجلياته السياسية

والفكرية، فكان أن اجتمعت معظم اللغات الأوروبية محللة نمط الحضارة المغربية انطلاقا من علاقة نفعية. نجد أن أغلب هذه الكتابات كانت لفرنسيين اهتموا بالعادات والتقاليد المغربية مؤسسين لنظرة عميقة عن البنيات المكونة للمجتمع المغربي، كانت هذه الانتاجات لرجالات مهدوا للاحتلال العسكري وخصوصًا الرحالة والجواسيس والعسكريين، وهو ما أنتج صورة شوهاء وأحادية الجانب حول المغرب الغريب/ البدائي/ المتوحش، هذا ما وضعنا أمام خطاب استعماري واضح؛ وهو ما يوضح أن كتابات الفرنسية فترة الحماية تحولت إلى قطاع وظيفي مهمته البحث عن "روح المغرب" كما عبر عن ذلك جورج هاردي. إن الاحتلال العسكري لأي بلد تسبقه دراسات وأحكام واستنتاجات، وعليه فقد تنوعت الدراسات التي تمحورت حول التعرف على المغرب في مختلف حقول المعرفة الانسانية بهدف إيجاد استراتيجية تسهل عملية الغزو أو بالأحرى انجاز احتلال عسكري بأقل ما يمكن من التضحيات والخسائر.

من هذا المنطلق جاءت الدراسات المتعددة للمغرب تفاديًا للأخطاء التي ارتكبت في الجزائر، لأنه وكما هو معلوم فقد ارتبط البحث الكولونيالي حول هذا البلد باستعمار الجزائر سنة ١٨٣٠. حيث شكل المغرب سوقا تجارية مهمة ورغبة فرنسا في حماية مستعمرتها الجديدة من ذلك البلد الغريب المجهول رغم كونه لا يبعد عن أوروبا إلا بضعة كيلومترات. انطلاقًا من هذا الجهل ومن رغبة فرنسا في بسط يدها على المغرب والانفراد به خاصة بعد الهزيمة التي مني بها في معركة إيسلي ١٨٤٤ وغير ذلك من الأحداث التي عرفها المغرب منذ منتصف القرن التاسع عشر، لهذا تعددت الرحلات التي اتخذت طابعًا استعلاماتيًا اتجاه المغرب بهدف تزويد المتروبول بأكبر قدر من المعلومات.

شكلت الرحلة إلى المغرب آلية ووسيلة للكتابة حول هذا الفضاء والتعرف على خباياه وميكانزماته وبنياته العتيقة، ونجد في مقدمة الرحالة الذين زاروا البلاد نجد شارل دوفوكو الذي طاف المغرب سنة ١٨٨٣ متنكرًا في زي يهودي م أجل مادة كتابه Reconnaissance au Maroc 1883-1884 فجاءت هذه الرحلة غنية بالملاحظات التي سجلها عن الأماكن والاخلاقيات والسلوكيات وأنواع اللباس وأنماط السلاح، وسار على نهجه "دي سيكونزاك" فهؤلاء الرحالة لم يستطيعوا التخلص من النظرة التقليدية والموروث الثقافي "النظرة الشرقية" على اعتبار أن المغرب جزء من الشرق بما يمثله هذا الأخير من سحر وغموض وعتاقة واختلاف في الدين وبكل ما يحمله هذا النعت في الوعي الجمعي الفرنسي من نفور وغموض واستغراب، لهذا فـ"ميث" الشرق لايزال يحتل مكانة هامة في الثقافة الغربية وإحدى الركائز الأساسية في صورة الآخر فلا يبدو الشرق امتدادًا غير محدود خارج العالم الأوربي المألوف، بل حقلًا مغلقًا ومسرحًا تمثيليًا ملصقًا بأروبا.[١] وبهذا شكلت الرحلة الفرنسية نوع من الدراسة المقارنة حول الأنا في علاقته بالآخر.

هيأت كتب الرحلة بوعي أو عن لاوعي لولادة الصورلوجيا[٢]؛ نظرًا للتراكم الهائل للمعلومات والملاحظات. ولأن الرحلة هي ذهاب وإياب وعودة بالجسد والخيال، فإنها تحمل طابعًا مركبًا جدليًا. فالرحالة ينتقل إلى الآخر بمكانه وزمانه وهو على أساس أن الرحلة ليست تصورا أو تصويرا للمكان المقصود فقط، وإنما هي أيضا بالأساس إعادة انتاج واستكشاف وتصوير للمكان المنطلق والتعرف عليه[٣]. ومن هنا تنتج مقارنة ومقابلة بين ثقافتين مختلفتين: ثقافة الأنا المتقدم/ القويم والآخر الضعيف الذي لم يرتقي بعد إلى مصاف الدول المتقدمة. هذه المقابلات بين فضاءين أو أكثر هي ما يشكل اهتمام المقارن في ميدان الصورلوجيا ذلك أن المقارنة تمكن إذن كل رحلة أو رحالة تتواجه فيهما الأنا بالغير[٤]. كما أن موضوع الرحلة يسمح بتجسيد المتخيل عبر نظام الرموز حيث تصبح التجربة المعيشة تاريخيا بينما تلعب الكتابة بالمتخيل والتاريخ مواجهة تارة بميئة وثارة بتنوع الحقائق. ويمكن تعريف الصورلوجيا بأنها مبحث يهتم بالبحث عن الواقعي والمتخيل في الصور والميتات المكونة عن الأجنبي والغريب من خلال نماذج تمثيلية داخل الحقل الثقافي لـ الأنا فهي إذن:

- اصطلاح ظهر في الأدب المقارن يشير إلى دراسة صورة شعب عن شعب آخر باعتبارها صورة خاطئة.
- حقل لدراسة تكون الصورة الخاطئة في شهادات أدب الرحلة.
- مبحث يعتمد على مفاهيم الدرس السيكولوجي والسوسيولوجي والاثنولوجي وهي بذلك عبارة عن تداخل دروس العلوم الانسانية بالأدبية[٥].

فالصورة إذن عبارة عن رؤيا نستنتج من خلالها موقف الأنا في علاقاته مع الآخر، ذلك أن كل صورة مهما كانت صغيرة فإنها تصدر عن وعي وعن أنا في علاقته بالآخر، عن الـ "هُنا" في علاقته بالـ "هُناك"؛ فالصورة إذن هي انزياح دال بين واقعين ثقافيين متباينين وهي تعبير عن واقع ثقافي مغاير ومختلف عن الآخر من خلاله نتعرف على ذاته، وهي الصورة التي ترسمها الذات لآخرها غير متجانسة وخاطئة في كثير من الأحيان. ذلك أن كل فرد بل كل بلد يصنع لنفسه عن الشعوب الأخرى صورة مبسطة تبقى فيها فقط معالم هي أحيانًا جوهرية في الأصل وأحيانًا عرضية، وتكون هذه الصورة في

الواقع كاريكاتورية مشتملة على الخطوط الجوهرية ولافتة للنظر، فموضوع الصورة تتقاسمه عناصر ثقافية موضوعية، ذاتية، وكذلك الاغراق في الميتات أو السراب. ذلك أن الصورة هي أساطير وأوهام خادعة، وهذا المصطلح الأخير يعبر جيدًا عن الانجذاب ليس إلا انعكاسًا لأحلامنا ورغباتنا الشخصية.(٦)

الواقع أن هذه الصور تفتقد في معظمها للمصداقية وللواقعية، ذلك أن الفرق واضح جدًا بين المتخيل والواقع المعاش، وهو ما دفع الباحثين المغاربة بعد الاستقلال إلى محو المسافة الفاصلة بين الآخر وواقعه بهدف تخليص تاريخ المغرب من أوحال النظرة الاستعمارية والاسقاطات المجانية والأحكام القيمية التي جاءت بها المنظومة الكولونيالية الفرنسية. إذ من شأن الصورة الذاتية أن تكون بمثابة جواب مبطل للأسطورة الاستعمارية عن المغرب وصدمة عنيفة للصورة المشوهة(٧)، المعتمدة بالأساس على الزوج المفاهيمي: (سهل/ جبل)، (مدينة/ قرية)، (عرف/ شرع)، (عرب/ بربر)، (بلاد المخزن/ بلاد السيبة). هذه الثنائية الأخيرة اعتمدت عليها فرنسا بالخصوص لإقناع معارضيها في التوسع الفرنسي بالمغرب إنما هو بهدف حماية الجزائر، وحماية المخزن وحكمه المرفوض من طرف بلاد السيبة الرافضة لكل مراسيم الطاعة والولاء ومن ضمنها، دفع الضرائب وإمداد السلطان بأعداد معينة من الرجال للمشاركة في حرْكة السلطان. فالنظام السياسي في المغرب هو نظام مفكك ولم يتمكن المغاربة بعد من الارتقاء إلى فكرة الأمة.

٢- أطروحات الكتابات الفرنسية حول المغرب

تتلخص الأطروحات الأساسية لمعظم الكتابات التي كان موضوعها المغرب هو تمثلها لهذا الفضاء كمجتمع يعيش في فوضى شاملة ومستمرة، ولا ترجع هذه "الفوضى المغربية" إلى مجرد ظرفية أزّمت هياكل الدولة والمجتمع، وإنما هي فوضى "تاريخية" تمثل جزءًا عضويًا من بنية الكيان المغربي نفسه، وقد طبعت تاريخ المغرب في مجمله ومنذ الفتح العربي، أي منذ القضاء النهائي على نتاج استعمار أوربي محضّر، وهو الاستعمار الروماني. وتجد هذه الفوضى مصدرها في التعارض المستمر بين العرب "الغزاة المستبدين" المستقرين بالمدن والسهول، والسكان الأصليين المناهضين لهؤلاء العرب، سواء كحكم أو تنظيم اجتماعي أو كدين وثقافة. وقد أنتج هذا التمثل مجموعة من الأزواج الشهيرة التي استخدمت (ولا تزال تستخدم) لدراسة تاريخ ومجتمع المغرب كالعرب/ البربر، السهل/ الجبل، الشرع/ العرف، المخزن/ السيبة، و"تيوقراطيـــة العرب"/ "جمهورية البربر"، الخ... وبالتالي يجد الاستعمار مكانه كبديل وحيد وموحِّد، قادر على تجاوز هذه التعارضات المستعصية.

ما يمكن ملاحظته في مختلف الكتابات الفرنسية(٨) عن المغرب هو تكريس الرؤية الاثنوغرافية المشبعة بالدهشة والإثارة والغرابة حيال مختلف تناقضاته وأوهامه المتضاربة، ولأخذ فكرة عن مختلف الآراء المغلوطة حول صورة الإنسان المغربي. نسوق نموذجين لهذين الأعمال:

٢/١- الخطاب الفرنسي من خلال كتاب "الروح المغربية "

نورد هنا نماذج عن هذه الكتابات لأحد دهاقنة التنظير الاستعماري ومدير التعليم في المغرب خلال فترة الحماية "جورج هاردي"(٩) من خلال كتابه "الروح المغربية" الذي اعتبره دراسة غير نهائية عن العقلية المغربية بل محاولة لسد الفراغات واستجلاء الغموض وإيجاد الحلول وفي نفس الوقت يحتوي على معطيات عديدة لكشف الأوهام. فالهدف من الكتاب حسب ما صرح به هاردي هو تحرير الروح المغربية من ركام الصور الجاهزة والكليشيهات ومن الهوس والخوف. لهذا يعتبر الكتاب دعوة للكتاب الفرنسيين إلى توجيه مجهوداتهم نحو البحث الذي يعد مفتاحا لمعرفة الإنسان المغربي على اعتبار أن الذهنية المغربية مجال للتجربة وأن انشغالات الفرنسيين تجاوزت حقل السياسة الكولونيالية.

من هذا المنطلق آمن "هاردي" أن الغزو الحقيقي هو فهم واستيعاب الذهنية المغربية وميكانيزمات انشغالها، والابتعاد عن القوالب الجاهزة التي اعتمد عليها أغلب المؤلفين (عسكريون، سوسيولوجيون...) فلرسم الصورة المغربية لابد من معرفة عميقة للبلاد وللأخلاق بعيدًا عن تشتيت هذا اللا نظام والربط بشكل قوي بين تميز وخصوصية العادات والمظاهر السيكولوجية للإنسان المغربي. ركز أيضًا على الثنائية السابقة الذكر التي اعتمدت عليها الكتابات الكولونيالية.

ولفهم الابداع المغربي يجب دراسته في أصوله ومنابعه وليس في آثاره التي تعمر المدن الكبيرة. وبدراسة هذا النوع سنخلص إلى اكتشاف جمالية ليست محدودة في الانتاجات التشكيلية للزرابي والخزف وإنما مرتبطة بدقة بالحياة في شكل شعر وموسيقى ورقص وكذلك فهي ليست مقتصرة على جماعات خاصة، وإنما تستمر بالظهور في العمق الجماعي للمغرب(١٠). أما عن الروح الاستقلالية فقال عنها: " إن الحرب ضد أوروبا هي أكثر شراسة من التي تخوضها القبائل فيما بينها أو ضد المخزن ويضيف أن الذي يؤكد الروح القتالية والكبرياء هو شعور المغاربة أنهم لن يخضعوا حيث نشعر أنهم خلقوا ليحاربوا(١١).

التركيبة البشرية المغربية هي رصيص من القبائل المختلفة، أعطت الانطباع أن المغرب دولة غير موحدة وعبارة عن مجتمع قبلي تجزيئي بجانب سلطة مخزنية مركزية، ذلك أن فكرة الوطن ظلت غائبة عن ذهنية الأهالي... فكلمة المغرب غير متداولة في اللغة الرائجة بمعناها الاثني والجغرافي والسياسي الذي نعطيه له[١٢]. إن وضع صورة كاملة عن بنيات المغرب وفهم نفسية المغربي خلال فترة الحماية لم يكن ليتم دون دراسات العادات والتقاليد المغربية، فإلى جانب الدراسات التاريخية والجغرافية التي اهتمت بدراسة تاريخ المغرب في مختلف فتراته وحقبه، نجد دراسات سوسيولوجية وإثنولوجية ولسانية كان الغرض منها الغوص داخل بنية المجتمع المغربي ودراسة سكانه وأصولهم العرقية، وما ينتج من سلوكيات مختلفة، من أجل استجلاء فردانية الروح الأهلية التي تبدو غريبة في أبسط جزئياتها عن المستعمر.

فالإنسان المغربي رغم كل أخطاءه وهفواته فهو يعيش حياة أخلاقية جيدة ومفيدة يتغذى بوسواس لا يستهان به، مثلا تعدد الزوجات، البحث المستمر عن الخليلات لا يمنع المغربي من أن يكون أبا جيدا للعائلة[١٣]. فالمغربي في نظر الفرنسي مجبول على الفردانية والعدوانية، ومنغمس حتى النخاع في مظاهر اللذة والفسق. يعيش بطريقة تجمع بين متناقضات ومفارقات شتى؛ يتعايش مع المقدس والمدنس، والعنف واللذة، والفردانية وعبودية جماعية. فأحسن وسيلة لتغيير الشعوب البدائية - حسب هاردي- هو جعلهم أكثر ولاء وأخلص في خدمتهم للمشاريع الفرنسية هو أن نقوم بتنشئة أبناء الأهالي منذ الطفولة وأن نتيح لهم الفرصة لمعاشرتنا باستمرار، وبذلك يتأثرون بعاداتنا الفكرية وتقاليدنا فالمقصود إذن باختصار أن نفتح لهم بعض المدارس لكي تتكيف عقولهم حسبما نريد. ولتكريس هذه الثنائية قال إن: "المغربي كسول بطبعه، ذلك الحب الرفيع للكسل وكره العمل الذي يطبع الشرق."[١٤]

٢/٢- الخطاب الفرنسي من خلال كتاب العالم المغربي لـ" بول أودينو"[١٥]

نموذج ثان للكتاب الفرنسيين الذي اهتموا بالمغرب لا تختلف مواقفه وآراءه عمن أوردنا أعلاه، فهو يتحدث عن التركيبة البشرية المعقدة لنسيج المجتمع المغربي خلال فترة الحماية، "فهو خليط أجناس وتلاقح دماء بربرية وعربية ويهودية وأحيانًا تركية، لكن العرقين المؤثرين في هذه التركيبة هما العرق العربي والبربري، فالمشكل المطروح هو أنه في المغرب أناس يتكلمون العربية وآخرين البربرية لكن هذه التفرقة الظاهرة لا تسمح بتاتًا بإقامة تفرقة بين العرقين"[١٦]. كما يعيش العنصر العربي: "حياة رتيبة ومتعبة لا يبتعدون عن قراهم ولا يتجاوزون الأسواق القريبة ولا يذهبون إلى المدن إلا لبيع منتوجاتهم ولشراء الأثواب"[١٧]. وعن علاقة هذا العنصر بالسلطة يورد الكاتب بأنها علاقة يطبعها التوتر نظرا لاستبداد المخزن وحب المغربي للرغبة في القتال وميله لحياة الكسل. كما أن علاقاته بالقبائل المجاورة يطبعها الصراع فالقبائل المتاخمة لبلاد زيان تتقاتل باستمرار من أجل الحصول على الخشب من الغابة البربرية وخاصة من أجل التمتع بحق الرعي في فصل الصيف"[١٨].

ركز أودينو على القبيلة كبنية سياسية واجتماعية وانتاجية تنقسم إلى قبائل مخزنية وقبائل ثائرة، حيث يقر أنه من الصعب دراسة ومقارنة مختلف سكان مختلف القبائل ... وما يكفي هو التأكد أن لدى هذه القبائل فوارق كثيرة[١٩]. غير أن ما يميز البربري هو حبه للاستقلال، ذلك أن الممارسة السياسية للمجتمع البربري تضمنت مضمون سياسي استقلالي عن مخططات المخزن كما أنه في صراع دائم مع القبائل المنافسة لهم.[٢٠]

من بين القضايا التي ركزت عليها الدراسات السوسيولوجية الفرنسية نجد قضية الطقوس الدينية، فهل هي تعبير عن الاسلام الرسمي المخزني إسلام السهول والحواضر أم اسلام بلاد السيبة أي الاسلام البربري؟ على اعتبار أن هؤلاء اعتنقوا الاسلام اعتناقًا سطحيًا وحافظوا بقوة على عاداتهم وتقاليدهم وحتى ولائهم للولي ولبعض شيوخ الزوايا ذلك أن التأسلم في المغرب يظهر بدرجات متباينة وأن التقاليد القديمة مختلفة عن الاسلام[٢١].

أضفت الإسطوغرافيا الكولونيالية على سطحية "اسلام البربر" هالة كبيرة ارتقت بالتنظير لها إلى مستوى الحقائق المطلقة التي اعتمدت عليها لتنفيذ مخططاتها الرامية إلى ضرب مقومات ومكونات الروح المغربية وتقسيم المغرب إلى عرقين متناحرين عرب وبربر وإيديولوجيتين مختلفتين هما الاسلام والعرف. حيث يقول بول أودينو "إن الاسلام وجد في المغرب شعوبًا متمردة دخلت الاسلام بالقوة واحتفظت بأعرافها وخرافاتها وثنية"[٢٢]. كما أن التأثير الاسلامي والشرقي الممارس على المغرب لم يعمل سوى على تقوية المبادئ الأصلية، ففي المناطق المنشقة أو التي أخضعت حديثًا فالعبادة تقريبًا مهملة ومعرفة العقيدة غير محققة.

من الواضح أن صورة المغرب في المخيلة الاستعمارية الفرنسية هي صورة شوهاء ومغلوطة اعتمدتها الادارة الاستعمارية كوسيلة لتسهيل إلحاق المغرب وذلك بإعطاء صورة عن مغرب مليء بالتناقضات والصراعات والمغالاة في تدعيم هذه المواقف ومن ذلك اهتماماتها السوسيولوجية بالمناطق البربرية باعتبار أن اسم البربر قد ارتبط ضمنيا بإثارة الفوضى وشق عصا الطاعة لما يتمتع به روح استقلالية. وبذلك كانت الصورة

في خدمة الأجندة العسكرية ومسايرة عملية الغزو تجسيدا للمشروع الاستعماري.

إن القبائل بلاد السيبة أو بمعنى أدق جعلتها الكتابات الأوروبية مركزا لحركات التمرد، لكن ما هو معروف فغنها كانت خاضعة للسلطان المغربي وتقيم الصلاة باسمه وترسل الضرائب المفروضة إلى بيت المال وتشارك بعدد من أفرادها إلى جانب المخزن في الحركات العسكرية كلما دعت الضرورة إلى ذلك، ما عدا ذلك فإن أمور هذه القبائل اليومية المعاشة ومشاكلها المتعلقة بالأرض والمراعي والإرث والجرائم وتوزيع المال كانت تسير عن طريق الجماعة معتمدة على مجموعة من الأعراف اختلفت من قبيلة لأخرى ومن منطقة إلى أخرى.

إن قراءة ما كتبه الأجانب حول المغربي، في فترة الحماية بكل الهواجس والأنساق المرجعية التي تؤطرهم، هو ما يشكل في حد ذاته مرتكز العملية النقدية لهذا عملت الكتابات الفرنسية على ترسيخ فكرة أن الإسلام دخيل على البربر واعتناقهم للإسلام كان اعتناقًا سطحيًا. عمومًا فإن الصورة الاستعمارية ارتكزت بالأساس على:

- غياب أجهزة الدولة بالمفهوم الحديث وتطاحن الإثنيات.
- تخلف تاريخي.
- الاستبداد[٢٣].

ركزت الصورة أيضًا على تضخيم الذات الفرنسية (الغربية) باعتبارها حاملة لقيم الحضارة والمدنية الحديثة ولفكر عصر الأنوار، وتقزيم صورة الآخر البدائي والغريب. كما كرست لميلاد صورة غرائبية ذا بنيات اجتماعية وهياكل مخزنية المهترئة. يقول ميشو بيلير: "إنه بقدر ما نتسرب بعمق داخل الجسم المغربي، فإننا نصل من خلال الستار الذي يضفي عليه مظهرًا إسلاميًا موحدًا، إلى الأخذ بعين الاعتبار بأن عدد كبيرًا من المؤسسات التي تكون هذا الجسم ترجع أصولها إلى عهد سابق على وصول الاسلام إلى هذا البلد"[٢٤]. فالدراسات السوسيولوجية لهذا البلد هي التي بمقدورها أن تسمح لنا بمعرفة بنيته الحقيقية، يجب أن تكون أيضا ميسرة في القبائل البربرية وبالخصوص تلك التي حافظت على بشكل كامل على لغتها ومؤسساتها.[٢٥]

خَاتِمَةُ

تأسيسًا على ما سبق يتضح؛ أن هذا اللُبس والتداخل بين السوسيولوجيا والسياسة والتاريخ في كتابات الفرنسيين حول المغرب نظامًا ومجتمعًا لم يكن وليد التوسع الاستعماري، بل كان يبحث عن مصداقية ومشروعية استعمارية، بحيث لم تتمكن من تجاوز النظرة الشرقية الموروثة عن الحروب الصليبية[٢٦]، لذلك لم يتمكنوا من صياغة نمط مغربي له محدداته وميكانيزماته السياسية وخصوصياته الثقافية واللغوية، الأمر الذي انعكس على عناصر الصورة التي ظلت غير مكتملة وخاطئة في أغلب الأحيان. لهذا فالمسؤولية ملقاة اليوم على الباحثين والمهتمين لتطهير صورة المغرب عبر:

- خلق ذهنية معاصرة عند المؤرخين وذلك بتوسيع وتعميم الدراسات المنهجية والأبستمولوجيا.
- تأسيس مدرسة وطنية لحفريات تقوم بأعمال منظمة ومبرمجة تهم كل الفترات.
- إقرار دراسة اللهجات حسب توزيعها الجغرافي وتطورها الزمني.
- تعميق مستوى التعرف على الالكترونيات[٢٧].
- التخلص من وظيفة التخريجات الكولونيالية والتأسيس لكتابة تاريخية وطنية.

هذا بالإضافة إلى القيام بنقد مزدوج للمفاهيم المتداولة، بهدف إعادة بناءها داخل الإطار الثقافي الذي انتج فيه، لهذا وجب دراسة الكتابات الاستعمارية والاستفادة منها لأنه بغض النظر عن خلفياتها الأيدولوجية، فإنها تقدم وصفًا وتحليلاً للبنيات المكونة للأنسجة الاجتماعية ولطبيعة العلاقات السائدة لمغرب القرن التاسع عشر ولفترة الحماية.

الهَوامِشُ:

(١) محمد أنقار، **بناء الصورة في الرواية الاستعمارية**، مكتبة الادريسي للنشر والتوزيع تطوان، ١٩٩٤، ص٦٤.

(٢) سعيد علوش، **معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة**، دار الكتاب اللبناني بيروت ١٩٨٥ن ص ١٣٦.

(٣) عبد النبي ذاكر، المغرب بعيون غربية، الملحق الثقافي، **جريدة العلم**، السبت ٣٠ اكتوبر ١٩٩٣.

(٤) المرجع نفسه.

(٥) سعيد علوش، **معجم المصطلحات**... م س ، ص ١٣٧.

(٦) محمد أنقار، **بناء الصورة**... م س ص ٥٤

(٧) المرجع نفسه، ص ٥٩.

(٨) عديدة هي الأعمال التي تناولت الموضوع والثقافة المغربية والبنيات السياسية والثقافية والقبلية للمغرب نذكر على سبيل المثال لا الحصر:

(٩) نشر مجموعة من الدراسات حول المغرب العادات التقاليد العقلية ... نذكر منها على سبيل الحصر

Le Marocain, In: Annales de Géographie. 1927, t. 36, n°202. pp. 336-346

L'âme des villes. Exemple de Fez, In: Bulletin de l'Association de géographes français, N°32, 6e année, avril 1929. pp. 38-40.

La 'Librairie' des Écoles indigènes en Afrique, Africa: Journal of the International African Institute, Vol. 1, No. 2 (Apr., 1928), pp. 145-156

(10) Hardy George**, L'âme marocaine d'après la littérature française**, Paris, 1926 p.48.

(11) Ibid, p. ٧٦

(12) Ibid, p.28

(13) Ibid, p. 64

(14) Hardy George**, L'âme marocaine d'après la littérature française**, Paris, 1926 p. 14.

(١٥) عسكري فرنسي اشتغل ضابطا للشؤون الأهلية في المغرب ما بين (١٩١٨-١٩٣٠) تحت قيادة المقيم العام المارشال ليوطي، استطاع خلال وجوده في المغرب علاقات جد قريبة مع الأهالي وأتقن اللغة العربية. ألف العديد من المؤلفات ما بين الرواية والسوسيولوجيا نورد:

- *Monde marocain* (1926)
- *Le Caïd Abdallah* (1923), *La Première Communion d'Abd el-Kader* (1927) *Géranium, ou la vie d'une femme marocaine* (1930).

(16) Paul Odinot, **Le Monde marocain, La Vie musulmane et orientale**. Collection sociologique, Édition, Paris , M. Rivière, 1926, p. 20.

(17) Ibid, p.30.

(18) Ibid, p. 16.

(19) Paul Odinot, op,.cit. p. 24.

(20) Ibid, p. 25-26.

(21) Hardy George**, L'âme op,** . cit. p 11

(22) Paul Odinot, op,.cit. p. ٢٣٠.

(٢٣) أسامة الزكاري، **الجذور التاريخية لتشكيل التركيبة البشرية المغربية**، في مسألة البحث عن المفاهيم الأولية، **جريدة العلم**. ٢٤ دجنبر ١٩٩٤.

(٢٤) ميشو بيلير، السوسيولوجيا المغربية، **مجلة العلوم الاجتماعية أبحاث** عدد ٩-١٠ الرباط، شتاء ١٩٨٦ ص ٢٨.

(٢٥) المرجع نفسه، ٢٩

(٢٦) سمير بوزويتة، **مكر الصورة، المغرب في الكتابات الفرنسية (١٨٣٠-١٩١٢)**، أفريقيا الشرق الدار البيضاء ٢٠٠٧، ص٢٢١

(٢٧) عبد الله العروي، **مجمل تاريخ المغرب**، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، الطبعة الثالثة، ١٩٩٢ ص ٢٠



الأسلحة الكيماوية في الريف

الحرب الكيماوية في المغرب

تقديم وترجمة



محمد عبد المومن

أستاذ التعليم الثانوي التأهيلي

باحث دكتوراه في تاريخ وحضارة الأندلس

تطوان - المملكة المغربية

ARMAS QUÍMICAS EN EL RIF
CHEMICAL WEAPONS AT THE RIF
SALUEÑA (JESÚS ALBERT), La Aventura de la Historia, año 17, Numéro 199, Mayo 2015, P 16 – P 22.

تاريخ استلام المقال: ٢٠ سبتمبر ٢٠١٧

تاريخ قبـول النشـر: ١٥ نوفمبر ٢٠١٧

كلمات مفتاحية:
الأسلحة الكيماوية، الغازات السامة، الاستعمار الإسباني، الغازات الكيماوية

الاستشهاد المرجعي بالمقال:
خيسوس ألبرت سالوينيا، "الأسلحة الكيماوية في الريف"/ ترجمة: محمد عبد المومن.- دورية كان التاريخية.- العدد الثامن والثلاثين؛ ديسمبر ٢٠١٧. ص١٢٨ – ١٣٢.

تقديم

بعد معركة أنوال، قررت اسبانيا استعمال الغازات السامة في حربها في المغرب، ومنذ ١٩٩٠، تصاعدت الاتهامات الموجهة إليها من طرف الساكنة الريفية بالتسبب في انتشار مرض السرطان بين السكان. في دراسته لهذا الموضوع، يحاول خيسوس ألبرت سالوينيا أن يثبت أن هذه الادعاءات باطلة، لأن الجيش الاسباني استعمل فقط غازات تجريبية، ولأن عدد القنابل التي ألقيت على المنطقة أقل بكثير مما هو متداول.

الأسلحة الكيماوية في الريف

تطالعنا وسائل الإعلام بين الفينة والأخرى بخبر، مفاده أن بعض الجمعيات المتواجدة في شمال المغرب، تتهم إسبانيا بإلحاق الضرر الجسدي بالسكان، بسبب استعمال الجيش الإسباني للأسلحة الكيماوية بشكل كثيف خلال حملاته المغربية. وحسب هذه الادعاءات فإن تلك الغازات تسبب في إصابة السكان بالسرطان، بشكل يفوق سكان باقي المناطق المغربية، وبالنسبة لهم، فهذا الاتهام يستند على مجموعة من الدراسات التاريخية، التي "تؤكد" استعمال الاسبان لكميات معتبرة من تلك الغازات السامة، "وتؤكد" أيضًا أن لتلك الغازات مفعولاً متوارثًا ينتقل عبر الأجيال. وبالاعتماد على المصادر نفسها، يؤكدون على أن إسبانيا باستخدامها لهذه الأسلحة الكيماوية، قد خرقت الاتفاقيات الدولية، وبالتالي فإنها تقوم بالتستر، لإبقاء الموضوع طي الكتمان. هذه الادعاءات الريفية بدأت سنة ١٩٩٠ مع نشر كتاب في ألمانيا عنوانه:

Giftgas gegen Abd el Krim: Deutschland, Spanien und der Gaskrieg in Spanish-marokko, 1922-1927.

مؤلفا هذا الكتاب هما رولف ديتر مولر (Rolf-Dieter Muller) من معهد الدراسات العلمية للتاريخ العسكري، التابع للجيش الألماني، وروديبرت كونف (Rudibert Kunf)، وهو صحافي ومؤرخ، يقيم في مدينة هامبورغ، ففي هذه المدينة اطلع كونف على سجلات شركة شتولزنبرغ (Stoltzenberg) التي وكما سنرى، شكلت ورقة مهمة في قضية الغازات الكيماوية، وعلاقتها بإسبانيا. هذا العمل الذي قدم معطيات مهمة، لأنه اعتمد على الوثائق الوفيرة والمتاحة للعموم بمعهد التاريخ والثقافة العسكرية، وكذلك بمعهد تاريخ وثقافة القوات الجوية

ومقرهما مدريد. هذا الكتاب لم يحقق انتشارًا واسعًا في إسبانيا، أما في المغرب، فقد ترجم ونشر باللغة العربية. وفي سنة ٢٠٠٢ نشرت بإسبانيا، ترجمة إسبانية لكتاب عنوانه: "العناق المميت، المغرب والسير نحو الحرب الأهلية الإسبانية"، وهو من تأليف سيبستيان بالفور (Sebastian Balfour)، وفي أحد فصول هذا الكتاب ركز المؤلف على قضية الغازات السامة، فقال أن كمية الغازات التي استعملت "مذهلة "، وأنه قد جرى تحضيرها في المعمل العسكري لامارانيوسا (La Marañosa) بالقرب من مدريد، وفي أوراش لامايسطرانثا (La Meastranza) في مليلية، وفي عدد من المعامل المدنية الاسبانية.

لقد استقرأ بالفور وثائق معهد التاريخ والثقافة العسكرية، لكن يبدو أنه لم يطلع على العديد من نسخ الميكروفيلم، التي تتضمن وصفًا دقيقًا وشاملاً لعمليات القصف التي قامت بها القوات الإسبانية، وهذه النسخ قد تمكننا من تقدير العدد الإجمالي للقنابل والقذائف المزودة بالغازات السامة والتي استعمالها، والرقم الذي نرجحه أقل بكثير مما ادعى بالفور. وبالإضافة إلى التحليل السطحي، وجدنا في كتابه أخطاء، لا ينبغي السكوت عنها. ومن بينها أن إسبانيا كانت ملزمة بموجب معاهدة فرساي بعدم استعمال الأسلحة الكيماوية، علمًا أن إسبانيا ليست معنية بمعاهدة فرساي. ومنها ادعائه أن معظم الغازات التي استعملتها إسبانيا، قد جرى تحضيرها في معمل لامارانيوسا، في حين أن هذا المعمل لم ينتج سوى غازات تجريبية، ونحن نجزم أن المعامل المدنية لم تنتج أية غازات سامة. وبسبب انعدام الدقة ذكر الباحث أنه في سنة ١٩٢٣ توقف الإنتاج في معمل لامارنيوسا، بسبب فيضان نهر التاج (Rio Tajo)، مع العلم أن مجرى هذا النهر يبعد عن موقع المعمل بما يزيد عن العشرين كيلومترا. أما وثائق معهد التاريخ والثقافة العسكرية والتي اطلعنا عليها فتحيل على معمل شركة ايكسبريينسياس ايندوستريالس (Experiencias Industriales S.A) والذي كان موجودًا ببلدة أرنخويث (Aranjuez)، والذي كان ينتج عبوات القنابل التي كان يتم شحنها بالغازات السامة في مدينة مليلية.

هذا العمل الذي أنجزه بالفور، ومع كل مغالطاته، شكل الأساس الذي يستند عليه تاريخ مغلوط، إنه عمل بحثي أنجز بحسن نية من طرف مؤرخ وصحفي، ولكنه يستعمل من طرف الجمعيات والمنظمات الريفية لتدعيم مطالبها.

لنتابع البحث دون أن ندعي الإحاطة التامة، ولنكمل التقصي في هذه المسألة المثيرة للجدل، مسألة قرار إسبانيا استعمال الأسلحة الكيماوية بعد كارثة أنوال. لقد كان الرأي العام الإسباني يطالب بالانتقام للضحايا الذي قتلوا في جبل العروي، وقد وجدنا في العديد من جرائد تلك الحقبة توسلات للحكومة لترد باستعمال الغازات السامة. من العشرة آلاف جثة التي كانت متناثرة على جنبات الطريق الرابط بين مليلية وبن الطيب، وجدت بعض الجثث التي كانت تحمل آثار التعذيب، لقد انمحت المشاعر الإنسانية من لدن الإسبان.

اتفاق غير عادي، غير منصف، ذاك الذي فرض على اسبانيا لأجل الاستعمال العسكري للغازات السامة، بسبب قلة الإنتاج وتدني المستوى التقني، هذا الوضع فرض عليها إن هي أرادت أن تنتج هذا النوع من الأسلحة وتحصل على هذه التقنية أن ترضخ لشروط الأجانب هذا الواقع هو الذي جعل هوغو شتولزنبرغ (Hugo Stoltzenberg) يظهر على ساحة.

لقد ألقت البنود القاسية المفروضة على ألمانيا بموجب معاهدة فرساي، بظلالها القاتمة على الجيش وصناعة السلاح بهذا البلد، لذلك لم يكن مستغربًا أن ترى بعض شركات المتخصصة في صناعة الأسلحة في إسبانيا فرصة لخرق تلك البنود، التي فرضها المنتصرون، وقد كان شتولزنبرغ أحد أولئك الصناعيين الباحثين عن آفاق أرحب، ومن الممكن أن جهود الأمير فرناندو دي بفاريا إي بوربون (Fernando De Baviera y Borbon) قريب الملك ألفونسو الثالث عشر، وصهره، والذي كان يبرم الصفقات نيابة عنه. هي التي أدت إلى لقاء شتولزنبرغ بالملك في أحد أيام خريف ١٩٢١، ونتيجة هذا اللقاء كانت اتفاقا، التزم فيه شتولزنبرغ باستثمار ما مجموعه سبعة ملايين ونصف المليون من البسيطات في إنشاء مصنع ينتج الغازات السامة، وقد أطلق على هذا المصنع اسم "المصنع الوطني للمنتجات الكيماوية ألفونسو الثالث عشر "Fabrica Nacional de (Productos Quimicos Alfonso XIII) وقد تم التوقيع بشكل نهائي على هذا الاتفاق في شهر يوليوز من سنة ١٩٢٢، وبسبب طبيعته غير الاعتيادية، طلب الكولونيل (Adolfo Tolosa) أدولفو طولوسا قائد المدفعية، إحالته على الاحتياط ليتفادى التورط في هذه الصفقة المشبوهة.

لقد توجب على شتولزنبرغ، أن يوفر (٧٥%) من قيمة العقد قبل أن تبدأ أعمال التشييد في الموقع الذي حددته إحدى اللجان، على اعتبار أنه الأصلح لتشييد المصنع، وهذا الموقع يوجد بالقرب من لامارنويسا. وحسب العقد، فعلى شتولزنبرغ أن يبدأ أعمال التشييد في غضون سبعة أشهر من استلامه الأرض التي سيقام عليها المصنع، وعلى هذا الأخير أن يكون قادرًا على إنتاج (١٠٠٠) كيلوغرام من غاز الخردل، و(١٥٠٠) كيلوغرام من الفوسجين، و(١٢٥٠) كيلوغرام من الأتيلديكلوروسينا (Etildicloroasina).

المصنع الشبح، لا شيء من ذلك تحقق، وفي سنة ١٩٢٨ عندما تمت مراجعة العقد الذي وقعه شتولزنبرغ وضباط المدفعية الإسبان، أشار هؤلاء إلى الوضعية التي كانت عليها المنشآت، حيث كانت لاتزال قيد الإنشاء، أما المصنع فلم يكن قادرًا على إنتاج أي نوع من الغازات. إذا كانت هذه المحاولة

الفاشلة قد نظر إليها في ذلك الحين كوسيلة نهائية لامتلاك إسبانيا للأسلحة الكيماوية، فإن الأحداث المتسارعة في المغرب فرضت ضرورة إيجاد حل سريع، وذلك عبر شرائها بشكل مباشر من المنتجين، أو عبر إنتاجها – ولو بكميات قليلة -من خامات مستوردة. وهكذا فأول شحنة من الغازات السامة تسلمها الجيش الإسباني كانت مستوردة من شركة شنايدر (Schneider) الفرنسية، التي سلمت لإسبانيا سنة ١٩٢١، أثني عشر مدفع هاوتزر من عيار (١٥٥/١٣) والذي كان آخر صيحة في مجال المدفعية. وبالإضافة الى ذلك اشترت اسبانيا (٢٢٠٠) قذيفة فارغة، و(٥٠٠٠٠) لتر من الكلوروبيكرين (Cloropicrina)، وكذلك حصلت على ترخيص يسمح لها بتصنيع قذائف المدفعية الثقيلة، وقذائف الهاوتزر في مصنع توربيا (Turbia). وفي يوم ٢٦ أبريل ١٩٢٢، وصل الغاز السام إلى مليلية، على ظهر سفينة شحن اسمها سيتي دو سبارط (Cité de Sparte). كان شحن القذائف بالكلوروبيكرين يتم في عدد من المنشآت الصغيرة، التي أقامها على ضفاف بحيرة مار شيكا بالقرب من مليلية عدد من الضباط الإسبان بمساعدة تقنيين من شركة شنايدر.

والكلوروبيكرين غاز ذو مفعول شديد، وله تأثير كبير، حيث يسبب التهيج والعطاس وانقطاع النفس، بل وحتى الموت، في حالة الاستنشاق المتكرر، لكن هذا احتمال الأخير مستبعد، بسبب ابتعاد الضحايا عن المواقع التي تعرضت للقصف، وقد تم التخلي عن استعمال هذا الغاز في الأسلحة الكيماوية في وقت مبكر، أما الآن فهو يستخدم في الزراعة كمبيد حشري.

بالخمسين ألف لتر التي وصلت إلى مليلية، تم تعبئة (٢٢٠٠) من القذائف التي اشتريت من شركة شنايدر، وتواصلت العملية مع ما تم انتاجه في إسبانيا، ومع قنابل العشرة كيلوغرامات التي أنتجتها شركة ايكسبرييسنسياس إيندوستريااليس .Experiencias Industriales S.A، التي كان مقرها بلدة أرانخويث (Aranjuez). وقد أعطى المندوب السامي ريكاردو بورغيط (Ricardo Borguete) موافقته على استعمال قذائف الكلوروبيكرين يوم ١٧ شتنبر ١٩٢٢، ومن خلال سجل خدمات الملازم إيلوي دي سييرا (Eloy De La Sierra)، الذي كان شاهدًا على تلك الأحداث، علمنا أن قذائف المدفعية المزودة بغار الكلوروبيكرين استعملت في الميدان لأول مرة يوم ١٩ دجنبر ١٩٢٢، وذلك في إحدى عمليات القصف، التي استهدفت موقع تيزي عزا. مع احتمال أنها ربما استعملت قبل هذا التاريخ.

كان وزن شحنة الغاز السام في قذائف المدفعية، وفي القنابل المخصصة للطائرات يبلغ (٣,٣) كيلوغرامًا، وقد كان يسميها العسكريون الإسبان قنابل ايكس (X) ذات العشرة كيلوغرامات، وكان يرمز لها بـ (C-4) القنابل المئتين الأولى من هذا النوع سلمت في يوليوز من سنة ١٩٢٣، وفي أكتوبر من السنة نفسها سلمت دلائل الإرشادات بكيفية استعمالها وقد بلغ عددها (٣٢) دليلاً إرشاديًا.

منزل عبد الكريم، سرعان ما تم الانتباه، إلى أن الكلوروبيكرين لا يجدي نفعًا مع أسلوب الحرب الذي يعتمده الريفيون، حيث يتفرقون بمجرد إحساسهم بوجود الغاز السام، أما في حال تغير اتجاه الريح فالغازات كانت تتجه صوب الجنود الإسبان، الذي كانوا يتمركزون في مواقع لا يمكنهم مغادرتها. من مجموع القنابل التي تحمل الرمز (C-4)، التي تم إنتاجها، وجدنا أن (٣٥٥) منها تم إرساله إلى تطوان، وفي نوفمبر ١٩٢٤ قصفت بها قبائل جبالة في معارك شفشاون، و(١٥٠) أخرى قصفت بها المنطقة الشرقية.

بالإضافة إلى الكلوروبيكرين، استعمل الإسبان قنابل مزودة بغاز الفوسجين، وهو غاز خانق ومميت، ومن خلال وثائق أرشيف التاريخ والثقافة العسكرية (IHCM)، يمكننا أن نتتبع مصير (٣٠٠) قنبلة شحنت بهذا الغاز السام خصصت للقصف الجوي، هذه القنابل كانت تزن (٢٦) كيلوغرامًا وعرفت باسم أيكس (X) ذات الستة والعشرين كيلوغرامًا وكان رمزها (C-3). القنابل مع شحناتها المتفجرة ودلائل الاستعمال تم إرسالها من قرطجنة (Cartagena) إلى مليلية يوم ٢٢ يونيو ١٩٢٣، على متن الطراد ألبارو دي باثان (Alvaro de Bazan) وأكاد أجزم أن تلك القنابل (قنابل الفوسجين)، كانت من صنع بريطاني، وأن ثمنها دفع بالجنيه الإسترليني.

أولى قنابل (C-3) المحمولة جوًا، ألقيت على يوم ٢٢ غشت ١٩٢٣ على أجدير، حيث تم إلقاء (٤٥) قنبلة، وقد توقف استعمال هذا النوع إلى غاية يوم ٢١ ماي ١٩٢٤، حيث تم إلقاء (١٤) قنبلة أخرى على منزل عبد الكريم في البلدة نفسها. وفي مايو من السنة نفسها، جرى إلقاء اثنين يوم ٢٤، وستة يوم ٢٧، وستة أخرى يوم ٢٨، كلها استهدفت أجدير ونواحيها، أما القنابل المتبقية من هذا النوع، فقد تم إرسالها إلى العرائش، واستعملت في بعد في المواجهات التي قادها بريمودي ريفيرا (Primo de Rivera). بالتزامن مع البداية الفاشلة لمصنع لمارانيوسا، ونظرًا لأن الجيش كان يعلم جيدًا أن إنتاج الغازات السامة سيتأخر، تولى شتولزنبرغ مهمة تطوير الورشة التي كانت قائمة بمليلية، لجعلها قادرة على إنتاج غاز الخردل، وهو غاز سام حارق يسبب حروقًا وتقرحات، وفي حالة غياب أية وسيلة وقائية قد يسبب العمى وأضرارًا شديدة بالجهاز التنفسي، وخصوصًا في الرئتين، وبالتالي في موت مؤلم.

خسائر، غرامات، وضرائب استثنائية: تتميز طريقة تحضير غاز الخردل بالبساطة، حيث يتم خلط حامض الكلوهيدريك (Acido Chlohidrico) مع (Oxol) الأوشول أو التيوديجليكول (Tiodiglicol) الذي يستخدم في صناعة الطلاء، أما حامض الكلوهيدريك فيدخل في إنتاج عدد من المنتوجات الكيماوية،

ولذلك كان يسمح باستيراده من ألمانيا. وقد وصلت أول شحنة من الأوشول من ألمانيا إلى ميناء مليلية في أبريل ١٩٢٤.

لقد كان غاز الخردل يعبأ بشكل أساسي في القنابل المحمولة جوًا، والتي كان يرمز لها بـ (C-1)، والتي كان وزنها الكلي (٥٠) كيلوغرام، أما الوزن الصافي للغاز فهو (١٢) كيلوغرام، وكذلك في القنابل التي كان يرمز لها بـ (C-2)، التي كان وزنها الكلي عشرة كيلوغرامات، أما وزن شحنة الغاز السام فهي (٣.٢) كيلوغرام، وكانت قذائف المدفعية الثقيلة (القذائف الفارغة التي لا تتوفر على الشحنة المتفجرة والغير معبئة بالغاز السام) تصنع من طرف شركة ايكسبرينيسياس إيندوسترياليس، وهي نماذج مستنسخة عن قذائف كاربونيت إ.ج (Carbonite I.G) الألمانية الصنع. ولا واحدة من تلك القنابل كانت ذات فعالية فالقنابل النوع الأول (أي C-1)، كانت تحمل شحنة متفجرة قوية، كانت تتسبب في تبعثر الغاز في الهواء بشكل كبير، أما القنابل من النوع الثاني أي (C-2)، فلم تكن قادرة إلا على تغطية متر مربع واحد. وقد ابتكر المدفعيون الإسبان نوعًا وسطيًا وزن قنابله عشرون كيلوغرامًا، ووزن شحنة الغاز فيه (٦.٥) كيلوغرامًا، وقد كان يرمز له بـ (C-5)، وقد كان هذا النوع مطورًا عن القنابل التي جرى استعمالها في المغرب سابقًا، وهذا النوع كان موجهًا بالأساس لمدافع الهواتزر من عيار (١٣/١٥٥) من صنع شركة شنايدر.

التعديلات التي أدخلها شتولزنبرغ على ورشة إنتاج الغازات السامة بمليلية، كانت ظرفية ومؤقتة، مما تسبب في عدد من التعقيدات والحوادث، كما أنه لابد من الإشارة، أن الإنتاج لم يصل إلى المستوى المتوقع، حيث وعد مهندسو شتولزنبرغ بإنتاج كمية تكفي لتعبئة (٢٠٠) قذيفة يوميًا، لكننا وجدنا الضباط الإسبان يؤكدون أنه في أحسن الأحوال كان يتم تعبئة سبعين قذيفة بالكاد. وبالإضافة إلى ذلك فإن الشحنة الثانية من الأوشول، والتي وصلت إلى مليلية في نوفمبر ١٩٢٤، كانت بها كثير من الشوائب، مما تسبب في انسداد الأنابيب والصمامات، وهذا ما أدى إلى تآكل صهاريج الخلط، وبسبب ذلك وقعت كثير من الحوادث والإصابات، فأصيب عدد من العاملين في الورشة بحروق. ولفترات طويلة كانت الورشة خارج الخدمة، وفي بعض الأحيان كان الإنتاج يتوقف لأسابيع طويلة، لكن الأوشول كان يصل بشكل منتظم، وحسب ما توفر لدينا من معطيات فلم تتجاوز الكمية المنتجة من غاز الخردل (٥٥) طنًا.

إرهاب السكان: من أهم الادعاءات التي تروجها تلك الجماعات الريفية لتدعيم مطالبها زعمهم أن الجيش الإسباني هاجم بشكل متعمد السكان المدنيين، بما في ذلك الأطفال والنساء. لقد أشرنا سابقًا إلى أنه منذ دجنبر (ديسمبر) ١٩٢٢، جرى تذخير مدافع الهواتزر من عيار (١٣/١٥٥) بقذائف تحمل شحنات من غاز الكلوروبيكرين في بداية الأمر، وبغاز الخردل فيما بعد، وقد كانت هذه القذائف تستهدف المواقع غير القريبة أو المتوسطة البعد، كما حدث عند استهداف موقع تيزي عزا. وفي خريف ١٩٢٤ تبلور تصور جديد عند بريمو ودي ريفيرا (Primo de Revira)، حيث اتجه إلى اعتماد خطة جديدة، شرع في تطبيقها الربيع الموالي، وهدفها تحطيم معنويات القبائل المتمردة وإعاقة نشاطها الاقتصادي، وهي الخطة نفسها التي طبقها الأنجلو-ساكسون (الأمريكيين والبريطانيين) في الحرب العالمية الثانية. وبغض النظر عن الصناعات، وطرق المواصلات، فالأهداف التي جرى قصفها جوًا هي المزروعات – سواء قبل الحصاد أو بعده – المواشي، الأسواق، حيث كان يتم البيع وتبادل السلع بما في ذلك الأسلحة والذخائر. ونظرًا لاستثناء القرى من هذه الغارات الجوية فقد نجا الزعماء الأكثر شراسة. لقد كان قصف المزروعات يتم بقنابل حارقة، أما بالنسبة الأسواق فقد جرى قصفها بقنابل لا تنفجر بشكل تلقائي لإرهاب المتسوقين، ولم يكن الهدف إبادة السكان. وقد كانت المحركات ذات الضجيج العالي، التي زودت بها الطائرات البطيئة لتلك الفترة، كافية لإنذار السكان حتى يبتعدوا عن الأسواق، التي كانت ستتعرض للقصف. لقد ركزت الغارات الجوية على قبيلة بني ورياغل وبدرجة أقل على قبيلتي بقيوة وتمسمان.

إسبان مصابون بنيران صديقة: حتى ذلك الوقت، لم تكن أية قوة قد استعملت الطائرات في إلقاء الغازات السامة، باستثناء بريطانيا، التي قصفت بعض المواقع في العراق بكميات محدودة. خطة القصف الإسباني الذي بدأ في مايو ١٩٢٤، كانت فاشلة، فالإمكانيات كانت جد محدودة، بسبب الطائرات التي كانت تطير من مليلية إلى خليج الحسيمة، وهذه المسافة الكبيرة، كانت تصل بها إلى أقصى ما تستطيع، ولذلك تعطلت العديد منها وأخرجت من الخدمة. وفي صيف ذلك العام وصل السيل الزبى، حيث تدهوت الأوضاع في جبالة وغمارة، مما تطلب توجيه معظم الإمكانيات المتوفرة إلى الجهة الغربية. وهناك جرى تزويد التحصينات المعزولة بالرشاشات، مع مساعدتها على الصمود بواسطة القصف، وفي بعض الحالات جرى استعمال القنابل الغاز السام.

بعد الانسحاب من شفشاون والتقهقر عن خط المواجهة، قلص بريمو دي ريفيرا من استعمال قذائف الغازات السامة، ولكن بالتزامن مع إنزال الحسيمة، عاد التفكير في استعمال هذا النوع من الوسائل العسكرية، فبالإضافة إلى قذائف الهاوتزر من عيار (١٣/١٥٥)، التي كانت منصوبة في حجرة نكور، وقذائف المدفعية الثقيلة التي كانت مزودة بغاز الخردل، التي كانت موجهة نحو معاقل الريفيين كانت هناك (١٣٠) طائرة التي ألقت الكثير من قنابل الغاز، وبسبب تغير اتجاه الريح استنشق العديد من الجنود الإسبان غاز السام.

وفي ديسمبر ١٩٢٥، أعيد تذخير قنابل الهاوتزر من عيار (١٣/١٥٥)، بغاز الخردل وكان الهدف في هذه المرة استهداف المدفع الذي عرف باسم "الفيليبي" (El Felipe) الذي كان منصوبًا في أحد المغارات الجبلية بالقرب من تطوان، والذي كان يقصف المدينة بشكل عشوائي، وقد خلف تدميره ارتياح السكان من إسبان ومغاربة. وفي ربيع ١٩٢٧، أي بعد استسلام عبد الكريم للفرنسيين، وتخليه عن القتال، ألقى الطيران الإسباني بعض قنابل الغاز على الجماعات المتمردة الأخيرة، التي لجأت إلى بعض المرتفعات الوعرة من جبال الريف.

استعمال الغازات السامة في حروب المغرب كان معروفًا آنذاك، وإبقائه سرًا أمر مستحيل بالنظر إلى عدد المتورطين، لكن كان هناك تكتم شديد، بحيث أننا لا نجد ذكرًا للكيفية التي استعملت بها تلك الغازات السامة، كما أننا لم نعثر على تقييم يوضح الدروس المستخلصة من ذاك الاستعمال في الكتب الكثيرة التي ألفها العسكريون الإسبان عن الغازات السامة، وقد وجدنا أنه في الوثائق الرسمية أن قذائف المدفعية الثقيلة التي زودت بالغازات السامة كانت تسمى (Proyectiles Especiales) "قذائف خاصة".

١٢٥ طن: بالنظر إلى جانب الشرعية الدولية، لم تكن هناك موانع تمنع إسبانيا من استعمال الغازات السامة ضد المغاربة الذين كانوا يرفضون الاعتراف بسلطة السلطان، الممثل في تطوان في شخص الخليفة. فمن جهة، فإسبانيا لم تشارك في الحرب العالمية الأولى، وبالتالي فلا علاقة لها بمعاهدة فرساي، ومن جهة ثانية، فهذه المعاهدة كانت تمنع ألمانيا من صنع هذا النوع من الأسلحة، لكنها لا تشير نهائيا إلى القوى المنتصرة، ولا إلى الدول التي لم تشارك في الحرب. أشار بعض الباحثين إلى أن إسبانيا كان محظورًا عليها صنع الأسلحة الكيماوية من منطلق مشاركتها في اجتماعات الجمعية العامة لعصبة الأمم، وهذا القول أيضًا مردود عليه، حيث أن أول اجتماع للجمعية العامة لعصبة الأمم عقد بجنيف في نونبر ١٩٢٠، وخلال هذا الاجتماع قرر الحاضرون إنشاء لجان متخصصة، وإحدى تلك اللجان، كانت مكلفة بالنظر في المسائل العسكرية، لكن تبين سريعًا عدم فعالية تلك اللجنة المكونة من خبراء عسكريين، لعجزها عن الخروج بقرارات حاسمة، فهذا من اختصاص السياسيين، وبالتالي لم تصدر أية قرارات تمنع استعمال الغازات السامة في الحروب. ولكن المهتمين بأخلاقيات الحرب عقدوا تحت رعاية الصليب الأحمر الدولي اجتماعات بمدينة جنيف، اجتماعات كانت نتيجتها صياغة بروتوكول "حظر استعمال الغازات السامة والكيماوية والأسلحة البيولوجية في الحروب". هذا البرتوكول الذي وقعت عليه إسبانيا يوم ١٧ يونيو ١٩٢٥ وصادقت عليه مع بعض التحفظات يوم ٢٢ غشت ١٩٢٩. تحفظات إسبانيا على هذا البروتوكول، تشبه تلك التي كانت لغيرها من الدول الموقعة، وهي ألا يشمل المنع الأعداء غير الموقعين وأن تحتفظ بحق الرد الانتقامي ضد الدول الموقعة التي قد تستخدم الغازات السامة.

إذا ما عدنا إلى ما قبل هذا البروتوكول، وبالضبط إلى البند التكميلي الثاني لمعاهدة لاهاي الثانية، والتي وقعت عليها إسبانيا يوم ٢٩ يوليوز ١٨٩٩ ودخلت حيز التنفيذ يوم ٤ شتنبر ١٩٠٠، سنجد أن البند الثاني يمنع استعمال قذائف المدفعية الثقيلة المزودة بالغازات "السامة والخانقة"، ولكن فقط، في حالة نشوب صراع مسلح بين دولتين أو أكثر من الدول الموقعة هذا البند الذي لم توافق عليه كل القوى، وصار متجاوزًا بعد الحرب العالمية الأولى وإن كان مفعوله لايزال ساريًا إلى الآن.

لقد استخدمت إسبانيا في المغرب (٥٠٠٠٠) لتر من الكلوروبيكرين، أي ما يعادل (٦٥) طن، بالإضافة إلى ٤ أطنان من الفوسجين، و(٥٥) طنًا من الخردل، على أقصى تقدير. هذه الكميات التي لا يتجاوز مجموعها (١٢٥) طن، يبدو تافهة أمام الـ (١٥٠٠٠٠) طن التي استعملها المتحاربون إبان الحرب العظمى، والتي ألقي معظمها على شمال شرق فرنسا وعلى منطقة الفلاندرز.

لا يوجد دليل علمي مقبول يبرهن على أن التأثير السلبي لهذه الغازات ينتقل عبر الأجيال، وأنه يسبب تغيرًا جينيًا لدى الضحايا، كما أن التجارب لا تدل على هذا. أما الادعاء بأن منطقة الريف تعرف نسبة إصابات بالسرطان أكثر من باقي المناطق المغربية، بسبب الغازات التي ألقيت على المنطقة خلال عشرينيات القرن الماضي، فادعاء باطل، خصوصًا عندما نقارن ما وقع في الريف مع ما عاشه سكان شمال شرق فرنسا ومنطقة الفلاندرز، من أهوال وهؤلاء لا يصابون بالسرطان بنسبة غير طبيعية، رغم أن الكميات التي ألقيت عليها كميات تفوق ما ألقته إسبانيا في منطقة الحماية بألف مرة.

إن مطالبات الجمعيات الريفية لا تقف على أرضية واقعية، ولكن إصرارها ينبع عن رغبة في تنغيص العلاقات الجيدة بين البلدين الصديقين، والحصول على تعويضات مادية، لكن الطريقة التي تتم بها تلك المطالبات تتم بطريقة أعتبرها ابتزازًا ظالمًا.

مراجع المؤلف:

HSCHWEER, Die Geschiste der Chemischen Fabrik Stoltzenberg bis zum Ende des Zweiten Weltkrieg, GHT-VERLAG, 2008.

J.M. MANRIQUE GARCIA, "Fabricacion y empleo de gases en el Rif: una nueva leyenda negra" Estela, UNED/CEUTA, 2010.

R.M. MADARIAGA y C. LAZARO AVILA,"Guerra quimica en el Rif", Historia 16, num 324, abril 2003.

قضية جنوب السودان
وتطـــورات‍هـــا التـــاريخيـــة

حيدر زكي عبد الكريم
أستاذ التعليم الثانوي - وزارة التربية
كاتب وصحفي
ذي قار - جمهورية العراق

مُلَخّصْ

لقد كانت لقضايا القارة الافريقية أهمية ومثار جدل واهتمام لكثير من الباحثين كذلك برزت العديد من القضايا ومنها على سبيل المثال لا الحصر قضية جنوب السودان التي تسببت بأطول حرب أهلية في القارة الإفريقية فمنذ نشأتها ومخططات الاستعمار تساهم في توسيع الهوة واخذ النزاع يأخذ أشكالاً عنصرية ودينية واقتصادية، وعلى الرغم من الاتفاقيات ومؤتمرات السلام إلا أن القوى الداخلية سواء من الحكومة أو المعارضة (أنصار الأقاليم والفدرالية) لم تعط فرصة كافية للعمل نحو الحفاظ على وحدة الوطن وحتى وإن ظهرت شخصيات تحاول وضع العربة على الطريق. لقد كانت الدساتير في السودان في ظل فترة الحكم الاستعماري أو بعد الاستقلال تتخللها السلبيات والايجابيات معًا، وهذا شيء طبيعي لأن الدساتير من صنع الإنسان لكن إعطاء الحقوق تختلف من نظرة إنسان إلى آخر، فكانت مسالة إقليم الجنوب والأقاليم الأخرى التي بدأت تبرز على السطح مثل إقليم دارفور الغربي، ومحاولات التسوية التي جعلت من إقليم الجنوب يقرر أن يحكم نفسه بنفسه، فمنذ اتفاقية جوبا ١٩٧٢ والاتفاقيات الأخرى وآخرها عام ٢٠٠٥م وتحديد المصير سنة ٢٠١١ ليصبح الإقليم "جمهورية جنوب السودان" كانت الاحداث في مّد وجزر بين الاطراف المتنازعة ولم تكن بأي حال من الاحوال في صالح وحدة السودان.

كلمات مفتاحية:

تاريخ السودان، القارة الإفريقية، الشعب السوداني، الإدارة البريطانية، الجمهورية السودانية

مُقَدِّمَةُ

لقد تناول عدد كبير من الباحثين إحداث القارة الإفريقية بشكل عام والسودان جزء من تلك الأحداث بشكله العربي الأفريقي أولا وشكله الإفريقي عموما، خلال حّقب التاريخ المختلفة ومنها فترة الاحتلال العثماني والاحتلال البريطاني وما بعد الاستقلال وقد ساعد على ذلك وفرة المصادر والمراجع ومراكز الدراسات وغيرها. إن مشكلة جنوب السودان لفتت انتباه العديد من الباحثين وذلك من خلال ما مرّ به القطر السوداني من تطورات سياسية واقتصادية واجتماعية خلال تلك الحقب وتبيين خلفياتها وايجابياتها وسلبياتها، كما أن تاريخ السودان ومشكلة الجنوب هو تاريخ البشر الذي انعكس واقعه على السودان كوطن وكشعب بكل أطيافه.

لعب السودان دورًا مهمًا في حياة البلاد المصرية وكان فيما مضى يحسب امتدادًا طبيعيا لها، بالرغم من خضوع السودان رمزيا لمصر آنذاك، وشكل حكمه الشبه قبلي من قبل أمراء على مقاطعات ويخضع هؤلاء لمن تخضع له من السلطات الأقوى أو الأعلى التي تسيطر على البلاد برمتها نوعا ما، حاولت الإدارة البريطانية في السودان كسب الرأي العام فعمدت إلى أنشاء دستور ومؤسسات دستورية في الشمال والجنوب محاولة منها بشكل توحي من خلاله تقليل الفوارق ولكن الواقع غير كذلك من خلال ما تعمق من اختلافات تحول إلى خلافات مستديمة

ومنها مسالة العرق أو الأصول واللغة والجانب الاقتصادي والاجتماعي والفوارق الأخرى وطبيعة الحكم السائد.

بعد حركة تصفية الاستعمار وظهور الكتل الوطنية من مختلف التيارات السياسية لم يكن جنوب السودان بعيدا عن تلك المتغيرات السياسية ما بعد الاستقلال والتي فيها توجه السودان بمرحلة سياسية جديدة تميزت بظهور الخلافات بين أطراف الحركة الوطنية ذات الطابع العسكري والحركة الوطنية ذات الطابع المدني البرلماني وكانت الأولى لها اليد الطولى في التحكم بمجريات الأمور واتخاذ مواقف محددة من مشكلة الجنوب ومجابهة الأخيرة لحل مشاكلها بالاستعانة بإطراق خارجية وداخلية من وجهة نظر البعض لتحقيق إلى ما يرغب به أنصار الجنوب السوداني ولتأخذ مطالبهم الحقوق الفدرالية كشكل أول ومن ثم حكم ذاتي أو ما شابه ذلك ومن ثم الطابع المسلح والاتفاقيات مع الحكومة المركزية إلى أن تحقق الانفصال وأصبح الجنوب "جمهورية الجنوب".

تم الاستعانة بكتابة هذه الموضوع بمنهج البحث التاريخي مع استخدام الأسلوب الاسترددادي "الذي يرد الظاهرة الى وقت حدوثها " لأنه شكل من أشكال الكتابة التاريخية أيضًا، ولا ندعي إننا بلغنا حد الكمال في هذا الموضوع المتواضع، فإن ذلك طموح يصعب الوصول إليه، لكننا سلطنا الضوء على موضوع مازال حتى الآن ميدانًا واسعًا لكل مَنْ يرد من الباحثين معالجة جوانب تلك المسألة من مختلف المجالات السياسية والعسكرية والاقتصادية والاجتماعية.

قضية جنوب السودان

كان السودان فيما مضى امتدادًا طبيعيًا لمصر ولما استولت الدولة العثمانية على مصر كان من البديهي ان يخضع أمراء السودان للسلطات العثمانية، وكان هذا الخضوع اسميًا. وحينما تولى محمد علي أمر مصر (١٨٠٥ - ١٨٤٨)، أرسل جيشًا لتنظيم الإدارة فيه وخلال تلك الفترة ثارت السودان بزعامة محمد المهدي (١٨٨١-١٨٩٨).

حاول الانكليز بعد وصولهم إلى المنطقة فعليًا تعزيز دورهم في السودان للتوغل نحو افريقيا، واستلموا السلطة باسم الحكم الثنائي وفي سنة ١٩١٣ استقل السودان ماليًا عن مصر، وفي سنة ١٩٢٤ قتل حاكم السودان العام فرأت الحكومة الانكليزية الفرصة مؤاتية للقضاء على الوحدة السودانية المصرية ودام الأمر حتى سنة ١٩٣٦ حيث عقدت اتفاقية بين مصر وبريطانيا، وحاولت مصر تجديد علاقاتها بالسودان من خلال تشكيل برلمان محلي موالي لسياسة بريطانيا بعد سنة ١٩٤٤. وبعد ثورة ١٩٥٢/٧/٢٣ في مصر، ظهرت في السودان حركتان الأولى تؤيد سياسة مصر وتقوم على استقلال السودان وإيجاد اتحاد وثيق بين البلدين، والثانية ترى الاستقلال مع الانفصال التام، وقد استقل السودان سنة ١٩٥٦.[١]

أما بخصوص قضية جنوب السودان، فهي تُعَدّ من القضايا الشديدة التعقيد التي كانت تواجه حركة التحرر العربي بشكل عام وحركة التحرر الوطني السوداني بشكل خاص. يعتبر سكان السودان خليطًا من الحضر والبدو عمومًا وبلاد السودان بلاد زراعية على الرغم من بخل تربتها والفضل يرجع إلى نجاح الزراعة فيها إلى نهر النيل ووسائل الري التي انبثقت عنه.[٢]

ويتكون العنصر السكاني من القبائل منهم العرب كقبيلة الرشايدة والكبابيش، وهناك قبائل غلبت عليها السحنة الافريقية كالزريقات والتعايشة.[٣] ومن هذا الخليط أصبح بشكل عام العنصران الحامي والنيلي يدين معظم سكان الشمال بالإسلام ولغتهم العربية، أما سكان الجنوب فهم خليط من عناصر مختلفة وغير متجانسة تتكلم عدد من اللغات المحلية، وهذه الفروق سمحت للمستغلين بنشر ديانات أخرى بينهم بالقوة أحياناً وعلى اعتماد اللغة الانكليزية لغة رسمية في تلك المناطق، إلا أن هذا لا يمنع من ملاحظة النسيج الاجتماعي المتلاحم بين العناصر الاثنية والدينية في السودان عن طريق الترابط الاقتصادي والثقافي والمصالح المشتركة الأخرى.[٤]

لقد مرّ الجنوب في تطورات تاريخية وسياسية واقتصادية واجتماعية تبدأ من القرن التاسع عشر بالتحديد ما بين عامي (١٨٣٨-١٨٩٨) فترة الحكم التركي (العثماني) ومن ثَمَّ قيام الدولة المهدية.

سادت الجنوب تجارة الرقيق، وأصبحت مصدر ثروة وربح خصوصًا لتجار الشمال الذين كانوا وكلاء التجار الكبار في العالم. هذا الوضع أدى بالتأكيد الى وقف عجلة التطور في الجنوب وخلق تناقضًا اقتصاديًا واجتماعيًا بين الفصائل الشمالية والجنوبية وأسهم في ذلك رجال التبشير والإرساليات من خلال الدعاية والتربية باتجاه الانفصال والانعزال والقي اللوم على تجار الرقيق العرب على اعتبار ان العرب في شمال السودان هم أصحاب هذه المهنة وليس هناك غيرهم.[٥]

ولإعطاء صورة أكثر وضوحًا عن أصول الشعب السوداني الذي يسمى بالأسمر جاء أصلاً من بلاد العرب مع موجات الهجرة المتعاقبة من شبه الجزيرة العربية وانتشار الإسلام فيما بعد، والنوع الأسود (من المصدر) هم سكان الجنوب الذين ينتمون إلى افريقيا الاستوائية. كما أن اختلاف العناصر جعل هناك فوراق حضارية بين الشمال والجنوب وتبرز بشكل أكثر في الجنوب حيث يتألف السكان من ثلاث مجموعات النيليون – يتألفون من النوير والرنكا والشلوك ويسكنون مناطق بحر الغزال وأعالي النيل ويعتمدون على الزراعة وتربية الحيوانات، أما النيليون الحاميون – يتالفون من الموالي والبوبا والاتوكا ويسكنون في المناطق الاستوائية، وأما الازاندي فهي قبائل

صغيرة تسكن جنوب غرب السودان.[٦] والجدير بالذكر؛ أنه يوجد في جنوب السودان (٥٧٢) قبيلة أكبرها قبيلة الدستيكا وحوالي (٣٩%) من سكانه من أصل عربي.[٧]

لقد أسهمت الاختلافات العرقية والسلالية الى استخدام لغات مختلفة مثل البادية والنيلية، وبالنسبة للناحية الدينية، فكانت ومازالت الوثنية منتشرة في بعض مناطق جنوب السودان. وكان للديانة المسيحية انتشارها بعد الدور الذي لعبته مدارس التنصير، كما أن رجال الدين المسيحيين كانوا حذرين خلال تلك الفترة من انتشار الإسلام في الجنوب وانتشار اللغة العربية، كذلك بدأ التمهيد لنشر الديانة المسيحية واللغة الانكليزية.[٨] يرى أحد الباحثين، على العموم أن الروح الدينية في السودان تكون بعض الأحيان شديدة وحسب الرقعة الجغرافية لقوتها وتأثيرها وللدين في نفوس العامة من الناس مكانة كبيرة في تلك المناطق.

ومن أبرز الطوائف في داخل السودان، طائفة الأنصار وطائفة الختمية، وبدأت تظهر خلال القرن العشرين حركات الإصلاح الديني التي تدعو إلى الرجوع للسلف الصالح من وجهة نظر هذه الحركات. ويصف أحد المعاصرين عن رؤيته في هذا الجانب: "مررنا بطريقنا بمقبرة وطنية قبورها لاصقة بالأرض، فرأينا فوق بعض القبور رايات صغيرة مثل التي يلعب بها الأطفال – فسألنا شخص عنها – فقال: أن بعض النسوة يأتين بهذه الأعلام للتقرب الى صاحب القبر الذي يكون من المشايخ المعتقدين عندهن، وذلك لكي يشفع لهن عند الله في قضاء حوائجهن، كما يخيل لهن".[٩]

وأثناء تلك الفترة كان التنافس الاستعماري الأوربي واضحًا خصوصًا أن السودان الطريق المؤدي الى أواسط أفريقيا، والنيل هو الطريق الطبيعي المؤدي إلى قلب أفريقيا يضاف إلى ذلك أهمية السودان بالنسبة لمصر. وما يمكن ملاحظته من هذا التنافس الاستعماري أو الصراع المباشر على السودان بعد استيلاء بريطانيا على مصر وخلال تلك الفترة تم تعيين الجنرال غوردن (Gourden) حاكمًا عامًا على جميع السودان سنة ١٨٧٧ وتم وضع دستور ١٨٨٠ لمصر ليتم وضع السودان ضمن الانتخابات وتكوين المجلس النيابي، لكن الانتخابات لم تحدث بسبب ثورة أحمد عرابي سنة ١٨٨٢م.

كما كان لجنوب السودان اهتمام من وجهة نظر المؤرخين الغربيين وعلى سبيل المثال المفكر البريطاني أرنولد توينبي (Twenbie): "أن قضية السودان هي قضية أفريقيا المنقسمة إلى قسمين، مجسدة في نطاق محدود، ولذا فإن السودان إذ يحمل مصيره بين يديه يحمل مصير افريقيا في الوقت نفسه، فإذا نجح السودان في التوفيق بين العنصرين الذين يتألف منهما شعبه سيكون قد قام بعمل كبير للقارة بأسرها، أما إذا احتدم الصراع في السودان وطال زمانه فسوف يؤدي ذلك إلى زيادة الصراع والتوتر بين قسمي أفريقيا في كل مكان وسيتحول جنوب السودان سواء طال الزمن أم قصر الى بؤرة لهذا الأمر، فإن انشطار القارة الأفريقية قد يصبح نهائيًا".[١٠]

بعد فترة بالتحديد في سنة ١٩٢٢، حددت لائحة (الأقاليم المقفلة) وشملت جوازات السفر وتصاريح المرور، ونصت على حق الحاكم العام في اعتبار أي جزء من السودان منطقة مغلقة، إذ جاء في المادة (٢٢) من اللائحة: "من حق الحاكم العام أن يعتبر أي اقليم منطقة مغلقة إغلاقًا كاملاً أو جزئيًا بالنسبة للسوداني وغير السوداني، كما منحت المادة (٢٣) إغلاق أي منطقة من السودان في وجه التجارة التي يقوم بها أشخاص من غير القاطنين تلك المنطقة".[١١] ويمكن القول؛ أن إجراءات الإدارة البريطانية خلال الفترة (١٩٢٢-١٩٤٥) قد جعلت من الجنوب إقليمًا له خصوصية. ومما تجدر الإشارة إليه؛ أن التأخر في الجنوب السوداني ليس فقط سياسي واقتصادي واجتماعي على ما هو في الشمال، وإنما حتى عن الدول الافريقية المجاورة الأخرى.

حاولت الإدارة البريطانية أن تستغل الجنوبيين ومنذ العام ١٩٤٥، واتخذت هذه السياسة شكلاً أكثر خطورة حيث كتب الحاكم البريطاني إلى المندوب السامي في القاهرة: "أن السياسة المقررة هي مراعاة الشعوب القاطنة جنوب السودان هي بغير شك شعوب افريقية زنجية، وأن واجبنا الاسمي هو العمل بأسرع ما نستطيع لإتمام التنمية الاقتصادية والتعليمية بين هذه الشعوب على أسس افريقية وزنجية وليس على أسس عربية او شرق أوسطية."*

عقد مؤتمر جوبا سنة ١٩٤٧ وقدم هذا المؤتمر توصيات لتقريب الشمال من الجنوب وأهم هذه التوصيات: "إلغاء المجلس الاستشاري لشمال السودان، انشاء جمعية تشريعية تمثل فيها المديريات الجنوبية الى جانب الشمالية وقد أعلن جميع ممثلي الجنوب باستثناء واحد أو اثنين من زعماء المديرية الاستوائية، ضرورة قيام الوحدة السياسية بين الشمال والجنوب وان الجنوب لا يمكن أن يبقى مستقلاً أو أن يضم في اتحاد مع أوغندا".[١٢]

كان السودان في تلك الأثناء يسعى لنيل الاستقلال، حيث اجتمع البرلمان السوداني في نهاية العام ١٩٥٥ للتداول في اقتراح إعلان الاستقلال مع ظهور موقف موحد نحو الاستقلال برز الجنوبيين لإعلان شرطهم فيما بعد الاستقلال على أن يكون شكل الحكم هو فدرالي. وبحلول العام ١٩٥٦ أعلن الاستقلال وقيام الجمهورية السودانية وقد طبق نظام الحكم الذاتي في الجنوب سنة ١٩٥٧، ولم يكن قادة الجنوب يطلبون أكثر من مسايرة الشمال في التقدم الاقتصادي والسياسي، وعلى الرغم من تعدد الخطوات التي اتخذت في كافة المجالات فإن المسالة السياسية لم تحل جذريًا.

DOI: 10.12816/0047323

وعلى الرغم من أن الجنوب كان متحدًا مع الشمال من الناحية الشكلية، فقد بقي في عزلته متمسكًا بكيانه المستقل، ولم يكن من السهل القضاء خلال بضع سنوات من الديمقراطية البرلمانية على الآثار التي أوجدها البريطانيون طيلة خمسين عامًا. وعلى الجانب الآخر كانت أحزاب الشمال تركز اهتمامها على شخص الحاكم أكثر ما تهتم بدراسة المشاكل القائمة في الشمال والجنوب، وكان لهذا كله آثاره الضارة في الجنوب، فقد استخدم رجال جمعيات التنصير ودعاة الانفصال من أبناء الجنوب هذه الأحداث لزيادة نشاطهم وتوسيع دعايتهم ضد الشمال.

وخلال هذه الفترة من السخط في الشمال والجنوب ونتيجة لتدهور الأوضاع الاقتصادية والاضطراب السياسي تقدم الجيش في ١٩٥٨/١١/١٧ واستولى على السلطة بانقلاب أبيض يقوده الفريق إبراهيم عبود.[١٣] وكان التفاوت كبير بين الإقليمين الشمالي والجنوبي وعلى أثر هذا الانقلاب العسكري تم إلغاء قانون المناطق المقفلة عام ١٩٦٢.[١٤] قام الحكم العسكري بتركيز نشاطه على معالجة الوضع الاقتصادي ولم يلتفت في البدء لمشكلة الجنوب، ولكنه بعد ذلك عمل على قمع المعارض وكان متعجلاً في نشر اللغة العربية وبسط القواعد الإسلامية في الجنوب اعتقادًا منه بأن هذا هو السبيل الوحيد إلى تحقيق الوحدة في المستقبل.

وكانت الأحداث السياسية في جنوب السودان تسير في ذلك الوقت في اتجاه جديد، إذ أدت إجراءات القمع التي اتخذها الجيش في الجنوب إلى انتقال آلاف الجنوبيين إلى خارج السودان، إلى أوغندا وكينيا وأثيوبيا وشكلوا تنظيمات معارضة مثل "رابطة السودان المسيحية"، والاتحاد الوطني للمناطق المغلقة في السودان الأفريقي. أما في داخل الجنوب فقد اشتعلت الاضطرابات في أنحائه على أثر صدور مرسوم الخاص برجال التنصير وشهد العام ١٩٦٣ ظهور جمعية "انيانيا" وبدأت فيما بعد بحرب العصابات.[١٥]

جاءت ثورة تشرين الأول ١٩٦٤، والتي أنهت الحكم العسكري في السودان لكن الحال لم يستمر كما هو عليه، فقد جاءت حركة عسكرية جديدة للسودان في ١٩٦٨/٥/٢٥ يقودها اللواء جعفر النميري وكان أول تصريح للرئيس الجديد: "بأن حكومته تدرك الأبعاد الحقيقة لمسالة الجنوب، وأن حكومته تعترف بالفوارق البسيطة ومنها الاقتصادية والاجتماعية، وقد قررت منح الجنوب حكمًا ذاتيًا في نطاق السودان الموحد".

لقد جاء إعلان جعفر النميري تماشيًا مع أهداف حركته الثورية الاشتراكية، ولإثبات النوايا الحسنة أعلنت الحكومة مجموعة من القرارات منها لشؤون الجنوب ولجان للتعمير والتعليم والصحة وفي ١٩٦٩/٦/٩ وعدت الحكومة بالحكم الذاتي للإقليم الجنوبي، في الوقت ذاته لم يستطيع بعض الساسة اصحاب الارتباط الخارجي التفاهم والتعاون مع المرحلة او السلطة الجديدة، فقد اتخذ الساسة الجنوبيين الدول الافريقية المجاورة مركزًا لنشاطهم والبعض الآخر منهم اخذ يبحث عن مساندة من أوربا الغربية مثل ما حدث من دعم المجلس الأعلى للكنائس في إيطاليا وتأسيس رابطة الجنوب السوداني التي يقودها الدكتور القس فرانك ومنظمة اكيتو – ميكو في جمهورية ألمانيا الغربية.[١٦]

تصاعد الموقف تدريجيًا حول قضية الجنوب السوداني واهتمام الأقطار العربية بذلك، فقد كانت وحدوية وترفع شعارًا: "لا حدود وطن واحد". ولم تكن هذه المفاهيم تروق لبعض القوى في كل أرجاء الوطن العربي ومنهم الجنوبيين في السودان وتبلور هذا الرفض بشكل واضح خصوصًا بعد مبادرة الرئيس الراحل جمال عبد الناصر حول إنشاء نواة لقيام (اتحاد الجمهوريات العربية) في نهاية العام ١٩٦٩ وبعد تبلور شكل هذا الاتحاد في ميثاق طرابلس بين مصر وليبيا والسودان. لم تكن السودان بعيدة عن هذه الأحداث وصادف ظهور قوى سياسية تعارض توجهات النظام وسعيها للقيام بحركة ضد السلطة وتغيير نظام الحكم الذي يقوده الرئيس جعفر النميري في أواسط العام ١٩٧٠، وكان بتدبير أساسي من الحزب الشيوعي السوداني والذي يعتبر مساند رئيس لقضية الجنوب، لكن الحركة المذكورة فشلت في تحقيق أهدافها وساهمت دول ميثاق طرابلس في إجهاض الحركة، وفي هذا الصدد أشار الرئيس محمد أنور السادات: "بأن اتحاد الجمهوريات العربية قد ولد وله أسنان حامية وبأن أسنانه قد بانت في السودان".[١٧]

وبعد مباحثات طويلة ساهمت فيها أطراف دولية تم في أديس ابابا* (مارس/ آذار) ١٩٧٢ اتفاقية حدد الرئيس النميري فيها منحه للمديريات الجنوبية الثلاث حكمًا ذاتيًا.[١٨] لقد وضعت هذه الاتفاقية* حدًا لحرب استمرت لسنين طويلة ووصل عدد ضحاياها إلى نصف مليون نسمة بين قتيل وجريح، وخلال العام ١٩٨٣ عادت مشكلة جنوب السودان للظهور في أيار ١٩٨٥، وبعد نهاية حكم الرئيس جعفر النميري استمر الوضع غير مستقر حتى حزيران ١٩٨٩ عندما استولت مجموعة من الضباط بقيادة الفريق عمر حسن البشير على السلطة وكونت مجلس للثورة وكانت الحركة الأخيرة تخلو من أي دماء إلا باستثناء مقتل جندي وطبيب عسكري.[١٩]

يصف أحد المؤرخين الغربيين مع تغيرات عام ١٩٨٩ في السودان: "بعد وصول الجنرال عمر حسن البشير والإسلاميين للسلطة بقيادة المنظر حسن الترابي أعلنت حركة المعارضة عن تشكيلها الجديد بقيادة الكولونيل ج – غارنق (جون قرنق) وقامت أثيوبيا بدعمه بسبب خلافاتها مع حكومة الخرطوم، وأعلنت حركة المعارضة – منذ تشكيلها ان هدفها توحيد السودان لا تقسيمه، كما تهدف إلى تشكيل سودان عادل". وفي حقيقة الأمر؛ أن حركة المعارضة نادت بالاقتسام العادل للسلطة

والثروة وتنادي برفع الظلم عن سكان إقليم الجنوب على حد تعبير المؤرخ دوغلاس جونسون.

وكان لتطبيق الشريعة الإسلامية على إقليم الجنوب بعد وصول الرئيس عمر حسن البشير ودعم النظام الإيراني له خلال تطور العلاقات في تسعينات القرن الماضي، وكذلك التقارب الذي حصل مع الأنظمة الأصولية (يقصد المتشددة) كما يصفها، أسهمت بتأزم الموقف مع المعارضة وخصوصًا مع (جيش التحرير الشعبي السوداني). كما أسهمت قضايا أخرى داخلية في تأزم الموقف بين السلطة والأقاليم مثل إقليم دارفور واندلاع الصراع المسلح (الحرب الأهلية) الذي أسهم بتدخلات دولية فيما بعد.[٢٠]

خَاتِمَةٌ

إن أحداث القارة الأفريقية – والسودان هي جزء من كل وحلقة في سلسلة، هي نتاج التناقضات بين المراكز والأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والسياسية، مما أدى إلى إن تتراكم عوامل أدت بالتالي إلى نتائج ليست في صالح القطر السوداني ويمكن ملاحظة ما يأتي:

- إن الجزء الجنوبي من السودان هو قضية إفريقيا العربية وإفريقيا الأفريقية بكل أبعادها السياسية والاقتصادية والاجتماعية.
- كان لانتشار ثقافة العنف في بعض مناطق السودان وغياب مبادئ الحرية وسيطرة الدول الاستعمارية على السودان واستغلاله يضاف لها عوامل انتشار الفقر والجهل والمرض وعدم المساواة بين الأجناس البشرية وتدمير الثقافات الشعبية والمظاهر الحضارية سبب في تطور قضية جنوب السودان التي طابعًا خاصًا لتتحول من مشكلة معقدة الحل إلى قضية إقليمية.
- أسهمت بعض الأطراف الداخلية من كلا الطرفان بشكل كبير في تعميق هوة الخلاف من تراكمات الاستعمار وما تركه من إرث ثقيل في تعزيز الفوارق الدينية والخصوصية اللغوية والحياة الاقتصادية والاجتماعية بين الشمال والجنوب ودور الحركات العسكرية وسيادة النظام في الاتجاه الواحد وانعدام التعددية الحزبية أو السياسية في بعض الأوقات من ذلك التاريخ.
- اتفاقيات التهدئة وظهور تدخلات خارجية لتقليل الثقة من أطراف إقليمية افريقية- افريقية لمصالح وأهداف متعددة وما رافقها من انهيار اتفاق السلام بين الأطراف المعارضة المسلحة، توجهت القضية نحو مفترق طرق إلى اتفاق حسم ومن ثَمَّ تقرير المصير برعاية دولية.

الهَوامِشُ

(١) إحسان حقي، **أفريقية الحرة –بلاد الأمل والرخاء**، ط١، بيروت ١٩٦٢، ص٤٩-٥٠.

(٢) المرجع ذاته، ص٥١-٥٢.

(٣) طارق جامباز، د. روزان دزئي، **كوردستان العراق وجنوب السودان من الحكم الذاتي إلى الفيدرالية –دراسة مقارنة**، ط١، اربيل،٢٠٠٨، ص٧؛ للمزيد يمكن مراجعة: د. عبده مختار موسى، **مسألة الجنوب ومهددات الوحدة في السودان**، ط١، بيروت، ٢٠٠٩، ص٤٥ وما بعدها.

(٤) **مجلة الهدف**، العدد ١٦٨، ١٩٧٢/٩/٩؛ حول لغات القارة يمكن مراجعة: د. محمد رياض، د. كوثر عبد الرسول، **أفريقيا دراسة لمقومات القارة**، ط١، بيروت، ١٩٧٣، ص٣١٥ وما بعدها.

(٥) **مجلة الهدف**، العدد (١٦٨).

(٦) محمد علي القوزي، **دراسات في تاريخ العرب المعاصر**، ط١، بيروت، ١٩٩٩، ص٣٠٠.

(٧) طارق جامباز، المرجع السابق، ص١١.

(٨) محمد علي القوزي، المرجع السابق، ص٣٠١-٣٠٢؛ كذلك حول البعد الديني يمكن مراجعة: د. عبده مختار موسى، المرجع السابق، ص٩٣.

(٩) محمد بن ناصر العبودي، **أفريقية الخضراء**، ط١، بيروت، ١٩٦٨، ص٣٨.

(١٠) محمد علي القوزي، **تاريخ العرب المعاصر**، ص٢٨٤-٢٩٩.

(١١) المرجع ذاته، ص ٣٠٤- ٣٠٥.

(١٢) **الشرق الأوسط**: يتفق معظم المؤرخين على مصطلح الشرق الأوسط، أول ظهور له عام ١٩٠٢ من خلال كتابات المؤرخ العسكري الفريد ماهان وحدده بين الهند وشبه جزيرة العرب وكان مصطلح الشرق الأدنى يستخدم بكثرة قبل ظهور مصطلح الشرق الأوسط، وتداول المصطلح كثيرًا مع الحرب العالمية الأولى وما بعدها، ويتضح أن تسمية المصطلح يعكس وجهة نظر غربية، وأبان الحرب العالمية الثانية توسع مصطلح الشرق الأوسط ليشمل مناطق أوسع، ولقد حدد الدكتور جورج لشوفسكي سنة ١٩٥٦ وهو كاتب أمريكي من أصل بولندي منطقة الشرق الأوسط من الاتحاد السوفيتي إلى مصر افريقيا، وأصبح مصطلح الشرق الأوسط هو أكثر من مصطلح جغرافي، فهو مصطلح سياسي واقتصادي ويضم أقوامًا وأديانًا شتى، وكذلك هو المجال الذي تلتقي به القارات أوربا وإفريقيا وأسيا، *الشرق الأوسط: للمزيد، يُنظر: د. إبراهيم خليل العلاف على الموقع:

http://www.uluminsania.net

DOI: 10.12816/0047323

المرجع ذاته، ص٣٠٦؛ حول صراع الهويات يُنظر: د. عبده مختار موسى، المرجع السابق، ص١٢١.

(١٣) محمد علي القوزي، تاريخ العرب المعاصر، ص٣٠٨-٣٠٩.

(١٤) طارق جامباز، المرجع السابق، ص١٣.

(١٥) محمد علي القوزي، **تاريخ العرب المعاصر**، ص٣٠٩-٣١٠.

(١٦) **مجلة الهدف**، العدد ١٨٢، ١٩٧٢/١٢/١٦.

(١٧) المرجع ذاته.

(١٨) **اتفاقية أديس أبابا**: اجتمع وفدان الأول وفد حكومي برئاسة نائب الرئيس (ابيل البر) ووزراء آخرون، ووصل الوفد أديس أبابا في ١٩٧٢/٢/١٦ والتقى بالوفد الثاني من حركة الاتانيا وكان يتكون من ثمانية أشخاص واجتمع الوفدان في صالة مغلقة واستمرت المفاوضات عشرة أيام بعد إكمال أربع اتفاقيات: ١- الترتيبات الدستورية (الحكم الذاتي للمديريات الجنوبية) ٢- اتفاقية وقف أطلاق النار ٣- برتوكول عودة اللاجئين٤- ملحقات عن الحقوق الأساسية والحركات العامة وأصبحت سارية المفعول حتى العام ١٩٨٣، * اتفاقية جنوب السودان ١٩٧٢: **مجلة الصحافة**، العدد ٢٩٧، ٢٠٠٨/٣/١٧، د. محمد علي القوزي، **تاريخ العرب المعاصر**، ص٣١٣.

(١٩) المرجع ذاته، ص٣١٣-٣١٤.

(٢٠) ل- وغلاس جونسون، **قضية جنوب السودان**، شبكة المعلومات الدولية.

المشرق العربي من خلال جريدة الأمة لأبي اليقظان

(١٣٥٢ – ١٣٥٧هـ/ ١٩٣٣ – ١٩٣٨م)



خيري الرزقي

أستاذ التاريخ بالتعليم الثانوي
باحث دكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر
ولاية المسيلة – الجمهورية الجزائرية

بيانات الأطروحة

أطروحة ماجستير
المشرق العربي من خلال جريدة الأمة لأبي اليقظان
كلية العلوم الإنسانية – قسم التاريخ

إشراف
أ.د. أحمد رضوان شرف الدين
جامعة الجزائر (٢)

الجزائر ٢٠١٣
٣٦٨ صفحة

كلمات مفتاحية:
الصحافة الجزائرية، قضية فلسطين، الوحدة العربية، الصحافة الإصلاحية، الشيخ أبو اليقظان

معرّف الوثيقة الرقمي: 10.12816/0047325 DOI

مقدمة

إن صحافة الشيخ إبراهيم أبو اليقظان ذات مكانة خاصة في تاريخ الصحافة العربية عمومًا والجزائر خصوصًا، ذلك لأنها غطت طيفًا عريضًا من المواضيع، والتي من بينها ما تعلق بتطور الأوضاع في المشرق العربي في فترة ما بين الحربين، ومن أطول جرائده عمرًا وعددًا كانت جريدة "الأمة" التي صدرت في (١٧٠) عددًا والتي جاءت حافلة بآلام وآمال الدول العربية. وهي الأخرى غطت فترة حرجة للغاية قبيل الحرب العالمية الثانية (١٩٣٣-١٩٣٨) أين تسارعت الأحداث بشكل واضح، ومن خلالها أراد الشيخ أبو اليقظان إثبات أن هذا الوطن واحد بجناحيه المشرقي والمغربي وفضح المؤامرات الخارجية عنه واطلاع القارئ في المغرب العربي على أحوال إخوانه في المشرق.

إن دوافع اختيار هذا الموضوع يعود إلى اهتمام الباحث بالصحافة الإصلاحية في الجزائر، ومن بينها صحافة الشيخ أبو اليقظان الصحفي المنتسب إلى جمعية العلماء المسلمين الجزائريين والمدافع عن حزب الشعب الجزائري وزعيمه، كما أن جريدته الأمة كانت منبرًا لأسماء مشهورة في عالمي الفكر والسياسة مثل عبد الحميد بن باديس، ومصالي الحاج، ومبارك الميلي، ومفدي زكريا، وشكيب أرسلان، وأمين الحسيني وغيرهم، ويمكن أن نلخص أسباب اختيار العنوان في النقاط الآتية:

- كون المشرق شهد فترة تحول وصراع مع الأجانب في فترة ما بين الحربين أين تسارعت القوى الأوربية إلى تجسيد وصايتها وسيطرتها على المنطقة.
- تسارع الأحداث عبر أرجاء المشرق العربي باتجاه المزيد من التقسيم وخاصةً في فلسطين.
- كون المشرق العربي يمثل الطرف الأساسي في معادلة التحرر العربي.
- اهتمام صحافة المشرق العربي بقضايا المغرب العربي، فأردت إبراز العلاقة العكسية بالنسبة للصحافة العربية في الجزائر ومدى مساهمتها في التعريف بقضايا المشرق.
- تسليط الضوء على مكانة المشرق العربي في جريدة الأمة فقط، ودرجة اهتمامها بقضايا المسلمين خاصةً وأن هذه الزاوية مازالت بكر في الدراسة ولم تحظ بدراسات أكاديمية مختصة حسب علمنا.
- قلة البحوث الأكاديمية التي تتعلق بالجانب الصحفي لأبي اليقظان، حيث ما يوجد منها يتعلق بالدراسات في مجال الإصلاح والشعر والنثر...إلخ.

أما عن أسباب اختيار جريدة "الأمة" لكي تكون المصدر الأول لمادة هذا البحث فيمكن أن نوجزها فيما يلي:

- أن جريدة الأمة وعلى الرغم من أهمية تغطيتها لفترة البحث لم تحظ بدراسة تاريخية أكاديمية، هذا ما دفع الباحث إلى

اختيارها بالاتفاق مع الأستاذ المشرف وبعد طول مشاورات والبحث عن مكان توفرها.

- الفترة الحساسة جدًا التي صدرت فيها وهي فترة ما بين الحربين التي مر بها الوطن العربي مغربًا ومشرقًا، وبالتالي فهي حتمًا ستكون مادتها دسمة في هذا المجال.
- كتب بها كبار المصلحين الجزائريين ورجال السياسة منهم ابن باديس، وفرحات عباس، ومصالي الحاج، ومفدي زكريا...الخ.
- مناصرتها لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين وحزب الشعب الجزائري.
- كتَبَ بها مفكرون من الوطن العربي منهم الأمير شكيب أرسلان، وخير الدين الزركلي، والرافعي، ومحب الدين الخطيب، وشيخ الأزهر، وحسن الزيات، وإيليا أبو ماضي، والباروني، وأمين الحسيني وغيرهم كثيرون، فقد كانت منبرًا لهؤلاء المشارقة.
- عبّرت بشكل صريح وموسّع عن قضايا المشرق العربي.
- جريدة الأمة أطول جرائد إبراهيم أبو اليقظان (١٧٠ عددًا) وهذا ما ساعد على التطرق إلى مواضيع وقضايا المشرق بشكل أوسع وتغطية فترة أطول.
- جريدة الأمة هي سابع جرائد أبي اليقظان، وهذا ما جعله يتمتع بخبرة صحفية أكثر.
- معظم كُتّاب جريدة الأمة من تيار الحركة الإصلاحية، ومن كتاب جريدة البصائر أيضًا.
- تعتبر جريدة الأمة من أهم المصادر التي لا يمكن الاستغناء عنها في دراسة العلاقات بين بلاد المغرب والمشرق العربي وذلك في جميع المجالات السياسية والاقتصادية والثقافية.

الإشكالية

تعرض الكثير من الدارسين إلى الصحافة العربية الإسلامية ودورها في معالجة القضايا الوطنية الجزائرية مع عدم التركيز على قضايا العالم الإسلامي أو العربي، ومدى مساهمة هذه الصحافة الإصلاحية خاصةً في تمتين الروابط بين أقطار المغرب والمشرق العربيين، ولعل هذه الإشكالية تجرنا إلى طرح التساؤلات التالية:

- بما أن إبراهيم أبو اليقظان قد سخر جريدته الأمة للدفاع عن وحدة الوطن العربي، كما سبق، فكيف تناولت هيئة التحرير هذا الموضوع، وكيف تناوله مَنْ كانوا خارج هيئة التحرير؟ كيف تطور هذا التناول؟ إلى أي مدى تأثر بالمشروعات المطروحة في هذا الميدان؟ وماذا عن العلاقات بين المغرب والمشرق العربي بصورة خاصة؟ وما مدى اهتمام القراء بهذه الجريدة ؟.
- ما مدى مساهمة الصحافة الإصلاحية العربية الحرة في الجزائر في تنشيط هذه العلاقات المغربية المشرقية؟
- ما مدى تأثير جريدة الأمة وتأثرها بقضايا المشرق العربي؟
- كيف عالجت جريدة الأمة قضايا المشرق العربي في فترة ما بين الحربين؟ وما هي أبرز الموضوعات التي اهتمت بها؟
- ما هي القضايا والدول التي كانت أكثر اهتماما بها ؟
- ما علاقة صحافة أبو اليقظان عامة وجريدة الأمة خاصة بموضوع العلاقات بين المغرب والمشرق العربي؟
- ما مدى اهتمام الجريدة بهذه العلاقات؟ هل ساهمت جريدة الأمة في التعريف بقضايا المشرق في بلاد المغرب العربي ؟ ما درجة اطلاع القارئ العربي في الجزائر خصوصًا بما كان يجري من أحداث في المشرق ؟ ولماذا التركيز في المقالات على دول دون الأخرى، وهل استطاعت جريدة الأمة أن تحقق ما يطمح إليه القارئ في المغرب العربي من مواضيع حول المشرق كما فعلت المنار أو الفتح أو الرسالة ...الخ.

خطة البحث

ومن أجل معالجة الإشكالية السابقة والفرضيات فقد اتبعت في ذلك خطة تتلخص في مقدمة، وفصل تمهيدي، وأربعة فصول، وخاتمة، ويمكن أن نلخص هذه الخطة فيما يلي:

الفصل التمهيدي: وكان بعنوان "**أبو اليقظان وجريدة الأمة**"، فعن شخصية أبي اليقظان تطرقت إلى نشأته وتعليمه ونشاطه الإصلاحي ومؤلفاته ووفاته، وقد ركزت فيه على الجانب الصحفي حيث تطرقت إلى لمحة عامة عن الجانب الصحفي عنده ومساره في ذلك، ثم تطرق الباحث إلى أسلوبه الصحفي وخصائصه على أساس أن البحث اعتمد على الصحافة، كما أبرزت صلاته العربية والإسلامية وصداقاته وبعض ما قيل عنه كشهادات بعد وفاته خاصة. أما فيما يتعلق بجريدة الأمة فقد تكلمت عن نشأة الجريدة وطريقة إخراجها وتطورها والقضايا التي عالجتها، ثم خلصت إلى أهم العقبات والصعوبات التي واجهتها إلى غاية مصادرتها عند العدد (١٧٠) سنة ١٩٣٨، وأنهيت الفصل بملخص عن شخصية الشيخ إبراهيم أبو اليقظان وجريدة الأمة مبينا أهميتها واستحقاقها بأن تكون المصدر الأول لمادة البحث.

الفصل الأول: كان بعنوان "**تطور قضية فلسطين من ١٩٣٦ إلى ١٩٣٨ من خلال جريدة الأمة**". ففي المبحث الأول تطرق الباحث إلى ثورة ١٩٣٦ بدءً في ذلك بمكانة فلسطين في جريدة الأمة ثم إعلان الثورة ومجريات أحداثها وبعض وقائعها ونتائجها إلى غاية توقيف الإضراب الشامل المصاحب للثورة في السنة نفسها. وفي المبحث الثاني أوردت فيه الإمبريالية البريطانية في فلسطين وضغوطاتها ضد شخصية أمين الحسيني ومحاولة اغتياله وما خلفته من ردود أفعال تجاه نفيه

وتطورات إبعاده عن فلسطين، ثم تعرضت إلى السياسة البريطانية نفسها لكن بعد نفي أمين الحسيني من سياسة دينية تصب في تهويد فلسطين من خلال مخططات انجاز الوطن القومي اليهودي ومواقفها المعادية للمجلس الإسلامي الأعلى في القدس. وفي المبحث الثالث: تناول الباحث نظرة الأمة لمواقف الهيئات العربية المشرقية من قضية فلسطين مثل اللجنة العربية الفلسطينية في القاهرة، واللجنة العربية العُليا في القدس، وموقف المكتب العربي القومي في دمشق، وجمعية الإخوان المسلمين في مصر. أما المبحث الرابع: فتعرض فيه الباحث إلى مشروع التقسيم لسنة ١٩٣٧ وسنة ١٩٣٨ وجملة المواقف تجاه هذا التقسيم سواء من داخل فلسطين أو خارجها. وفي الأخير ختمت الفصل باستنتاجات عامة عن اهتمام وطريقة معالجة جريدة الأمة لقضية فلسطين وموقف أبي اليقظان المساند تماما لها والداعي إلى الاهتمام بها وفضح كل سياسات الانجليز واليهود.

الفصل الثاني: فقد كان خاصًا بمصر ومختلف قضاياها السياسية والعسكرية والاجتماعية من ١٩٣٤ إلى١٩٣٨. أما أهم القضايا السياسية الخارجية فكانت مرتبطة مع الدول الأجنبية والعربية، أين كان لمصر موقف سياسي خاص من قضية النزاع الإيطالي الحبشي، والخلاف المصري الانجليزي حول عودة العمل بدستور ١٩٢٣ ثم قضية المفاوضات المصرية الانجليزية الرامية إلى توقيع معاهدة الاستقلال والصداقة سنة ١٩٣٧ ومراحل توقيع هذه المعاهدة التي خولت لمصر التمتع باستقلالها وبذلك انضمامها إلى جمعية الأمم. أما العلاقات المصرية مع الدول العربية فقد تطرقت إلى العلاقات مع العربية السعودية (معاهدة الصداقة) ومشروع محمد علي سنة ١٩٣٧ لتوحيد البلاد العربية. أما في المبحث الثاني، فقد خصصه الباحث للتوترات العسكرية موضحًا في ذلك النزاع الإيطالي الحبشي وأثره على الاستعدادات العسكرية المصرية وموقف مصر العسكري من مشكلة إيطاليا والحبشة أين ظهر الاستعداد الانجليزي المصري المتحالف لحرب إيطاليا على الحبشة بغرض إبعاد إيطاليا عن مناطق نفوذ بريطانيا وموقف مصر من الحرب، وختم الباحث الفصل بالحديث عن موقف جريدة الأمة وصاحبها أبو اليقظان من أحداث مصر وتطوراتها أين أشار إلى أن الخلاف القائم بين القصر الملكي وحزب الوفد سببه تدخلات أجنبية في إشارة منه إلى التدخل الانجليزي الهادف إلى خلق الفوضى في مصر بعد الاستقلال كما تأسف عن تراجع مكانة حزب الوفد ،دون أن يتعرض إلى أسباب هذا التراجع.

الفصل الثالث: فكان بعنوان قضايا المشرق العربي الأخرى من (١٩٣٤) إلى (١٩٣٨) أين جاء هذا العنوان بهذا الشكل لأن المادة الخبرية في جريدة الأمة تفرقت هنا على معظم الدول المشرقية عدا فلسطين ومصر اللتان حظيتا بمادة وفيرة. ففي المبحث الأول تناولت قضايا الشام والعراق أين أبرمت معاهدة الاستقلال بين سوريا وفرنسا على غرار المعاهدة المصرية الانجليزية والمؤتمر الطبي بدمشق ذا الطابع السياسي ومعاهدات الوحدة مع منطقة الحجاز في إطار تكتل الأنظمة الملكية، ثم العراق مركزًا على نظامها الملكي وانجازات الحكومة وذلك التوتر الذي كان بين القصر الملكي والجيش وصولاً إلى الانقلاب الحكومي وتعيين سليمان بك رئيسًا للحكومة وقضية التعاون مع الكويت والبحرين. أما الجانب العسكري في العراق، فكان تركيز العراق على بناء الجيش (القوات الجوية) ومساهمة سليمان الباروني في مساعدة الجيش العراقي الذي انحرف عن مهامه وهو ما ساعد على زيادة تأزم الوضع. إضافة إلى قضايا سوريا التي كانت فيها الوحدة مع الطائفة المارونية وإجراء انتخابات برلمانية وتشكيل برلمان جديد ومختلف التطورات التي شهدتها سوريا سنة ١٩٣٦ (عام الثورات والمعاهدات) أين تم تجديد البرلمان السوري والحكومة معًا.

أما قضايا سوريا الخارجية، فكان موقفها من معاهدة الطائف بين ابن السعود والإمام يحي في اليمن، وصولاً إلى العلاقات السورية الفرنسية وكيفية تطبيق السياسة الفرنسية في سوريا من وجهة نظر فرنسية إلى غاية إبرام المعاهدة بين الطرفين والتي تنص على منح الاستقلال (معاهدة الصداقة والتحالف). كما تطرقت إلى العلاقات السورية التركية سنة ١٩٣٧ ودور الجالية السورية في القاهرة وخاصةً في إطار القضية الفلسطينية. أما المبحث الثاني، فكان متعلق بقضايا الحجاز أين كانت المملكة العربية السعودية محل تتبع من قبل جريدة الأمة وصنفت فيها المادة إلى قضايا سياسية وأخرى اقتصادية. فمن جملة القضايا السياسية كانت قضية تعرض الملك عبد العزيز بن سعود إلى محاولة اغتيال وتوترت بموجبها العلاقات مع اليمن بعد التهمة لأشخاص من هذا البلد، كما تعرضت لإنجازات الملك ابن السعود الاجتماعية والعلمية والصحية والمنشآت وزيارته إلى لندن وبعض البلاد العربية بحثًا عن الاعتراف بالكيان السياسي الجديد، ثم عرضت معاهدة السعودية مع العراق، والمعاهدة مع اليمن (معاهدة الطائف) وتجديد المعاهدة مع بريطانيا سنة ١٩٣٦ وهكذا يبدو أن الجريدة ركزت على فترة الملك عبد العزيز بن سعود بشكل كبير.

وتلخصت قضايا السعودية الاقتصادية في ذلك الاتفاق المبرم مع نقابة التعدين بغرض استقلال مناجم السعودية وما خلفه من ردود أفعال موضحة مخاطر ذلك على اقتصاد الدولة. بينما اليمن فقد دار البحث حول احتلال منطقة حضر موت والتنافس الإيطالي البريطاني على اليمن وتدخلات الانجليز الأولى فيها وموقف الشعب اليمني من ذلك. أما عمان، فقد أوردت الجريدة تقريبًا إشارات فقط أين عرضت الصراع القبلي وسياسة السلطان سعيد بن تيمور، أما من الناحية السياسية فقد كان ذلك الصراع السعودي الانجليزي على عمان وبالتركيز على السياسة الخارجية في عهد سعيد بن تيمور.

الفصل الرابع: فقد دار حول قضية الوحدة العربية منطلقا في ذلك من الخلاف التاريخي بين سليمان الباروني وشكيب ارسلان حول وجهة النظر في اتحاد منطقة المغرب العربي مع المشرق، أين حاولت جريدة الأمة التوفيق بين الشخصيتين من خلال مقالات الشيخ إبراهيم بيوض، ثم تطرقت إلى فكرة الوحدة العربية والمواقف الخارجية. كما تعرضت إلى قضايا تضامنية وعربية أخرى مثل وحدة برامج التعليم في المشرق العربي ودورها في إقامة الوحدة العربية واهتمامات دول المشرق بقضايا المغرب مثل التضامن مع الجزائر بعد حوادث قسنطينة سنة ١٩٣٤ وصولاً إلى قضايا الامتيازات في دول الخليج عامة. وختم الفصل بجملة استنتاجات عن قضايا العالم العربي والإسلامي ووجهة نظره إليها وبذلك بين بعده العربي والإسلامي. وختم البحث بخاتمة توصل فيها إلى جملة من الاستنتاجات حول شخصية أبي اليقظان وجريدة الأمة وكيفية علاجها لقضايا المشرق العربي مجيبا بذلك قدر الإمكان عن الإشكال المطروح والمقدمة. ويليها جملة من الملاحق، ثم قائمة المصادر والمراجع وأخيرًا فهرسة الموضوعات.

المنهج المتبع

إن طبيعة الموضوع تتحكم بنسبة كبيرة في نوع المنهج المتبع، وفي هذا البحث فقد اتبعت المنهج التاريخي الاسترداي عندما تطرقت إلى حياة أبو اليقظان أو العصر الذي عاش فيه، أو أهم المحطات التي مر بها، بغية معرفة العوامل التي ساعدته أو أثرت فيه وفي جانبه الصحفي أو اهتماماته بقضايا المسلمين في المشرق العربي. وعندما تطرقت إلى جريدة الأمة اتبعت المنهج الوصفي (المسحي) قصد إعطاء القارئ صورة وفكرة عن الجريدة دون أن يطلع عليها أو يراها من أعدادها الأولى إلى الأخيرة. أما المنهج الاستقرائي فقد اتبعته عند تحليل أفكار الجريدة ومقارنتها بما كتب في المصادر والمراجع الأخرى وذلك بهدف التوصل إلى استخراج المادة العلمية ثم تبويبها وفهرستها مع شيء من التحليل بغرض إنتاج المعرفة التاريخية من خلال الجريدة، وربما كانت لي هذه هي أصعب مرحلة.

الدراسات السابقة

في إطار عملية جمع المادة العلمية عن الموضوع وقف الباحث على دراسات أكاديمية خاصة بأبي اليقظان لكنها في عمومها تميل إلى الجانب الأدبي في شخصيته أو الجانب الإصلاحي، ولاحظ الباحث نقصًا واضحًا في الدراسات الصحفية الأكاديمية عنه ذات العلاقة بالمشرق العربي، ويمكن القول أن الدكتور محمد ناصر قد برز في كتاباته عن هذا الجانب، ومن بين الدراسات الأكاديمية عن أبي اليقظان أو التي تدور حول اهتماماته بالمشرق نذكر: زغينة محمد، أبو اليقظان ونثره، رسالة دكتوراه دولة، جامعة باتنة.- زكية منزل غرابة، الفكر الإصلاحي عند الشيخ أبي اليقظان، رسالة ماجستير، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، قسنطينة.- فضيلة ركبة: التشكيل الفني في شعر إبراهيم أبي اليقظان، رسالة ماجستير، جامعة منتوري، قسنطينة.- وكانت دراسة الدكتور الحاج موسى بن عمر بعنوان، القضايا الوطنية والعربية الإسلامية من منظور أعلام ميزاب ١٩٠٢ – ١٩٦٢ (رسالة دكتوراه) حيث خصص الفصل الثامن لقضايا المشرق العربي. أما الدراسات التي تخدم الموضوع في إطاره العام العربي والإسلامي فنجد دراسات الدكتور مصطفى نويصر الواسعة في مجال الصحافة الداعية الى تحقيق وحدة عربية، وكذلك دراسات الدكتور عويمر مولود في مجال الدراسات الإسلامية، وكلها تخدم الموضوع في حالة توسعه مستقبلاً.

المصادر والمراجع المعتمدة في البحث

كان المصدر الرئيس للبحث والذي تدور حوله جميع مراحله هي جريدة الأمة لأبي اليقظان بجميع أعدادها مع الاستعانة ببعض الجرائد والمجلات التي كانت معاصرة لها مثل البصائر والشهاب، ومن هذه المصادر ما يخدم الموضوع مباشرةً مثل كتاب أعلام الإصلاح في الجزائر (ج٣)، ونهضة الجزائر وثورتها المباركة لمحمد علي دبوز حيث استعان بهما الباحث كثيرًا في دراسة حياة إبراهيم أبو اليقظان. بينما جريدة البصائر والشهاب فقد لجات إليهما قصد الاطلاع على مقالات ابن باديس تجاه أبو اليقظان أو جريدة الأمة وتعطيلها إلى جانب كتاب تاريخ الصحافة في الجزائر لمفدي زكريا، وتاريخ الصحافة في الجزائر (ج٦) للزبير سيف الإسلام، وكتاب الشيخ أبو اليقظان كما عرفته لأحمد فرصوص الذي كان كاتبًا وملازمًا للشيخ ابراهيم أبو اليقظان في حياته والذي أعطى تفاصيل جيدة عن مراحل مختلفة من حياته، كما استعان الباحث بمجلة المنهاج للشيخ أطفيش والتي تصدر في القاهرة، ومجلة المنار المجلد رقم (٢٩) ج٦.

أما المصادر التي استعان بها الباحث في توسيع أفق البحث، فنذكر منها كتاب شبه الجزيرة العربية في عهد الملك عبد العزيز (ج١) لخير الدين الزركلي وجمال الدين الأفغاني ومحمد عبده في العروة الوثقى، لكن كتمهيد للموضوع والأوضاع التي سبقت فترة البحث بالإضافة إلى كتاب: خمسون عامًا في جزيرة العرب لحافظ وهبة. أما المصادر المعربة، فنذكر منها تاريخ مصر قبل الاحتلال البريطاني وبعده لتيودور رونستين، وكتاب تاريخ الصحافة العربية (ج٤) لدي طرازي وفليب الفيكونت. وكل المصادر المثبتة في القائمة كانت بمثابة دعم للموضوع فقط لأن البحث مصدره محدد وهو جريدة الأمة لأبي اليقظان. وتُعَدّ مؤلفات الدكتور محمد ناصر في الجانب الصحفي لأبي اليقظان مرجعًا أساسيًا مثل كتابه: أبو اليقظان وجهاد الكلمة، وكان هو منطلق الباحث في معرفة فهرسة الجريدة قبل الاطلاع عليها. وكتابه المقالة الصحفية الجزائرية نشأتها وتطورها، الصحف العربية الجزائرية من ١٨٤٧ إلى ١٩٣٩، وإن كان هذا المؤلف

فيما يتعلق بجريدة الأمة يُعَدّ صورة طبق الأصل عن ما جاء في كتاب أبو اليقظان وجهاد الكلمة، كما تم الاعتماد على كتابه أبو اليقظان في الدوريات العربية.

الصعوبات

كأي بحث جامعي لا يخلو من الصعوبات والمعترضة والعراقيل، ولا أريد الكلام هنا عن صعوبات الظروف الشخصية من ظروف العمل والبحث في وقت واحد أو ظروف الأسرة ومتطلباتها أو الإرهاق والسهر وتعب السفر...إلخ، لأنها لو لم تكن هذه العراقيل لما كان اكتمال أي بحث وهي صعوبات مشتركة بين جميع الباحثين. والصعوبات التي أود الكلام عنها هنا هي تلك التي واجهتني في البداية عند البحث عن المصدر (الجريدة) أين وصلت إلى مرحلة إحباط بعد اطلاعي على نسختها الكاملة في المكتبة الوطنية في الجزائر العاصمة والتي كانت على شريط "ميكروفيلم" قد يرجع إلى عهد الاستعمار الفرنسي، والتي كانت صعبة القراءة، وأكثر من هذا بعدما أعلمتني المكلفة بقسم السمعي البصري في المكتبة نفسها بأنه لا يمكن نسخ الجريدة على قرص مضغوط كي يسهل علي العمل في المنزل وتكاد تكون هي الجريدة الوحيدة غير المنسوخة فزادت صعوباتي. ثم علمت أن أعدادها كاملة موجودة في المكتبة الوطنية في باريس (فرنسا) لكن يستحيل التنقل إليها والاطلاع عليها. هنا فكرت في الذهاب الى مدينة القرارة مسقط رأس أبي اليقظان أين أرشدني زملائي إلى معهد الحياة أو دار الإمام أو جمعية التراث في القرارة أين وجدت كل المساعدة. ومن الصعوبات الأخرى بعد توفير الجريدة جاءت مشكلة نقص بعض الأعداد منها على غرار مختلف الجرائد القديمة لكن لحسن الحظ أن هذا النقص كان قليل ولم يكن في مرحلة واحدة وإنما كان عبر فترات وبالتالي فلم يؤثر على الموضوع من حيث تطوره التاريخي. هذا بالإضافة إلى صعوبة استخراج المادة كاملة من الجريدة وفهرستها وتوزيعها على الفصول حيث وقفت عاجزًا أمام إيجاد فصول متوازنة من حيث المادة.

خاتمة

ومما سبق يمكن الوصول إلى استنتاجات عامة حول شخصية أبي اليقظان وجريدته الأمة وكيف عالجت قضية فلسطين والتطور الحاصل في مصر، وباقي القضايا المشرقية الأخرى وعلى الخصوص قضية الوحدة العربية ونظرة هيئة التحرير في الجريدة إليها وموقفها منها. فإبراهيم أبو اليقظان برز في هذه الجريدة -الأمة- كأحد أقطاب الإصلاح الداعي بالعودة إلى أصول الإسلام ومنابعه الحقيقية عن طريق الدعوة، الإرشاد، التوجيه الأخلاقي ومعالجة القضايا الاجتماعية مركزًا على التعليم العربي الإسلامي خارج دوائر السلطات الفرنسية، وهو من المهتمين بالقضايا الوطنية المصرية التي طالما وجهت رواد الحركة الوطنية الجزائرية إلى جانب شخصيات أخرى مثل ابن باديس أو مصالي الحاج في حزب الشعب، وذلك على غرار موقفه من الوفد الجزائري المنبثق بعد المؤتمر الاسلامي سنة ١٩٣٦ وعليه برز جانب آخر في شخصيته وهو اهتمامه بمصير الجزائر السياسي وحتى دول المشرق العربي أين سجل موقفه المساند لفلسطين في جميع مراحلها ومصر وتطوراتها السياسية بين أعضاء حزب الوفد والقصر الملكي الحاكم.

كما يُعَدّ الشيخ أبي اليقظان أحد أعمدة رجالات الدين سواء في منطقة ميزاب أو الجزائر أو الوطن العربي عامة، أين برز كخطيب وهو الأسلوب الذي غلب على جل مقالاته، مع كونه رجل فكر وثقافة عربية إسلامية فضل الوصول إلى مبتغاه عن طريق إنشاء صحافة تعبر عن همومه وآلامه وآمال كل المسلمين. هذا مع تركيز أبو اليقظان في صحفه على بعض القضايا الاقتصادية التي تخدم منطقته في القرارة أو تخدم الاقتصاد الوطني عمومًا منها كلامه عن الزراعة وعن بعض الأنشطة والحرف والتجارة، وهذا ما يزيد من شمولية شخصيته التي لم تقتصر على الجانب الصحفي فقط، وبهذا أصبح أبا اليقظان شخصية متعددة الجوانب والمواهب وسخر كل وقته وماله وجهده من أجل بناء هذا الوطن وربط أواصر التواصل له مع جسده الكبير في المشرق العربي انطلاقًا من قناعته بضرورة الاهتمام بأمور المسلمين.

ولعل كل هذا قد تجسد في جريدة الأمة التي هي الأخرى كانت انطلاقتها انطلاقة إصلاحية إلى أن وصلت إلى نهاية سياسية أين أصبحت تطرح وتعالج القضايا السياسية منها موقفها المشرف التاريخي مع حزب الشعب الجزائري الذي يمثل التوجه الاستقلالي بقيادة زعيمه مصالي الحاج. وهذا ما يدعم القول بأن جريدة الأمة أصبحت فعلاً منبرًا حرًا للإصلاح والسياسة والاستقلال واستطاعت من خلال هيئة تحريرها أن تحوي هذه المجالات بكل صدق ووفاء في الطرح والمعالجة بواسطة الأقلام التي سخرتها الذائع صيتها وخبرتها الطويلة في مجال الصحافة والحنكة في التعامل وخاصة إذا تعلق الأمر تجاه الإدارة الفرنسية أو القضايا الحساسة وأحيانا كانت تطرحها بكل جرأة وشجاعة.

هذا المنهج الذي اتبعته الأمة لا يخرج عن المنهج الذي رسمه الشيخ أبي اليقظان في صحافته من الأول، فهو نهج جريدة وادي ميزاب التي تُعَدّ الابنة البكر له، مع الإشارة إلى بعض الظروف في بداية حياتها والتي حتمت عليها طابع الاعتدال ومع التطورات الحاصلة أصبحت لها اهتمامات سياسية وفي هذا تتماشى مع فكرة جمعية العلماء المسلمين الجزائريين التي تهدف إلى تحقيق الأهداف السياسية على المدى البعيد، ثم لتظهر من أكبر المدافعين والمناصرين لحزب الشعب الجزائري، ومنه عدت جريدة الأمة من مصادر الحركة الوطنية الجزائرية التي يجب العودة إليها والحفاظ عليها. ولقد كان انعقاد المؤتمر الإسلامي الجزائري في جوان ١٩٣٦ نقطة تحول في مسار خط

الجريدة أين فتح لها آفاقًا في التقارب مع أنصار الاتجاه الاستقلالي انطلاقًا من حزب الشعب ورفض فكرة الإدماج أو التجنيس من أصلها، واعتبرت أن من وقع فيهما فيُعَدّ خارجًا عن الملة والدين وأوجب التصدي له.

أما من حيث اهتماماتها والقضايا التي عالجتها، فقد كانت جريدة شاملة لجميع القضايا المحلية أو العربية والإسلامية وحتى الدولية وكانت متنفس حقيقي لقرائها سواء في الجزائر أو الدول المجاورة أو الأماكن التي تمكنت من الوصول إليها رغم العراقيل والصعوبات التي اعترضتها. وما يعنينا هنا هو مكانة المشرق العربي في جريدة الأمة وصاحبها إبراهيم أبو اليقظان الذي ربط علاقات وصلات صداقة مع الأقطار العربية والشخصيات الإسلامية.

ومن الواضح أن قضية فلسطين قد شغلت اهتمام الجريدة، حتى أحيانًا يمكن أن نقول عنها أنها جريدة فلسطينية وليست جزائرية، ورغم العراقيل والبعد الجغرافي، إلا أنها كانت في تتبع مستمر لتطورات هذا البلد وهذا ربطا مع ما تمثله فلسطين مع ارتباط روحي وعقائدي للمسلمين عامة، كما حرصت الجريدة على نشر أخبار فلسطين وبيانات اللجنة العربية العليا أو المكتب القومي بدمشق أو اللجنة الفلسطينية في القاهرة، وهذا وفاء منها على المساندة الصحفية وإطلاع قرائها في المغرب العربي على ما يحاك ضدها من مؤامرات يقودها الانجليز واليهود مع تنبيه القراء أن القضية الفلسطينية في جوهرها هي محاولة اليهود تهويدها وطمس معالمها الإسلامية، هذا مع رفضه لترويج الفكرة الدينية حولها وأنها أرض الميعاد...الخ.

وأكدت الجريدة -الأمة- أن المساعدة الانجليزية وسياستها فيها هي السند القوي لليهود في فلسطين ومن دونه فإن اليهود نكرة هناك، وهذا ما فضحته بعض اللجان الخاصة بتقصي الحقائق أو التقييم المبعوثة إليها من قبل الملكية الانجليزية. ونبهت جريدة الأمة إلى الأهداف الحقيقية للجان التقسيم وهي وضع الخطوة الأولى في بناء الوطن القومي اليهودي في فلسطين، هذا مع اقتراح أماكن أخرى لبنائه لصرفهم عن الأراضي المقدسة. ونظرًا لكل هذه الغايات لدى هيئة تحرير جريدة الأمة تجاه فلسطين فقد آمنت كل الإيمان بضرورة المساندة والمساعدة للشعب الفلسطيني والقضاء على كل مظاهر التفرقة والخلاف.

وليس بعيدًا عن فلسطين، فقد كانت مصر العربية محل اهتمام وتتبع وتقصي حقائق في جريدة الأمة، لكن بدرجة أقل نوعًا ما مع فلسطين، ومهما قلت هذه الاهتمامات إلا أنها تصنف في خانة التوجه العربي الإسلامي للجريدة وربط أواصر التواصل بين جميع الدول العربية نظرًا لقوة الروابط بين الطرفين. فقد ركزت الجريدة على الاهتمام بقضية الخلاف الذي نشأ بين حزب الوفد المصري والقصر الملكي الحاكم ونبهت أن القضية ليست خلاف (مصري مصري) وإنما هي بفعل فاعل ووجهت أصبع الإشارة إلى الإدارة البريطانية ومناوراتها الهادفة إلى إضعاف مصر وعدم تمكنها من أن تصبح دولة محورية في المنطقة وبالتالي لا تقلقها في فلسطين أو عدم تمكنها من تزعم مشروع وحدوي عربي من شأنه أن يطرد الأجانب عن دول المشرق العربي.

ونبهت الجريدة أن هذه الخلافات من شأنها أن تسيء إلى سمعة مصر الحضارية والتاريخية وتزيد من تراجع دورها الريادي وتحطيم معالم الدولة. ولم تكتف الجريدة بتعقب هذا الخلاف فقط وإنما وجهت النصح للمصريين بالتفطن إلى المؤامرات الخارجية المغرضة وبالتالي ضرورة التفكير في المستقبل السياسي للبلد لأن انهيار مصر هو انهيار لكل المشرق والمغرب العربي والعالم الإسلامي أجمع، كما عبرت الجريدة عن استيائها من الواقع الذي أصبح يشهده حزب الوفد وأصبح في تراجع مستمر وهو أكبر الأحزاب المصرية ومسير برلمانها. وهكذا ناشدت الجريدة كل المصريين بضرورة تجاوز الخلافات والتفكير في عواقبها دون ذكر الأسباب الفعلية لهذا الخلاف حفاظا على تماسك المجتمع المصري ومصر عامة التي يمكنها أن توحد الأقطار العربية. هذه الوحدة العربية أسالت حبرًا كثيرًا في جريدة الأمة بغية تجسيدها أو تجاوز عراقيلها، فدافعت الجريدة عن وحدة أقطار المشرق العربي مع إمكانية الاقتداء بها في المغرب العربي، ووقفت ضد كل تهديدات من شأنها أن تقوض هذه الوحدة ومعالجتها للخلاف التاريخي بين أحد أقطابها وهما سليمان الباروني، وشكيب أرسلان مستخدمة في ذلك الحنكة التي تميز أقلامها حفاظًا على وحدة الصف العربي.

وهكذا أصبحت جريدة الأمة من المدافعين عن وحدة الأقطار العربية وعدم المساس بها مهما زادت أو افتعلت الخلافات، أوضحت الجريدة أن ما يدور حول الدول العربية والإسلامية هو نتيجة حتمية لظاهرة الضعف والتفرقة السياسية التي تمنع قيام الوحدة التي بإمكانها التصدي لكل المحاولات الخارجية. كما فضحت جريدة الأمة كل المؤامرات الخارجية الرامية إلى النيل من وحدة الوطن العربي ونبهت زعماءه إلى ما يُحاك ضدهم، وتوضيح أبعاد هذه المؤامرات. هذا في وقت ناشدت فيه جريدة الأمة الأقطار العربية الإسلامية إلى تحقيق نوع من الوحدة من شأنها تقوية هذه الدول والحفاظ على الكيان السياسي. ومن جهة أخرى كانت لجريدة الأمة اهتمامات بباقي الدول العربية في المشرق على غرار العراق، سوريا اليمن، ولبنان وهي عين أخرى للجريدة على كل دولة عربية مسلمة، كما نددت بمرحلة الضعف التي يمر بها العالم الإسلامي وثارت ضد تخاذل المسلمين في الدفاع عن أنفسهم وأماكنهم المقدسة أو ثرواتهم الطبيعية.

ومهما يكن من تفاوت في درجة الاهتمام لجريدة الأمة بقضايا المشرق العربي، إلا أنها تؤكد على الانتماء والمصير المشترك بين شطري الوطن العربي وأكدت على الروح والشعور القومي تجاه المشرق العربي في ظل فترة ما بين الحربين التي لم

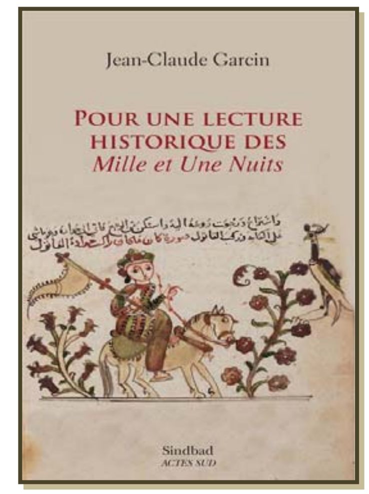
تكن عادية وسهلة عليهما. ومنه نخلص إلى أن جريدة الأمة لأبي اليقظان قد عالجت قضايا العروبة في المشرق رغم جملة الصعوبات التي ميزت الفترة المدروسة (١٩٣٣-١٩٣٤) ورغم صعوبة الاتصال مع المشرق أو طول فترته، وبذلك بينت أن جرائد المغرب العربي هي أيضًا مهتمة بقضايا المشرق العربي، وهذا الاهتمام المتبادل من شأنه تقوية وتجسير الروابط بين المنطقتين. كما أن هذا البحث فتح أفاقًا جديدة أخرى من جوانب وزوايا متعددة سواء في شخصية أبي اليقظان أو جريدة الأمة.

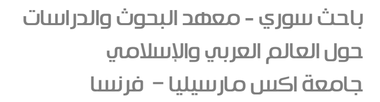
وتبدو مواضيع كثيرة تستحق الدراسة مستقبلاً منها مثلا: فكرة القومية العربية والإسلامية عند الشيخ أبي اليقظان، فلسطين في اهتمامات صحافة أبي اليقظان، الوحدة العربية في فكر أبي اليقظان، التطور السياسي المصري من خلال جريدة الأمة، الخطاب السجالي بين زعامات المشرق والمغرب العربي... إلخ وغير هذه العناوين كثير.

وهكذا؛ عالجت جريدة الأمة قضايا المشرق العربي بنوع من الاحترافية لبلوغ غايات وهي تحقيق الوحدة والحفاظ على الكيان السياسي العربي، ولعبت دورًا في معالجة هذه القضايا والتنبيه إليها، وعليه قد ساهمت الجريدة في الرقي بالعلاقات الثنائية متأثرة في ذلك بما كان يجري هناك من أحداث وأثرت فيها بأن نورت العقول إلى السياسة الاستعمارية في المشرق وخطورتها على الوحدة العربية، ومنه أمكن القول؛ أن صحافة الشيخ إبراهيم أبو اليقظان من مصادر تاريخ المشرق العربي أيضًا والتي وجب الاهتمام بها في هذا الاتجاه واستغلالها في ربط ماضي المشرق مع المغرب بالحاضر والتطلع دائمًا إلى بناء كيان واحد.



من أجل قراءة تاريخية
لألف ليلة وليلة





د. أحمد يحيى العامر

باحث سوري - معهد البحوث والدراسات
حول العالم العربي والإسلامي
جامعة اكس مارسيليا – فرنسا

بيانات الكتاب

تأليف:
جون كلود قارسان
Jean-Claude Garcin

Pour une lecture historique des Mille et Une Nuits, Paris, Sindbad/Actes sud, 2013, 805 p.

معرِّف الوثيقة الرقمي: DOI 10.12816/0047326

كلمات مفتاحية:
ألف ليلة وليلة, النصوص العربية, التاريخ والأدب, القرون الوسطى

المؤرخ جون كلود قارسان وألف ليلة وليلة

جون كلود قارسان (Jean-Claude Garcin) مستشرق فرنسي، كان لي شرف التعرف إليه عن قرب عام ٢٠٠٨ في مدينة اكس أن بروفانس (Aix-en-provence) الفرنسية، عندما كنت أحضِّر لرسالة الماجستير، وكان متقاعدًا في ذلك الوقت، ويعمل في تأليف كتاب ألف ليلة وليلة، واستمرت علاقتنا وتطورت إلى صداقة قوية خلال فترة التحضير للدكتوراه، فقبل -على الرغم من كل التزاماته- متابعة تطور بحثنا في الدكتوراه، تزامن عملنا على أطروحة الدكتوراه مع عمله في تأليف كتابه من أجل قراءة تاريخية لألف ليلة وليلة (*Pour une lecture historique des Mille et Un Nuits*) الذي كنا على اطلاع دائم على تطورات العمل فيه حتى أصبح لنا الشرف أن نكون من أوائل من قرأ هذا الكتاب من خلال نسخة مهداة من قبل جون كلود قارسان (Jean-Claude Garcin) شخصيًا.
جهد كبير ومعرفة دقيقة بالتاريخ الإسلامي بشكل عام والتاريخ المملوكي بشكل خاص كانت ظاهرة في هذا الكتاب ليكون واحدًا من أهم الكتب التي ستتداولها الأجيال القادمة من الباحثين كمرجع مهم لأبحاثهم، ولاعتراف المؤرخين والأدباء بمكانة هذا الكتاب كان مرشحًا من بين سبعة كتب للحصول على الجائزة الكبرى الممنوحة من قبل معهد العالم العربي (Institut du monde arabe) في باريس عام ٢٠١٥.

استغرق العمل على هذا الكتاب عشر سنوات ودون أي نية لدراسة هذا الكتاب دراسة أدبية، لكن الاهتمام بهذا الكتاب كان كمادة تاريخية. في البداية اعتمد قارسان (Garcin) لدراسة كتاب ألف ليلة وليلة على نشرية بولاق الصادرة عام ١٨٣٥ باللغة العربية، والتي تتألف من جزأين (١٣٣٠ صفحة تقريبًا، بمقاس5, ٢١/١٢ سم مطبوعة). كان كتابًا فخمًا وغالي الثمن بشكل كبير حيث إن سعره في ذلك الوقت وصل إلى ١٠٠ (قرش). هذا السعر الكبير ليس في متناول عامة الشعب آنذاك. يبدو أن هذا الكتاب لم يكن موجهًا لعامة الشعب. سخر قارسان خبرة ثلاثين عام أمضاها في دراسة وتحليل النصوص العربية من أجل القيام بدراسة دقيقة لحكايات الكتاب وتحديد تاريخها، معتمدًا بذلك على الإشارات الموجودة في النص العربي، والتي تخص هياكل الحكم، السكن، اللباس، أشكال العبادة...إلخ. النتيجة المهمة التي توصل إليها بعد تجميع

الإشارات النصية، هي وجود مرحلتين أو أكثر لكتابة نص القصة.

هذه النتيجة تؤكد ما ذكره رحالة ألماني سيتزن (Seetzen) مرّ بمصر سنة ١٨٠٩ (هو أن أصل المخطوطات التي اعتمدت عليها نشرية بولاق ١٩٣٥ هي نتاج عمل قام به رجل دين (شيخ) بعد سنة ١٧٥٠ . (وعلى الأغلب بين سنة ١٧٦٠ و ١٧٧٠، ولم يذكر الرحالة اسم هذا الشيخ). يذّكر قارسان (Garcin) بطريقة عرض الكتاب قبل صدور نشرة بولاق عام ١٨٣٥ بقوله: كان الكتاب على شكل مخطوطة ضخمة جدًا في أربعة أجزاء منقولة عن مخطوطة غير مؤرخة موجود بعض منها. هذا الكتاب كان بعنوان (ألف ليلة وقصص قديمة). القصص في هذا الكتاب كثيرة، وموجودة وسط الكتاب، من السهل رؤيتها ومعظمها قديمة. ومواضيعهم تهتم بالبلاد العربية من فترة قبل الإسلام إلى القرن الثالث عشر، لكن هذه القصص في غالب الأحيان قصيرة، ولا تملأ أكثر من ١٢ بالمئة من النص المطبوع في هذه النشرية. يجب الإشارة إلى أن العنوان (ألف ليلة وقصص قديمة) اختُصر فيما بعد من قبل الناشر عام ١٨٣٥ إلى (ألف ليلة وليلة).

حاز كتاب (ألف ليلة و قصص قديمة) على اهتمام كبير لسببين الأول: أنه كان يجمع، ويضم مجموعة من القصص أكثر من القصص الموجودة في كتاب (ألف ليلة وليلة) الصادر عن نشرية بولاق ١٨٣٥ . أما السبب الثاني: عندما كتب شيخ القرن الثامن عشر هذا الكتاب ذَكر القصص القديمة لألف ليلة وليلة من بغداد، والتي لم تعد موجودة.

يشير قارسان (Garcin) إلى النجاح الكبير الذي عرفته (ألف ليلة وليلة) في أوربا عندما بدأ المستشرق انطوان قالان (Antoine Galland) بنشر ترجمات لمخطوطة أتى بها من سورية، وحذف منها كل ما يخدش الحياء، وهي مخطوطة محفوظة في المكتبة الوطنية في باريس (Bibliothèque Nationale de Paris)، وحُقِّقَت عام ١٩٨٤، من قبل باحث عراقي اسمه (محسن مهدي). كل الطبعات العربية لألف ليلة وليلة تبدأ فيما يسمى (حكايات قالان) (les contes de Galland). اكتشفوا منذ زمن أن هذه القصص هي قصص من القرن الخامس عشر، لذلك اختار قارسان (Garcin) أن يبدأ تحليله ودراسته بهذه الحكايات. بعد مقارنتها مع نص شيخ القرن الثامن عشر وجد أن الأخير قام بتصليح النص، على الرغم من عدم معرفة من يكون هذا الشيخ إلا أن قارسان (Garcin) استطاع أن يفهم هدفه من كتابة هذا الكتاب.

اعتمد قارسان (Garcin) أيضًا على نشرية لألف ليلة وليلة غير متفق عليها نشرت في برسلو(Breslau) بداية ١٨٢٤ من قبل الألماني مكسميليان افيشت (Maximilien Habicht) تسمى (l'édition de Bresla) (نشرية برسلو) انتقدت هذه النشرية، واعتبرت فيما بعد كنشرية مغلوطة، وغير صحيحة، ولا توافق أي مخطوطة عربية. المستشرق الألماني جمّع القصص، ووضعها في إطار قصة (شهرزاد) التي تروي كل ليلة حكايات للملك من أجل النجاة من الموت. ونظم هذا المستشرق هذه القصص التي أتى بها من المغرب حسب منهج خاص به. مع ذلك كان لهذا العمل جانب إيجابي بالنسبة لقارسان؛ لأنه حافظ من خلاله على النسخ القديمة للّيالي. من خلال مقارنة هذه النشرية مع ما كتبه الشيخ وجد قارسان (Garcin) أن الشيخ واصل إصلاح القصص كما عمل سابقًا. فمن الجانب اللغوي حاول أن يستعمل كلمات كلاسيكية أكثر، بالإضافة إلى أن الشيخ اهتم بإعطاء عبرة لكل قصة، وحذف منها كل ما رأى أنه خارج عن التقاليد والآداب، خاصةً استعمال السحر أو العادات الجنسية الشاذة كاللواط. وبدا لقارسان (Garcin) أن الشيخ هو الذي كتب الخاتمة، والتي يعدها غير تافهة كما يمكن أن يظن. يُقال إن الخاتمة الكلاسيكية المعتادة لألف ليلة وليلة: شهرزاد تنجح بالنجاة من الإعدام من خلال روايتها للحكايات، خاصةً عندما عرفت للملك الأولاد الثلاثة الذين أنجبتهم منه خلال الثلاث سنوات التي أمضتهم معه، فتزوجها الملك .كانت الخاتمة فرصة لشيخ القرن الثامن عشر أن يُظهر (شهرزاد) في صورة الزوجة المثالية التي يراها في نفس الوقت متدينة وحسنة التربية والخلق، وهذه النوعية من الزوجة هي المطلوبة؛ ليكون الثنائي مثالي، وهو عماد المجتمع المستقر الذي يعتمد -بنفس الوقت- على التطبيق المحكم للشريعة، وعلى احترام الفروق الاجتماعية. استطاع قارسان (Garcin) التوصل لفهم الليالي بعيدًا عن القراءة الجنسية التي أعطاها مردروس (Mardrus) للأوربيين من خلال أعظم ترجمة قدمها في أوائل القرن العشرين، وبعيدًا أيضا عن رجال الدين المصريين الذين عارضوا بشدة إعادة نشر ألف ليلة وليلة بحجة التحريض على الرذيلة. في آخر الدراسة التحليلية أكد (قارسان) Garcin على وجود عبرة في نهاية كل قصة، والذي أصبح عادة يمشي عليها شيخ القرن الثامن عشر. بجهد كبير استطاع قارسان Garcin أن يحدد التطور الذي أفرز مجموعة حكايات ألف ليلة وليلة.

لذلك رجع إلى قصص قالان (les contes de Galland) في القرن الخامس عشر، في بداية ألف ليلة وليلة، وبعد دراسة دقيقة لهذه القصص توصل إلى أن المؤلف من دمشق، وأنه عاصر اجتياح المغول لدمشق أوائل القرن الخامس عشر، وعلى ما يبدو أنه تهجر إلى سمرقند مع عائلته في ذلك الوقت. بعد رجوعه إلى دمشق كتب لسكانها على (الأغلب بين ١٤٢٤ / ١٤٣٦) ما كان يعتبره كتاب (ألف ليلة وليلة الجديدة). كان بالتالي هذا الكتاب مميزًا، على الرغم من أنه استوحي من قصص قديمة أو سابقة.

هذا الكاتب لم يتجاهل القصص التي كُتِبَتْ في زمنه في مصر، وسبق أن أشار إليهم بالكتاب، على ما يبدو كانوا بسورية يعرفون ما يكتب بمصر، والعكس صحيح. في البلدين يبدو أن المواضيع القديمة أصبحت مملة بالنسبة للشيخ الذي أراد -بشكل خاص- أن يتخلص من حكايات ألف ليلة وليلة القديمة العائدة إلى زمن العباسيين. لذلك ابتدع الكاتب سيناريوهات عجيبة تظهر من قصة إلى قصة القصر العباسي، وهو ليس بأفضل حالاته. هارون الرشيد يظهر غبيًا، ويقوم بردات فعل غير مدروسة وكثير الشرب للخمر، ووزيره جعفر يظهر كأنه ينتظر قرار إعدامه بكل لحظة، وكيف يحاول تهدئة هارون الرشيد دائمًا، الزوجة الصالحة لهارون الرشيد وُصِفَت كامرأة غيورة ومجرمة، هذا ما سماه قارسان (الكوميدية العباسية) (la Comédie abbasside) التي حاول شيخ القرن الثامن عشر إصلاحها بكل ما يستطيع. بصفة عامة كاتب دمشق قام بالفصل بين القصة والرواية التاريخية، وبفضل ذلك استطاع قارسان (Garcin) أن يميز بين القصة والرواية التاريخية. في الوقت نفسه يبقى الشيخ بعيدًا عن نواب السلطة المملوكية الذين لن يسامحهم عن تخليهم عن سورية للمغول، حيث إنه يعتبر السلطة المملوكية غبية وخطيرة في حين أن ما يهمه هو دراسة الأحاسيس الإنسانية والسلوكيات. لهذا السبب أطلق عليه قارسان اسم (مفكر السلوكيات) (le Moraliste) في القرن الخامس عشر، ولا يقصد بذلك المفكر الذي يعطي الدروس، ولكن الكاتب الذي يهتم بدراسة السلوكيات، كما كان يقال عن (لابرويير) (La Bruyère) في فرنسا في القرن السابع عشر. يرى قارسان (Garcin) أن الشيخ يعكس في أبطاله ما عاشه هو نفسه، التهجير القسري من سوريا الذي أمر به تيمور لنك (Tamerlan)، إحساس الهجرة عبر عنه من خلال أبطاله الذين كانوا في غالب الأحيان في وضعية الغريب.

وفي جانب مهم من تطور إنتاج مثل هذه القصص نتيجة مهمة توصل إليها قارسان (Garcin)، وهي أن الاجتياح العثماني سنة ١٥١٧ وضع حدًا لإنتاج القصص في القرون الوسطى، الفحص الدقيق للإشارات النصية يبين أنه كان هنالك جيل كامل قد مر قبل أن يعود السوريون والمصريون لكتابة القصص، وهو الزمن اللازم لنسيان الصدمة التي تعرضوا لها (دخول العثمانيين إلى سورية ومصر). فقط في الجزء الثاني من القرن السادس عشر لاحظ قارسان(Garcin) ظهور قصص جديدة التي اصطلح على تسميتها (القصص الحديثة) (les contes modernes) في إطار حكم سياسي عثماني مسلَّم به. القصص هذه تمثل ٥٦ بالمئة من الحجم المطبوع لنشرية بولاق.

يبدو لقارسان (Garcin) أن الذين أعادوا إظهار ألف ليلة وليلة اعتمدوا على (ألف ليلة وليلة الجديدة) لكاتب القرن الخامس عشر مما يدل على أنه -حتى في الماضي- نالت هذه القصص (المكتوبة من مؤرخ القرن الخامس عشر) على تقدير في سورية ومصر. وقيمة هذه القصص هي وراء نجاح ترجمة قالان (Galland) أيضًا. بالتأكيد فإن ترجمة قالان (Galland) كانت تندرج ضمن ظاهرة (اكتشاف الشرق) (découverte de l'Orient) لكن لو كانت هذه القصص غير جيدة، وغير ذات قيمة بالتأكيد، لكان عدد قراء قالون أقل مما هو عليه. على كل حال، من خلال ما قدمه قارسان(Garcin) نستطيع أن نرى بوضوح أكثر ما يسميه (قصص حديثة لألف ليلة وليلة).

القصص الحديثة تهتم بمواضيع مختلفة وجديدة بالنسبة للقصص القديمة. الشيء المهم جدًا، والذي يخالف ظاهريًا تعاليم كاتب القرن الخامس عشر، وهي ثلاثة قصص كبيرة حول السياسة، رجع الكاتب من خلالهن إلى كتابة التاريخ الذي هو الآن تاريخ الدولة العثمانية، ولكن ليس بمفهوم الرواية التاريخية المتعارف عليها الآن، فأبطال هذه القصص لا يحملون أسماء سلاطين ووزراء حقيقيين، في غالب الأحيان كانوا كخلطة عُملت من شخصيات متعددة، لكن في هذه القصص دائمًا (مفتاح) (une clé) يسير بالقارئ إلى ما يجب أن يفهمه وهو معنى غير مخفي، ومن جهة أخرى اعتنى الكتاب في قصصهم بالحديث حول البطولات العسكرية أو المغامرات العاطفية، هذه القصص تحمل وجهين الأول: يتعلق بجانب الاستمتاع، وترفيه النفس من خلال الحديث عن معارك مشوقة، أو قصص حب غرامية، أما الوجه الثاني: يتعلق باستخلاص درس من القصة والاتعاظ بهذا الدرس، وحسب قارسان (Garcin) قلّ إنتاج القصص منذ أوائل القرن الثامن عشر.

الكُتّاب العرب لم يعودوا يهتمون بمصير الدولة العثمانية، لذلك فالواقع السياسي في الولايات كان موضوعًا لقصص قصيرة، وفي بعض الأحيان هزلية. نجد أيضًا قصص صغيرة ومختزلة، وعلى الأغلب كانت ساخرة، لكن الشكل الأدبي للقصة الحديثة لألف ليلة وليلة قد ولى. بعض الكتاب اعترضوا حتى على موضوع (المهاجر البائس) فأصبحوا يقدموا (الهجرة) (l'exil) على أنها فرصة لعمل ثروة في بلدان جديدة أو لعمل الموبقات في مدينة كبيرة لا يعرفهم فيها أحد. على أثر هذا التطور يجب وضع قرار الشيخ بكتابة قصصه (التي هي بشكل عام جيدة وسابقة ببعض الشيء لوقته)، وكأنه شعر أن في زمنه إنتاج القصص الجيدة-والتي لها قيمة- توقف ولم يعدّ موجودًا. مخطوطة رينهارت (le manuscrit Reinhart) المحفوظة في ستراسبورغ المنسوخة عام ١٨٣١، تؤكد بشكل ما حكم أو رأي شيخ القرن الثامن عشر.

وجد قارسان (Garcin) بعد متابعة وتحليل المخطوطة الذي قام به أبو بكر الشرايبي بتحقيقها عام ١٩٩٦ أن فيها

قصصًا خفيفةً تحتوي على خيال عجيب، ويشد الانتباه، ويذكرونا بالروايات الشعبية الكبيرة أو سِيَر القرن السادس عشر والسابع عشر، لكننا نحن بعيدون عن الأشكال الأدبية لحكايات ألف ليلة وليلة القديمة، وكأن الكُتَّاب بعد منتصف القرن الثامن عشر أرادوا أن يتحرروا من هذا الشكل الأدبي، إذن قام قارسان (Garcin) بدراسة تحليلية نقدية لعمل شيخ القرن الثامن عشر، فمكننا من معرفة تاريخ كتابة ألف ليلة وليلة، والذي كان غائبًا عنا، ولم يستطع أحد التوصل إليه أو الاهتمام به قبل قارسان (Garcin). فمن المهم جدًا معرفة في أي قرن كُتِبَت القصة أو الحكاية؛ لنفهم معناها، ونستمتع بهذا المعنى، والمهم أيضًا هو كشف قارسان (Garcin) لمشروع شيخ القرن الثامن عشر لكتابة ألف ليلة وليلة الذي كنا نجهله تماما. فكانت الإفادة كبيرة من هذا العمل الضخم بالنسبة للمؤرخين، وستكون أكبر للمختصين في ألف ليلة وليلة في حال تمَّت مراجعة معلوماتهم على ضوء الاكتشافات الجديدة المقدمة في هذا الكتاب.

في النهاية؛ الكتاب ضخم حوالي (٨٠٠) صفحة كمٌّ هائلٌ من المصادر والمراجع بلغات متعددة، هوامش وحواشي لم تترك صغيرة ولا كبيرة إلا وأعطت لها تفسيرًا، حقائق مهمة تُعرض لأول مرة، وتقدم إضافة حقيقية في مجال التاريخ والأدب، دقة وخبرة يتجاوز عمرها الثلاثين سنة في التعامل مع النصوص العربية، كل ذلك يجتمع في كتاب عنوانه من أجل قراءة تاريخية لألف ليلة وليلة (Pour une lecture historique des Mille et une nuits)، ولمؤرخ استحق الشهرة العالمية هو؛ جون كلود قارسان (Jean-Claude Garcin).

ISSN: 2090 – 0449 Online
UIF Universal Impact Factor, [0.1101].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [0.88].

الإنـجازات العِلْمِيَّة لطِّب الأسْنَان في الأندَلُس وأثره على التطور العِلْمي الأُورُوبي منذ عصر الْخِلافَة وحتى نهاية دولة المُوَحِّدِين

(٣١٦ ـ ٦٤٠هـ/ ٩٢٨ـ ١٢٤٤م)



د. انور محمود زناتي
أستاذ التاريخ الإسلامي
كلية التربية
جامعة عين شمس – جمهورية مصر العربية

مُلَخّصْ

تتمثل أهمية البحث في إبراز الإنجازات العِلْمِيَّة للأَطِبَّاء في الأَنْدَلُس وأثرها على التطور العِلْمِي الأُورُوبي (منذ عصر الْخِلافَة وحتى نهاية دولة المُوَحِّدِين) والتي ساهم فيها أَطِبَّاء الأَنْدَلُس ممن كان لهم الفضل في تطور طِّب الأَسْنَان ودراسة مدى استفادة البشرية من تلك الجهود في الطِّبِّ الحديث. ومن أهم دوافع تلك الدراسة أن التراث الطِّبِّي العَرَبِي عموماً وطِّب الأسْنَان خصوصاً لم يتم دراسته بعد على نحو يبرز دور هذا التراث الحقيقي في تطوير علم الطِّبِّ، خصوصاً تأثيره في مرحلة عصر النهضة الأوربية. وحتى الآن لم يتم التعرف إلا على جزء يسير جدا من هذا النتاج الفكري الهام. ولم يأخذ الموضوع حقه من الدراسات الأكاديمية، وبالتالي كان لابد من لابد من إفراد دراسة علمية لطِّب الأسْنَان في الأَنْدَلُس وأثره على التطور العِلْمِي الأُورُوبِي. والتي شكلت المنبع الصافي للنهضة الحديثة في الغرب التي نهلت منها النهضة الأُورُوبية والتي تطورت نحو بداية ظهور طِّب الأَسْنَان الحديث. ويعمل البحث على توضيح مدى النقلة التي أحدثها هؤلاء العلماء لطِّب الأَسْنَان، وهو اختصاص فريد قلما ما نجد دراسات قد أفردت لهذا الاختصاص. وكذلك إبراز إسهامات أَطِبَّاء الأَنْدَلُس في مجال طِّب الأسْنَان، وإلى أي مدى أثرت دراساتهم في تطور العُلُوم الطِّبِّية بصفة عامة وطِّب الأسْنَان بصفة خاصة. وكذلك رصد ما خلفه أَطِبَّاء المسلمين في الأَنْدَلُس من ثروة كبيرة في هذا الميدان وابتكروا أشياء متطورة حديثة بعضها لا يزال معمولاً به حتى اليوم. مع عرض ما أسهم به الأَطِبَّاء الأَنْدَلُسيون فيما يخص أمْرَاضِ الأَسْنَان، وطرق علاجها. وإبراز ما قام به أَطِبَّاء الأَنْدَلُس من إجراءات للعديد من العَمَلِيَّات الجِرَاحِيَّة الخاصة بطِّب الأسْنَان. ودراسة تأثيرات الإنجازات العِلْمِيَّة للأَطِبَّاء في الأَنْدَلُس على أُورُوبَّا ونهضتها، والكشف عما قدموه من الإضافات العِلْمِيَّة لطِّب الأَسْنَان. وتدور محاور هذه الدراسة حول النقاط التالية: النَّهْضَة العِلْمِيَّة في الأَنْدَلُس وإشعاعها الحَضَارِي، إسهامات علماء الأَنْدَلُس في مجال طِب الأسْنَان، تأثيرات الإنجازات العِلْمِيَّة للأَطِبَّاء في الأَنْدَلُس على أُورُوبَّا ونهضتها، وفي نهاية الدراسة قدمت صياغة لأهم نتائج البحث وتوصياته..

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث: ١٩ فبراير ٢٠١٧
تاريخ قبـول النشـر: ١٢ مايو ٢٠١٧

كلمات مفتاحية:

طِّب الأسْنَان، طبيب أسْنَان، الجِرَاحَة، طِب الأسْنَان الوقائي، الحَضَارَة الإسلامية، الحَضَارَة الغربية، أورُوبَّا.

معرِّف الوثيقة الرقمي: DOI 10.12816/0047328

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

أنور محمود زناتي. "الإنـجازات العِلْمِيَّة لطِّب الأسْنَان في الأندَلُس وأثره على التطور العِلْمِي الأُورُوبي منذ عصر الْخِلافَة وحتى نهاية دولة المُوَحِّدِين (٣١٦ - ٦٤٠هـ/ ٩٢٨- ١٢٤٤م)".- دورية كان التاريخية.- السنة العاشرة- العدد الثامن والثلاثين: ديسمبر ٢٠١٧. ص١٥٠ – ١٧٢.

مُقَدِّمَة

برع أَطِبَّاء الأَنْدَلُس في كافة التخصصات على مدار قرون عديدة درسًا وممارسة وتطبيقًا، عادت بالنفع على البشرية جمعاء، وكان من جملة مهام الطَّبِيب التعامل مع أمراض الأَسْنَان، ووجد عدد من الأَطِبَّاء الأَنْدَلُسيين ممن تناولوا الحديث عن طِّب الأَسْنَان، مما أضاف ثروة علمية كبيرة إلى الناتج المعرفي لتاريخ هذا العلم. وقد اتبعوا المناهج العِلْمِيَّة في البحث والتأليف والممارسة والتطبيق. وظهر دورهم الواضح في الوصف والتشخيص والعلاج وتحسين طرق معالجة الأَسْنَان وجراحاتها، وتقديم أنواع مختلفة من الآلات الجراحية المناسبة وقدموا لها وصفًا ورسومات تكاد تصل إلى دقة آلات العصر

الحديث، ووصفوا الإجراءات المطلوبة أثناء جراحة الأسْنَان، بل وسبق بعضهم العالم فيما يعرف حاليًا بجراحات زراعة الأسْنَان وتجميلها.

وتتمثل أهمية البحث في إبراز الإنجازات العِلْمِيَّة للأَطْبَاء في الأَنْدَلُس وأثرها على التطور العِلْمِي الأُورُوبي (منذ عصر الْخِلافَة وحتى نهاية دولة الْمُوَحِّدِين) والتي ساهم فيها أَطْبَاء الأَنْدَلُس ممن كان لهم الفضل في تطور طِّب الأسْنَان ودراسة مدى استفادة البشرية من تلك الجهود في الطِّبِّ الحديث. ومن أهم دوافع تلك الدراسة أن التراث الطِّبي العَرَبي عمومًا وطِّب الأسْنَان خصوصًا لم يتم دراسته بعد على نحو يبرز دور هذا التراث الحقيقي في تطوير علم الطِّبِّ، خصوصًا تأثيره في مرحلة عصر النهضة الأوربية. وحتى الآن لم يتم التعرف إلا على جزء يسير جدا من هذا النتاج الفكري الهام. ولم يأخذ الموضوع حقه من الدراسات الأكاديمية، وبالتالي كان لابد من لابد من إفراد دراسة علمية لطِّب الأسْنَان في الأَنْدَلُس وأثره على التطور العِلْمِي الأُورُوبي. والتي شكلت المنبع الصافي للنهضة الحديثة في الغرب التي نهلت منها النهضة الأُورُوبية والتي تطورت نحو بداية ظهور طِّب الأسْنَان الحديث.

أهداف الدراسة

- توضيح مدى النقلة التي أحدثها هؤلاء العلماء لطِّب الأسْنَان، وهو اختصاص فريد قلما ما نجد دراسات قد أفردت لهذا الاختصاص.
- إبراز إسهامات أَطْبَاء الأَنْدَلُس في مجال طِّب الأسْنَان، وإلى أي مدى أثرت دراساتهم في تطور العُلُوم الطِّبِّية بصفة عامة وطِّب الأسْنَان بصفة خاصة.
- رصد ما خلفه أَطْبَاء المسلمين في الأَنْدَلُس من ثروة كبيرة في هذا الميدان وابتكروا أشياء متطورة حديثة بعضها لا يزال معمولاً به حتى اليوم.
- عرض ما أسهم به الأَطْبَاء الأَنْدَلُسيون فيما يخص أَمْرَاض الأسْنَان، وطرق علاجها.
- إبراز ما قام به أَطْبَاء الأَنْدَلُس من إجراءات للعديد من العَمَلِيَّات الجِرَاحِيَّة الخاصة بطِّب الأسْنَان.
- دراسة تأثيرات الإنجازات العِلْمِيَّة للأَطْبَاء في الأَنْدَلُس على أُورُوبَّا ونهضتها، والكشف عما قدموه من الإضافات العِلْمِيَّة لطِّب الأسْنَان.

منهج الدراسة

سوف اتبع عددًا من المناهج في الدراسة؛ منهم المنهج التاريخي، والمنهج الوصفي والتحليلي، حسب فقرات البحث وتوفر المادة العلمية؛ وكذلك استخدام المنهج العلمي من حيث التحليل والتعليل والربط والاستنتاج.

تَمْهِيد

النَّهْضَة العِلْمِيَّة في الأَنْدَلُس وإشعاعها الحَضَاري

امتازت حَضَارَة العَرَب في الأَنْدَلُس (٩٢هـ -٨٩٧هـ/ ٧١١م - ١٤٩٢م) بميلها الشديد إلى العناية بالعُلُوم والآدَاب والفُنُون، فأنشأوا المَدارِس والْمَكْتَبَات في كل ناحية وترجموا الكُتُب المختلفة[١]، ودرسوا العُلُوم الطِّبِّيَّة والكِيمْيائية والرِّياضية والفَلَكِيَّة والطَّبِيعَة بنجاح. وتطورت الحركة العِلْمِيَّة نتيجة رعاية الخُلَفَاء للعِلْم والعُلَمَاء وظهر الإنتاج الغزير في كل ميدان من ميادين الحَياة العِلْمِيَّة، لاسيما في ميدان الطِّب. لقد ارتقت الحَضَارَة الإسْلامية في تلك المنطقة من دنيا الإسْلام ارتقاءً رائعًا ونافست الحَضَارَة الإسْلامية فيها حَضَارَة الإسْلام في الْمَشْرِق، وبلغ من عظمة قُرْطُبَة وازدهارها خاصة إبان العهد الأُمَوي في الأَنْدَلُس إنها كانت أعظم مَدِينَة في أُورُوبَّا كلها وتأتي على قدم المساواة مع القُسْطَنْطِينِيَّة وبَغْدَاد إبان عزهما وبلغت درجة رفيعة من الحَضَارَة في ذلك العهد[٢] وصفها المؤرخون في أُورُوبَّا بأنها "عَرُوس الأَنْدَلُس"[٣]، ووصفتها الراهبة السكسونية هروسود (Hersoz) بأنها "زينة العالم"[٤]. وسماها المستشرق توريس بالباس (Torres Balbás) "قُرْطُبَة المعجزة في القرن العاشر، لقد كانت أمجد اللحظات في العديد من الجوانب بالنسبة لحضارتنا كانت لحظة برزت فيها سيطرة وتفوق شبه الجَزِيرَة الإيبيرية التي لا نظير لها في الغرب الأُورُوبي الفقير والريفي"[٥].

وانتشرت الحركة العِلْمِيَّة في الأَنْدَلُس كلها، وسرعان ما انتشرت خارج المنطقة. ويؤكد جوستاف لوبون (Gustave Le Bon) أنّ الوجود العربيّ في الأَنْدَلُس حقق "رسالة الحَضَارَة فيها، وتفرغوا لدراسة العُلُوم والآداب ويترجمون كتب اليونان واللاتين وينشئون الجامعات التي ظلت وحدها ملجأ للثقافة في أوربا زمنًا طويلاً"[٦]. أما بالنسبة لعِلْم الطِّب فهو من العُلُوم التي تستحق الدراسة والبحث كونه يتعلق بحياة الإنسان وصحته وسلامة وتطور الْمُجْتَمَع. وبرز الطِّب بفروعه واختصاصاته العديدة على أيدي المبدعين من أَطْبَاء الأَنْدَلُس الذين أضافوا له الشيء الكثير فأصبح متكاملاً من حيث الوصف والتَشْخِيص والعِلاَج. وقد نال طِّب الأسْنَان نصيبًا طيبًا من أعمالهم استحوذ على حضور واضح في مؤلفاتهم العِلْمِيَّة التي تناولت مفهوم طِّب الفم والأسْنَان كجزء من المفهوم العام لأقسام الطِّبِّ النظري والعملي عندهم.

وارتبطت النَّهْضَة العِلْمِيَّة الشاملة في الأَنْدَلُس بعهد الْخِلافَة (٣١٦هـ-٤٢٢هـ/ ٩٢٤م-١٠٤٠م)، حيث كان للهدوء السياسي الذي عاشتهُ الأَنْدَلُس خلال عهد الْخِلافَة أثر كبير في الاستقرار والتقدم الحضاري في شتى الميادين ومنها الحياة العلمية[٧]، وكان من مظاهرها نضوج الشخصية العِلْمِيَّة للأَنْدَلُس واستقلالها في مجال العُلُوم والمَعَارِف عن الْمَشْرِق،

منها في ميدان الطِّب والصَّيْدَلَة، ومن المؤكد أن لتراكم المعرفة في العهود السابقة أثره في هذه النَّهْضَة أولاً، وثانيًا الجهود التي بذلها خُلَفاء الأَنْدَلُس في دفع الحركة العِلْمِيَّة إلى النضوج والإبداع.

اهتم الْخَلِيفَة عَبْد الرَّحْمَن النّاصر (٣٠٠-٣٥٠ هـ/ ٩١٢-٩٦١م) اهتمامًا كبيرًا بالعُلُوم والمَعَارِف[٨]، واستقدم الكثير ممن برزوا في نواحي العِلْم ليسمع منهم أو يكلفهم بالتأليف والتصنيف فألف له الطَّبِيب عُمرَان بن أبي عُمَر (عاش في القَرْن الرَّابِعُ الهِجْرِي/ الْعَاشِر المِيلادِي) [٩] كتاب في "حب الأنيسون"[١٠]، وهناك "أَصْبَغ بن يَحْيى" "الذي خدم الْخَلِيفَة النّاصر وكان متقدمًا في صناعة الطِّبِّ"[١١]. ووصل الطِّب ذروته في الازدهار والإبداع في مَدِينَة قُرْطُبَة عاصمة الدَّوْلَة العَرَبِيَّة الإِسْلامية في الأَنْدَلُس. واشتهرت بمدرستها الطِّبِّيَّة، التي كان يترأسها الطَّبِيب اليَهُودِي حَسْدَاي بنُ شَبْروط (ت٣٨٠ هـ/٩٩٠ م)، وزير الْخَلِيفَة عَبْد الرَّحْمَن النّاصر[١٢]. وأنجبت الأَنْدَلُس عباقرة الأَطْبَاء الذين كان لهم الأثر في تطوير الحَضَارَة ليس في الأَنْدَلُس فقط، إنما الحَضَارَة العَرَبِيَّة الإِسْلامية والإِنْسانِيَّة جمعاء وقدموا عطاءات ونتاجات علْمِيَّة نادرة شكلت فيما بعد أساسًا في للطِب والصَّيْدَلَة. وبرز في تلك المرحلة عدد من الأَطْبَاء الأَنْدَلُسيين، منهم يَحْيىً بن يَحْيىً المعروف بابن السَمِينة (ت ٣١٥هـ/ ٩٢٧م) من أهل قُرْطُبَة، وكان "متصرفًا في العلوم، متفننًا في ضروب المَعَارِف"[١٣] وقد اكتسب ابن السمينة كل تلك العُلُوم من خلال رحلته المَشْرِقية، إذ تتلمذ على ذوي الاختصاص في تلك العُلُوم، ومنها الطِّب، ورجع إلى الأَنْدَلُس، واستفاد منه أهل الأَنْدَلُس في الطِّب وغيره من العُلُوم[١٤].

وهناك الطَّبِيب أبو بَكْر سُلَيْمَان بن باج، الذي كان عارفًا بالأَمْرَاض وصناعة الأَدْوِيَة وقد "عالج الناصر من رمد عرض له من يومه وله نوادر في الطِّبِّ محفوظة"[١٥]. وهناك الطَّبِيب أبو عُثْمَان سَعِيد بن مُحَمَّد البُغُونش (ت 444هـ/ ١٠٥٢م) "كان محكمًا لأصول الطِّبِّ نافذًا في فروعه حسن التصرف في أنواعه"[١٦].

أما في عهد الْخَلِيفَة الحكم المُسْتَنْصِر (٣٥٠هـ-٣٦٦هـ/ ٩٦١-٩٧٦م) فقد عرف عنه "العناية بالعُلُوم وإيثار أهلها"[١٧] إذ نراه حريصًا على اقتناء المصنفات والمؤلفات المهمة في العُلُوم القديمة واستجلب من بغداد ومصر وغيرهما من ديار الشرق عيون التواليف الجليلة "[١٨]. وبرز في تلك الفترة الطَّبِيب الجراح الشهير أبي الْقَاسِم خلف ابن العباس الزَّهْراوي (ت٤٠٠هـ/١٠٠٩م)، الذي يعد بحق من مفاخر العلم والطِّبِّ في الأَنْدَلُس والذي قال عنه العالم الفقيه ابن حَزْم الأَنْدَلُسي (ت. ٤٥٦هـ/ ١٠٦٤م) في رسالته الشهيرة (في فضل الأَنْدَلُس وذكر رجالها) حيث قال في معرض تعداد مؤلفات الأَنْدَلُسيين في الطِّبِّ: "وكتاب التَّصْرِيف لمن عجز عن التَّأْليف لأبي الْقَاسِم خلف ابن عبّاس الزَّهْراوي، قد أدركناه وشاهدناه؛ ولأن قلنا أنه لم يؤلف في الطِّبِّ أجمع منه ولا أحسن للقول العمل في الطبائع لنصدقن"[١٩] وكتابه ألفه بعد مزاولته الطِّبِّ والجِرَاحَة خمسون سنة من حياته المهنية، ينبئ عن معارف طبية واسعة، والذي كشف فيه عن جوانب مهمة من ممارسته لفن الجِرَاحَة وخبرته بالأَمْرَاض وطرق علاجها، كما اتسم بمنهج فريد في التأليف من حسن التنظيم والتبويب والميل إلى القصد في الكلام بوضوح العبارة معظم بوسائل إيضاح بالأشكال والصور[٢٠].

وقد برع أيضًا في تلك الفترة الطَّبِيب الأندلسي عُرَيْب بن سَعِيد القُرْطُبي[٢١] (ت٣٧٠هـ/ ٩٨٠م) ومن أهم أعماله التي اهتم فيها بطِّب الأَسْنَان كتاب "خلق الجنين وتدبير الحبالى والمولودين" ويمثل هذا الكتاب قمة التطور الطبي وأعظم عمل قدم للحضارة الإنسانية بمعلوماته وإبداعاته، يشتمل على عملية حدوث الحمل وكذلك تدبير الجنين والوليد والطفل. واحتوى الكتاب على خمسة عشر بابًا وما يخص الأَسْنَان فيها: البـاب العاشــر: يبحث في أَسْنَان المولودين وتنقلهم فيها وفي جميع مراتبها ودرجاتها وما وحدته الأوائل من أَطْبَاء وأهل التنجيم منها وما قالته العَرَب فيها. والباب الثاني عشر: في تدبير الأطفال في الحد الثاني من أَسْنَانهم وذلك من بعد الأربعين يومًا إلى وقت نبات الأضراس وما يحملون عليه من التدبير والعلاج عند أمراضهم المخصوصة في هذا السن.

ورغم فترات الاضطرابات العنيفة التي ضربت بلاد الأَنْدَلُس بعد انهيار عقد الْخِلافَة الأموية بالأندلس؛ فإن علوم الطِّبِّ والصيدلة والنبات لم تتأثر بما عرفته البلاد من هزات الصعيد السياسي والاجتماعي والفكري، ذلك أن الملوك والأمراء شملوا أهل هذه العُلُوم برعايتهم وأتاحوا لهم في غالب الأحوال الأجواء المناسبة لمارسة نشاطهم المهني والعلمي؛ فقد استمر الإبداع في مرحلة ملوك الطوائف ومن بعدهم المرابطين ثم المُوَحِّدين، ونبغ أَطْبَاء أصبح لهم شأن عظيم من أمثال عائلة ابن زُهْر، وهي الأسرة التي قدمت ستة أجيال متعاقبة من الأَطْبَاء والطَّبِيبات المشهورين[٢٢]. أما الأَطْبَاء الستة من بني زُهْر الذين وردت أسماؤهم في تاريخ الطِّبِّ العَرَبي فهم:

١- أبو مَرْوَان عَبْد الْمَلِك بن أبي بَكْر بن زُهْر(ت:٤٧٨/١٠٨٥م): وكان أول طبيب من أبنائها، والذي تولى رئاسة الطِّبِّ ببلدان عدة منها بغداد ثم بمصر والقيروان ثم إشبيلية[٢٣].

٢- أبو العَلاءُ زُهْر بن أبي مَرْوَان بن زُهْر(٥٢٥هـ/١١٣١م): وقد أخذ الطِّبِّ عن أبيه، وكان دقيقًا في تشخيص الأَمْرَاض، عمل عند المُعْتَمد بن عَبَّاد (ت ٤٨٨ هـ / ١٠٩٥م)، ثم يُوسُف بْن تَاشفِيْن (ت ٥٠٠ هـ/ ١١٠٦م) وابنه عَلِي بْن يُوسُف (ت ٥٣٧هـ/ ١١٤٣م) بعد ذلك[٢٤]. وصنف عدد كبير من المؤلفات الخاصة بعلم الأعشاب والعقاقير الطِّبِّيَّة منها "كتاب

الخواص وكتاب الأدْويَة المفردة"[٢٥] و"كتاب المُجرَّبات" وهو مجموعة من الملاحظات الطِّبِّيَّة. أمر عَلِي بن يُوسُف بْن تَاشفِيْن بجمعها بعد وفاة أبي العَلاءُ[٢٦].

٣- أبو مَرْوَان عَبْد الْمَلِك بن أبي العَلاءُ زُهْر(ت ٥٥٧هـ/١١٦٢م): وصفه ابن أبي أُصَيْبِعَة (ت ٦٦٨هـ/ ١٢٦٩م): "لم يكن في زمانه من يماثله في مزاولة أعمال صناعة الطِّبِّ وله حكايات كثيرة في معرفة الأَمْرَاض ومداوتها، لم يسبقه أحد من الأَطْبَاء إلى مثل ذلك.. واشتغل الأَطْبَاء بمصنفاته"[٢٧]. وأدرك ابن زُهْر دولة المرابطين والمُوَحِّدِين في الأندلس[٢٨]، وكان صديقا لابن رُشْد الحفيد (ت ٥٩٥هـ/ ١١٩٨م) وكان رفيع المكانة عند المرابطين هو وأبوه أبو العَلاءُ حتى إنه ألف كتاب "الاقتصاد في إصلاح الأنفس والأجساد " ويسمى أيضًا "الزينة"[٢٩].

أما كتاب "التَّيْسِير فِي المُدَاوَاة وَالتَّدْبِير" الذي طبقت شهرته الآفاق، فقد ألفه ابن زُهْر لِلْقَاضِي أبي الْوَلِيد مُحَمَّد بن أَحْمد بن رُشْد"[٣٠]، وهو كتاب تتجلى فيه شخصية ابن زُهْر بكل وضوح، ويعد خير من ألف العَرَب في الطِّبِّ العَرَبي[٣١] وجعله تفصيلاً لكتاب "الكُلِّيَّات في الطِّب" وإتمامًا ما نقص منه، وهو الكتاب الذي ألفه ابن رُشْد ووصف فيه بصورة عامة ما كان معروفًا عن الأَمْرَاض في زمانه، وبما أنه لم يتطرق في كتابه إلى التفصيل في المعالجة كطبيب سريري ممتهن، فإنه طلب إلى صديقه، أو مَرْوَان أن يجعل كتابه مشتملاً على اختياراته ومشاهداته في علمي الأَمْرَاض والمُدَاوَاة [٣٢].

٤- الحفيد أبو بَكْر مُحَمَّد بن أبي مَرْوَان بن زُهْر (595هـ/١١٩٨م): وقد "أخذ صناعَة الطِّبّ عَن أَبِيه وباشر أَعمالهَا" [٣٣] وقد كان طبيبًا ليعقوب ابن يوسف وهو مـن نوابغ الطب والأدب في الأندلس، وعُرف بالحفيد ابن زُهْر، له "الترياق الخمسيني ألفه للمنصور أَبُو يُوسُف يَعْقُوب"[٣٤] وهو كتاب في الطِّبِّ - والترياق يشتمل على عناصر متعددة تركب تركيبًا صناعيًا لتقوية الجسم وحفظ الصحة والتخلص من السموم الحيوانية والنباتية والمعدنية" -ورسالة في طِّب العيون".

وانفرد على حد قول ابن الأَبَّار (ت ٦٥٨هـ /١٢٥٩م) في عصره بلقب "الإمامة في علم الطِّبِّ"[٣٥] وبرع في علم الأَدْوِيَة فعندما رأى تذكره طبية كتبها أبوه للخليفة الموحدي عبد المؤمن بن علي (ت ٥٥٨هـ / ١١٦٣م) وكان في حال شيخوخته فقال لوالده: "يجب أن يبدل هذا الدَّوَاء بهذا الدَّوَاء المفرد دواء آخر" ولما راه أبوه قال "يا أمير المؤمنين أن الصواب في قوله واستفادته"[٣٦].

٥- أبو مُحَمَّد عبد الله بن الحفيد أبي بَكْر بن زُهْر(٦٠٢هـ/١٢٠٥م): تعلم مهنة الطِّبِّ من أبيه، وأكد ذلك ابن أبي أُصَيْبِعَة قائلاً: "اشتغل على والده ووقف على الكثير من أسرار علم الصناعة وعملها وقرأ كتاب النبات لابي حنيفة الدينوري على أبيه وأتقن معرفته" [٣٧].

٦- أبو العَلاءُ مُحَمَّد بن أبي مُحَمَّد بن زُهْر: قتله ابن الأحمر وهو ابن (37سنة) عامًا (٦٣٠هـ/١٢٣٢م).

أما ابن رُشْد الحفيد (أبو الْوَلِيد مُحَمَّد بن أَحْمد) (ت ٥٩٥هـ/ ١١٩٨م)، فقد صنف كتاب "الكُلِّيَّات في الطِّب"، قام بتأليفه سنة (٥٥٨هـ/١١٦٢م) وتداول الناس كتابه واستعملوه خلال العصور الوسطى كلها[٣٨]، ويعتبره فيليب حتي (Philip Hitti) من أشهر مؤلفاته، حيث تضمن معلومات مهمة في علم التشريح وعلم وظائف الأعضاء، والصحة، والمَرَض [٣٩]، كما خصص القسم الخامس منه للأَدْوِيَة المفردة[٤٠]. وقد تعرض لأمراض الفم والأسْنَان كما سيأتي لاحقًا.

كما كان للطبيب الصيدلاني مُوْسَى بن مَيْمُون (ت ٦٠٥هـ/ ١٢٠٨م) مقالتان: الأولى "مقالة فصول القُرْطُبي" تشتمل على مقدمة وفصلين كبيرين، وفي المقدمة بين استحضار العقاقير الطِّبِّيَّة من البلاد النائية[٤١]. كما كان ابن البيطار(ت ٦١٦هـ/١٢٤٨م)، "أوحد زَمَانه وعلامة وقته فِي معرفَة النَّبَات وتحقيقه واختياره ومواضع نَبَاته ونعت أَسْمَائِهِ على اختلافها وتنوعها[٤٢]، وصفه جاك ريسلر (Jack Restler) بأنه: " أعظم عالم نباتي أخصائي في العقاقير"[٤٣].

هذا غيض من فيض حيث أنجبت الأَنْدَلُس المئات من الأَطْبَاء، وقد تنوعت إسهامات العُلَمَاء والأَطْبَاء نتيجة ذلك الاهتمام المتواصل بالإبداع العِلْمِي، فكان لهم فضل السبق في وضع قواعد في الجِرَاحَة العامة، وطِب الأسْنَان وطِب العُيُون، الخ، وعملوا على الارتقاء بتلك العُلُوم وجعلها فنًا وعلمًا ذا أصول وقواعد. ولذا سوف نتناول بالتفصيل فيما يلي: الإنجازات العِلْمِيَّة للأَطْبَاء في الأَنْدَلُس وأثرها على التطور العِلْمِي الأُورُوبّي.

المبحث الأَوَّل

إسهامات علماء الأَنْدَلُس في مجال طِب الأَسْنَان

يُعَدّ الطِّب من أهم العُلُوم التي قدرت حق قدرها في الإسلام، وقد اشتهرت الأَنْدَلُس بمدارسها الطِّبِّيَّة[٤٤]، وازدانت بمئات الأَطْبَاء النابغين في مختلف العُلُوم الطِّبِّيَّة، وارتفع مستوى طِّب الأَسْنَان على يديهم ارتفاعًا ملحوظًا، وفي تلك الدراسة نتعرض لطِّب الأَسْنَان وإسهامات علماء الأَنْدَلُس في تطوره وأثر ذلك على التطور العِلْمِي الأُورُوبي.

ملف العدد

أولاً: طِب الأسْنَان الوقائي

برع أطْبَاء الأَنْدَلُس في طِّب الأسْنَان وتوصلوا إلى إسهامات متعددة في هذا المجال بداية مما يمكن تسميته " الطِّبِّ الوقائي" لحماية الأسْنَان؛ فقاموا بتقديم النصح والإرشاد، للوقاية من الأمْرَاض التي قد تصيب الأسْنَان، منطلقين من الحكمة القائلة "الوقاية خير من العلاج" فأكدوا على أهمية نظافة الفم والأسْنَان، وذكروا عددًا من الوصفات التي تستخدم لتنظيف الأسْنَان واللثة، وقد أطلقوا على هذه الوصفات اسم "السنونات"(٤٥)، مثل غسول ينظف رائحة الفم ويقوي اللثة، وآخر يجلو الأسْنَان، ويبيضها(٤٦).

ونصح الأطْبَاء الأَنْدَلُسيون بالحفاظ قدر الإمكان على السن الطبيعي الدائم الذي خلقه الله سبحانه وتعالى لأنه لا يعوض، وأفضل بطبيعة الحال من السن الاصطناعي؛ لأنه لا يماثله في الجودة والعمل والإتقان، والاهتمام بالأسْنَان ورعايتها والحفاظ عليها ضروري لأن السن المخلوع لن يعوض بعد ذلك، ولذا يعتبره الزَّهْراوي "جوهرًا شريفًا حتى إذا لم يكن بد من قلعة"(٤٧).

كما ذكر أطْبَاء الأندلس عدة نصائح للحفاظ على سلامة الأسْنَان، وهي تجنب تناول المشروبات الشديدة البرودة والشديدة السخونة، أو ما هو شديد الحموضة "كالمملوحات والحريفة والحوامض"(٤٨). وتحفظ الأسْنَان "بتجنب ما هو شديد الحموضة أو شديد السخونة أو شديد البرودة"(٤٩).

وكانوا ينصحون لحماية الأسْنَان، بأن لا تكسر بها شيئًا صلبًا أو يمضغ بها شيئًا علكًا ويحذر ذلك جملة، وكذلك يتحفظ أن يأكل بها طعامًا حار الملمس أو بارد الملمس، فإن ذلك مضر بها متلف لها، وخاصة متى تعاقبا، والحامض أيضًا مضر بها، وكذلك القوابض، والحلوى، واللبن، "والتمر"(٥٠) وما يعمل منه، ويذكر أبو مَرْوَان بن زُهْر (ت٥٥٧هـ/١١٧١م) في كتاب التيسير "ويحدث في الأسْنَان الضرس لاستعمال الطعوم الحامضة قالوا والقابضة"(٥١)، فلهذا يجب إجادة غسل الأسْنَان بالماء الفاتر فتورة معتدلة عقب الأكل (٥٢).

ومن الجدير بالذكر اهتمام الأطْبَاء ببداية التسنين عند الأطفال، وذكروا نصائح للأم للعناية باللثة والأنياب، عند ظهورها فيقولون، "وإذا جعلت الأنياب تفطر فيجب أن تدلك الغمور بالأدْوِيَة المرخية مثل الشحوم، ودماغ الأرنب، وكذلك شحم الدجاج"(٥٣).

وقد شاع بين الأَنْدَلُسيين بعامة استخدام السواك المصنوع من خشب عطري، يستخدم للعناية بالفم والأسْنَان، وهو أمر لا تعرفه أُورُوبَّا"(٥٤). ويشير الشعر الأندلسي إلى انتشار هذه الظاهرة بين الأَنْدَلُسيين ؛ فيقول الشاعر أبو القَاسِم الأسعد بن بليطة (ت ٤٤٠هـ/ ١٠٤٨م) (٥٥):

أرى نكهة السواك في حمرة اللمى
وشاربك المخضر بالمسك قد خطا
عسى قزح قبلية فإخاله
على الشفة اللمياء قد جاء مختطا

ويقول الشاعر غالب بن رباح المعروف بأبي تمام الحجام (ت ق٥هـ)، وهو يعرف الأفواه والأسْنَان جيدًا، يقول في أسى مفاخرًا(٥٦):

فمال للملك ليس يرى مكاني
وقد كحلت لواحظه بنوري
كذا المسواك مطرحًا مهانًا
وقد أبقى جلاء في الثغور

وقد احتفظ لنا أحد أعلام الأَنْدَلُسيين وهو أبو الحسن علي بن مُحَمَّد بن رزين التجيبي (ت٦٣٦هـ/١٢٣٩م)، بعدد من الوصفات لتنيظف الأيدي والأفواه واللثة والأسْنَان وأسماها "الغاسولات" وهذه هي عناوين بعضها: أشنان ينظف اليد ويطيب الرائحة ويصلح الفم واللثة ويذهب الروائح والأطعمة الدمسة. ونوع آخر ملوكي يطيب النكهة وإن ابتلع منه شيء لم يضر وينقي الذقن وينفع الأسْنَان. أشنان طيب الرائحة كثير المنفعة يزيل الكلف والنمش ويرطب الأطراف. أشنان يطيب البدن والنكهة ويشد اللثة وهو ملكي. غسول ينقي الأيدي ويذهب الروائح الدسمة(٥٧).

كذلك نصح ابن زُهْر بغسل الأسْنَان لتقويتها وتبييضها باستعمال "ماء قد غلي فيه أصول عليق وأصول هليون أجزاء متساوية حتى تتغير أوصاف الماء، ويتمضمض بذلك... واستعمال هذا السنون فإنه يشد الأسْنَان، ويقويها ويبيضها"(٥٨).

ثانيًا: أمراض الأسْنَان (التشخيص والعلاج)

أ. التشخيص:

اهتم الأطْبَاء الأَنْدَلُسيون بطِّب الأسْنَان، وقد تناولوا هذا النوع من نواحي متعددة من حيث التشخيص ومن ثم العلاج؛ فمن ناحية التشخيص صنف البعض –أمراض الأسْنَان ومنها: أوجاعها، تآكلها(٥٩)، واهتزازها وتثقبها واسودادها(٦٠)، الدود المتولد فيها (التسوس)، نتوؤها، تحركها، رقتها، تزعزعها، سوادها، خضرتها، صفرتها، الأوجاع التي تعرض للصبيان عند نبات أسْنَانهم"(٦١). وفي كافة العُلُوم نجد أن التشخيص السليم يؤدي بالضرورة للعلاج السليم.

وقد ذكر البعض عدة أَمْرَاضٍ تصيب الأسْنَان مثل: تسوس الأسْنَان ويسميه البعض "ثقب الأسْنَان"(٦٢)، ويصيب الأسْنَان أيضًا مَرَض الرواسب الجيرية، وهي عبارة عن كتلة متكلسة تتكون على سطح الأسْنَان والضروس فتحتاج إلى العلاج والجرد(٦٣). وهناك ورم الأضراس واسترخاء وتقيح اللثة(٦٤).

كما تصيب اللثة والأسْنَان بعض الأَمْرَاض مثل البَخَرُ: وهو الرائحة المتغيرة من الفم فيصيب اللثة ويكون سببه أما لعفن في اللثة أو تأكل في الأسْنَان ويكون معديًا للآخرين(٦٥).

وقد تناول أبو مَرْوَان بن زُهْر (ت٥٥٧هـ/١١٧١م)، الأَمْرَاض التي تعرض للأسْنَان فخصص بحثـًا لعلة اهتزاز الأسْنَان، وتثقبها واسودادها"(٦٦)، وذكر ابن رُشْد الحفيد (ت ٥٩٥هـ/) أن "الأَمْرَاض التي للفم فكلها ظاهرة للحس مثل القلاع(٦٧)، والورم، والتآكل"(٦٨).

وصف الألم المنتقل للأسْنَان وخطره:

يشير الزَّهْراوي في مهارة إلى وصف ظاهرة الألم السِني المتنقل في التاريخ الطبي فيقول "كثيرًا ما يخدع العليلَ الوجع، ويظن أنه في الضِرس الصحيحة فيقلعها، ثم لا يذهب الوجع حتى تقلع الضِرس المريضة"(٦٩). وهكذا يصف الزَّهْراوي -ربما لأول مرة في التاريخ الطبي -الألم المتنقل وخطره؛ مما يضعه على مستوى عصري حتى اليوم(٧٠). لأنه من المحتمل أن يقوم البعض بخلع السن السليمة التي فيها الألم ويتركون السن المريضة التي يجب قلعها ولا يظهر فيها الألم. وبالتالي على طبيب الأسْنَان قبل أن يقوم بأي عملية قلع، عدم الوقوع في خطأ التشخيص.

ب. العلاج:

١- علاج الأسْنَان بالأَدْوِيَة والأعشاب:

نجح أَطْبَاء الأَنْدَلُس والصيادلة والعشابون في استخدام الأعشاب أفضل استخدام في علاج العديد من الأَمْرَاض ومنها أمراض الفم والأسْنَان، واستطاعوا استغلال الثروات الزراعية والحيوانية والمعدنية في الأَنْدَلُس وانتجوا مؤلفات عرفت باسم "الأَدْوِيَة المفردة"(٧١)، ومع ظهور الصناعات الدوائية وظهور ما عرف بـ "الأَدْوِيَة المركبة" ظل اللجوء إلى العقاقير بشكلها الخام (نباتي، حيواني، معدني) يستخدم في العلاجات حتى الأن(٧٢).

ومن أمثلة العلاج بالأعشاب ما ذكره ابن رُشْد عن علاج القلاع، والورم، والتآكل(٧٣) فنصح باستخدام نبات العليق فقال: "وهذا النبات وأطرافه وزهرته.... فالورق أرطبها لمكان المائية التي فيه، ولذلك في قوته إشفاء القلاع وغيره من قروح الفم"(٧٤)، كما وصف الصَّنَوْبَر أيضًا لتسكين آلام السن المتآكلة فقال عنه "هو حار يابس في الدرجة الثانية، ومتى قطر منه شيء في السن المتآكلة سكن الوجع من ساعته"(٧٥)، وقدم كذلك وصفًا للعلاج من وجع الأسْنَان، وتساقط اللثة باستخدام نبات السَّنْدَرُوس (٧٦) الذي له نفعًا عجيبًا على حد وصفه.

ونصح ابن رُشْد باستخدام "العاقر قرحا"(٧٧) لأنه "يسكن وجع الضرس"(٧٨) ويذكر أن حجر العقيق " يزيل الحفر من الأسْنَان أو يوقفه"(٧٩) وهو ما أكده ابن زُهْر في التَّيْسِير(٨٠).

كما تناول أبو مَرْوَان بن زُهْر (ت٥٥٧هـ/١١٧١م) القلاع وعلاجه أيضًا فيقول: "ومن أمراض الفم القـلاع وهو مؤلم وإن كان حقيرًا والتمضمض بدهن حب البلوط يرفعه "(٨١).

ويذكر أبو مَرْوَان بن زُهْر (ت٥٥٧هـ/١١٧١م) في كتاب التيسير "ويحدث في الأسْنَان الضرس لاستعمال الطعوم الحامضة قالوا والقابضة"(٨٢)، وكل دسم لزج ينفع منه. والضرس حس مختص بالأسْنَان ومغارزها دون سائر الأعضاء، وذكر أن البقلة الحمقاء تنفع من ذلك، وأنا إنما استعمل من البقلة الحمقاء في ذلك، النوع الذي لا يكاد يوجد له حمضة، وكل ما يقوي الأسْنَان إذا دُووِم استعماله كان سببًا بقدر الله أن لا يكون الضرس سريع الحدوث"(٨٣).

كما كان الأَطْبَاء يصنعون حبًا يعطر الفم يصنع من القرنفل، ومصطكى(٨٤)، وعروق النارنج، وكزبرة فيصنع حبًا مثل الحمص، ويحبس في الفم فيعطره ويحسن نكهته ويذهب الروائح الكريهة(٨٥). وذكر ابن البيطار أن المصطكى به "النفع من أوجاع الأضراس واللثة الوارمة وغير المتورمة"(٨٦).

كما وصف الصيادلة والعشابون في الأَنْدَلُس علاجًا للأسْنَان، مثل "الزيتون الأخضر يطبخ بماء الحصرم حتى يصير كالعسل ويطلى على الأسْنَان المتآكلة يسكن الألم؛ أما الزيت الذي يعمل من الزيتون فاذا كان حديثًا كان جيدًا "ويشد اللثة ويقوي الأسْنَان"(٨٧). وقدم ابن حَبِيِب القُرْطُبي(ت 238هـ / ٨٥٢م) وصفة أخرى فقال "وورق الزَّيْتُون إذا مضغ. ينفع من السلاق وينفع من أكل الأسْنَان"(٨٨).

ونجد ابن البيطار(ت ٦٤٦ هـ / ١٢٤٨م)، الذي يعد من أعظم العلماء الذين ظهروا في القرون الوسطى، وعالم عصره في عُلوم النبات والعَقَاقِير، قام بوصف تراكيب الدَّوَاء التي تعالج أمراض الأسْنَان ومنها ما ذكره عن منافع الزيتون الطِّبِّيَّة فقال: "ورق الزيتون يقبض وينفع من تآكل الأسْنَان إذا طبخ وأمسك العليل ماءه في فمه، وورق الزيتون يطبخ بماء الحصرم حتى يصير كالعسل ويطلى على الأسْنَان المتآكلة فيقلعها"(٨٩).

كما تناول فائدة الأثل "وهو ثمر شجرة تكون بمصرفيها مشابهة من ثمر الطرفاء ويبرىء أوجاع الأسْنَان"(٩٠). كما أنه " يشد اللثة المسترخية"(٩١).

وهناك نبات "اشخيص": هو شوكة العلك عند أهل الأَنْدَلُس ويعرفونه بالبشكاني أيضًا وبالبربرية أداد... إذا طبخ وتمضمض بطبيخه سكن أوجاع الأسْنَان وإذا خلط به من الفلفل جزء مساوٍ له ومن الموم مثله وألصق على الأسْنَان سكن وجعها وقد يطبخ بالخل ويضمد به الأسْنَان"(٩٢).

وذكر فوائد "أكر البحر: اسم لليف البحر وهو نبات ينبت في قعر البحر المالح ورقه على شكل ورق البروق لطاف طوال يخرج من أصل يشبه أصل السعد الطويل النابت في المروج إلا أنه أغلظ ولونه ظاهرًا وباطنًا. وفي أسفله مما يلي الحجارة شعب دقاق ملتفة سود في موضع عند الأصل ليفة مستديرة كأنها جمعت من وبر الإبل إلا أن في شعرها خشونة تكون صغيرة ثم تكبر، فمنها ما يصير بقدر النارنج وأكبر وأصغر، إذا أحرقت واستعملت وحدها أو مع أخلاط السنويات المخصوصة بالجلاء

وشد اللثات"[٩٣]. كما قدم وصفًا لنظافة الأسْنَان وحمايتها: باستخدام "قرن الأيل... إذا استن به جلا وسخ الأسْنَان"[٩٤]، "وإذا طبخ وتمضمض به سكن وجع الأضراس"[٩٥].

وكذلك قام أَطْبَاء الأَنْدَلُس بعلاج تسوس الأسْنَان عن طريق قيامهم بحشو الأسْنَان، وتناول أبو مَرْوَان بن زُهْر (ت٥٥٧هـ/ ١١٧١م) علاج تسوس الأسْنَان قائلاً: "وأما الثقب فقد ذكرت ما هو مختص بإزالته، وهو العقيق إذا سحق واستن به، هذا في أول ما يحدث وقبل تمكنه، وأما إذا تمكن ذلك وأتلف كثيرًا من جوهر السن فغاية العقيق أن يوقف عن تزيد ذلك"[٩٦]. وكان "الجزع: حجر معروف وهو صنفان يماني وصيني، يجلو الأسْنَان"[٩٧]. كما أن هناك "حجر أعرابي: "يشبه العاج النقي وإذا سحق وذر على المواضع التي ينزف منها الدم تضمدًا به قطع النزف وإذا أحرق كان منه جلاء للأسْنَان"[٩٨]. كما أن "لسان الحمل نافع من وجع الأسْنَان"[٩٩] والهليون "تشفي وجع الأسْنَان أيضًا"[١٠٠].

وأكد ابن البيطار على أن "البسذ: هو العزول وهو المرجان أيضًا يجلو الأسْنَان جلاء صالحًا. وإن سحق واستيك به قطع الحفر من الأسْنَان وقوى اللثة"[١٠١]. وهناك أيضًا "زراوند"، وهو نبات ذو شعب صغيرة مخرجها من اصل واحد وأغصان طوال وزهر ابيض، وفائدته أنه "يجلو الأسْنَان واللثة"[١٠٢]. وذكر ابن رُشْد أنه: "يجلو الأسْنَان، واللثة"[١٠٣].

ونصح ابن حَبِيِب القُرْطُبي (ت 238هـ / ٨٥٢م) وموسى بن ميمون القُرْطُبي (ت 601 هـ/ ١٢٠٤م) أيضًا باستخدام "بقلة حَمْقا": وهي (الرجلة، والفرفج، والفرفير) وتسمى أيضا "البقلة المباركة" ويذكر ابن حَبِيِب القُرْطُبي أن هذه البقلة تنفع في إنها تسكن وجع الأسْنَان والضرس[١٠٤].

وأكد على تلك المعلومة ابن رُشْد في كتابه "الكُلِّيَّات في الطِّب فقال عن البقلة الحمقاء "مذهبة فيما زعموا للضرس"[١٠٥].

وكذلك الصَعتَر "ينفع إذا مضغ من وجع الأسْنَان"[١٠٦]. كما أكد ابن حَبِيِب أيضًا على أن: " اللَّوْز الحلو يشدّ الأسْنَان"[١٠٧]. كما وصف الطَّبِيب الصيدلاني أبو جَعْفَر أَحْمد بن مُحَمَّد الغافِقِيّ (ت٥٦١هـ / ١١٦٥م) شراب لأوجاع الأسْنَان[١٠٨].

وذكر أَطْبَاء الأَنْدَلُس مجموعة من الوصفات الطِّبِّيَّة المجربة والعملية والتي تفيد في علاج أوجاع وأمراض الأسْنَان وتميزت هذ الوصفات بالمعايرة الدقيقة لمكوناتها فكتب ابن زُهْر في "المُجرَّبات" لمن شكا إليه وجع أسْنَانه: "تأخذ من لحاء أصل اسفراج وكزبرة البئر وورق آس من كلّ واحد ثمانية دراهم، ومن قرفة ومن فقّاح إذخر وسعدى من كل واحد أربعة دراهم. يرضّ ما يجب رضّه ويغلى الجميع في ما يغمر من الماء حتى يشتدّ احمراره ويتمضمض به كل يوم حتى تصلح الحال "[١٠٩]. وكتب في شد الأسْنَان وتقوية اللثات فقال: "يتمضمض قبل بماء طب فيه فودنج وبابونج حتى خرجت قوتهما فيه .ثمّ يستعمل هذا السنون: لكّ مغسولة ومصطكى وعفص شاميّ من كلّ واحد جزء، طين أرمينيّ أو طين الانجبار إن لم يوجد الأرمينيّ وكهرباء وسعدى عراقي من كلّ واحد نصف جزء، تسحق فرادى وتجمع وتسحق ثانية وتنخل ويستنّ[١١٠] بها"[١١١].

وكتب لمن شكا وجعًا في أسْنَانه مع ورم لثاته " قشر أصل التوت جزء، ورق لسان الحمل جزء. يرضّان ويطبخان في غمرهما من الماء حتى يذهب النصف ويمرس ويصفّى ويتمضمض بمائها ويؤخذ منه جزء ويضرب بمثله من دهن ورد ويطلى منه على الشدق من خارج، إن شاء الله تعالى"[١١٢]، كما كتب لوجع الأسْنَان من نزلة باردة "أصل خطمي وورق لسان الثور من كل واحد جزء، شونيز ربع جزء .يرضّ الجميع ويطب في رطل ماء عذب حتى يذهب النصف ويمرس ويصفّى ويتمضمض به مرارًا"[١١٣].

وكتب لذي ورم في اللثة وفساد في الفم "أربعة دراهم خيار شنبر، يمرس في أوقيتين من ماء حارّ ويصفّى ويضاف إليها نصف أوقية من ماء عنب الثعلب ويتمضمض به وهو فاتر مرارًا في النهار .ثمّ يذرّ على اللثات هذا السنون :ورق ورد أحمر يابس جزء، صندل أصفر نصف جزء، فوفل كذلك، شبّ محرق مطفأ في ماء ورد ربع جزء، جلّنار مثله .يسحق الجميع وينخل ويضاف إليه ثلاث حبّات من كافور مسحوق ويذرّ على أصول اللثات بعد المضمضة، إن شاء الله عزّ وجلّ لا ربّ غير"[١١٤].

وكتب لفساد اللثة ورائحة الفم "أرى أن يحتجم في الأخدعين .ثمّ يؤخذ من ورق الكحيلاء جزء ومن لحية التيس ثلث جزء فيوضعان في قدر جديد ويطيّن فمها ويتركها في الفرن حتّى يحترق . ثمّ يسحق نعمًا ويصنع منه ذرور يذرّ على اللثة"[١١٥]. وكتب لمن شكا نتن فم "أصابه بعد مَرَض لثات كان به ولم يتمكن ب رؤ منه :يتمضمض كلّ غدوة بربع أوقية شراب سكنجبين عنصليّ محلولاً في أوقية غير ربع من ماء سخن ويبتلعها بعد ذلك ويمضك بعده مصطكى بشيء من قشر أترجّ مجفّف"[١١٦].

وكتب أيضًا لسلاق في الفم مع بثور "يتمضمض له بربّ توت أو ربّ ريحان يخلط معه عشر جزء من خلّ وبعد ذلك يؤخذ من الحضض قدر درهم فيحلّ في المهراس مع مثليه من ماء ورد أو ماء لسان الحمل ويدعك نعمًا. ويؤخذ من السعد الع ا رقيّ درهم فيلوى في طين انجبار ويحرق في الفرن في شقف جديد. ثمّ يخرج من الطين ويسحق وينخل ويضاف إلى الحضض ويدعك ثانية دعكًا بليغًا ويؤخذ منه شيء يسير في قطنة فيمرّ على السلاق والبثور بعد المضمضة، إن شاء الله عزّ وجلّ"[١١٧].

وهكذا نجد أن أَطْبَاء الأَنْدَلُس برعوا بما لا يدع مجالاً للشك في علاج أوجاع الأسْنَان وأمراضها باستخدام الأعشاب والأَدْوِيَة المفردة، كما برعوا أيضًا في العلاج الجراحي كما سيتبين مما يلي.

٢-العلاج الجراحي:

نجح أَطِبَّاء الأَنْدَلُس في استخدام العلاج الجِرَاحِي للأسْنَان وليس مجرد العلاج بالأعشاب فقط، واستخدموا آلات جراحية دقيقة؛ فقدم لنا الزَّهْراوي وصفًا ورسومات للآلات تكاد تصل إلى دقة آلات العصر الحديث. والجدير بالذكر أن الزَّهْراوي قدم نصائح غاية في الأهمية عند إجراء تلك العمليات من أهم تلك النصائح تعدد وتنوع الآلات المستخدمة في العمليات الجراحية فيقول: "هذه الآلات كلها كلما كثرت أنواعها، وكانت معدة عند الصانع كان أسرع لعمله وأرفع عند الناس لقدره فلا تستحقر منها آلة أن تكون عندك معدة فلا بد من الحاجة إليها" ومن هنا تتضح لنا خبرة الزَّهْراوي العملية والتي ترى كما يرى الطِّبّ الحديث أن قلع الأسْنَان وأدواته تختلف من حيث الشكل والحجم حسب طبيعة العملية المطلوبة وفك المريض وحسابات طبية أخرى. وفيما يلي سوف نتناول العمليات الجراحية التي قام بها أَطِبَّاء الأَنْدَلُس فيما يتعلق بطِّب الأسْنَان:

أ- جرد الأسْنَان بالحديد:

ولأول مرة في تاريخ الطِّب يورد الزَّهْراوي وصفًا دقيقًا لطريقة جرد الأسْنَان وبطريقة علمية يبدأ أولاً بالتشخيص فيقول: "قد يجتمع في سطوح الأسْنَان من داخل ومن خارج، وبين الثنيات قشور خشنة قبيحة وقد تسود وتصفر وتخضر حتى يصل من ذلك الفساد إلى اللثة وتتقيح الأسْنَان لذلك"، ثم بعدها يبدأ في شرح العلاج وطريقة جرد الأسْنَان فيقول: "فينبغي أن تجلس العليل بين يديك ورأسه في حجرك وتجرد الضِرس أو السن الذي يظهر لك فيه القشور والشيء الشبيه بالرمل، حتى لا يبقى منه شيء وكذلك تفعل بالسواد والخضرة والصفرة وغير ذلك حتى تنقى، فإن ذهب ما فيها من أول الجرد، وإلا فتعيد عليها الجرد يومًا آخر وثالثًا ورابعًا حتى تبلغ الغاية فيما تريد"(١١٨).

ب-تقويم ونشر الأسْنَان النابتة على غيرها (جراحات تجميل الأسْنَان):

وقد تحدث الزَّهْراوي في كتاب التَصْرِيف لمن عجز عن التَّأْليف عن جراحة التجميل المعروفة في العصر الحديث فتحدث عن تقويم ونشر الأسْنَان النابتة على غيرها فيقول: "إذا نبتت الأَضْراس على غير مجراها الطبيعي فيقبح بذلك الصورة لاسيما إذا حدث ذلك عند النساء، فينبغي أن ينظر أولاً إن كان الضرس قد نبت من خلف ضِرس آخر ولم يتمكن من نشره أو برده فإقلعه، وإن كان ملصقًا بضرس آخر فاقطعه "(١١٩).

والقطع بآلة "تشبه المنقار الصغير ولتكن من حديد هندي حادة الطرف جدًا ويكون قطعك له في أيام كثيرة لصلابة الضرس ولئلا تزعزع غيرها من الأضراس، وأما إن كان ناتيًا ممكنًا لبرادته فابرده بمبرد من حديد هندي"(١٢٠).

ويكون كله من حديد هندي رقيق النقش جدًا كالمبرد الذي تضع به الإبرة، تبرد به الضرس قليلاً قليلاً في أيام كثيرة برفق لئلا تزعزع الضرس فيسقط ثم تملسه آخرًا وتجرده ببعض المجارد، وإن كان ضرس قد انكسر منه بعضه فكان يؤذي اللسان عند الكلام فينبغي أن تبرده أيضًا حتى تذهب بخشونة ذلك الكسر ويستوي ويملس ولا يؤذي اللسان ولا يفسد الكلام"(١٢١) وكعادة الزَّهْراوي يمدنا أيضًا بصور الآلات المستخدمة في عملية البرد(١٢٢).

والجدير بالذكر أن كتاب التَصْرِيف لمن عجز عن التَّأْليف يحتوي على، حوالي مائتي آلة جراحية موصوفة ومرسومة، الكثير منها من اختراعه هو، فهناك أشكال عديدة منها: الكلابيب(١٢٣)، والعتلات(١٢٤) والجفوت(١٢٥) والصنانير(١٢٦) والمباضع(١٢٧) والمشارط والمسابر والمجارد، والمثاقب والمدسات ويحتوي كتابه بالإضافة إلى ذلك على أول صورة في التاريخ للمقص الحقيقي، إلى جانب صورة لأول محقن في التاريخ الطبي، وكان يسمى زراقة. ويعتبر كتابه هذا أول كتاب علمي مصور في تاريخ الطِّبّ وهو يتسم بالوضوح والبعد عن النظريات(١٢٨).

ج-تثبيت وتشبيك الأضراس المتحركة

وتناول الزَّهْراوي كيفية تثبيت الأضراس المتحركة بجبيرة من خيوط الذهب، وفق معطيات علم طب الأسْنَان الحديث فاستخدم الخيوط الفضية والذهبية إذ يقول: "إذا عرض للأَضْراس القدامية تزعزع وتحرك عن ضربة أو سقطة ولا يستطيع العليل العض على شيء يؤكل وعالجتها بالأَدْوِيَة القابضة ولم ينجح فيها العلاج فالحيلة فيها أن تشد بخيط ذهب أو فضة، والذهب أفضل من الفضة"(١٢٩).

وعلل الزَّهْراوي أفضلية استخدام خيط الذهب عن الفضة بقوله: "لأن الفضة تتزنجر وتعفن بعد أيام والذهب باق على حاله أبدًا لا يعرض له ذلك، ويكون الخَيْط متوسطًا في الرقة والغلظ على قدر ما يسع بين الأَضْراس وصورة التشبيك أن تأخذ الخَيْط وتدخل انثناءة بين الضِرسين الصحيحين ثم تنسج بطرفي الخَيْط بين الأَضْراس المتحركة واحدة كانت أو أكثر حتى تصل بالنسج للضِرس الصحيح من الجهة الأخرى ثم نعيد النسج إلى الجهة التي بدأت منها وتشد بيدك برفق وحكمة حتى لا تتحرك البتة ويكون شدك الخَيْط عند أصول الأَضْراس لئلا يفلت، ثم يقطع الخَيْط الفاصل بالمقص وتجمعها وتفتلها بالجفت وتخفيها بين الضِرس الصحيح والضِرس المتحرك لئلا تؤذي اللسان، ثم تترك هكذا مشددة ما بقيت، فإن انحلت أو انقطعت شددتها بخيط آخر فيستمتع بها هكذا الدهر كله"(١٣٠).

مما تقدم نجد أن الزَّهْراوي كان عالمًا مبدعًا أجرى عمليات لشد للأسْنَان لم تكن معروفة في زمانه إلا القليل، مما يدل على سعة خياله العِلْمِي، لا سيما أن هذه العَمَلِيَّات مستخدمة في وقتنا الحاضر، وموضوع تثبيت الأسْنَان من المواضيع التي تدرس حاليًا في كليات الطِّب.

د-جراحة الأسْنَان المكسورة:

في كثير من الأحيان يتعذر قلع أو إخراج السن قطعة واحدة نظرًا لكونه متفتتًا ومتآكلاً بفعل نخر أو تسوس، ولقد شرح الزَّهْراوي كيفية جراحة السن المكسورة داخل الفك في حالة "إذا بقي عند قلع الضرس أصل قد انكسر فينبغي أن تضع على الموضع قطنة بالسمن يومًا أو يومين حتى يستر في الموضع ثم تدخل إليه الجفت أو الكَلاَلِيب التي تشبه أطرافها فم الطائر الذي يسمى البلرجة وتكون قد صنعت كالمبرد من داخل أو كالاسكلفاج، فإن لم يجبك للخروج بهذه الكَلاَلِيب فينبغي أن تحفر على الأصل وتكشف اللحم كله بالمبضع ثم تدخل الآلة التي تشبه عتلة صغيرة قصيرة الأطراف غليظة قليلاً ولا تكون مستقيمة لئلا تنكسر فإن خرج الأصل بذلك وإلا فاستعن بهذه الآلات الأخر"[١٣١]. ويقول أيضًا: "إن انكسر عظم من الفك أو من أحد عظام الفم أو تعفن ففتش عليه في موضعه بما يصلح له من أحد هذه الآلات والكَلاَلِيب التي ذكرت في إخراج الأصول، وتستعين بجفت يكون فيه بعض الغلظ قليلاً..." [١٣٢].

هـ-شرح عمليات قلع الأسْنَان:

– قلع الأسْنَان وضروراته:

شدد أَطْبَاء الأَنْدَلُس على ضرورة عدم اللجوء لخلع الضرس إلا في حالات الضرورة القصوى بعد أن تنتهي كافة طرق المُدَاوَاة ووسائل المعالجة للحفاظ على السن بمكانها داخل الفم، وللزهراوي إضافات مهمة في علم طِب الأسْنَان وجِراحَة الفكَّيْن والأسْنَان، وقد تعرض لقلع الأسْنَان ووصفها وصفًا عمليًا واضحًا ومفصلاً في تاريخ الطِّبِّ العَرَبي الإسلامي، وتعرض للحالات الصعبة والمضاعفات التي يمكن أن يواجهها الطَّبِيب، وتقديم الحلول العِلْمِيَّة اللازمة إلا أنه ينصح أولاً بعلاجه قبل قلعه ولذا: "ينبغي أن تعالج الضِرس من وجعه بكل حيلة، وتتوانى عن قلعه فليس منه خيف إذا قلع"[١٣٣].

وقد أفرد لهذا الاختصاص فصلاً خاصًا به، شرح فيه كيفية قلع الأسْنَان بلطف، وأسباب كسور الفك أثناء القلع، وطرق استخراج جذور الأَضْراس، وطرق تنظيف الأسْنَان، وعلاج كسور الفكين، والأَضْراس النابتة في غير مكانها، وبرع في تقويم الأسْنَان[١٣٤].

وقد برع أَطْبَاء الأَنْدَلُس في عمليات قلع الأسْنَان ووصف الزَّهْراوي بتمكن واضح تلك العملية ووصف ذلك بطريقة عملية واضحة ومفصلة تعد إنجازًا في المجال فقال: " فإذا صح عندك الضرس الوجع بعينه فحينئذ ينبغي أن تشرط حول السن بمبضع فيه بعض القوة حتى تحل اللثة من كل جهة ثم تحركه بأصابعك أو بالكَلاَلِيب اللطاف أولاً قليلاً قليلاً حتى تزعزعه ثم تمكن حينئذ منه الكلبتين الكبار تمكينًا جيدًا ورأس العليل بين ركبتيك قد ثقفته حتى لا يتحرك، ثم تجذب الضرس على استقامة لئلا تكسره، فإن لم يخرج وإلا فخذ أحد تلك الآلات فأدخلها تحته من كل جهة برفق ورم تحريكه كما فعلت أولاً، وإن كان الضرس مثقوبًا أو متآكلاً فينبغي أن تملأ ذلك الثقب بخرقة وتسدها سدًا جيدًا بطرف مرود رقيق لئلا يتفتت في حين شدك عليه بالكَلاَلِيب ، وينبغي أن تستقصي بالشرط حول اللثة من كل جهة نعمًّا وتحفظ جهدك لئلا تكسره فيبقى بعضه فيعود العليل منه بلية هي أعظم من وجعه الأول، وإياك أن تضع ما يضع جهال الحجامين في جسرهم وأقدامهم على قلعه من غير أن يستعملوا ما وضعنا فكثيرًا ما يحدثون على الناس بلايا عظيمة أيسرها أن ينكسر الضرس وتبقى أصوله كلها أو بعضها، وإما أن يقلع ببعض عظام الفك كما شاهدناه مرارًا، ثم يتمضمض بعد قلعه بشراب أو بخل وملح، فإن حدث نزف دم من الموضع فكثيرًا ما يحدث ذلك فاسحق حينئذ شيئًا من الزاج واحش به الموضع وإلا فاكوه إن لم ينفعك الزاج، صورة الكَلاَلِيب اللطاف التي بها الضرس أولاً تكون طويلة الأطراف قصيرة المقبض غليظة لئلا تنثني عند قبضك الضرس، ولتكن من حديد هندي أو من فولاذ محكمة مستقيمة الأطراف، وفي طرفها أضراس يدخل بعضها في بعض فتقبض قبضًا محكمًا وثيقًا وقد تضع الأطراف كهيئة المبرد فتكون أيضًا قوية القبض"[١٣٥].

من الفقرة السابقة تتضح لنا أمور عدة في غاية الأهمية تتبلور في النقاط التالية:

١- هناك نصيحة لطبيب الأسْنَان أن يقوم بفصل النسيج اللثوي عن الضرس أو السن بواسطة آلة قاطعة هي مبضع قوي، ويفيد هذا الإجراء في أن يتم تحريك السن من مفصلها، أو على الأقل تخفيف التصاقها بعظام الفك، وهذا ما يساعد على إخراجها بواسطة الكلابة المناسبة وكذلك ضرورة تحرير أعناق الأسْنَان المراد قلعها من اللثة ارتباطًا وثيقًا بأعناق الأسْنَان.

٢- تحريك السن بواسطة حركات إلى الداخل والخارج بانعطاف بسيط وحركات جانبية حتى يشعر الطَّبِيب بأن السن قد تقلعت من مفصلها.

٣- ضرورة تحرير أعناق الأسْنَان المراد قلعها من اللثة ارتباطًا وثيقًا بأعناق الأسْنَان.

٤- قلع الأضراس المتآكلة والمثقوبة جدًا حيث يقوم بحشوها أولاً خوفًا من أن تنكسر ثم يقلعها.

و-زراعة الأسْنَان:

كما كان أَطْبَاء الأَنْدَلُس على دراية تامة بمسألة تعويض الأسْنَان المفقودة عن طريق اتخاذ بديل لها (أسْنَان اصطناعية) بعد نحتها من عظام البقر وشدها بخيوط من الذهب أو الفضة[١٣٦]. وعن زراعة السن التي سقطت من مكانها، يقول الزَّهْراوي: "وقد يرد الضرس الواحد أو الاثنين بعد سقوطهما من موضعهما وتشبك كما وصفنا وتبقى. وإنما يفعل ذلك صانع درب دقيق، ينحت عظمًا من عظام البقر يصنع منها كهيئة الضرس وتجعل في الموضع الذي ذهب منه الضرس،

وتشد كما قلنا فيبقى، ويستمتع ما شاء الله"[١٣٧]. فيعد بذلك رائدًا في مجال زراعة الأسْنَان وتقويمها.

٣-الكي الحراري وتعدد المهام:

والكيّ الحراري هو معالجة الإصابات السنية عن طريق رفع حرارة السن لدرجات عالية، وذلك بطرق مختلفة تطبق على سطح السن الخارجي أو في داخل السن، وتختلف في مدتها وطريقتها من حالة لأخرى، وقد تشترك مع الحرارة مواد دوائية تطبق بالتشارك مع الكي أو تستخدم كحامل حراري في عملية الكي[١٣٨].

واستعمل الأَطْبَاء في الأَنْدَلُس الكي الحراري؛ لإيقاف تسوس الأسْنَان وإزالة ما حولها من لحم أو زوائد في اللثة، وبين الزَّهْراوي خطأ مقولة أن الكي آخر الدَّوَاء، فقال: "بل قد يصحبه دواء، إلا أن الكي ربما يكون آخر ما يلجأ إليه الطِّبِّ من علاج إذا سبق استعمال الأَدْوِيَة فلم تنجح"[١٣٩].

- الكي الحراري للأضراس واللثات المسترخية:

وقد دخل طِّب الأسْنَان ضمن فروع جِراحَة الطَّبِيب الزَّهْراوي وإبداعاته في علاج الأسْنَان وقد ابدع في جِراحَة أَمْرَاض الفم والأسْنَان كبراعته في أقسام الطِّب الأخرى إذ إن الزَّهْراوي لم يترك مجالاً إلا وكان رائدًا فيه. كما أحدث الزَّهْراوي ثورة في الاستعاضة عن الأسْنَان المفقودة بتثبيت عظام بديلة فوصف كيفية ربط الأسْنَان السليمة بتلك المقلقلة بسلك ذهبي أو فضي، ومن العَمَلِيَّات التي أجراها في جِراحَة الفم والأسْنَان منها: كي الأَضْراس واللثات المسترخية: يقول الزَّهْراوي في ذلك "إذا استرخت اللثات من قبل الرطوبة وتحركت الأَضْراس وعالجتها بالأَدْوِيَة ولم تنجح فضع رأس العليل في حجرك ثم احم المكواة بعد أن تضع الأنبوبة على الضِرس وتدخل فيها المكواة حامية بالعجلة وتمسك يدك قليلاً حتى يحس العليل بحرارة النار وصلت إلى أصل الضِرس ثم ترفع يدك ثم تعيد المكواة مرات على حسب ما تريد ثم تمسك فم العليل في ماء مالح وتمسكه ساعة ويقذف به فإذا الضِرس المتحرك بقيت واللثة المسترخية تفسد وتجف الرطوبة الفاسدة" [١٤٠].

وشرح الزَّهْراوي تلك العملية فيقول:" تأخذ السمن البقري فتغليه في مغرفة حديد أو في صَدَفَة ثم تأخذ قطنة فتلفها على طرف المِرْوَد ثم تغمسها في السمن المغلي وتضعها على السن الوَجِعَة وتمسكها حتى تبرد ثم تعيدها مرات حتى تصل قوة النار إلى أصل الضرس"[١٤١].

وتم استخدام الكي بالأنبوبة الواقية حيث تؤخذ أنبوبة نحاس أو حديد واسعة وفي جرمها بعض الغلظ لئلا يصل حر النار إلى فم العليل[١٤٢] فندخل طرف الأنبوب إلى فم المريض ويكون طرفه الآخر خارج الفم بمقدار أصبع ثم يدخل الميل في الأنبوبة حتى يصل طرفه إلى السن فيكويه ويطلق الزَّهْراوي اسم المكواة على هذا الميل[١٤٣] وهو هنا ذو رأسين ويمكن استخدام الطرف المناسب بحسب الإمكان[١٤٤].

في كيّ الناصور الحادث في الفم

يقول الزَّهْراوي في كيّ الناصور الحادث في الفم: "إذا عرض في أصل اللثات أو الحنك، أو في أصول الأضراس، ورم ثم قاح وانفجر، وأزمن جري القيح منه وصار ناصورًا، ثم عالجته ولم ينجع فيه العلاج، فينبغي أن تحمي مكواة على قدر ما تسع في الناصور، ثم تدخلها حامية في ثقب الناصور، وتمسك يدك حتى تصل الحديدة محمية إلى غوره وآخره، وتفعل ذلك مرة أو مرتين، ثم تعالجه بعد ذلك بما ذكرنا من العلاج إلى أن يبرأ، إن شاء الله... فإن انقطعت المادة وبرئ، وإلا فلا بد من الكشف على المكان وينتزع العظم الفاسد"[١٤٥].

في كيّ وجع الضرس

ويقول "إذا كان وجع الضرس من قبل البرودة، أو كان فيها دود، ولم ينجع فيها العلاج بالأَدْوِيَة، فالكي فيها على وجهين؛ إما الكي بالسمن، وإما الكي بالنار، فأما كيها بالسمن فهو أن تأخذ من السمن البقري، فتغليه في مغرفة حديد، أو في صدفة، ثم تأخذ قطنة فتلفها على طرف المرود، ثم تغمسها في السمن المغلي وتضعها على السن الوجعة بالعجلة، وتمسكها حتى تبرد، ثم تعيدها مرات حتى تصل قوة النار إلى أصل الضرس، وإن شئت أن تغمس صوفة أو قطنة في السمن البارد وتضعها على السن الوجعة، وتجعل فوقها الحديدة المحمية، حتى تصل النار إلى قعر السن. وأما كيها بالنار فهو أن تعمد إلى أنبوبة نحاس، أو أنبوبة حديد، ويكون في جرمها بعض الغلظ لئلا يصل حر النار إلى فم العليل، ثم احم المكواة التي تأتي صورتها، وتضعها على نفس السن، وتمسك يدك حتى تبرد المكواة، تفعل ذلك مرات، فإن الوجع يذهب إما ذلك النهار نفسه، وإما يومًا آخر. وينبغي في إثر ذلك الكيّ أن يملأ العليل فمه بالسمن الطيب ويمسكه ساعة ثم يقذف به. : يكوى بأي طرف شئت على حسب الذي يمكن"[١٤٦].

وقد استخدم الأَطْبَاء الكي الحراري لإيقاف تسوس الأسْنَان وإزالة ما حولها من لحم أو زوائد في اللثة وكي وجع الضِرس[١٤٧]، وقد استخدم الأَطْبَاء العديد من الآلات الجِرَاحِيَّة التي ساعدتهم في علاج وإجراء العَمَلِيَّات الجِرَاحِيَّة الخاصة بالأسْنَان[١٤٨].

لقد برع أَطْبَاء الأَنْدَلُس في طِّب الأسْنَان وتمكنوا من تقديم مساهمات متميزة في طب الأسْنَان الوقائي، والعلاج بالأعشاب، والجِرَاحَة وشرح عملية قلع جذور الأسْنَان المكسورة وكذلك في قلع الأسْنَان النابتة في غير مواضعها، وابتكروا لتلك الحالات آلات تناسب كل حالة.

المبحث الثَّاني

تأثيرات الإنجازات العِلْمِيَّة للأَطْبَاء في الأَنْدَلُس على أُورُوبَّا ونهضتها

بينما كان الناس في أُورُوبَّا يمتهنون الطِّب عن جهل وبطريقة همجية متخلفة معتمدين على السحر والتنجيم، كان العَرَب في الأَنْدَلُس نجومًا في سماء العِلْم والحَضَارَة ، وذلك من خلال ما قدموه من إبداعات واكتشافات، وما تركوه من بصمات في صرح الحَضَارَة الإنسانية تلك الإنجازات التي كان لها أكبر الأثر فيمن أتى من بعدهم من الجراحين الغربيين، وكانت بالغة الأهمية على الأخص بالنسبة لأولئك الذين امتهنوا علم الجِراحَة في أُورُوبَّا في القَرْن السَّادِس عَشَرَ؛ فقد ساعدت آلاتهم وابتكاراتهم هذه على وضع حجر الأساس للجراحة في أُورُوبَّا فبعض الآلات التي أوردتها كتب الطِّبِّ تلك أصبحت بتحوير بسيط تشكل اليوم أجزاء من الآلات التي تستعمل لهذه الغاية، "وظهرت للعرب عدة طرق يعود الطِّبِّ الحديث إلى بعضها"[١٤٩].

ونال طب الأسْنَان اهتمام أَطْبَاء الأندلس، واهتموا بمعالجة الأسْنَان بكل الطرق والوسائل؛ فابتكروا واتبعوا طرقًا دقيقة في العلاج تكاد تقترب كثيرًا مما هو سائد حاليًا في الطِّبِّ الحديث. وهو ما يؤكد تفوق العَرَب والمسلمين في الطِّبِّ علمًا وعملاً وتنظيمًا.

دفع ذلك التفوق الأوروبيون إلى نقل المعارف الإسلامية ابتداء من القرن السادس للهجرة/ الحادي عشر الميلادي، وأقاموا معاهد للترجمة نقلوا من خلالها أفضل المؤلفات والبحوث في الطِّبِّ والكيمياء والفلك والفلسفة، وأسّسوا جامعات اعتمدت على المؤلفات العَرَبية الرائدة في العُلُوم وفي الفلسفة، ونذكر في هذا السياق، جهود رئيس الأساقفة في قُرْطُبَة إبان سقوطها، الذي أقام في بلاطه مركزًا للترجمة، تم فيه ترجمة آلاف الكتب العَرَبية في الحقول العلمية؛ خاصة في الطِّبِّ والكيمياء والرياضيات، لابن سينا والبيروني والخازن والخوارزمي وابن النفيس وابن رُشْد وابن زُهْر والزَّهْراوي، وغيرهم كثير. كما تنتشر المؤلفات العِلْمِيَّة لعشرات من العلماء المسلمين في مكتبات مختلف الجامعات الغربية، وتُدرّس بعض نظرياتهم، بما يؤكد الإسهام الكبير والرائد الذي قدمه العقل الإسلامي للحضارة الإنسانية في ميادين التجربة والعُلُوم الطبيعية[١٥٠].

وبعد سقوط طُلَيطِلَة عام (٤٧٨-١٠٨٥م) من قبل ملك قَشْتَالَة (Castilla) أَلْفُونْسُو السَّادِس (Alonso VI) أصبحت مركزًا لحركة الترجمة في إسْبَانيَا تنافس بَغْدَاد وغيرها من مدارس الترجمة، تعمل على ترجمة المؤلفات العَرَبِيَّة إلى اللغات القَشْتَالية (Castellao)، وكانت تصل إلى الأَنْدَلُس من أقصى أرجاء العالم الإِسْلامي الكتب المتراكمة في الخزائن الملكية، كما افتتحت الترجمة التي أنشأها الملوك والأساقفة في طُلَيطِلَة مثل الأُسْقُف رودريكو دي لاردا (Rodrigo de Larda) وغيره، والهدف منها هو تعريف الإسبان على مضامين الحِكمة العَرَبِيَّة[١٥١]، وبسقوط هذه المدينة بدأ في أُورُوبَّا عصر جديد في ميدان النقل والترجمة للعُلُوم العَرَبِيَّة الإِسْلامية، وفتحت الأبواب على مصرعيها لدخول الفكر العَرَبي والأَنْدَلُسي بخاصة إلى الفكر الأُورُوبي، عن طريق الترجمة إلى اللغة اللاتينية لغة التفاهم المشترك في أُورُوبَّا"[١٥٢] وخصوصًا في العُلُوم الطِّبِّيَّة والتَّجْرِيبِيَّة التَّطْبيقِيّة التي أوردها صاعِد الأَنْدَلُسي (ت ٤٦٢هـ/ ١٠٧٠م) في طبقاته بعدد وفير من هذه العُلُوم[١٥٣]، وقد أبقى الحكم الجديد على كثير من ألوان النشاط العِلْمِي الذي مارسه العُلَمَاء الْمُسْلِمون في طُلَيطِلَة، بل أن عدد كبير منهم قاموا بدور مهم في تعريف الإسبان النصارى والأوروبيين، من الذين توافدوا على البلاط الإسباني في طُلَيطِلَة، بوجوه الحَضَارَة الإِسْلامية وما أحرزه الْمُسْلِمون من التفوق في ميادين المعرفة المختلفة والمعارف الطِّبِّيَّة بخاصة، ويشير فرنانديث جونثالث، في مذكراته أنه كان يعيش في طُلَيطِلَة تحت الحكم النصراني طائفة كبيرة من العُلَمَاء الْمُسْلِمِين الذين حظوا بالرعاية والتقدير[١٥٤].

ويؤكد جاك ريسلر أن "الجِرَاحَة العامة وصناعة الأسْنَان العربية كانت في العصر الوسيط أكثر تطورًا"[١٥٥]. ونشر خوان أندريس (Juan Andres) كتابًا باللغة الإيطالية في ثمانية أجزاء سماه "أصول الأدب عامة وتطوراته وحالته الراهنة" قال فيه مؤكدًا: "إن الفضل في قيام الدراسات الطِّبِّيَّة في أُورُوبَّا يرجع إلى ما كتبه العَرَب"[١٥٦].

ويذكر أرلوند شتيجر (Arnold Steiger)*:* "كان الفونسو العاشر (Alfonso X) –الملقب بالحكيم– معجبًا أشد الإعجاب بالثَّقافة والحَضَارَة الإِسْلامية، التي قدر له أن يشاهدها عندما أتاحت له الظروف أن يزور الأَنْدَلُس ففي صباه، فعمل على استدعاء العُلَمَاء الْمُسْلِمِين واليَهُود، وأسس المدارس والمعاهد، وقام بترجمة كثير من المؤلفات التاريخية والرياضية وغيرها إلى اللغة الرومانثية، ويمكن أن يعد رمزًا للثقافة الإسبانية في العصور الوسطى"[١٥٧].

لقد أثرت الإنجازات العِلْمِيَّة للأَطْبَاء في الأَنْدَلُس على أُورُوبَّا ونهضتها التي خرجت من ظلمات الجهل إلى نور العلم المشع، ونالت قُرْطُبَة الشهرة العِلْمِيَّة العالمية في مجال الطِّب، حتى أن عددًا من السفارات الأُورُوبّيَّة كان يقصدها كلما مست بهم الحاجة إلى طَبِيب أو جراح وكذلك للدراسة ونيل الشهادات، ومن ضمن السفارات سفارة جاءت من أجل علاج أحد أُمَرَاء مملكة ليون من سمنته المفرطة التي جعلته موضع استهزاء بين الرعية وهو سانشو السمين (Sancho el Gordo) (ت 966 م/ ٣٥٥هـ)، ابن الملكة طوطة (Tota) أميرة مملكة نيفارا (Navarra) فجاء إلى قُرْطُبَة بعد أن فشل أَطْبَاء أُورُوبَّا من

ملف العدد

علاجه وشفائه من سمنته التي كان يعاني منها وكانت تحرمه حتى من ركوب الخيل لثقل وزنه، وصل سانجو إلى قُرْطُبَة واستقبله الْخَلِيفَة عَبْد الرَّحْمَن النّاصر في بلاطه وشفى على يد أمهر أَطْبَاء قُرْطُبَة حسداي بن شبروط الذي خلصه من وزنه الثقيل هذا[١٥٨]. بهذه الروحية والاهتمام من أَطْبَاء قُرْطُبَة والسمعة الطيبة بلغ ازدهار الطِّب والصَّيْدَلَة ذروته في عصر الْخِلافَة الأَنْدَلُسية بعد أن أخذ الطِّب ينمو خطوات متقدمة من الإنتاج والإبداع في مختلف الاختصاصات[١٥٩]. وزادهم في ذلك اهتمام الخُلَفَاء والأُمَرَاء وتشجيعهم ودعمهم وإغداقهم بأموال طائلة وإكرامهم بالهدايا الثمينة[١٦٠].

وإذا كان الدارسون الغربيون قد تنكروا في أول المطاف لفضل العَرَب على النَّهْضَة الأُورُوبِّيَة إلا أننا وجدنا الكثير من المنصفين منهم يرد الفضل لأهله وتتابعت الدراسات الغربية عن العِلْم الحَضَارَة العَرَبِيَّة خاصة في مجال الطِّب من أبرزها أعمال ماكس مايرهوف (Max Meyerhof) وباول كراوس (Paul Kraus) وكارل بروكلمان (Carl Brockelmann) ودونالد كامبل (Donald Campbell) وسيجريد هونكة (Sigrid Hunke) وجوستاف لوبون (Gustave Le Bon) وجورج سارتون (George Sarton) وخوان فيرنية (Juan Vernet) وجوزيف جارلند (Joseph Garland) وجابريال كولان (Gabriel Colin)، وروزا كوني بربانت (Rosa Kuhne Brabant)، وإدوارد جرانفيل براون (Edward Granvill Brown). وإليهم يرجع الفضل في تعريف العالم بفضل الحَضَارَة العَرَبية على أُورُوبًّا في كافة المجالات.

تعترف المستشرقة الألمانية المنصفة سيجريد هونكة بفضل العَرَب على أُورُوبًّا في مجال الطِّب عبر صفحات كتابها القيم وأكدت على أن العَرَب بمؤلفاتهم العظيمة هم أساتذة أُورُوبًّا، وهذه الكتب قد استخدمت قديمًا لتخرج أَطْبَاء بغداد وقُرْطُبَة، وهذه الكتب أيضًا هي التي تخرج عليها عدد كبير من الأجيال سواء في العالم الإسلامي أو المسيحي الأُورُوبي وبخاصة في الطِّبِّ"[١٦١]. وبذلك أسهم أَطْبَاء قُرْطُبَة في الطِّب إسهامًا فعليًا باعتراف جوزيف جارلند (Joseph Garland) في كتابة قصة الطِّب[١٦٢].

يقول الطَّبِيب الإنجليزي دونالد كامبل (Donald Campbell) في كتابه الطِّب العَرَبي: "كانت الجِراحَة في الأَنْدَلُس تتمتع بسمعة أعظم من سمعتها في باريس أو لندن أو أدنبره؛ ذلك أن ممارسي مهنة الجِراحَة في سَرَقُسْطَة كانوا يُمنحون لقب طَبِيب جرّاح، أما في أُورُوبًّا فكان لقبهم حلّاق جرّاح، وظلَّ هذا التقليد ساريًا حتى القرن العاشر الهجري"[١٦٣]. ويؤكد المستشرق مارتن بلنسر (Marin Plessner) أن علماء الْمُسْلِمِين أعطوا العِلْم الأُورُوبّي قوة دفع شديدة[١٦٤].

لقد حازت انجازات الأَطْبَاء العَرَب على اهتمام أَطْبَاء أُورُوبًّا بعد ذلك، حيث جاءت انجازاتهم في وقت لم يعرف فيه العالم شيئا اسمه الكتابة في طِب الجِراحَة، وجاءت خطوة الأَطْبَاء العَرَب بوضع هذا العِلْم في مؤلفات متخصصة كنقطة تحول في التَّأْليف والبحث العِلْمِي في العالم وقتذاك.

ونجد كتاب "الْمُجَرَّبات" لأبو العَلاءُ بن زُهْر (ت ٥٢٥هـ/ ١١٣٠م) -كما سبق وأشرت- هو مجموعة من الملاحظات الطِّبِّيَّة وذكر مجموعة من الوصفات الطِّبِّيَّة المجربة والعملية والتي تفيد في علاج أوجاع وأمراض الأَسْنَان وتميزت هذ الوصفات بالمعايرة الدقيقة لمكوناتها[١٦٥] وتسمية " الْمُجَرَّبات " في حد ذاته هو طفرة في تاريخ العُلُوم التي تعتمد على التجريب الذي كان أساسًا في تطور العُلُوم. وقد وضَّح في كتابه هذا طريقة استعمال المضامض الفموية بشكل يقارب إلى حد كبير الطريقة المتبعة طبيًا في العصر الحديث. وتُرجم "كتاب الْمُجَرَّبات" إلى اللاتينية عام ١٤٩٠م، واستمر أَطْبَاء أُورُوبًّا يستمدون منه معلوماتهم الطِّبِّيَّة والجراحية إلى غاية نهاية القرن السابع عشر[١٦٦].

كما اتصف أبو مَرْوَان بن زُهْر بالمصداقية والشفافية في دقائق خطوات العمل أثناء تحضير الدَّوَاء من أجل الوصول للكمال في الفائدة والمنفعة المرجوة من الوصفة المدوّنة إيمانا منه أن التجربة خير برهان فنجده يقول "شهدت التجربة" ووجدت بالتجربة"[١٦٧] ولذا قال حين ألف كتابه "التزمت الطريق التي وصفت ونهجت التوسط بحسب الإمكان فيما ألفت وتحريت"[١٦٨].

لقد امتاز أبو العَلاءُ بن زُهْر(ت ٥٢٥هـ/ ١١٣٠م) بمهارة فائقة برّز بها أقرانه وبرع في طِّب الأَسْنَان وتعرض لذلك الفرع في كتابه "الْمُجَرَّبات".

أما أبو مَرْوَان عَبْد الْمَلِك بن زُهْر(ت ٥٥٧هـ/١١٦٢م): فقد أثر في تاريخ الطِّبِّ العالمي وقد عُـرف عند الأوربيين والنصوص اللاتينية باسم (Abulelizor) أو(Aboali) ، أو Avenzoar[١٦٩]، وظل كتابه "التيسير.." يدرس في أُورُوبًّا، بجامعتي "لوفان" و"مونبيلييه" حتى القرن السابع عشر الميلادي[١٧٠].

وترجم الكتاب إلى العبرية ثم من خلالها انتقل إلى اللاتينية عدة مرات من طرف بارافيوس (Paravicius) وجيوفاني دي كابوا (Giovani de Capual) بمساعدة يعقوب العبري (Jacobus Hebraeus)[١٧١] وفي القرن الرابع عشر كان التيسير يندرج ضمن المواد التي تلقنها كلية الطِّبِّ في جامعة مونبلييه (Université de Montpellier) لطلبتها، حيث يذكره أكبر ممثليها جي دي شولياك (Guy de Chauliac) إحدى وعشرين مرة، كما طبعت النسخة اللاتينية للكتاب ما بين ١٤٩٠ و ١٥٧٤م، عشر مرات[١٧٢].

وطبعت خلال القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي حوالي عشرين طبعة في مدن أوروبية عديدة منها: "أوغسبورغ" باللاتينية سنة ٩٢٦هـ/١٥١٩م، و"بيترو" أو "جيلانا" عام ٩٣٨هـ/١٥٣١م، و"بال" بسويسرا عام ٩٤٨هـ/١٥٤١م[١٧٣].

ويقول المستشرق الفرنسي جابريال كولان (Gabriel Colin) " ونجد في آثار ابن زُهْر، لا نظريات أصيلة فحسب، ولكن نجد أيضًا ابتكارات مستحدثة لم يسبقه إليها أحد"[١٧٤] ولذا كان يُنْصح كل تلميذ طب بقراءة كتاب التَّصْرِيف لمن عجز عن التَّأْليف والاستفادة منه[١٧٥].

وكان للزهراوي عند مفكري وعلماء أُورُوبَّا مكانة خاصة عكست فضل العُلُوم العَرَبِيَّة على أُورُوبَّا وتجلت في كتاب (التَّصْرِيف لمن عجز عن التَّأْليف)، وعرف الزَّهْراوي عند علماء أُورُوبَّا باسم البوكاسيس (Albucasis) [١٧٦]. وكانوا لا يذكرون أبا الْقَاسِم الزَّهْراوي إلا بهذه الكنية ويرسموها بأشكال مختلفة منها (Bulcala) ومنهم من ذكر لقبه محرفًا باسم (Alzarus)[١٧٧].

وكان لكتاب الزَّهْراوي "التَّصْرِيف لمن عجز عن التَّأْليف" تأثير كبير على الجِرَاحَة الأوربية خصوصا في فرنسا وإيطاليا[١٧٨]. واندفع أَطْبَاء الغرب في دراسته وتدريسه في مدارسهم وجامعاتهم ومعاهدهم الطِّبِّيَّة، واعتمدوه كأساس لدراسة الجِرَاحَة، مما ساعد على ازدهار وتقدم هذا الفرع الطبي لديهم[١٧٩].

واستمر تأثيره حتى القرن السابع عشر الميلادي[١٨٠]، ترجم لافوا (Laveau) أقسامًا منه إلى الفرنسية، وترجم جون تشانِنغ (John Channing) القسم الخاص بالجِرَاحَة إلى الإنجليزية (أكسفورد ١٧٧٨م)، كما ترجم إلى اللاتينية، وصدرت منه عدة طبعات في البندقية ١٤٩٧م، وبال ١٥٤١م[١٨١]، ويقول المستشرق فيليب حتي "وكانت رائعته الطِّبِّيَّة – التَّصْرِيف لمن عجز عن التَّأْليف – التي ترجمت إلى اللاتينية تحتل مرتبة رفيعة في الأوساط الطِّبِّيَّة، وظلت طوال قرون المرجع الطبي في الجِرَاحَة في سالرنو (Salerno) من أعمال إيطاليا، وفي مونبلييه في فرنسا، وفي غيرهما من المعاهد الطِّبِّيَّة "[١٨٢].

يقول عالم وظائف الأعضاء الكبير هالّر(Haller): "كانت كتب أبي الْقَاسِم المصدر العام الذي استقى منه جميع من ظهر من الجراحين بعد القرن الرابع عشر"[١٨٣]

ويذكر جاك ريسلر في كتابه " الحَضَارَة العربيَّة": "كان للزهراوي الفضل في تلخيص جميع المعارف الجراحية في عصره وسيبقى بحثه التَّصْرِيف لمن عجز عن التَّأْليف التعبير الأول عن الجِرَاحَة"[١٨٤].

ووجدنا كاي دي شوليا (Guyde Chauliac) الذي ترجم القسم الجراحي من التَّصْرِيف لمن عجز عن التَّأْليف للزهراوي فاقتبس منه كثيرًا في كتابه الجِرَاحَة الكبرى (Chirurgia Magna) الذي انجز سنة ١٣٦٣ وقد تضمنت كتبهم اقتباسًا كثيرًا من الكتب العَرَبِيَّة أو تضمنت مصطلحات عربية كثيرة[١٨٥].

وكانت تعاليم كتاب التَّصْرِيف لمن عجز عن التَّأْليف ومعلوماته ووسائله وآلاته أساسًا متينًا بنيت عليه صروح الجِرَاحَة الحديثة، ودعت إلى الإقرار بأن العَرَب كانوا سادة الطِّبِّ والجِرَاحَة ومعلميها في القرون الوسطى، وظلوا كذلك لعدة قرون، وشكل العلم الذي تركوه أساسًا لتقدم علم الطِّبِّ والجِرَاحَة، تعلم منه الغرب[١٨٦].

ويؤكد هنري نوبل (Henry W. Noble) على أن "كتاب التَّصْرِيف لمن عجز عن التَّأْليف يعتبر من أوائل الكتب التي شملت شرحا مفصلا عن جراحة الأَسْنَان"[١٨٧].

وعُرِف الزَّهْراوي لدى الْغَرْب بمزجه في عمله بين الملاحظة والتفكير والممارسة، وقد ابتكر إجراءات جِرَاحِيَّة جديدة مثل حمشة الخِيَاطَة الداخلية (القُصّابة) (Cut Gut)[١٨٨].

وليس هناك أدل على مكانة الزَّهْراوي العلمية، من الاهتمام بمؤلفه الكبير، وصدارته لعلم الجِرَاحَة لقرون عدة في الجامعات الأوروبية، فقد ترجم الكتاب إلى لغات عدة، ولفترات زمنية طويلة[١٨٩]، إذ ترجم إلى اللغة العبرية وإلى اللغة اللاتينية وغيرهما[١٩٠]. وكان أول من ترجم المقالة الثلاثين والخاصة بعمل اليد (الجِرَاحَة) من كتاب التَّصْرِيف لمن عجز عن التَّأْليف هو جيرارد الكريموني (Cremonensis Gerardus) وهو أحد أشهر المترجمين في مدينة طليطلة[١٩١]، والذي ترجمه إلى اللاتينية في توليدو (طُلَيطِلَة) تحت عنوان "كتاب الزَّهْراوي في الجِرَاحَة" (Cirugia de Alsaharavi Liber)، وطُبع الكتاب لأول مرة في البندقية عام ١٤٩٧، وصدرت بعد ذلك عدة طبعات منه في أعوام ١٤٩٩ و ١٥٠٠ و ١٥٢٠و ١٥٣٢و ١٥٤٠، حيث عدت هذه المقالة مرجعًا ودليلاً بالنسبة لجميع أَطْبَاء الجِرَاحَة في أُورُوبَّا في القرون الوسطى[١٩٢].

كما ترجمت إلى اللغة التركية في القرن الخامس من قبل شرف الدين بن علي الحاج الياس مع تطوير للآلات التي ذكرها الزَّهْراوي. كما تُرجم الفصلين الأول والثاني إلى العبرية في منتصف القرن الثالث عشر، ثم ترجما إلى اللاتينية لاحقًا، ونُشرا في أوجسبورج في عام ١٥١٩ تحت عنوان "الكتاب الأول في النظري والعملي للزهراوي"(Alsaharavii Necnon Theoricae Liber pri in). وصدرت طبعات باللاتينية في فينسيا (١٤٩٧ ـ ١٥١٩) واستراسبورج (١٥٣٢) وبازل (١٥٤١) واستراسبورج مرة أخرى (١٥٩٤) وأكسفورد (١٧٧٨) وبعد ذلك انتشر تأثيره في كل أُورُوبَّا الغربية وتم إجراء دراسات ممتازة عن الكتاب ومؤلفه قام بها لكليرك ونابانلي وجيرلت وكروز هوناندز وسارنيلي وشبرجيز وجارسيا بالستر. كما نشرته حيدر أباد بصورته الكاملة[١٩٣].

ويذكر سيبنك ولويز (Spink M S and Lewis) أن "الزَّهْراوي قد طور ما نعرفه اليوم بالجِرَاحَة العامة ككل، وفروعا عديدة من الجراحات الخاصة كالمسالك البولية والتجميل والأنف والأذن والحنجرة وجراحة الفم والأسْنَان. ووصف الزَّهْراوي العديد من الإجراءات السنية مثل قلع الأسْنَان وتثبيتها و إعادة غرسها واستخدام التعويضات السنية .وكتب في جرد الأسْنَان أو تنظيفها بأدوات أو مجارد متعددة تشبه ما يستخدم حاليا في جراحة اللثة " واعلم أن الضرس يحتاج إلى مجارد مختلفة الصور كثيرة الأشكال على حسب ما يتهيأ لعملك من أجل أن المجرد الذي يجرد به الضرس من داخل غير المجرد الذي يجرد به من خارج والذي يجرد به بين الأضراس على صورة أخرى، وهذه عدة صور تكون عندك كلها معدة"[١٩٤].

لقد أثر أطْبَاء الأَنْدَلُس على أطْبَاء أُورُوبَّا في الجِرَاحَة على امتداد خمسة قرون[١٩٥]، وقد وصف الطَّبِيب الزَّهْراوي -على سبيل المثال- في إسهاب الكثير من الجراحات في كتابه المزود برسوم لعينات من الآلات الجِرَاحِيَّة والتي أخذت منها الجامعات الأُورُوبِّية واعتمدت عليها بالطِّب حتى مطلع العصر الحديث"[١٩٦].

ولا يخفي الدور العظيم لأولئك الأَطْبَاء العَرَب في تقدم طِّب الأسْنَان من خلال استنباط علاج جديد أو طريقة مبتكرة أو دقة في شرح وتنفيذ العمليات الجراحية الخاصة بالأسْنَان. قال المستشرق الألماني ماكس مايرهوف عن الزَّهْراوي، "كان لمدة قرون عمدة الجِرَاحَة والتدريس في أُورُوبَّا في عصر النَّهْضَة حتى مطلع القرن السابع عشر" [١٩٧]. ويعد "قمة المعرفة الجراحية الإسلامية كونه يلخص كل المعلومات حول الجِرَاحَة في ذلك العصر"[١٩٨]. وقال لوكليرك: "يعد الزَّهْراوي في تاريخ أسمى تعبير عن علم الجِرَاحَة عند العَرَب، وهو أيضًا أكثر المراجع ذكرًا عند الجراحين في العصر الوسيط، وقد احتل الزَّهْراوي في معاهد فرنسا مكانة بين أبقراط وجالينوس فأصبح من أركان الثالوث العلمي"[١٩٩].

وتشير سيجريد هونكة إلى فضل الجراح الأَنْدَلُسي على الجِرَاحَة قائلة " ولأبي الْقَاسِم يرجع الفضل الأكبر في تقدم الجراحة، وإليه يدين الجراحون بالكثير مما توصلوا إليه في عصرنا الحاضر... ومن حسن الحظ أن وصلتنا مجموعة كبيرة من الصور التخطيطية الخاصة بجراحة العيون والأسْنَان والعمليات الجراحية الأخرى والآلات الضرورية لإجرائها، وقد استكمل الطِّبّ العَرَبي جميع هذه الإمكانيات في الوقت الذي كان فيه أطْبَاء أُورُوبَّا لا يعرفون شيئًا عنها"[٢٠٠] بل "وكان الجراحون في الأصل رجالاً من الطبقات الاجتماعية الدنيا ؛ وصدرت أوامر كنسية في نهاية عام ١١٦٣م، بمنع تدريس الجِرَاحَة بوصفها جزءًا من الدراسات الطِّبِّية. تغيرت هذه النظرة في الأغلب بعد التوسع العظيم للدراسات الطِّبِّية في أُورُوبَّا، وتوفر الأعمال المترجمة من العربية... واستمر اعتماد أُورُوبَّا على الطِّبِّ العَرَبي حتى القرنين الخامس عشر والسادس عشر"[٢٠١].

ويشير المستشرق الإسْبَاني آنخل جونثالث بالنثيا (Ángel González Palencia) إلى تقدم الجِراحَة على يديه قائلاً "أن الجِراحَة والعَمَلِيَّات الجِرَاحِيَّة لم تكن قد وصلت إلى درجة الامتياز الأعلى يد أبو الْقَاسِم الزَّهْراوي الذي يعد أكبر من برع في عمل اليد في ذلك الوقت وأجرى العَمَلِيَّات الجِرَاحِيَّة" [٢٠٢] فارتفع مقامه بكتابه هذا في أعين الناس "إلى طبقة أبقراط[٢٠٣] وجالينوس[٢٠٤]". ويؤكد جوزيف جارلند ذلك بقوله "كان الزَّهْراوي علمًا من أعلام التشريح وصل الى درجة عالية من الحذق والمهارة في سبيل إجراء العلميات ببراعة" [٢٠٥].

أما جوستاف لوبون فيؤكد أن "علم الجِراحَة مدين للعرب بكثير من المبتكرات الأساسية التي جاء بها الزَّهْراوي حتى عدت مرجعًا للدراسة في كليات الطِّب إلى وقت قريب جدًا"[٢٠٦].

ومما يدل على اهتمام الأُورُوبّيين بالزَّهْراوي واعترافهم بفضله في تقدم الطِّب انهم وضعوا صورته في كنيسة ميلانو هو والرازي وابن سينا إذ رسمت على الزجاج القديم[٢٠٧]. كما ظلت شهرة أطْبَاء العيون العَرَب وسمعة علمهم المعمق على صعيد التقنيات الإجرائية بلا نظير لآماد طويلة[٢٠٨] طبقًا لنا أقر به جاك ريسلر.

كما اعتبر كتاب ابن وافد اللخمي (ت ٤٦٧هــ/ ١٠٧٣م)" الأَدْوِيَة المفردة" من أهم الكتب التي تعتمد عليها أُورُوبَّا في القرون الوسطى[٢٠٩]، إذ يعد من الكتب المهمة المؤلفة في علم العقاقير ويقال انه قد جمع معلومات هذا الكتاب في عشرين سنة[٢١٠].

من هنا يمكن القول أن العَرَب أسسوا لعلم الجِراحَة تأسيسًا راسخًا لم يعرفه الْغَرْب إلا حديثًا ونتيجة اتصالهم بحَضَارَة العَرَب وعلومهم ونختتم بمقولة مارتن بلنسر بقوله: "يمكننا القول إن مؤلفات علماء الْمُسْلِمين الطِّبِّية تشكل جزءًا مهمًا من التُّرَاث الذي خلفه الإسْلَام للغرب، وهو تراث مازالت أهميته وتأثيره مستمرين إلى اليوم[٢١١].

خَاتِمَةٌ

تناولت الدراسة الإنجازات العِلْمِيَّة للأَطْبَاء في الأَنْدَلُس وأثرها على التطور العِلْمِي الأُورُوبِّي وألقت الدراسة الضوء على سطوع نجم الأَنْدَلُس بمدارسها الطِّبِّيَّة حيث اشتهرت بمئات الأطْبَاء النابغين في مختلف العُلُوم الطِّبِّية ومنها طِب الأسْنَان، وارتفع مستواه على يديهم ارتفاعًا ملحوظًا شهد به علماء ومفكري الْغَرْب والشَّرْق.

كما أبرزت الدراسة إنجازات الأَطْبَاء في الأَنْدَلُس وعددت إنجازاتهم في مجال طب الأسْنَان. كما تعرضت الدراسة لإسهامات الأَطْبَاء الْمُسْلِمون في وضع قواعد جِراحَة الأسْنَان وجعلها فنًا وعلمًا ذا أصول وقواعد. وأبرزت الدراسة اهتمام

الأَطْبَاء الأَنْدَلُسيون بأَمْرَاضِ الفم والأسْنَان، وقد تناولوا هذا النوع من عدة نواحي منها وظيفة الأسْنَان وتشريحها وطرق علاجها وتقويمها.

وقامت الدراسة بتوضيح مدى النقلة التي أحدثها هؤلاء العلماء لطب الأسْنَان، وهو اختصاص فريد قلما ما نجد دراسات قد أفردت لهذا الاختصاص. كما أبرزت إسهامات أَطْبَاء الأَنْدَلُس في مجال طب الأسْنَان، وإلى أي مدى أثرت دراساتهم في تطور العُلُوم الطِّبِّية بصفة عامة وطب الأسْنَان بصفة خاصة. وقامت برصد ما خلفه أَطْبَاء المسلمين في الأَنْدَلُس من ثروة كبيرة في هذا الميدان وابتكروا أشياء متطورة حديثة بعضها لا يزال معمولاً به حتى اليوم.

كما عرضت الدراسة إسهامات الأَطْبَاء الأَنْدَلُسيون فيما يخص أَمْرَاضِ الأسْنَان، وطرق علاجها. وإبراز ما قام به أَطْبَاء الأَنْدَلُس من إجراءات للعديد من العَمَلِيَّات الجِرَاحِيَّة الخاصة بطب الأسْنَان. ودراسة تأثيرات الإنجازات العِلْمِيَّة للأَطْبَاء في الأَنْدَلُس على أُورُوبَّا ونهضتها، والكشف عما قدموه من الإضافات العِلْمِيَّة لطِّب الأسْنَان.

لقد أنجبت الأَنْدَلُس أَطْبَاء على مستوى عال من التمكن وكان لهم الأثر الكبير في تطور الحَضَارَة الإنسانية كلها وليس في الأَنْدَلُس فقط، وقدموا عطاءات ونتاجات علمية نادرة شكلت فيما بعد أساسًا في للطِّب الحديث.

نتائج الدراسة

تمخضت عن الدراسة عدد من النتائج أهمها:

١- نجح الطِّبِّ العَرَبي في إحداث نقلة نوعية في تاريخ العلم حيث احتفظ بعلوم الآخرين السابقين عليه ثم قام بتطوير تلك العُلُوم الطِّبِّية خلال العصر الذهبي للحضارة العَرَبية وذلك باعتراف علماء الغرب أنفسهم.

٢- أكدت الدراسة على وصول طِّب الأسْنَان ذروته في الازدهار والابداع في الأَنْدَلُس. وخلف الْمُسْلِمون في الأَنْدَلُس ثروة كبيرة في هذا الميدان وابتكروا أشياء متطورة حديثة بعضها لا يزال معمولاً به حتى اليوم، لأن علم الطِّب كان له المنزلة السامية في الْمُجْتَمَع الأَنْدَلُسي.

٣- أسهم الأَطْبَاء الأَنْدَلُسيون في العمل على إنضاج علوم الطِّب ومنها طِّب الأسْنَان، وتركوا بصماتهم على طريق تقدمه وازدهاره، وهذا بما حققوه من كشوف علمية طبية بدراساتهم التجريبية.

٤- برع أَطْبَاء الأَنْدَلُس في طِّب الأسْنَان وتوصلوا إلى إسهامات متعددة في هذا المجال بداية مما يمكن تسميته "الطِّبِّ الوقائي" لحماية الأسْنَان؛ فقاموا بتقديم النصح والإرشاد، للوقاية من الأَمْرَاض التي قد تصيب الأسْنَان.

٥- قام الأَطْبَاء الأَنْدَلُسيون بإجراء العديد من العَمَلِيَّات الجِرَاحِيَّة الخاصة بطِّب الأسْنَان.

٦- قام أَطْبَاء الأَنْدَلُس بتحسين وتقدم طرق قلع الأسْنَان، وذلك بتقرير التشخيص الصحيح للسن واستنباط أنماط من الكلابات الجيدة العملية ووصفوا الإجراءات المطلوبة ما بعد القلع.

٧- فرق الأَطْبَاء في الأَنْدَلُس بين أمراض الأسْنَان ووضعوا لكل مَرَض العلاج المناسب والاستفادة من التجربة والممارسة في وصف الأَمْرَاض، ومن ثم التشخيص ووصف العلاج.

٨- تناولت الدراسة تأثيرات الإنجازات العِلْمِيَّة للأَطْبَاء في الأَنْدَلُس في مجال طِّب الأسْنَان على أُورُوبَّا ونهضتها وأوردت شهادات كبار علماء الْغَرْب في تلك المسألة.

٩- أكدت الدراسة على أنه لولا مؤلفات علماء الْمُسْلِمين الطِّبِّية لما وصلت أُورُوبَّا إلى عصر النَّهْضَة ولظلت قرونًا طويلة تعيش في ظلام الجهل.

خرجت الدراسة بعدة توصيات وهي:

١- قيام دراسات وأبحاث تبرز فضل الطِّب العَرَبي والإسْلامي على تقدم وتطور العُلُوم الطبية أُورُوبَّا خاصة في مجالات الجِراحَة العامة، طِب العُيُون، وطِب الأسْنَان وغيرها.

٢- ضرورة ترجمته كتب الْغَرْب عن فضل الحَضَارَة العَرَبِيَّة في مجال الطِّب للعَرَبِيَّة.

٣- فتح الباب أمام المتخصصين ومؤرخي الطِّبِّ لإجراء دراسات أكثر دقة وعمقًا لتاريخ طب الأسْنَان العَرَبي، لمعرفة مدى مساهمته في تطوير الطِّبِّ العالمي.

٤- نوصي بدراسة حصرية عن أشهر المستشرقين ومفكري الْغَرْب المنصفين الذين تحدثوا عن تاريخ الطِّب العَرَبي وفضله على الغرب.

٥- التوصية بالبحث عن المزيد من المَخْطوطات الطِّبِّية المتميزة والتي ستلقي الضوء على المزيد من الإنجازات العِلْمِيَّة للعرب خاصةً في المجال الطِّبي.

٦- تنظيم مؤتمرات علْمِيَّة سنوية عن الإنجازات العَرَبِيَّة في العُلُوم الطِّبِّية وتأثيراتها الحضارية والعِلْمِيَّة الناتجة عنها.

٧- تخصيص بعض رسائل الماجستير والدكتوراه في قسم تاريخ العُلُوم الطِّبِّية لإجراء دراسات نقدية معمقة لكتابات المستشرقين عن تاريخ الطِّب العَرَبي.

٨- تخصيص أحد المؤتمرات القادمة لموضوع الجِراحَة في الحَضَارَة الإسْلامية.

٩- بناء على تاريخ الطِّبِّ العَرَبي الإسلامي وإنجازاته العالمية وكشوفاته العديدة هناك ضرورة لبث الأمل في نفوس الأجيال القادمة كي تستعيد ما فقدناه، وتتمسك بالتقاليد العظيمة للأَطْبَاء العَرَب القدامى، خلقًا وعلمًا وبحثًا وعرفانًا.

ملف العدد

ملاحق الدراسة

ملحق رقم (١)

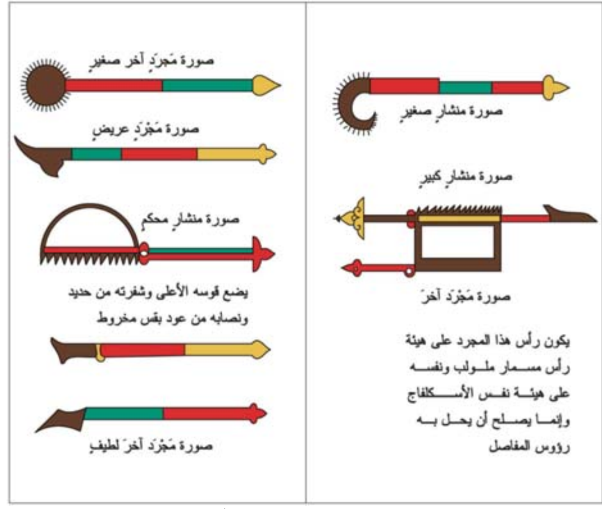


آلات جراحية من مخطوط التَّصْرِيف لمن عجز عن التَّأْليف للزهراوي: محفوظ بالخزانة الملكية بالرباط تحت رقم ٦٧٣

ملحق رقم (٢)

صفحة من كتاب «التَّصْرِيف» بالألوان المائية

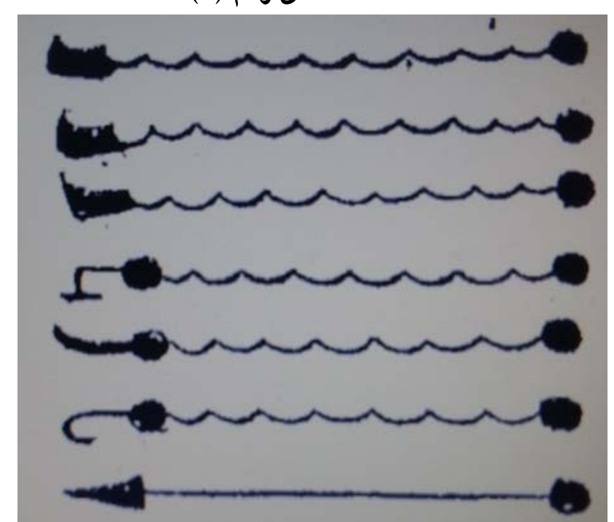
من عمل سبينك Spink ولويس Lewis



رسومًا إيضاحية للأدوات والآلات الجِرَاحِيَّة التي خصصها الزَّهْراوي لصنعته في عمَلِيَّاته الجِرَاحِيَّة

Spink M. S. and Lewis G. L. Albucasis on Surgery and Instruments, the Wellcome Institute of the History of Medicine, London, 1973,p.114.

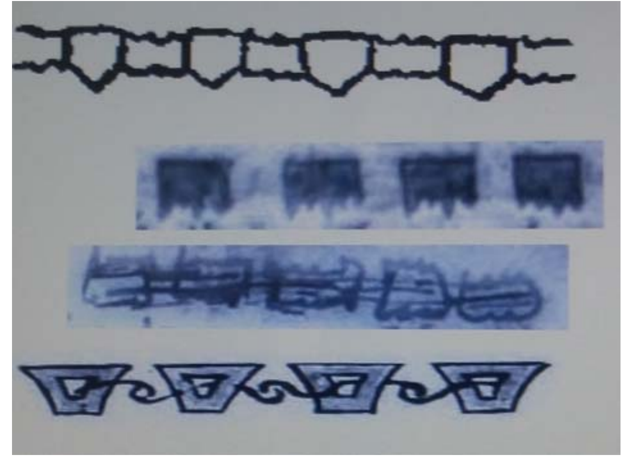
ملحق رقم (٣)



آلات تجريد الأسْنَان (المجارد)

(الزَّهْراوي، التَّصْرِيف، تحقيق: زكور، ص ٢٧٦)

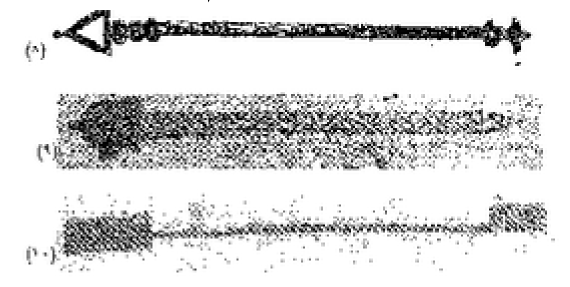
ملحق رقم (٤)



آلات تعويض الأسْنَان المفقودة وهيئة التشبيك

(الزَّهْراوي، التَّصْرِيف، تحقيق: زكور، ص ٢٩٢)

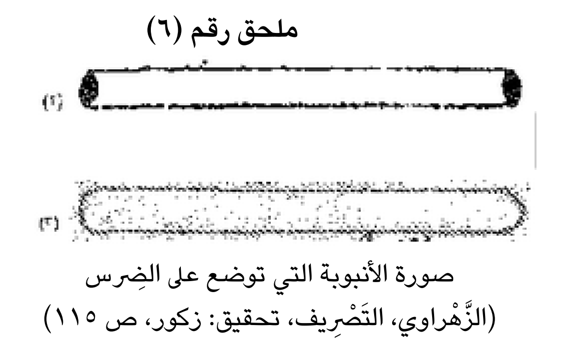
ملحق رقم (٥)



صور المكواة المستخدمة في كي الأضراس

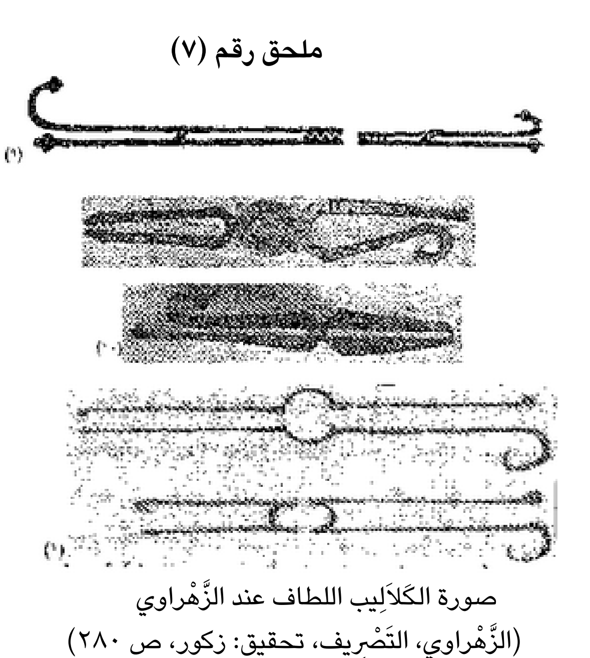
(الزَّهْراوي، التَّصْرِيف، تحقيق: زكور، ص ١١٤)

ملحق رقم (٦)



صورة الأنبوبة التي توضع على الضِرس
(الزَّهْراوي، التَّصْرِيف، تحقيق: زكور، ص ١١٥)

ملحق رقم (٧)



صورة الكَلاَلِيب اللطاف عند الزَّهْراوي
(الزَّهْراوي، التَّصْرِيف، تحقيق: زكور، ص ٢٨٠)

ملحق رقم (٨)







نموذج لمحاكاة آلات الزَّهْراوي الطِّبِّية
نقلاً عن:

Emilia Calvo: Abu al-Qasim al-Zahrawi, *aspetar medicine journal, Volume 6 ,2017,p.72.*

ملحق رقم (٩)

وصفات لتنظيف الأيدي والأفواه واللثة والأَسْنَان وتسمى الغاسولات

١- أشنان ينظف اليد ويطيب الرائحة ويصلح الفم واللثة ويذهب روائح الأطعمة الدسمة:

يؤخذ من النبك الجيد وزن ماء درهم وورق ورد احمر وتفاح اذخر ومرز نجوش يابس وصندل وورق انرج يابس وورق بسباس من كل واحد وزن، وليلة ثم يوضع على صلابة ويسحق حتى يجف ويفع وتغسل به الأيدي بعد الطعام.

٢- اشنان رفيع

يؤخذ وزن عشرين مثقالاً من النبك ومن قشر البطيخ المجفف وقشور التفاح وقشور الأترج المجفف والمرزنجوش اليابس والمانعة اليابسة والقاقلة والكبابة والقرنفل والعود ووزن مثقالين من كل واحد ووزن مثقال من كافور فيدق الجميع ويعجن الجميع بالتراب العتيق الأحمر وتلت منه أقراص وتجفف في الظل ثم تعاد إلى الصلابة وتسحق مع مثقالين من مسك رفيع ويفتق بكافور أخيارا وقد يزداد فيه مسك فيجيء في الغاية

٣- أشنان ملوكى:

يؤخذ من النبك ثلاثة دراهم ومن العود الرطب والصندل الأصفر والقرنفل وجوزبوا من كل واحد ثلاثة مثاقيل ثم يدق الجميع وينخل ويؤخذ له خمسة مثاقيل من نبك وثلاثة مثاقيل من اللخلخة ووزن سبعة دراهم من مسك فيسحق المسك والنبك ويمدان بماء ورد ويضاف اليهما الخلخة ويخلط ذلك مع الأول ويعجن الجميع ويترك ليلة، ثم يوضع على صلابة ويسحق سحقا بليغا ويرفع لوقت استعماله

٤- نوع أخر ملوكي يطيب النكهة وان ابتلع منه شيء لم يضر وينقى الذقن وينفع الأَسْنَان:

(يؤخذ) قرفة وكافور من كل واحد ثلاثة دراهم وقرنفل وماء ثم...يابسة من كل واحد خمسة دراهم وصندل ابيض من كل واحدة عشرة دراهم يدق الميع وينخل ويستعمل وربما يخلط معاه مقدار خمسة عشر درهما، وهذا مما يغسل به الملوك والعظماء أيديهم.

٥- أشنان طيب الرائحة كثير المنفعة يزيل الكلف والنمش ويرطب الأطراف:

يؤخذ من دقيق الشعير والعدس والفول من كل واحد ثلاثون مثقالاً ومن ورق اسرياس وورد أحمر يابس ونبك ومرزنجوش يابس عشرة دراهم من كل واحد، ومن قسط حلو وصندل محكوك من كل واحد وزن خمسة مثاقيل، ومن نبك وقرنفل وقاقلة من كل واحد مثقالان، تدق الأَدْوِيَة وتدخل وتعجن البطيخ ويعمل أقراصًا وتجفف في الظل، ثم تسحق سحقًا بليغًا وتفتق بشيء من كافور إن أمكن.

٦- أشنان يطيب البدن والنكهة ويشد اللثة وهو ملوكي:

يؤخذ من قشور التفاح المجفف وتسعدد ومسك وتفاح إذخر وورق ورد أحمر من كل واحد وزن عشرة مثاقيل، وبسباسة وقاقلة وكبابة ومرقوة وقرنفل وسليخة وفاغرة ودار صيني وصندل محكوك من كل واحد وزن مثقالين، وعود من الكافور من كل واحد وزن مثقال، يدق الجميع وتغسل به الأيدي وبه يغسل الملوك والعظماء أيديهم بعد الطعام.

٧- غسول ينقى الأيدي ويذهب الروائح الدسمة:

يؤخذ أربعة مثاقيل من قرنفل وأوقة من نطرودن وثلاث اواقى من دقيق الفول ويسحق الجميع سحقا بليغا وتغسل به الأيدي فهو طيب نافع جدا.

٨- نوع اخر:

يطحن الحمص ويغربل وتغسل به الأيدي بعد الطعام فانه صالح لذلك وهو الاشنان الذى يستعمله الناس.

٩- صنعة من صناب:

يسحق رطل من الصناب الطيب وينخل ويعجن بالعسل الطيب ثم يقرص في ظرف جديد بالماء يومين أو ثلاثة أيام ويراق الماء منه ويجفف يوما وليلة ثم يطلى قاعه وجوانبه من داخله بالصناب المعجون بالعسل ويجفف أيضًا يومًا وليلة حتى يحذب الظرف صلح ذلك وسيردفيه ثم يصب من الظرف مقدار عشر ربعه من عصير مصفى بالعصير كانه طلاوة بالصناب الرجم الرطف والا كان يتولد من طعمه فضاعة ولا يكن فيه.

(نقلا عن ابن رُزَين: فضالة الخوان في طيبات الطعام والألوان من ص ٢٧٧-٢٨٠).

الهَوامِشُ:

(١) ريبرا، خوليان: "المكتبات وهواة الكتب في إسْبَانيَا الإسْلامية"، **مَجَلَّة معهد المَخْطوطات العَرَبِيَّة**، جامعة الدول العربية، مجلد ٥، ج١ ١٩٥٩م، ص ٧١.

(٢)مؤنس، حُسَين: "قُرْطُبَة، درة مدن أُورُوبًّا في العصور الوسطى" **مَجَلَّة العربي، وزارة الإعلام الكويتية** عدد ٩٥، أكتوبر ١٩٦٦م، ص ٨٥.

(3) Hillenbrand , Robert, " **The Ornament of the World" Medieval Cordoba as a Cultural Centre**, LMS,Birll , Leiden,1992, p. 118.

(4) The Ornament of the World, p. 119.

(٥)**تاريخ إسْبَانيَا الإسْلامية**، ترجمة علي البمبي وعلي ابراهيم المنوفي، الْقَاهِرَة: المجلس الأعلى للثقافة، المشروع القومى للترجمة، ٢٠٠٢ م، ج٢، ص ١٢.

(٦)لوبون، جوستاف: **حَضَارَة العَرَب**، ترجمة: عادل زعيتر، الْقَاهِرَة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، سلسلة مكتبة الأسرة، ٢٠٠٠م، ص ٧٣.

(٧) الحجي، عبد الرحمن علي: **أندلسيات**، بَيْرُوت: دار الإرشاد للطباعة والنشر، ١٩٦٩م، ص١٦١.

(٨) ابن الْخَطِيب، لسان الدين: **أَعْمَالُ الأَعْلام فيمن بويع قبل الاحتلام من مُلُوك الإسْلام**، تَحْقِيق: ليفي بروفنسال، الْقَاهِرَة: دار المكشوف، دت، ص٤٠.

(٩) ابن جُلجُل، أبوداود سُلَيْمَان: **طَبَقات الأَطْبَاء**، تَحْقِيق: فؤاد سيد، بَيْرُوت: مؤسسة الرسالة، ١٩٨٥م، ص ٩٨.

(١٠)طَبَقات الأَطْبَاء، ص ٩٨؛ والأنيسون: نبات طبي صغير الحجم، يحمل حباً كروي الشكل له منافع علاجية طبية. أنظر: الرازي، محمد بن زكريا، **الحاوي في الطب**، تحقيق: محمد عبد المعيد خان، حيدر آباد – الدكن: مطبعة دار المعارف النعمانية، ١٩٧٧م، ج٢ ص ١٢٧.

(١١)**طَبَقات الأَطْبَاء**، ص ١٠٨.

(١٢)فريلي، جون: **مصباح علاء الدين –كيف وصلت العُلُوم الإغريقية إلى أُورُوبًّا عبر العالم الإسْلامي-**، ترجمة: سَعِيد مُحَمَّد الأسعد، ومَرْوَان البواب، بَيْرُوت: دار الكتاب العَرَبي، ٢٠١٠م، ص ١٥٣.

(١٣)صاعِد الأَنْدَلُسي، أبو القاسم أَحْمَد: **طَبَقات الأُمَم**، تَحْقِيق وتعليق: حُسَين مؤنس، الْقَاهِرَة: دار المَعَارِف، ١٩٩٣، ص ٨٧.

(١٤)فرحات، يوسف، وعيد، يوسف: **مُعْجَم الحَضَارَة الأَنْدَلُسية**، بَيْرُوت: دار الفكر العَرَبي، ٢٠٠٠م، ص ٢٥٢.

(١٥)طَبَقات الأَطْبَاء، ص ١٠٢.

(١٦)طَبَقات الأَطْبَاء، ص ١٠٤.

(١٧)طَبَقات الأَطْبَاء، ص ٨٧.

(١٨)طَبَقات الأَطْبَاء، ص ٨٧.

(١٩) ابن حَزْم، أبو مُحَمَّد: رِسَالة في فَضْل الأَنْدَلُس وذكر رجاله، ضمن مجموعة رسائل ابن حَزْم، نشر وتحقيق، إحسان عباس، بَيْرُوت، ١٩٨٢م، ج٢ ص١٨٥؛ ابن بَشْكُوَال، أبو القاسم خلف عَبْد المَلِك: **كتاب الصِّلَة**، الْقَاهِرَة: الدار المصرية للتأليف والترجمة، ١٩٦٦م، ترجمة رقم: ٣٧٢، ج١، ص ١٦٥ – ١٦٦.

(٢٠)الخطابي، محمد العربي: **الطب والأَطْبَاء في الأندلس**، بَيْرُوت: دار الغرب الإسلامي، ١٩٨٨م، ج١ ص ١١٣.

(٢١)يقول محققا كتاب خلق الجنين وتدبير الحبالى والمولودين (مما يتعجب منه أن ترجمته كادت لا توجد في كتب التراجم المعروفة إلى تاريخ اليوم فإهمال ذكره لا يعرف له سبب)، أما بالنسبة لاسمه فيورد بأشكال مختلفة منها غريب بن سعد القُرْطُبي، وعُرَيْب بن سَعِيد القُرْطُبي. ينظر: ص٢ مقدمة التحقيق.

(٢٢)للمزيد انظر: بلغيث، محمد الأمين: **نظرات في تاريخ الغرب الإسلامي**، الجزائر: دار الخلدونية للنشر والتوزيع، ٢٠٠٧م، ص ١٩٥؛ ريسلر: الحَضَارَة العَرَبِيَّة، ترجمة: غنيم عبدون، الْقَاهِرَة: الدار المصرية للتأليف والترجمة، ص ٢٠٨.

(٢٣) ابن أبي أُصَيْبِعَة، موفق الدين أبو العباس: عيون **الأنباء في طَبَقات الأَطْبَاء**، تحقيق: نزار رضا، بَيْرُوت، مكتبة الحياة، ١٩٩٥م، ص ٥١٧.

(٢٤) عيون الأنباء في طَبَقات الأَطْبَاء، ص ٥١٧.

(٢٥) عيون الأنباء في طَبَقات الأَطْبَاء، ص ٥١٩.

(٢٦) عيون الأنباء في طَبَقات الأَطْبَاء، ص ٥١٩.

(٢٧) عيون الأنباء في طَبَقات الأَطْبَاء، ص ٥١٩.

(٢٨) عيون الأنباء في طَبَقات الأَطْبَاء، ص ٥٢٢.

(٢٩) عيون الأنباء في طَبَقات الأَطْبَاء، ص ٥٢١.

(٣٠) عيون الأنباء في طَبَقات الأَطْبَاء، ص ٥٢١.

(٣١) بالنثيا، آنخل جنثالث: **تاريخ الفكر الأندلسي**، الْقَاهِرَة: مكتبة الثقافة الدينية، ٢٠٠٨م، ص ٤٧١.

(٣٢) دندش، عصمت عبد اللطيف: **الأَنْدَلُس في نهاية المرابطين ومستهل المُوَحِّدِين**، بَيْرُوت: دار الغرب الاسلامي، د.ت، ص ٤١٣.

(٣٣)عيون الأنباء في طَبَقات الأَطْبَاء، ص ٥٢١.

(٣٤)عيون الأنباء في طَبَقات الأَطْبَاء، ص ٥٢٢.

(٣٥) ابن الأَبَّار، محمد بن عبد الله بن أبي بَكْر القضاعي: **التَّكملة لكتاب الصِّلَة**، تحقيق: عبد السلام الهراس، بَيْرُوت: دار الفكر للطباعة، ١٩٩٥م،ج٢، ص ٧٥.

(٣٦)عيون الأنباء في طَبَقات الأَطْبَاء، ص٥٢٢.

(٣٧)عيون الأنباء في طَبَقات الأَطْبَاء، ص٥٢٩.

(٣٨)تاريخ الفكر الأندلسي، ص٤٦٩.

(٣٩)حتي، فيليب: **صانعوا التاريخ العربي**، ترجمة: أنيس فريحة، بَيْرُوت: دار الثقافة، ١٩٨٠، ص ٣١٤.

(٤٠) ابن رُشْد، أبو الوليد محمد بن أحمد: **الكُلِّيَّات في الطِّب**، تحقيق: محمد عابد الجابري، بَيْرُوت: مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٩٩م، ص ٣٥٩.

(٤١) للمزيد انظر: ولفنسون، إسرائيل: **موسى بن ميمون** (حياته ومصنفاته)، الْقَاهِرَة: مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٣٦م، ص ١٤٣.

(٤٢)عيون الأنباء في طَبَقات الأَطْبَاء، ص ٦٠١.

(٤٣)الحَضَارَة العَرَبِيَّة، ص ٢٠٩.

(٤٤)مصباح علاء الدين، ص ١٥٣.

(٤٥) سنون: والسنونات، ما يستن به من دواء، لتقوية اللثة وتطهير الأسْنَان وتنظيفها ومعالجتها وسلامتها .والاستنان هو استعمال السواك بعود الأراك وغيره من آلات أو عروق نبات كفرشاة الأسْنَان لتنظيفها وحفظ صحتها، وتم اعتبار السنونات جالية للأسْنَان، ابن البيطار، شهاب الدين أبو عبد الله: **الجامع لمفردات الأدوية والأغذية**، بَيْرُوت: دار الكتب العلمية،،٢٠٠١م، ج٤، ص ٤٤٩؛ ابن زُهْر عَبْد الْمَلِك، **كتاب الأغذية**، تحقيق: محمد العربي الخطابي، في كتابه الأغذية والأدوية عند مؤلفي الغرب الإسلامي، بَيْرُوت: دار الغرب الإسلامي، ١٩٩٠م، ص ١٥٨.

(٤٦)**كتاب الأغذية**، ص ١٥٨؛ ابن رُزَين، أبو الحسن علي **بن** محمد **بن** أبي القاسم: **فضالة الخوان في طيبات الطعام والألوان**، تحقيق: محمد بن شقرون، بَيْرُوت: دار الغرب الإسلامي، ١٩٨٤م، ص٢٧٧-٢٧٩.

(٤٧) الزَّهْراوي، أبو القاسم خلف بن عبَّاس: **التَّصْرِيف لمن عجز عن التَّأْليف، المقالة الثلاثون، في عمل اليد من الكي والشق والبط**، تَحْقِيق: مُحَمَّد ياسر زكور، دِمَشْق: الهيئة العامة السورية للكتاب، ٢٠٠٩م، ص ٢٧٨.

(٤٨) ابن زُهْر، عَبْدُ الْمَلِك بن أبي العَلاءُ **بن زُهْر: التَّيْسِير فِي المُدَاوَاة وَالتَّدْبِير** ، تَحْقِيق: أحمد فريد المزيدي، بَيْرُوت: دار الكتب العلمية، ٢٠٠٧م، ص ٣٦، ٣٧.

(٤٩) التَّيْسِير فِي المُدَاوَاة وَالتَّدْبِير، ص ٣٧.

(٥٠) كتاب الأغذية، ص١٥٨؛ الجامع لمفردات الأدوية والأغذية، ج١، ص١٩١.

(٥١) التَّيْسِير فِي المُدَاوَاة وَالتَّدْبِير ، ص ٣٧.

(٥٢) كتاب الأغذية، ص١٥٨.

(٥٣) عُرَيْب بن سَعْد: **خلق الجنين وتدبير الحبالي والمولدين والأطفال**، تحقيق: نور الدين عبد القادر، هنري جاهيه، الجزائر: منشورات كلية الطب والصيدلة، مكتبة فراريس، ١٩٥٦م.

(٥٤) بيرس، هنري: **الشعر الأندلسي في عصر الطوائف**، ترجمة: الطاهر مكي، الْقَاهِرَة: دار المعارف، ١٩٨٨م، ص ٢٧٧.

(٥٥) المَقَّرِيِّ، شهاب الدين أَحْمَدُ بن مُحَمَّد، **نَفْح الطِّيب من غصن الأَنْدَلُس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الْخَطِيب**، تَحْقِيق: إحسان عباس، بَيْرُوت: دار صادر، ١٩٦٨م، ج٤، ص٥٢.

(٥٦) **نَفْح الطِّيب من غصن الأَنْدَلُس الرطيب**، ج٣، ص٤١٧.

(٥٧) فضاله الخوان في طيبات الطعام والألوان، ص ٢٧٧-٢٧٩.

(٥٨) التَّيْسِير فِي المُدَاوَاة وَالتَّدْبِير، ص ٣٧.

(٥٩) التَّصْرِيف لمن عجز عن التَّأْليف، ص ٢٧٩.

(٦٠) التَّيْسِير فِي المُدَاوَاة وَالتَّدْبِير، ص ٣٧؛ التَّصْرِيف لمن عجز عن التَّأْليف، ص ١١٢.

(٦١)التَّصْرِيف لمن عجز عن التَّأْليف، ص ٢٧٨، ٢٩٧

(٦٢) التَّيْسِير فِي المُدَاوَاة وَالتَّدْبِير، ص ٣٨؛ التَّصْرِيف لمن عجز عن التَّأْليف، ص ٢٧٩.

(٦٣) التَّصْرِيف لمن عجز عن التَّأْليف، ص ٢٧٥.

(٦٤) التَّصْرِيف لمن عجز عن التَّأْليف، ص ١١١.

(٦٥) التَّصْرِيف لمن عجز عن التَّأْليف، ج١ ص ٧٩.

(٦٦) التَّيْسِير فِي المُدَاوَاة وَالتَّدْبِير، ص ٣٧.

(٦٧) القلاع: مرض يصيب اللثة والفم عند الصغار ونادرًا ما يصيب الكبار ويكون على شكل نقاط بيضاء تظهر على اللثة والفم والحلق. الكُلِّيَّات في الطِّب، ص ٣٥٠.

(٦٨) الكُلِّيَّات في الطِّب، ص ٣٥٠.

(٦٩) **التَّصْرِيف لمن عجز عن التَّأْليف**، ص ٢٧٨.

(٧٠) حُسَين: مُحَمَّد كامل: **الموجز في تاريخ الطِّب والصيدلة عند العرب**، تُونِس: المنظمة العربية للتربية و الثقافة والعلوم، ١٩٦٠م، ص ٢٠١.

(٧١) يقصد بالدواء المفرد ما يؤخذ من مصدره النباتي او الحيواني او المعدني دون خلطه مع دواء آخر فهو "ثابت محفوظ، على ما هو في طبعه عليه، لم نخلطه نحن ولا ركبناه". ابن وافد، عبد الرحمن بن محمد بن عبد الكبير، **الأدوية المفردة**، ضبطة ووضع هوامشه احمد حسن بسبج، بَيْرُوت: دار الكتب العلمية، ٢٠٠٠م، ص ١٠.

(٧٢) هيكل، محمد السيد: **النباتات الطِّبِّية والعطرية (كيمياؤها – نتاجها –فوائدها)**، الإسكندرية: منشأة المعارف، د.ت، ص ١٥.

(٧٣) الكُلِّيَّات في الطِّب، ص ٣٥٠.

(٧٤) الكُلِّيَّات في الطِّب، ص ٤١٣.

(٧٥) الكُلِّيَّات في الطِّب، ص ٤٢٤.

(٧٦) الكُلِّيَّات في الطِّب، ص ٤٤٨.

(٧٧) عاقر قرحا: نبات له ساق وورق وإكليل شبيه بإكليل الشبت وزهر شبيه بالشعر وعرق في غلظ الإبهام: **الجامع لمفردات الأدوية والأغذية**، ج ٣، ص ١٥٧.

(٧٨) الكُلِّيَّات في الطِّب، ص ٤٣٣.

(٧٩) الكُلِّيَّات في الطِّب، ص ٤٤٧.

(٨٠) التَّيْسِير فِي المُدَاوَاة وَالتَّدْبِير، ص ٣٧.

(٨١) التَّيْسِير فِي المُدَاوَاة وَالتَّدْبِير، ص ٣٨.

(٨٢) التَّيْسِير فِي المُدَاوَاة وَالتَّدْبِير، ص ٣٧.

(٨٣) التَّيْسِير فِي المُدَاوَاة وَالتَّدْبِير، ص ٣٧.

(٨٤) المصطكي، العلك الرومي، الأدوية المفردة، ص١٥٤

(٨٥) كتاب الأغذية، ص١٦٠.

(٨٦) الجامع لمفردات الأدوية والأغذية، ج ٢، ص ٣٨٠.

(٨٧) الأدوية المفردة، ص ٣٧.

(٨٨) ابن حبيب القُرْطُبي، عَبْد الْمَلِك السلمي، مختصر في الطب، تحقيق: محمد أمين الضناوي، بَيْرُوت: دار الكتب العلمية، ١٩٩٨م، ص ٨١.

(٨٩) الجامع لمفردات الأدوية والأغذية، ج٢، ص ٤٨٤.

(٩٠) الجامع لمفردات الأدوية والأغذية، ج١، ص ١٦.

(٩١) الجامع لمفردات الأدوية والأغذية، ج١، ص ١٦.

(٩٢) الجامع لمفردات الأدوية والأغذية، ج١، ص ٥١.

(٩٣) الجامع لمفردات الأدوية والأغذية، ج١، ص ٧١.

(٩٤) الجامع لمفردات الأدوية والأغذية، ج١، ص ٩٩.

(٩٥) الجامع لمفردات الأدوية والأغذية، ج١، ص ٩٩.

(٩٦) التَّيْسِير فِي الْمُدَاوَاة وَالتَّدْبِير، ص ٣٨.

(٩٧) الجامع لمفردات الأدوية والأغذية، ج١، ص ٢٢٣.

(٩٨) الجامع لمفردات الأدوية والأغذية، ج٢، ص ٢٥٩.

(٩٩) الكُلِّيَّات في الطِّب، ص ٤١١.

(١٠٠) الكُلِّيَّات في الطِّب، ص ٤١٠.

(١٠١) التَّيْسِير فِي الْمُدَاوَاة وَالتَّدْبِير، ص ١٢٩.

(١٠٢) الأدوية المفردة، ص ١٤٥.

(١٠٣) الكُلِّيَّات في الطِّب، ص ٤١٠.

(١٠٤) ابن ميمون القُرْطُبي، أبو عبد الله موسى بن عمران، شرح أسماء العقار، نشره وصححه وراجعه على النسخة الوحيدة المحفوظة باستنبول: ماكس مايرهوف، الْقَاهِرَة ، ١٩٤٠م، ص١٠؛ ابن حبيب القُرْطُبي، مختصر في الطب، ص ٨٤.

(١٠٥) الكُلِّيَّات في الطِّب، ص ٤٠٣

(١٠٦) مختصر في الطب، ص ٩٢.

(١٠٧) مختصر في الطب، ص ٨٠.

(١٠٨)الغافقي، أحمد بن محمد، **منتخب من كتاب جامع المفردات، انتخبه**: ابو الفرج غريغورس المعروف بابن العبري ، نشر: ماكس مايرهوف وجورج صبحي بك، المطبعة الاميرية، بولاق ١٩٣٧م ، ق٢، حرف باء، ص٩٤.

(١٠٩) ابن زُهْر: **كتاب المُجرَّبات**، دراسة وتحقيق وترجمة كرستينا إلَبريث مِيّان، المجلس الأعلى للأبحاث العلمية، الوكالة الأسبانية للتعاون الدولي، سلسلة المصادر الأندلسية، رقم ١٧، مدريد.١٩٩٤م، ص ٢١.

(١١٠) يستن: أي يستعمل الأدوية الخاصة والمساحيق المنظفة للأسْنَان، تفرك لثته وأسْنَانه بها، وهذه الأدوية أطلقوا عليها (السنون).

(١١١) كتاب المُجرَّبات، ص ٢٣.

(١١٢) كتاب المُجرَّبات، ص ٢٢.

(١١٣) كتاب المُجرَّبات، ص ٢٣.

(١١٤) كتاب المُجرَّبات، ص ٢٤.

(١١٥) كتاب المُجرَّبات، ص ٢٥.

(١١٦) كتاب المُجرَّبات، ص ٢٥.

(١١٧) كتاب المُجرَّبات، ص ٢٤.

(١١٨) التَّصْرِيف لمن عجز عن التَّأْليف، ص ٢٧٥.

(١١٩) التَّصْرِيف لمن عجز عن التَّأْليف، ص ٢٨٨.

(١٢٠) التَّصْرِيف لمن عجز عن التَّأْليف، ص ٢٨٩.

(١٢١) التَّصْرِيف لمن عجز عن التَّأْليف، ص ٢٩٠.

(١٢٢) انظر: ملاحق الدراسة.

(١٢٣) الكَلاَلِيب: آلات تخلع بها الأضراس والأسْنَان المتحركة وهي من الحديد أو الفولاذ. وهي أكثر آلات القلع استعمالاً، ومنها ما يشبه مناقير الطيور تخلع الأضراس من أصولها. ومن الكَلاَلِيب ما يستخدم لاستخراج ما ينشب في الحلق من أجسام غريبة، وهي ذات أطراف معقوفة خشنة كالمبرد إذا لامست الجسم قلما تتركه. السرجاني، راغب: **إسهامات المسلمين في علم الجراحة** ، على الرابط التالي:

https://www.islamstory.com/ar/artical/23765/

(١٢٤) آلة تدخل في السنخ إذا بقي شيء من جذور ضرس مكسورة فتقلعه وهي قصيرة الطرف وكانت بقايا جذور الأضراس المكسورة تخلع بأداة يدخلونها في السنخ فتخلعها. وهي ذات أشكال وأحجام مختلفة تحددها الوظيفة التي تقوم بها. **إسهامات المسلمين في علم الجراحة**.

(١٢٥) آلة على شكل ملقط مستقيم، ذات رأس رفيع طويل، ويستخدمها الزَّهْراوي في استخراج البقايا والشظايا العظمية المتبقية داخل السنخ العظمي، وإخراج الجذور الصغيرة وقلعها، ويجب استعمال الدقة والرشاقة في إخراجها مع القوة. **إسهامات المسلمين في علم الجراحة**

(١٢٦) **الصنانير**، وهي أنواع، منها البسيط ذو المخطاف الواحد، والمركب ذو المخطافين أو الثلاثة مخاطيف، وأخرى ذات ثلاث شوكات ومقبض واحد لشد الجلد. وصنانير خاصة بخلع بقايا السن المكسورة، طرفها مثلث الشكل فيها بعض الغلظ. **إسهامات المسلمين في علم الجراحة**

(١٢٧) المباضع أنواع تختلف أشكالها باختلاف الوظائف التي تؤديها؛ فمنها **مبضع شق الجلد** وهو حاد الطرفين، ويستخدم في حالة فتح مكان في الجلد فوق الشرايين حتى يتمكن الجراح من ربطها. و**المبضع المعطوف**؛ ويكون أحد طرفيه حادًا ويستخدم لاستئصال اللوزتين. **إسهامات المسلمين في علم الجراحة**

(١٢٨) انظر ملاحق الدراسة.

(١٢٩) التَّصْرِيف لمن عجز عن التَّأْليف، ص ٢٩٢.

(١٣٠) التَّصْرِيف لمن عجز عن التَّأْليف، ص ٢٩٢.

(١٣١) التَّصْرِيف لمن عجز عن التَّأْليف، ص ٢٨٣.

(١٣٢) التَّصْرِيف لمن عجز عن التَّأْليف، ص ٢٨٦.

(١٣٣) التَّصْرِيف لمن عجز عن التَّأْليف، ص ٢٧٨.

(١٣٤) الموجز في تاريخ الطِّب والصَّيْدَلَة عند العرب، ص١٤٢.

(١٣٥) التَّصْرِيف لمن عجز عن التَّأْليف، ص ٢٧٨، ٢٧٩.

(١٣٦) التَّصْرِيف لمن عجز عن التَّأْليف، ص ٢٩١، ٢٩٣.

(١٣٧) التَّصْرِيف لمن عجز عن التَّأْليف، ص ٢٩٣.

(١٣٨) حنون، عبد الفتاح عبد الرزاق: **المعالجة بالتسخين والكي الحراري للأسْنَان في التراث الطبي العربي الإسلامي**، على الرابط التالي:

www.almostshar.com/web/images/Mat/175.DOC.

(١٣٩) التَّصْرِيف لمن عجز عن التَّأْليف، ص ٦٩.

(١٤٠) التَّصْرِيف لمن عجز عن التَّأْليف، ص ١١٢.

(١٤١) التَّصْرِيف لمن عجز عن التَّأْليف، ص ١١٣.

(١٤٢) التَّصْرِيف لمن عجز عن التَّأْليف، ص ١١٤.

(١٤٣) التَّصْرِيف لمن عجز عن التَّأْليف، ص ١١٤.

(١٤٤) التَّصْرِيف لمن عجز عن التَّأْليف، ص ١١٥.

(١٤٥) التَصْرِيف لمن عجز عن التَأْلِيف، ص ١١١.

(١٤٦) التَصْرِيف لمن عجز عن التَأْلِيف، ص ١١١.

(١٤٧) التَصْرِيف لمن عجز عن التَأْلِيف، ص ١١٢.

(١٤٨) عن أشكال وأدوات الجِراحَة للزهراوي أنظر: ملاحق الدراسة.

(١٤٩) حضارة العرب، ص ٤٨٨، ٤٩٤.

(١٥٠) سرو، محمد: **النظر والتجريب في الطب الأندلسي بين ابن رُشْد وابن زُهر**، تُونس: المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة، ٢٠١٥م، ص ٦.

(١٥١) للمزيد انظر: بيرنيت، تشارلس: **حركة الترجمة من العَرَبِيَّة في القرون الوسطى في إسبانيا**، ضمن كتاب: الحضارة العَرَبِيَّة الإِسْلامية في الأَنْدَلُس، بَيْرُوت، مركز الدراسات الوحدة العَرَبِيَّة، إشراف سلمى الجيوسي، ١٩٩٨م، ج٢، ص١٤٣٩- ١٤٧٥؛

عباسة، محمد: **ترجمة المعارف العربية وأثرها في الحضارة الغربية**، **مَجَلَّة الآداب**، بَيْرُوت: عدد ٥/٦، ١٩٩٩م، ص ٥٣.

(١٥٢) مصطفى، شاكر: **الأَنْدَلُس في التاريخ**، دمشق: منشورات وزارة الثَّقافة، ١٩٩٠م، ص ١٦٢- ١٦٣.

(١٥٣) طَبَقات الأُمَم، ص ٨٤-١٠٨.

(١٥٤) شاك، فون: **الفن العربي في إسْبَانيَا وصِقلِّيَّة**، ترجمة: الطاهر أحمد مكي، الْقَاهِرَة: دار المعارف، ١٩٨٥م، ص ٢٢١.

(١٥٥) الحضارة العربية، ص ١٩٨.

(١٥٦) نقلاً عن: **تاريخ الفكر الأندلسي**، ص ٥٣٣.

(١٥٧) شتيجر، أرلوند: التأثيرات والمصادر العَرَبِيَّة في مؤلفات الفونسو العاشر الحكيم، **مَجَلَّة معهد الدراسات الإِسْلامية**، المعهد المصري للدراسات الإسلامية، مدريد، ١٩٥٥م، مج٣، ص ١٩٧.

(١٥٨)الطيبي، أمين توفيق: **دراسات وبحوث في تاريخ المغرب والأندلس**، بَيْرُوت: الدار العربية للكتاب،، ١٩٩٧م، ج٢ ص ص ٣٣٢ – ٣٣٣.

(١٥٩) الهوني، فرج محمد: **تأريخ الطِّب في الحضارة العربية الاسلامية**، طرابلس: الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والاعلان، ١٩٨٦م، ص ١٨٠.

(١٦٠) الشطي، أَحْمَد شوكت: **العَرَب والطِّب**، دِمَشْق: منشورات وزارة الثقافة، ١٩٧٠م، ص ١٠٠.

(١٦١) هونكة، سيجريد: **شمس الله تشرق على الغرب**، ترجمة: فؤاد حسنين علي، الْقَاهِرَة: دار العالم العربي، ٢٠٠٧م، ص ٢٠٥.

(١٦٢) ترجمة: سعيد عبدة، الْقَاهِرَة: دار المعارف، ١٩٥٩م، ص١٣.

(163)*Campbell, Donald: **Arabian Medicine and Its Influence on the Middle Ages**: Routledge, Volume I ,2001, p. 20.*

(١٦٤)بلسنر، مارتن: **العُلُوم الطِّبِّيَّة والطِّب**، دراسة ضمن سلسلة تراث الاسلام، تصنيف، شاخت وبوزورث، الكويت: سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ١٩٩٨م، ج٢، ص ١٤٠.

(١٦٥)**كتاب المُجرَّبات**، دراسة وتحقيق وترجمة كرستينا إلَبريث مِيّان، المجلس الأعلى للأبحاث العلمية، الوكالة الأسبانية للتعاون الدولي، سلسلة المصادر الأندلسية، رقم ١٧، مدريد.١٩٩٤م.

(١٦٦) **نظرات في تاريخ الغرب الإسلامي**، ص ١٩٨.

(١٦٧) التَّيْسِير فِي المُدَاوَاة وَالتَّدْبِير، ص ١٦.

(١٦٨) التَّيْسِير فِي المُدَاوَاة وَالتَّدْبِير، ص ٩.

(١٦٩) فيرنيه، خوان: **العلوم الفيزياوية والطبيعية والتقنية في الأَنْدَلُس**، ضمن كتاب الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس، بَيْرُوت: مركز دراسات الوحدة العربية،، ١٩٩٨، ج٢، ص ١٣٠٥.

(١٧٠) للمزيد انظر: السباعي، فاضل: الطبيب الأندلسي عبدالملك بن زُهر من خلال كتابه التيسير، **مَجَلَّة الدارة**، الرياض: مج ١١، ع ٢، ١٩٨٥م، ص ١٠٣.

(171) Jacquart, Danielle, Micheau Françoise: **La médecine arabe et l'Occident médiéval**, Maisonneuve et Larose Paris ,1990, p. 206.

(172) Brabant, Rosa Kuhne: **Abù Marwàn b zuhr un professionnel de la medecine en plein** XIle siecle." in Le patrimoine andalous dans la culture arabe et espagnole,Tunis: CERES, 1991,p.130.

(١٧٣) باشا، أحمد فؤاد: أحمد: **التراث العلمي للحضارة الإسلامية ومكانته في تاريخ العلم والحضارة**، الْقَاهِرَة: دار المعارف، ١٩٨٣)، ص١٦٩.

(174) Colin, Gabriel: Avenzoar, sa vie et ses oeuvres, Paris, Ernest Leroux,1911.P:16

(١٧٥) شوذري، نور حسين: **فضائل الطب الإسلامي كيفية اكتسابها وإعادة تنظيمها**، المؤتمر العالمي الإسلامي الأول عن الطب الإسلامي، الكويت: وزارة الصحة العامة، والمجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 1981م، ص١٣١.

(١٧٦) **تاريخ الفكر الأندلسي**، ص ٤٦٥، ٤٦٦.

(١٧٧) سالم، السيد عبد العزيز: **تاريخ الْمُسْلِمِين وآثارهم في الأَنْدَلُس**، الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية، ١٩٨٣م، ص ٣١٢.

(178) Ledesma, Aurora Cano, **Le legs médical andalou: Abu al-kassim al-zahrawi**, Cahier du CERESsérie histoire n°4, Tunis, 1991, p: 9.

(١٧٩) البشري، سعد عبد الله: أثر الدراسات الطِّبِّيَّة في الأندلس على أُورُوبَّا، **مَجَلَّة العصور**، مج ٥، ج١، ١٩٩٠م، ص ١٦٤.

(١٨٠) أولمان، مانفريد: **الطب الإسلامي**، ترجمة: سامر عبد المحسن الأيوبي، الرياض :مكتبة العبيكان، 2010م، ص ٨١.

(١٨١) عبد الرؤوف، محمد عوني: **تاريخ الترجمة العربية بين الشرق العربي والغرب الأوروبي**، الْقَاهِرَة: مكتبة الآداب، ٢٠١٢م، ص ١٥٥.

(١٨٢) **صانعوا التاريخ العربي**، ص ٣٠٥.

(١٨٣) حَضَارَة العَرَب، ص ٤٩٠.

(١٨٤) الحضارة العربية، ص ٢٠٨.

(١٨٥) قاسم، محمود الحاج: انتقال الطب العربي إلى الغرب، **مَجَلَّة المورد**، العدد رقم:٢، ١٩٨٣م، ص ٧.

(١٨٦) الدفاع، علي عبد الله: **لمحات من تاريخ الطب عند المسلمين الأوائل**، الرياض: دار الرفاعي للنشر والطباعة والتوزيع، ١٩٨٣م، ص٧.

(187) Noble ,Henry, **Tooth transplantation: a controversial story, History of Dentistry**

Research Group, Scottish Society for the History of Medicine, 2002,p.9.

(188) Porter, Roy: **The Greatest Benefit to Mankind: A Medical History of Humanity** ,The Norton History of Science, W. W. Norton & Company, 1999, p. 92.

(189) Bhisti, JIanruo Mjacde: in, **eporue ni Pecitcar Miacide rof sisab the dial sralohcs and naicisyhp** Aarb: Menicide Cdegnac mals How, Ameez, Mdeejam Vol. 6841, p. 5002, Dec, 357, No. 133.

(١٩٠) المعلوف، عيسى اسكندر: آراء وأفكار زيارة مخطوط قديم، **مَجَلَّة المجمع العلمي العربي**، دمشق: المجلد السابع، الجزء الأول، ١٩٧٧، ص٥٧٣.

(١٩١) **تاريخ الفكر الأندلسي**، ص ٤٦٦.

(١٩٢) أزكريدو، خوسه: **فضل الجراح الأندلسي المسلم أبي القاسم الزَّهْراوي على جراحة الأعصاب**، المؤتمر العالمي الأول للطب الاسلامي، الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 1981م، ج٢، ص ٣٨٨.

(193) Saidut Acimaisi: in **Aisuladn in Scneics Sraluces the of Ghtwor Eylra the. F. G. Hinaruoh**. P. 451. P. (0791) No. 23.

(١٩٤) التَّصْرِيف لمن عجز عن التَّأْلِيف، ص ٢٧٥.

(١٩٥) الطب والأَطْبَاء في الأندلس، ج١، ص ٣٢٤.

(196)Spink M S and Lewis G L; **Albucasis; On Surgery and Instruments**; English translation and commentary, 1973,p.34. Turner, "Science in Medieval Islam: An Illustrated Introduction" University of Texas.p. 146

(١٩٧) أرنولد، توماس: **تراث الإسلام**، عربه وعلق عليه: جرجيس فتح الله، بَيْرُوت: دار الطليعة، ١٩٧٢ م، ص ٤٧٣.

(١٩٨)شانسيت، فرانشيسكو فرانكو: تطور الطب في الأَنْدَلُس، ترجمة: الشاذلي النفطي، **المَجَلَّة العربية للثقافة**، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، جامعة الدول العربية – عدد خاص عن التاريخ العربي في الأندلس، السنة الرابعة عشرة، العدد السابع والعشرون، ربيع الأول ١٤١٥هـ – ١٩٩٤م)، ص ١٩٥.

(١٩٩) نقلاً عن: **الطب والأَطْبَاء في الأندلس**، ج١ ص ١١٩.

(٢٠٠)شمس الله تشرق على الغرب، ص ٢٠١، ٢٠٢.

(٢٠١) واط، مونتجمري: **تأثير الإسلام في أوروبا العصور الوسطى**، ترجمة: سارة أبراهيم الذيب، بَيْرُوت: جسور للترجمة والنشر، ٢٠١٦م، ص ١٢٢.

(٢٠٢) تاريخ الفكر الأندلسي، ص ٤٦٥.

(٢٠٣) طبيب يوناني، يعتبر رئيس أَطْبَاء الإغريق،،وهو صاحب القسم الطبي الشهير "قسم أبقراط" وقد أشاد الأَطْبَاء العرب بأبقراط واعتبرو فريد زمانه، ورافع مستوى هذ المهنة حتى أضحت من الشرف والرفعة بحيث لا ينضم تحت لوائها إلا من سلك مسلكه من الاستقامة، والمهارة والعفة. وقد علم المهنة ومارسها في جزيرة كوس قوصCos. حمارنة، سامي: **تاريخ تراث العلوم الطِّبِّية عند العرب والمسلمين**، عمان، إربد: جامعة اليرموك، ١٩٨٦م، ص ٧٠.

(٢٠٤) تاريخ الفكر الأندلسي، ص ٤٦٦.

(٢٠٥) قصة الطب، ص١٨.

(٢٠٦) حَضَارَة العَرَب، ص ٤٩٤.

(٢٠٧) الطب والأطباء في الأَنْدَلُس، ج١، ص ١١٨-١١٩.

(٢٠٨) الحضارة العربية، ص ٢٠٠.

(٢٠٩) العلوم الفيزياوية والطبيعية والتقنية في الأَنْدَلُس، ص ١٣٠٩.

(٢١٠) عيون الأنباء في طَبَقات الأَطْبَاء، ص ٤٩٦.

(٢١١) العُلُوم الطِّبية والطِّب، ص ١٧٧.

ISSN: 2090 – 0449 Online
UIF Universal Impact Factor, [0.1101].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [0.88].

Researches

How successful were the Allies in mobilizing technology for war, 1939-45?

Dr. khalil M. Othman
Dep. of history - College of Arts
University of Duhok
Kurdistan region -Iraq

M.A. Diman I. Ameen
Faculty of Science and Education-Akre
University of Duhok
Kurdistan region -Iraq

ABSTRACT

The Second World War was the most important and life changing event in the 20th century. The world was fought in the pacific, the Middle East, Europe, Asia, Africa, Australia and North America. There were battles between Allied powers which included Britain, France, Russia and USA. Also, Axis powers that consist of Germany, Italy and Japan. Therefore, mobilising technology had importantly changed during the Second World War. This war became necessary to merge the government policy and technology to achieve full mobilisation and improve the modern world weapons. On the other hand, there was a development of radio communications, industry, medicine, electronic and military power that had a big influence on the 20th century technology. Additionally, there were numbers of new military technology progress in the Second World War by the Allies for instance, progressing the first Atomic bomb. Furthermore, this essay will discuss the technological progress during this war as well as the invention of many discoveries that were approach the Second World War positively and negatively.

Keywords:

Second World War, Radio communications, Military power

Research info:

Received: 19 Augustus 2015
Accepted: 15 January 2016
DOI: 10.12816/0047329

Citation:

Dr. khalil M. Othman, M.A. Diman I. Ameen, “How successful were the Allies in mobilizing technology for war, 1939-45?”. - Historical kan Periodical. - Vol. (10) Issue (38); December 2017. Pp. 173 –179.

Introduction

The Second World War was the most significant and life changing event in the 20th century. The war was fought in the Pacific, the Middle East, whole Europe, Asia, Africa, Australia and North America. There were battles between Allied powers which included Britain, France, Russia and the US and Axis powers that consist of Germany, Italy and Japan. (Oxford University Press, n.d.).Therefore, mobilising technology was importantly changed during the Second World War. In this regard, Guy Hartcup states that in the Second World War, there were six important developments or strategies that grew from the war by Axis and Allied science; for example, ‘’atomic energy, radar, rocket, propulsion, jet propulsion, automation and operational research’’ (Hughes and Philpott, 2006, p244).

The Second World War became necessary to merge the government policy and technology to achieve full mobilization and develop new and modern war weapons. The ‘Command Technologies’ created, were incredible to warring states. Government orders in industries were able to satisfy the strategic and tactical needs of armed forces. Thus, rising complexity of weapons production was the main invention of the Second World War (McNeill, 1983: p356). Therefore, during the Second World War technologists, design engineers, scientists and experts were ordered to develop new inventions and mass production than ever before (McNeill, 1983: p357). Unlike the usual business of fulfilling

market demand, the industries were not always able to fulfil the demand so the state approached private companies to fulfil their ambitious defence research, which involved huge sums of money (Hughes and Philpott, 2006: P243).

On the other hand, there was development of radio communication, medicine, industry, and electronics and military that had a big influence on the technology 20th century. In addition, there are a number of new military technology developments in the Second World War by the Allies; for example, progressing the first atomic bomb, Manhattan project was began by the USA in 1942. Therefore other inventions such as radar and sonar were successful by the Allies for discovering the location and submarines. Despite this, invention Buna S and Buna N was important for example, Buna S was a type of synthetic rubber and Buna N was for oil-resistance uses (Wolf, 1948).

Furthermore, this essay will argue technological development during the Second World War. In addition, many discoveries, inventions and production approaches were created during the World War II by the Allies for shaping human society such as, jet engines, breaking the Enigma code, computer and penicillin. In this regard this essay will argue that the technology was successful by looking at emergence of atomic bomb, radio communication, invention of penicillin, radar and sonar, Enigma code breaker and proximity fuse which were incredible inventions by the Allies during the Second World War (1939-1945).

How successful were the Allies in mobilizing technology for war, 1939-45?

According to Hughes and Philpott (2006: p246), the Allies' development of atom bombs called the Manhattan Project brought together engineers and scientist into one huge effort and this was the first time when in pursuit of weapons the groups of engineers and scientists had come together. It utilized the work of European, often Jewish émigré and scientists like Max Born, Albert Einstein, John von Neumann, James Frank, Leo Szilard, Edward Teller, Niels Bohr and Enrico Fermi. In 1942 after presidents order to build the bomb the work started in full flow and scientist became the captives of the enterprise. Therefore, the emergence of atomic bomb addressed the new technology in the world. In 1942 the program of developing atomic bomb was placed under the command of the American army which was known the Manhattan project. Therefore, about 129,000 people were working on the Manhattan plan which were including workers, scientists, construction (structure) and military personnel employees by 1944 (Oxford University Press, n.d.). Despite this, according to McNeil (1983, p359) 120000 labours worked at Manhattan project which included many world's prominent physicists (McNeill, 1983: P359). The UK accepted that the industrial and research effort required to create a bomb quickly in June 1942. ''America took over the whole project''.

In addition, the scientists in Britain were co-opted to three ''secret cities''. Firstly, Oak Ridge, Tennessee to build the uranium separation plants. Secondly, Hanford, to produce plutonium. The last one was New Mexico desert at Los Alamos, research laboratory or where the laboratories were established. . Thus, the bomb project named Manhattan or DSM (Development Substitute Materials) was thrown in August 1942. For examining the atomic programme, two American physicists were sent to the UK. As a result of that they described that the bomb was a realistic programme (Overy, 1995: P241). As it is clear, the atomic bomb was an obvious example of addressing new technology and science in the Second World War. Therefore, it was a massive and successful project by the Allies. In addition, creating the Manhattan project by the America showed the growing importance of technology in military system and to exploit for the military purposes.

However, during the Second World War, there were some techniques for encouraging people to think and work in a specific way by radio, posters, newspapers and other methods of mass communication for example, showing the short newsreels before feature films in cinemas (Oxford University Press, n.d.). The documentary movement which was a help to these goals was invented in this era and its aim was partly to encourage people participation in the scientific and technological revolution and development which obviously were in the benefit of governmental purposes. Although, there was a great development in training approaches during the Second World War, for example using energetic films, technical guides and simulators to recreate battle situations in a laboratory location to help in training.

Therefore, the electronic elements and new materials such as plastics which led to made Handie-Talkies and other radios that was acceptable for soldiers to communicate across ocean and across a pacific atoll (National WWII Museum, n.d.).In addition, radio played an essential role in order to connect tank to tank and tank to aircraft. Good communications improved the flexibility of armoured forces and aided to focus of its firepower. They were important in ''some in trucks, some in armoured carriers, engineers, artillery and anti-aircraft batteries'' (Overy, 1995: P210).Also, American support created perhaps the revolution in radio communications by providing 35,000 radio station, 956,000 miles of telephone cable and 38,000 ground telephones. Furthermore, the soviet air power focused on developing ''radio control of its aircraft and radio communication'' between air and ground powers during 1943 (Overy, 1995: P214).

It can be argued that during the Second World War the process of communication was important especially for those countries participated in the war. The strategic use of communication served as a means of intensifying people's participation in the war related issues. Therefore, innovation radio played a significant role for mobility and also radio communication became the special development in the Second World War which was supported by the Allies.

At all times, science has been significant in warfare (Hughes and Philpott, 2006, p, 243). The Second World War changed the science and technology enterprise of the US considerably. The office of scientific research and development was created by the president on 28 June of 1941. President Franklin D. Roosevelt provided an executive order to make the National Defense Research Council (NDRC) on June 12 1940. Therefore, Vannevar Bush presided the NDRC, previously he was as a Dean of engineering at the Massachusetts organization of technology and after that as a leader of the Carnegie organization of Washington. Other members were consisted of ''James B. Conant, President of Harvard, Karl Compton, President of MIT, and Frank Jewett, President of the Bell Laboratories and of the NAS''. Between 1939 and 1940 of the academic year, 150 research was performed by the academic sector at the universities of the United States within engineering and natural sciences (Atkinson and Blanpied, 2008). During the Second World War, Charles Percy who worked with a number of the optimistic scientific minds in the UK, he realized that technological and scientific inventions were essential parts of the war effort (Jensen and Wiest, 2001: P241). Despite this, possibly, one aim that the Allies were successful in was because of having three strong administrators such as British, American and Canadian. Therefore, these countries worked together on their scientific programs (Higham, 1999). For example, in terms of science during the Second World War, health and medicine improved in the Britain. In addition, invention of some new drugs such as penicillin and sulphanilamide, and insecticides such as DDT that suddenly changed all environments and also decreased the risks of diseases caused by infection (McNeill, 1983: P360). The first observation of the anti-bacterial impact was invented by Alexander Fleming in 1928. But it was less done until 1939 when Ernst Chain observed to Fleming's effort for extra information on lysozyme. Therefore, Howard Flores's research at Oxford laboratory was to show the effectiveness of penicillin. It was not more produced until the summer of 1941, when Florey and his partner Norman Heatley travelled to the USA and carried penicillin to focus on a number of American makers (Liebenau, 1987).

Consequently, the invention of penicillin helped soldiers to protect them from bacterial infections during the Second World War (National WWII Museum, n.d.).According to Hughes and Philpott (2006: p250) in the years 1930s and 1940s there were great advances in the blood transfusions that proved beneficial for the wounded men to keep them alive and helped their chances of recovery. The biggest discovery happened in 1920s of the antibiotic drug; penicillin, which was mass-produced by USA from 1943 onwards. It worked wonders against infections and got widely available to allied troops by 1944. Therefore, In 1943 United States turned out over 21 billion units of penicillin, in 1944, 1,633 billion units and in 1945, 7,052 billion units. It was majorly used for the vast forces of allied soldiers with sexually transmitted diseases (STD's). This penicillin did the job of curing syphilis in just 8 days unlike the old treatment with arsenical drugs and bismuth took 40 – 50 days. Also penicillin cleared gonorrhoea in 2 – 3 days. Although, Harrison pointed out the forwardness of British thinking in military

medicine after 1939, he finds out that British learnt its lesson in North Africa, Italy, Burma and reached its apogee in Normandy in 1944. Also, according to Harrison in the age of total war the use of good medical services is very essential for achieving maximum benefit from British forces. Despite this, there housed little tension in the medical services due to the behaviour of US General George Patton in the Second World War (Hughes and Philpott, 2006: P251). It might be argued that the Second World War was a huge development in medical science. In this regard, invention of penicillin was great important to the Allies powers such as US and Britain. Therefore, this drug was effective by the Allies to protect soldiers from bacterial infection and transmitted disease.

After the First World War, Arthur Scherbius invented the Enigma machine. After that it was used by Germany before and during the Second World War. It was for sending secret messages to encrypt and decrypt by the Navy, railway stations, civil service, Army units, the Luftwaffe and everybody else (*Singh, 2003).* Blitzkrieg tactic was a new technique of sending secret messages during the World War II by the German. Hence, Allied powers were unable to break the Enigma code. Then a machine which could discover the code was developed by a team of British code breakers. Therefore, it allowed the Allied power to interrupt German communications in the battlefield (Oxford University Press, n.d.). The Ultra process was helped by the Poles who provided a captured enigma Machine to the British in 1939. By January 1940, the Abwehr's hand codes and by December 1941, the Enigma cipher were broken by the British intelligence. Ultimately, the British broke all of the different Enigma system. American and British intelligence groups were reading 2000 to 4000 decoded German letters every day by the end of the war. (Bacon, 1998).

In addition, during the Second World War, the contribution of the signal intelligence was significant, especially in terms of the Allied breaking of the German Enigma codes which was still being evaluated by the researcher (Jensen and Wiest, 2001: P77). Thus, the Enigma cipher was cracked by the Allied code breakers at Bletchley Park regularly (*Singh, 2003).* On the other hand, by the end of the war, scientists and engineers started the structure of electronic digital computers and code breaking applications. (National WWII Museum, n.d.). The electronic computers used the director systems were of the great use in wartime and after war's electronic computers (Hughes and Philpott, 2006: p245). It can be argued that special technology such as Enigma machine was used to break the code and also it was used to crack successfully by the Allies. Therefore, sending secret messages was typed by the Enigma operator. Thus the Enigma cipher was broken and it was a successful technique. Therefore, the Allies use computers to break the code and to read messages.

As can be seen in this paragraph Radar and Sonar were used during the Second World War that contributed to the Allies success. Therefore, these techniques were for discovering the location and rapidity of enemy aircraft or submarines. Radar played an important role in the British success in the aerial battle during the Second World War which was in August 1940. The success of the UK in the battle was because of having a sets of radar stations which has been built alongside the Eastern and Southern coasts of the United Kingdom in 1939. On the other hand, the use of sonar was conducted against German submarines. Also, using sonar was acceptable to Britain to distinguish the location and submarines. These two technologies radar and sonar waves show the possessions of all waves which consisted of ''wavelength, frequency, velocity, reflection and changes in wavelength''. Using of sound waves to show distant objects is made by sonar and also radio waves which are more near to light than sound is used by radar. (Garcia, n.d.). However, during the Second World War, Radar or radio detection and ranging was used to trail aggressive bombers. For instance, to straight gunfire, to direct bombers to their objectives, for airplane-to-airplane battle and also to track mortar bullet back to their targets. This important technology was used later in other things such as in the improvement of satellite computers, television and digital computers. Radar was known as a new type of electronics which managed high rapidity of electronic pluses (National WWII Museum, n.d.).

For the first time radar navigation and ''Sperry'' bombsights and the coveted ''Norden'' were used during the Second World War. Potentially, these technological inventions reduced the chances for collateral harm and larger judgement between military and civilian objects (Kaszuba, 1997). The British tried to learn a technological secret from the US, it was Norden bomb sight. (Jensen and Wiest, 2001:

P255). Thus, during the Second World War, radar was an important invention. Using reflections of short radio waves was discovered by British engineers and scientists for locating airplanes at enough distances for the interception by combatant pilots during the fighting. Furthermore, during the war, radar developed continually and quickly (McNeill, 1983: p359).

During the Second World War, the relationship between the Government and scientist in the UK was jumble of success and failure in terms of improvement of radar and the jet engine. Therefore, using of radar was successful because of the efforts of a group of scientists determined to apply its technology properly (Jensen and Wiest, 2001: P 258). Also, the United States had much information about passing jet engine to the General Electric (GE) Company by July 1941. In February 1943, the I-14 ran was the first GE manufacturing engine. In July 1943, it was substituted to the I-16. (Jensen and Wiest, 2001: P 256). Therefore, the United Kingdom was successful in the improvement of its radar but with jet propulsion it was less successful (Hughes and Philpott, 2006: p245). The jet engine was a machine with the shine of mechanical progress and an accurate development. In February 1940, the British Air Ministry decided to make a jet engine. Between 1940 and 1941, they paid to construct the first jet engine production factory at Barnoldswick, Lancashire. During the war, they also paid to dedicate jet propulsion. Furthermore, at Barnoldswick the Britain's jet engine factory was conducted by the Rover Car Company. At the end 1943, the series manufacture of jet engines initiated in the United Kingdom. The first jet fighter in Britain was the Gloster Meteor which powered by Rolls-Royce Welland jet engines and in the same time entered service like Me 262 in the end of July 1944. (Giffard, 2013). It is clear that radar and sonar were other advancement inventions of technology during the Second World War while jet engine development seemed less successful. Radar technology was developed by the Allies and both radar and sonar was extremely useful in the war for protecting themselves from attacks. Therefore, these technologies such as radar and bombsights played an important role in the battlefield and these significant creations during the war lead to victory and changing the world.

A joint scientific mission was recognized by the Americans and British in 1940. Moves like that brought about drastic change and growth into gigantic coordinated effort where all leading British, Canadian and American universities, and research departments of all leading armed services were involved. All the Allied nations worked hard and immensely to improve their old weapons and come up with new improved weapons and also to invent countermeasures to reduce the deadliness of enemy weapons (Hughes and philpott, 2006: p244). The consequences were far-ranging and notable war weapon and strategic scientific advancements. These included the invention and progression of new technological aspects such as of Radar, proximity fuses, electronic fire control equipment, anti-submarine weapons such as ''Hedgehog and Squid, incendiaries, rockets, frangible bullets, flail tanks, bailey bridges, Mulberry and harbours, DUKW floating vehicles, landing craft, the colossal computer and asdic'' (Hughes and philpott, 2006: p244-245). Allied forces where very impressed with some of their inventions but were afraid to use them because of the fear of it falling into the hands of the enemies and being cloned by them to use the same weapons against the Allied forces. (Hughes and philpott, 2006: p245). Although, the Allies made a remarkable invention of proximity fuse in 1944, which was even termed as variable time fuse. This was remarkable because in it the scientist built small radar set – power, transmitter, and receiver - inside explosive shell, which allowed it to explode right next to the target rather than on contact (Hughes and Philpott, 2006: P245). Thus, it seems that during the Second World War, science progress had the most important role in order to invent new technologies. Therefore they worked hard in the laboratories and famous universities for inventing and to do new innovations. Thus, most of those inventions were developed by the Allies power for example; in 1944 they created an incredible invention of proximity fuse. In addition, they were very successful in mobilising technology in wartime.

On the other hand, Edward Tschunkur and Walter Bock were the inventors of the styrene copolymer which was known Buna S. Therefore, Buna S was one kind of synthetic rubber and also ''Buna N was for oil- resistance uses which was invented by Tschunkur and E'rich Conrad. Furthermore, the American rubber men were familiar with the Buna N and

Buna S. Therefore, Dinsmore, Sebrell and Semon were the American rubber chemists who were visited the I.G. plants in Germany to see what was prepared in the emulsion polymerization of butadiene copolymers. Thus, in 1940 two of the biggest American rubber companies got permission from standard oil to make Buna S and Buna N (Wolf, 1948). In addition, the government of Soviet supported the development of synthetic rubber in terms of science and technology (Lewis, 1979). Despite this, the Allies powers were not free in of oil difficulties for all their greater supply of oil resources. Therefore, the UK did the combat for keeping the oil supply from the US across the Atlantic between 1942 and 1943 (Overy, 1995: P 233). Furthermore, an organised attack on synthetic oil production began by the Allied bombers powers in May 1944 and 127 oil assaults were mounted by the US air power (Overy, 1995: P232). Thus, the Allies powers which are American, Russian and Britain engineers with the invention of these technologies were beneficial even after World War II that continues to nowadays.

Conclusion

There were incredible advancements in the technology during the Second World War by the Allies for the advantage of war that they even were compelled to involve the money from the private sector as well. In the beginning of the war, the mass communication through film production and radio programmes were encouraged to involve people to the production process and the development of technology. For example the Manhattan project was of great use to the military. Therefore, the emergence of the atomic bombs was a new technology that developed during the Second World War which was known as Manhattan project. It was under the command of American army in 1942 and also it was an important experience because it ended the war directly.

Furthermore, technology and science were important aspects of the World War II; invention of some new drugs such as penicillin was helpful to protect soldiers from infected diseases. On the other hand, there are other technologies during the Second World War which included; proximity fuses and synthetic rubber and oil that were new successful techniques in World War II. What is more, there were other important technologies in the World War II such as the use of the Enigma machine for sending the secret messages to encrypt and decrypt and the Enigma cipher which was used by the Allied code breakers for the purpose of tracking and also for that purpose they use computers to read the letters.

During the Second World War, the operational communication inventions like radio signals played an important role in warfare especially by America and Soviet. In addition, the invention of radar and sonar by the Allies power were new technology progress for discovering the location which was effective for submarine and other goals. Also the jet engine by the United Kingdom was used widely although it was not as popular and successful as the use of radio signal.

Bibliography

- Atkinson, R.C. & Blanpied, W.A. 2008, "Research Universities: Core of the US science and technology system", Technology in Society, vol. 30, no. 1, pp. 30-48.
- Bacon, D. (1998). ''Second World War Deception''. Available at: http://www.au.af.mil/au/awc/awcgate/wright/wf05.pdf (Accessed: 8 February 2014).
- Garcia, L. (n.d.). ''The uses of Radar and Sonar in World War II''. Available at: http://www.ww2sci-tech.org/lessons/lessons3.html (Accessed: 13 February 2014).
- Giffard, H. 2013, "Engines of Desperation: Jet Engines, Production and New Weapons in the Third Reich", JOURNAL OF CONTEMPORARY HISTORY, vol. 48, no. 4, pp. 821-844
- Higham, R. 1999, The Science of War: Canadian Scientists and Allied Military Technology during the Second World War, UNIV CHICAGO PRESS, CHICAGO.
- Hughes, M. & Philpott, W.J. 2006, Palgrave advances in modern military history, Palgrave Macmillan, Basingstoke.
- Jensen, G. & Wiest, A.A. 2001, War in the age of technology: myriad faces of modern armed conflict, New York University Press, New York.
- Kaszuba, K. (1997). ''Military Technology: Has it changed the roles of Warfare? Available at: http://www.au.af.mil/au/awc/awcgate/awc/97-103.pdf (Accessed: 8 February 2014).
- Lewis, R.A. 1979, "Innovation in the USSR: the case of synthetic rubber", Slavic review, vol. 38, no. 1, pp. 48-59.
- Liebenau, J. 1987, "The British success with penicillin", Social Studies of Science, vol. 17, no. 1, pp. 69-86.
- McNeill, W.H. 1983, the pursuit of power: technology, armed force, and society since A.D. 1000, Blackwell, Oxford.

- National WWII Museum, (n.d.). ''How the Science and Technology of World War II Influences Your Life Today''. Available at: http://nnwwiim.org/images/sci-tech-wwii-poster.pdf(Accessed: 7 February 2014).
- Overy, R.J. 1995, Why the Allies won, Pimlico, London.
- Oxford University Press, (n.d.). ''Australians at wars (World War I and II)''. Available at: http://lib.oup.com.au/secondary/history/Insight_History/9/Oxford-Insight-History-9-ch6-Australians-at-war.pdf (Accessed: 7 February 2014).
- Rubber", the Scientific Monthly, vol. 66, no. 3, pp. 221-231.
- *Singh, S. 2003, ''*History of Mathematics, Codes and Cryptography'', Vol. 32, No. 1, pp. 2-6.
- Wolf, R.F. 1948, "Eighty-Eight Years of Synthetic

كيفية نجاح الحلفاء في تعبئة التكنولوجيا خلال الحرب العالمية الثانية ١٩٣٩- ١٩٤٥

د. خليل مصطفى عثمان

قسم التاريخ – كلية العلوم الإنسانية

جامعة دهوك – إقليم كوردستان، العراق

م.م. ديمن إبراهيم أمين

قسم التاريخ – كلية العلوم والتربية

جامعة دهوك – إقليم كوردستان، العراق

ملخص:

حدث تقدم كبير في التكنولوجيا خلال الحرب العالمية الثانية انجزته دول الحلفاء لصالح الحرب التي اضطروا حتى إلى الاستعانة بالأموال من القطاع الخاص. ففي بداية الحرب تم تشجيع وسائل الاتصال الجماهيري من خلال إنتاج الأفلام وبرامج التلفاز لإشراك الناس في عملية الإنتاج وتطوير التكنلوجيا. فعلى سبيل المثال؛ كان "مشروع مانهاتن" ذا فائدة عظيمة للجيش. لذا فإن ظهور القنابل الذرية التي طورت خلال الحرب العالمية الثانية كانت تقنية جديدة والتي كانت تعرف بـ "مشروع مانهاتن" آنذاك. كانت القنبلة الذرية تحت سيطرة الجيش الامريكي في سنة ١٩٤٢ وكانت تجربة مهمة لأنها انهت الحرب فورًا. أضف إلى ذلك؛ كانت التكنلوجيا والعلم جوانب مهمة من الحرب العالمية الثانية، حيث أن اختراع بعض الأدوية الجديدة كالبنسلين كان مفيدًا لوقاية الجنود من الأمراض المعدية. ومن ناحية أخرى؛ كانت هنالك تقنيات أخرى خلال الحرب العالمية الثانية والتي تضمنت فتائل التحكم في توقيت انفجار المفرقعات والمطاط الصناعي والنفط، وهي تقنيات ناجحة وجديدة في الحرب العالمية الثانية. والأكثر من ذلك كانت هنالك تقنيات مهمة أخرى في الحرب العالمية الثانية مثل استخدام "الألة اللغز" لأرسال الرسائل السرية، وذلك بكتابة الرسائل باستخدام الرموز السرية، وحل الرموز السرية، وكذلك استخدام آلة حل الرموز التي كان يستخدمها مَنْ يحلون الرموز السرية من دول الحلفاء لغرض المتابعة وكذلك استخدموا الحاسوب لقراءة الرسائل. لعبت اختراعات الاتصالات العملياتية التي استخدمتها الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي مثل إشارة اللاسلكي دورًا مهمًا في الحرب خلال الحرب العالمية الثانية. إضافة إلى ذلك؛ فإن اختراع الحلفاء للرادار والسونار كان تقدمًا تقنيًا جديدًا لاكتشاف المواقع والذي كان فعالاً للغواصات ولأغراض أخرى. وكذلك كان اختراع المحرك النفاث الذي استخدمته المملكة المتحدة على نطاق واسع رغم أنه لم يكن شائعًا وناجحًا مثل استخدام الإشارة الراديوية.

ISSN: 2090 – 0449 Online
UIF Universal Impact Factor, [0.1101].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [0.88].

Regeneration of Iranian Heritage



Dr. Eman Mohamed Elabed Yaseen
PhD. in Archeology and Islamic arts
Searcher - Department of Scientific Research
Ministry of antiquities – Egypt

ABSTRACT

As the nations and peoples boasted what they offered to the structure of human civilization of cultural heritage, contributed effectively in the formation of a particular civilizations, as: Egyptian, Byzantine, Romanian, and Iranian Civilization; that have historical roots dating back to ancient times, each of which is distinctive from the others by clear artistic and cultural characteristics, this is the motivation that prompted the Iranians to be proud of their cultural heritage, that prevailed in pre – Islamic times, attempting to revive and restore it, Despite the many centuries were passed, This happened after a period of Cultural stagnation that Iran had suffered since late 17th century and throughout the majority of the eighteenth century. This study will shed light on The Restoration of Iranian Heritage in the 19th century, and its aspects.

Keywords:

Iran, Heritage, pre – Islamic ages, Sasanian, Safavids, Qajars

Article info:

Received: 18 September 2015
Accepted: 03 January 2016
DOI: 10.12816/0047332

Citation:

Eman Mohamed Elabed Yaseen, "Regeneration of Iranian Heritage".- Historical kan Periodical.- Vol. (10) Issue (38); December 2017. Pp.180 – 185.

Introduction

Regeneration stage of Iranian Heritage means that "the period which Iranian artistic movement had witnessed a great renaissance beginning from the late of 18th century and throughout the 19th century, that has never achieved since the ends of **Safavid** era, until the fall of their throne completely, in (1145 A.H / 1732 A.D)", As the rulers of the state there were interested in trying to restore the cultural renaissance of **Iran** as it was in ancient times, they were prompted by their deep faith in Iranian heritage and civilization, and was led by Iran's rulers that time **"The Qajars"** (1193 – 1343 A.H / 1779 – 1925 A.D), who were keen to adopt various artistic ideas, especially those which affected much of European artistic thought, in order to keep up with the movement of scientific and artistic progress, which the western world has ever seen, and getting rid of the artistic and cultural stagnation, that Iran had suffered in the ends of **Safavid era**, sinking the rulers in the life of luxury, attention to personal pleasures.(1)

Qajars dynasty keenness to promote Iranian arts, through adopting the artists and supervising a number of different artistic activities; this phenomenon which was concentrated among aristocrats, who have a financial incentive, that flourishes artistic life.(2) So, architectural buildings which were constructed during the 19th century, expressed the decorative richness that characterized architectures there, reflected through all architectural elements that formed these buildings, marked by its decorative beauty, which embodied at the same time how far architects were Over cared these architectures under artistic patronage of royal elite, who were very interested in their architectures as it

was an interface which highlights their personality and status and express their pride, so their architectures embodied how far they were interested in the reconstruction of all over their kingdom to give it Qajar identity.[3]

Agha Mohamed Shah (**1193** – 1212 A.H/ 1779 – 1797A.D) – founder of Qajar dynasty - expressed his great interest in architectural arts, where construction in "**Tehran"**, that he selected in 1786 A.D to be the new capitalfor his nascent state, then ditched it, sat up high walls around the Castel which contained the Throne hall known as **"Golestan Palace"** - or – **"Rose Garden Palace"**.[4]

During the reign of his successor **Fath Ali Shah** (1212 A.H / 1797A.D – 1250 A.H / 1834 A.D), Due solidified The Euro – Iranian relations and communications, what led to the intensification of European influences in different aspects of life. In a time he was very careful restoring the glories of Persians, as his sense of unbridled pride of **Sasanian** glories in the pre – Islamic ages.[5]

Fath Ali Shah showed a great interest in architecture, which became clear through the vast amount of architectural structures constructed there, that characterized by a return to the old architectural traditions, taking to the account the simplicity of design, of the most famous architectural buildings there, was a group of mosques, known as **"masajed el-shah"** or **Shah's Mosques** in **Tehran**, **Yazdgard**, **Simnan**, **Zinjan**, and others, which were designed by, two professors ; Mohamed Baqer & Zain Elabedeen.[6]

He also expanded **"Golestan Palace",** as the construction of all over **Iran**, terrified building **Kerman** city by erecting a new Castel known as, **"Argi Bam"**, located to the south of the city, in **Tabriz** his Crown prince**" Abbass Mirza"** transferred **"Masjed Ali Shah"**, that had been built during the 14th century into a castle, **Fath Ali Shah**constructed also many Summer residences, to fit his Stature and his nature of luxurious life, Such as; **Takhti Qajar**, **Narengestan Palace**, that located out of **Tehran**, **Sulimanya Palace** in **Karakh** village, **Shishma ye Ali Palace** near of **Damghan**, in addition to restoration of **Safavied palaces**, like; **Hasht bi Hasht** in **Esfahan**, **Baghifeen** and other palaces and residences which have been decorated throughout the country by large paintings as well as, the intensive use of decorations that executed on ceramic and mosaic tiles and small pieces of bright glass – mirror known in Farsi as; **Ayna Kari**.[7]

Fath Ali Shah realized that it's possible to consolidate his authority by his generous sponsorship for Architecture and Arts, per contra his grandfather **Agha Mohamed Shah**.[8] So **Fath Ali Shah** steered a vast constructional campaign to reconstruct **Tehran**, accordingly it was necessary to erect many of royal constructions, as; Palaces and gardens, that were built in all over Iran.[9]

Mohamed Shah Qajar (1250 A.H/ 1834 A.D.) – (1264 A.H/ 1896 A.D.) followed his grandfather approach concerning attention to various artistic fields, including Architecture, Sohis reign witnessed many operations of restoration, regeneration and integration for the constructions.[10]

Overall, we can say that **"Iranian Architecture in the 19th century"** is considered as the final feature for traditional architecture, before predominance Modern Architecture.[11] where Iranian architects exerted great efforts attempting to reconcile the traditional architectural elements with Modern materials and styles, that led to diversity as well as, maintaining Originality for many years, So. Religious constructions expressed continuity of Safavid traditions, while residential buildings embodied a blend of European and Iranian architecture. [12]

Decorations of Iranian architectural constructions in the 19th century ensured diversity, harmony and flexibility, but they were influenced by Europe, tried to imitate Sasanian arts, that appeared in its finest examples in the ceilings of Qajar constructions. [13]

In the field of ceramic tiles at the beginning of the 18th century, that suffered from weakness appeared in its industry, due to situation disorder in the country, then its paintings became less beautiful, However its production continued throughout 18th-19th centuries.[14]

Iranian Ceramic tiles that produced in the 19th century are considered as archival material and documentary sources for Evolution of Ceramic products in general, many of them contained its makers names, histories and production centers.[15]

In **Tehran** there was a commonly intensive use of Ceramic Tiles, its decorations were a bit prominent and decorative themes reflects pictorial scenes inspired from ancient Iranian heritage in pre – Islamic periods**– Pl. (4) -**, especially of **Illkhmied style**, this was due to the excavations carried by **Fares** governor in **Perspolise** area during the period between (1870 – 1880), what was very impressive in reviving ancient Iranian heritage, principally of many Iranian artistic styles, which were dominating prior to Islam as; **Illakhmied** and **Sasanian** styles, in this regard **Mr. Judith Lerner** indicates to pictorial scenes executed on Ceramic tiles in the 19th century ensure that **Qajars** were very impressed their Pre – Islamic heritage, **– Pl. (4) –** so, they recopied these works, what appeared in Ceramic tiles used in decorating an area in a top of a wall fireplace in **Narengestan** house, 1885 in **Shiraz.**[16]

Iranian fashion during 19th century characterized by a return to the ancient traditional heritage, especially, that were wearing during the first period of Qajar Era, which we can called it **" Classical period "** embodied in features of **Sasanian** spirit and character, where **Fath Ali Shah's** reign marked by returning to the past to restore - or – revive Iranian renaissance and it's glory of civilization, that appeared in his many portraitures, reflected his keenness to imitate the kings of ancient **Iran**. [17]**- plates (1,2)** –

During 19th century **Iran** witnessed remarkable recovery in Rugs and carpets industry, Where growing demand in European markets, Here Dr. Somya Hassan Ibrahim indicates that the cause of this recovery is due to the attention of Qajar Sultans in arts Generally-and rugs and carpets industry in particular.[18]

The 19th century Represents as a stage of restoration or regeneration in Iranian rugs and carpets industry, This renaissance that resulted by presence a large number of European companies, supervised the manufacture and trade of rugs and carpets.[19] Being popular goods in European markets and the rush of Europeans on the acquisition.[20]

Latter part of the 19thcentury is a controversial, particularly in the field of carpet, Where a return to the old traditions, which became apparent in the trappings of rugs and carpets, Manufactured according to a royal order from **Nasir al-Din Shah** in 1876, to be presented to Victoria and Albert Museum London, Epitomized in the extent of over dominant in the public taste and style prevailing there.[21]

By the end of 19th century Iranian rugs and carpets characterized by their squares that contained decorations of subhuman forms inspired by the Iranian manuscripts fees. In addition to scenes inspired by Persian literature and poetic epics. Appearing in the legendary forms of winged objects and heroic epics that embody Iranian history**– Pl. (4) -**, And hunting scenes and others expressed the daily life, some of them included portraitures for public figures as rulers of **Iran**, princes and others. Which became an important element in Iranian carpets decoration by the end of the same century**– Pl. (5) -,** Where it formed a main decorative subject .[22]

With regard to the art of Iranian painting during **"The restoration – or – regeneration period"** that occurred in the 19th century, drawings, paintings and other pictorial presentations dating back to that period have been implemented throughout multi-artistic mediums; Some of which depicted on walls, Oil-painting on Canvas, many of them used to adorn Qajar palaces, where architects created recesses in the walls, occupied with these Oil-paintings, that most technical subjects revolved around scenes of **Shahnameh**[*], with its heroes and characters.[23]

In the field of **Wall – Painting** during 19th century ;It has appeared in a wonderful image in a mural on the outdoor rocky interfaces**– Plates (1&2) -** represent **Fateh Ali Shah** wearing his military uniform, standing and behind him his follower carrying an umbrella, another scene, depict him met many of the prominent figures there, it is clear through this painting the over predominance of Sasanian influences **– Pl. (2) -,** Where it seems **Fateh Ali Shah** was similar to the kings of ancient Iranian particular **Kesra – or – Khosrow** ;where Painting and artistic life restarted since the reign of **Fateh Ali Shah**, Who was a lover of outlines and always had seemed nicely and luxury and was called the same" **Shahen – Shah**", that means" King of kings", imitating to the kings of ancient Iran, appearing in an aura of greatness and pride, simulating of **Taq Bustan** in **Kerman Shah,** Like scenes of

Khosrow and **Parviz** hunting, he had apparently asked to draw a picture for him on the stone depicting him hunting in" **Sheshma ali"** near of **Tehran – Pl. (1) –**another picture for him on the stone showing him crowned on the throne and his courtiers standing next to him dressed in an official form. [24] **– Pl. (2) -**

Painting on ceramic tiles in that period reflected a major artistic renaissance, where mingled nits drawing sand themes many trends of Iranian and European artistic features, Particularly concerning with designs of roses, flowers and birds, and other embodied the themes borrowed from religious scenes stories, Some of which represented stories from the ancient historical epics, among the most famous examples of them the image that embodies **Agha Mohammad Khan,** executing on the ceramic tiles in the cornice at the top of the old gates of **Simnan** city, painted according to the myth that the events mentioned in the Iranian literary heritage, whereas **Agha Mohammad Khan** appeared in the form of the ancient hero **Rostam**[*]that proves the desire of the early Qajar kings to revive the ancient Iranian heritage, expressed as well as the restoration of **Agha Mohammad Khan**, the ancient Iranian crown named **"Kyanied" – Pl. (1) -,** a name that mentioned in "**Shah nameh".**[25]

Fatah Ali Shah was very loyal to Iranian heritage of ancient civilization, Reflected through his eagerness to restore the glories of ancient Persians, followed the same ancient Persian traditions, Which was confirmed by the enormous and varied imagery of mural paintings, Carried out in accordance with their newly created Sasanian style, that portrayed Qajari King in the form of **Khosrow** of Persians**,** As his reign witnessed a clear return to the local Sasanian traditions and the onset of European influences which blended with updated Sasanian artistic traditions, Exemplified in the frescoes drawings engraved in the palaces constructed in **Tehran** throughout the 19th century .[26]

Finally 19th century expressed as the era of true **Renaissance** of Iranian arts, under a direct central government headed by the Qajars.

Conclusion

In conclusion, we can say that Iranian Arts in the **regeneration period**; Whether they were architectural, applied or pictorial arts, considered as a translation of a nation repeatedly much fumbled and struggled, in order to innovate a distinctive artistic style, unlike previous artistic styles; However, they did not lose Iranian identity; Where Qajar dynasty delved into the roots of ancient past to resurrect Iranian Arts, trying to revive and restore it. After a period of inactivity, Since the ends of Safavid era and even the beginnings of Qajari times, Including the Afghan invasion of Iran, And its negative effects, In turn, formed a bump stone, led to the obstruction of prosperity of Iranian art at that time, Until The Qajars came, Who On their hands Iranian arts restored life again, By disinterment in the roots of past, revival ancient patterns and styles of art, which dominated in Iran throughout Pre – Islamic ages, As; Sasanian, Allakhmied and other styles, Restored itina new more modern form, mixing with contemporary European methods and techniques, resulted in a new mix artistic style collecting in its appearance among the ancestral traditions of Iranian art and European models.

Plates



Plate (1): Wall – Painting on a rocky interface in a mountain near of Tehran in Elrai city, executing on newly Sasanian style, figures Fath Ali Shah kills a lion, Early 19th century, according to: Yassavoli, Beauties of Iran. P.48.



Plate (2): An outdoor wall – painting in Shishma ye ali, shows scenes from Fath Ali Shah's court, according to: Sims, Eleanor: Persian painting and its sources, P.25.



Plate (3): Pictorial scenes on a ceramic tile, the Upper one shows the last Persian kings "Gamsheed", where the lower figures Qajar youth meeting, preserved in Gayer Anderson museum, the tile isn't included in the museum's records.



Plate (4): Scenes inspired from "Gamsheed" court on a Qajari carpet – Iran 19th century; according to Qalihan we Qaliga ye Iran.

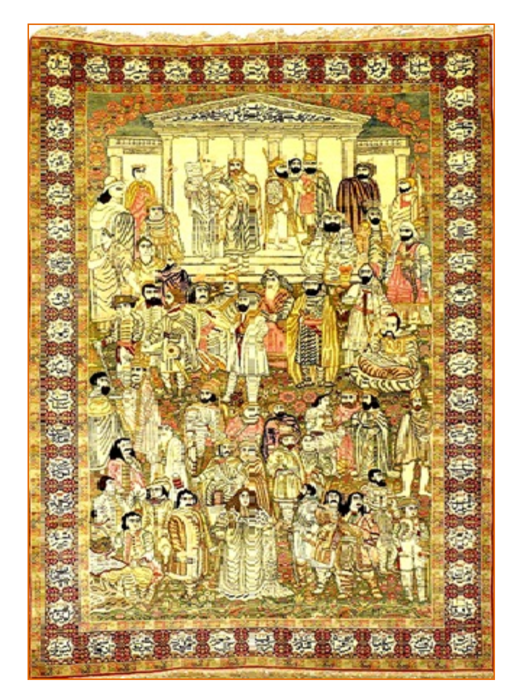


Plate (5): A Carpet decorated with pictures of more than (52) personality from past and present world leaders, squatted in front of an architectural background – early 20th century, Kashan, 246×152cm, Macey, R.E.G.: Oriental prayer rugs, P. 47.

Notes

(1) Yaseen, Eman Mohamed Elabed : Altae'therat aloropia ala alfnoon aleslamia alerania fi el'aser alqajari " = " European influences on Iranian Islamic arts during Qajar Period " (1193 – 1343 A.H / 1779 – 1925 A.D) –Unpublished Master thesis, Faculty of archaeology lib. – Cairo University, 2009, P.37.
(2) Yaseen, Eman Elabed : Alta'etherat Aloropya, P. 38.
(3) Yaseen, Eman Elabed : Alta'etherat Aloropia, P. 52.
(4) Verniot Stephan: The Nasser Khalili Collection of Islamic art. Vol. 23Occidentalism "The Islamic art in the 19th Century "–The Nour foundation in association with Azimuth editions and Oxford university Press, 1997- P. 100 & - Ibrahim, Somya Hassan : Almadrasa alqajaria fi altasweer Aleslami– an Artistic study, Master thesis, Faculty of archaeology lib. – Cairo University, 1977, P. 13.
(5) Sims, Eleanor: Persian painting and its sources. – Yale University press, 2002 - P. 153 &Diba, Layla&Ekhtiari, Maryam: Royal Persian Paintings – the Qajar epoch (1785 - 1925) – I. B. Taurus. 1999, P.8.
(6) Alzefzafy, Fawzy Abd-Elwahed: Fath Ali Shah "Almalek alsha'er", A'srho, be'ataho, she'eraho - Master thesis, Department of Oriental language, Faculty of arts lib. – Ain Shams University, 1982, Pp. 2-3.
(7) verniot; Occidentalism. P.100.
(8) Ibraheem, Somya: almadrasa alqajaria, P.18.
(9) Faramarzi, M. T. &Yassavoli, Javad: Beauties of Iran. Yassavoli publications, 3rd edition, 2004 - P. 24 & - Ganjnameh:vol.2-" mosques of Isfahan"- Cultural environment Development Company,1996 - P.68.
(10) Verniot, S.: Occidentalism - P.101.
(11) Faramarzi, M. T. &Yassavoli, Javad: Beauties of Iran. Yassavoli publications, 3rd edition, 2004 - P. 24 & - Ganjnameh: vol.2-"mosques of Isfahan"- Cultural environment Development Company, 1996 - P.68.
(12) Okane, Bernard: Studies in Persian art and architecture - the American university Cairo press, 1994 - p.138.
(13) Verniot, S. Occidentalism - P. 101.
(14) Farghaley, Ab-elhamed Mahmoud: "Alfunoon alzughrofia aleslamia fi a'asr alsafaweyeen" =" Decorative Islamic arts in the Safavid era",1st edition Madbouly Lib., Cairo, 1990, Pp. 125-126.
(15) Porter, Venetia: Islamic Tiles. - 2nd edition, British Museum press, London. 1999 - Pp.81-82.
(16) lane, Arther: Later Islamic Pottery-Faber and Faber, London,1947.P.86.
(17) Sims E. Persian Painting. P.195.
(18) Degeorge, Gerard & Porter, Yves: The art of Islamic Tile,2nd edition. Flammarion, 2002, P.81.
(19) Ibrahim, Somya: Almadrasa alqajaria, P.34.
(20) Formenton, Fabio: Oriental rugs and carpets, 2nd press, Hamlyn, London, 1974, Pp. 22 – 23.
(21) Walker, Daniels. Oriental Rugs of the Hajji babas, New York,1983, P.11.
(22) Victoria and Albert Museum: guide to the carpet. Pp. 24 – 25.
(23) Milanese, E. The Carpet. p.97.
(*) Shahnameh: One of the most famous works of the poet Firdausi, expressed as the National epicofIranandone of theclassics ofworld literature, For beingchronicling thepast ofIranin the form ofversifiedpoetry, Firdausi Excelledin the description ofIranian fieldsandnature, wars andallthe charactershe talked about, as well as it's considered as a copious record of thehabitsandtraditions ofIranian people. – An article entitled " Makanat alsh'er wa alsho'araa" = "Poetry and poetsposition ", By; Abd Elmen'em ; Nor eldeen mohamed, magalet Mokhtarat Irania = "Iranian magazine Anthology", Issue 65, December 2005, P.78.
(24) Floor w.: Art" Naqqash" .Mouqarnas. "An annual on Islamic art architecture" vol. 6- Qajar Lacquer.Leiden- El Brill- 1989,P. 139.
(25) Sims, E. Persian Painting. Pp. 81- 82.
(*) RostamFarrokhzād: was a Sasanian nobleman from the Ispahbudhan family, who was thespahbed of Atropatene and Khorasan during the reign of Borandukht and YazdegerdIII. Rostam is remembered as an historical figure, a character in the Persian epic poem Shahnameh, and as a touchstone of most Iranian nationalists. - SASANIANDYNASTY, A. Shapur Shahbazi, Encyclopædia Iranica, (20 July 2005)
(26) Sims, E. Persian Painting. P.83 &Verniot .S: Occidentalism. P .144.

إحياء التراث الإيراني

د. إيمان محمد العابد ياسين
مفتش آثار – إدارة البحث العلمي
منطقة آثار وسط القاهرة – وزارة الآثار – جمهورية مصر العربية

ملخص:
لما كانت الأمم والشعوب تتباهى فيما بينها بما قدمته للهيكل الحضاري الإنساني من موروث ثقافي أسهم بفاعلية في تكوين حضارات بعينها كالحضارات؛ المصرية، البيزنطية، الرومانية، والإيرانية، والتي تمتد جذورها إلى عصور تاريخية ضاربة في القدم، وتتميز كلُ منها عن الأخرى بملامح وسمات فنية وحضارية واضحة، وهو الدافع الذي أدى بالإيرانيين إلى الفخر بتراثهم الحضاري الذي كان سائدًا في عصور ما قبل الإسلام، ومحاولة إحيائه وبعثه من جديد، وعلى الرغم من مرور قرون طوال؛ حدث هذا عقب فترة من الإفلاس والركود الحضاري التي عانت منها إيران أواخر القرن السابع عشر الميلادي، وطوال غالبية فترة القرن الثامن عشر الميلادي. يلقي هذا المقال الضوء على مرحلة البعث للتراث الإيراني في القرن التاسع عشر الميلادي ومظاهر تلك المرحلة.



Historical Kan Periodical
ISSN: 2090 – 0449 (Online).
Peer-reviewed, open-access journal,
indexed and abstracted in several
international databases.

info@kanhistorique.org